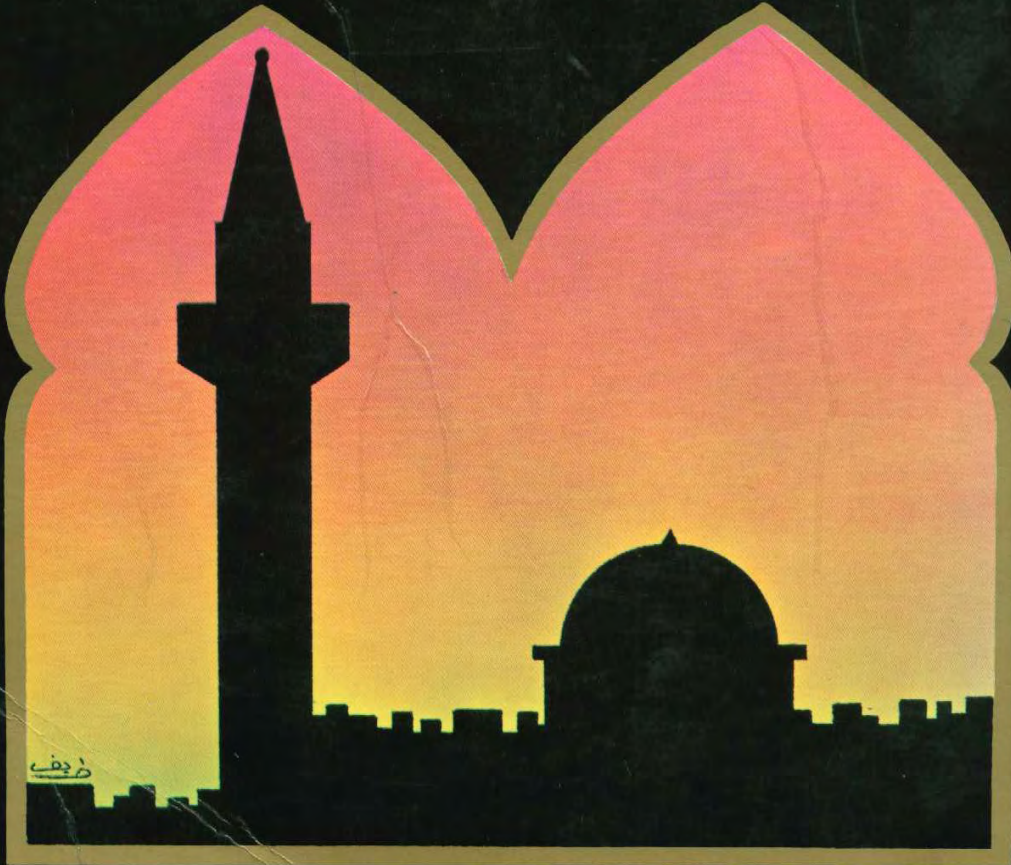


الحديث النبوي الشريف

من الوجوه البلاغية



طيف

هذا الكتاب

● تجربة جديدة في البلاغة التطبيقية . تقوم على الطريقة التقريرية التي انتهجها المعلم المعصوم - صلى الله عليه وسلم - تبيين الأسس الفنية ، والقيم الجمالية ، والرصيد النفسي ، وراء العبارة النبوية .

● شرح مقنع لقوله - عليه السلام - « أنا أفصح العرب » ولقوله : « أوتيت جوامع الكلم » يتناول الأساليب المتعددة بالبيان والمثال ، ويوضح الملامح والسمات توضيحاً يري التدفؤ وينمي ملكة التطبيق .

● أوله دفاع عن النصوص النبوية ، يؤكد الثقة في صحيح المنقول ، وفيه لمحات متعددة تصل القارئ بمن هم جهد في بلاغة الحديث ، ومعالجات شائقة لمسائل لم يسبق أن طرقها باحث .

● لم يشأ المؤلف أن يعلن عن جهده في إخراجه ، راثياً جهده - وإن كبر - أذن من جلال موضوعه واتساعه وها هو ذا كتابه بين يديك فاحكم له أو عليه

● ويسر دار إقرأ أن تعيد نشر هذا الكتاب حتى يتسنى لرجال الحديث والمشتغلين بعلوم السنة المطهرة الاستعانة به في رد شبهات المستشرقين وأمثالهم .

والله الموفق والهادي سواء الصراط . ؟

الناشر

الدكتور كمال عبدالدين
عز الدين سيد

الحديث النبوي الشريف
من الوجوه البلاغية

دار اقرأ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨٤ هـ - ١٤٠٤ م

دار اقرأ

بيروت - الرملة البيضاء - سترملكات التجاري - ص. ب. ١٣٥٨٨ - هاتف: ٨٠٦٢٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي شرفني بهذه الدراسة وشرح لها صدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى الذين يعينهم دراسة الحديث الشريف من الوجهة البلاغية أقدم عملي هذا وهو جهد المقل ، وأكتفي عن طول الحديث عن نفسي وعنه ببيان المحتوى تلوه الدراسة ، والله الولي ، ومنه السداد .

مقدمات لا بد منها

البيان النبوي - السنة - السنة والكتاب - ما تضمنه القرآن وطريق تعبيره عنه - الحاجة إلى السنة - السنة والبيان - أي الدليلين يقدم : الكتاب أم السنة - اتحاد السنة بالقرآن إجمالاً - مرادفات السنة وأنواعها - مصادر تلقي السنة - بعض الفروق بين الكتاب والحديث القدسي - وبين القرآن والحديث النبوي ، وبين الحديث القدسي والحديث النبوي . وسائل حفظ الحديث في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته - درجة الطمأنينة على النصوص - بحث ذلك بإلقاء أسئلة أربعة والجواب عنها تتخللها كلمة في الجرح والتعديل . خطوات كبيرة سبقت - (المجازات النبوية) والشريف الرضي : منهجه ومثال منه وتعريف موجز بالرضي . الزمخشري وكتابه (الفائق) في غريب الحديث - قيمة

الكتاب ومنهجه ، وأمثلة من حديثه البياني - التشبيه والتشخيص بالاستعارة -
تعريف موجز بالزخشي .

كتب الشروح للحديث : عمدة القارئ للإمام العيني على سبيل المثال قيمته
ومنهجه ومثال من حديثه ثم تعريف موجز بالمؤلف - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية
للرافعي - حديثه عن نسق البلاغة النبوية - تعريف موجز بالمؤلف .
منهجنا في سطور تتلوها فصول الدراسة :

الرسول المعلم والطريقة التقريرية - المظاهر العامة للتقرير - الجانب اللفظي -
جانب المعنى والغرض - وسائل التشويق والإيقاظ - أمثلة تطبيقية : قياس الغرابة
(استدراك لازم) - أسئلة الصحابة عن غريب الحديث - الغرابة عند البلاغيين -
وسائل التقرير الفعلية - خصائص التقرير اللفظية - أمثلة من الحديث - التكرار في
مقام الترهيب للإنذار والتهديد ، وفي مقام الترغيب للإغراء والإقدام - التكرار
لأغراض أخرى -

التأكيد اللفظي : بالأداة (إن) الناسخة مكسورة الهمزة ومفتوحاتها -
أمثلة من الحديث - التأكيد بالقسم أنواعه وأمثله من الحديث - التأكيد بالنون -
أمثله - لام التأكيد وأمثله ، اجتماع المؤكدات في الحديث الواحد على الغرض
الواحد - التوكيد بالحرف الزائد - ألا - أما - التأكيد بالقصر مع اختلاف طرقه .

التأكيد المعنوي (وهو أعم من المعروف في النحو) - التأكيد بالتشبيه والتمثيل -
تشبيه الحسي بالحسي في المفرد - تشبيه العقلي بالحسي - تشبيه الهيئات - التقرير
بالمجاز - نقل القيم النفسية - المثل في البيان النبوي - أسلوب المجاز المرسل -
الكناية - المجاز العقلي - التقرير بالفصل والوصل - المطابقة والمقابلة من أساليب
التقرير - تقرير الحجة بالمنطق الفطري - تصعيد المعاني - الثروة النفسية في البيان
الكريم - صورة النبي عليه السلام في الخطابة - صورته عند الوحي - في مواقف
أخرى من غضبه ورضاه - علاج النفس في الأدب النبوي - الوزن النفسي والوزن
الصوتي - الاقتباس من الحديث - صور من الوزن البيديعي - السجع وتوافق

الفواصل - تصوير المعنى بجرس اللفظ - ضرب آخر للتوازن الصوتي .

ألوان من بديع الحديث

أولا - عند ابن أبي الأصبع :

الاستعارة - التجنيس - الطباق - التصدير - التمام - الكناية - المبالغة - صحة
التقسيم - الإشارة - الإرداف والتتبع - التمثيل - الاحتراس - الموارد - المغايرة -
التعليل - التوشيح - التلفيف - المناسبة التامة - التذييل - الانسجام - سلامة الاختراع
من الإتيان - حسن الإتيان - الالتزام .

ثانيا - عند ابن حجة - إجمالا وإحالة على ما سلف .

ثالثا - عند العلوي .

الحديث في كتب مجاز القرآن وإعجازه - كتاب (الإشارة إلى الإيجاز) لسلطان
العلماء عز الدين بن عبد السلام - الإيجاز بحذف المضاف - التجوز بالمصدر عن
المفعول - التجوز بحرف الاستفهام عن النفي - التجوز بلفظ الخبر عن الدعاء -
التجوز بحرف النهي عن أشياء ليست مرادة بالنهي - التجوز بالمراد عن الإرادة -
التجوز بالاسم عن المسمى - بلفظ اليمين عن المحلوف عليه - بلفظ القضاء عن
المقضي به - بلفظ السبب عن المسبب - بلفظ المسبب عن السبب - من نسبة الفعل
إلى سببه - من نسبته إلى الأمر به - نسبة فعل البعض إلى الجماعة - تسمية الشيء
باسم ما يؤول إليه - من الكنايات - من مجاز التشبيه وهو باب واسع في الكتاب .

تعريف موجز بالمؤلف

ابن قتيبة : وكتابه (تأويل مشكل القرآن ومختلف الحديث) إجمالا .

الباقلاني : وإعجاز القرآن على الإجمال - خروج الكلام عن مقتضى الظاهر
وضع المضمرة موضع المظهر - وضع المظهر موضع المضمرة - الإلتفات - أسلوب
الحكيم - استعارة الأفعال عن المستقبل بالمشق - الطلب بصيغة الماضي - استعارة
المضارع خبرا وطلبا .

مقدمات لا بد منها

البيان النبوي الشريف

البيان النبوي بعض السنة الشريفة ، ولذا يلزمنا أن نوجز الكلام عن السنة وفاء بحق هذا الأصل .

السنة

السنة في اللغة : الطريقة والعادة ، وفي الاصطلاح الفقهي : النافلة من العبادات وهي عند الأصوليين ما صدر عن الرسول ﷺ - غير القرآن من فعل أو قول أو تقرير^(١) .

ومن استعمال السنة بمعنى الطريقة قوله عليه السلام : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » وقوله : « من رغب عن سنتي فليس مني » .

ومن استعمالها في الفقه بمعنى النافلة أمثال قولهم : سنة الصبح ركعتان قبله .

أما أمثالها في الاستدلال بالفعل النبوي فوضوء النبي ، وصلاته ، وحجه وعمرته ، عليه السلام ، وفي الاستدلال بالقول لفظه الكريم الذي صح عند المستدل به ، كقوله ﷺ : « من أحيا أرضا ميتة فهي له » .

وأما التقرير : فهو سكوته عليه السلام قادرا على الإنكار عند رؤيته شخصا يفعل فعلا ، فيكون ذلك الفعل جائزا ، فإن كان مما سبق تحريمه فهذا نسخ لتحريمه ، وإنما دل على الجواز لأنه لو لم يكن جائزا للزم ارتكابه عليه السلام

(١) العضد على منتهى ابن الحاجب ١١٣ والعتار على الجلال المحلي شرح جمع الجوامع ١١٦ / ٢ .

الاستفهام في البيان الكريم ومختلف أغراضه - موضع الحكم من الاستفهام - المقدم في الحديث وأنواعه - كلمة في مفهوم العدد .

استعمال الصفات ودقته - الوصف بالجملة - وبشبهها - إعطاء الصورة بالصفة - الوصف باللون - وصف المعرفة - المعرف باللام - الوصف بالوصول وباسم الإشارة . . . - وجازة المنطق النبوي - كلام القدامى والمحدثين - أمثلة تطبيقية - منطق القصة في البيان الكريم ، وهو نهاية الدراسة .

هذا . . . والله أدعو أن ينفعني بها وينفع الدارسين ببركة سيد الأولين والآخرين ، وأفصح الخلق أجمعين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

عز الدين علي السيد

جامعة الأزهر

لمحرم ، وهو تقرير على المحرم ، وهو محرم عليه ، واللازم باطل لأنه خلاف الغالب من حاله ، فإذا صحب السكوت الاستبشار كانت دلالته على جواز الفعل أوضح^(١) ومثاله : سكوته عليه السلام واستبشاره عند سماع المدائح من كعب وحسان وغيرهما ، والرد على شعراء المشركين فيما جرى من المساجلات حول الغزوات .
والسنة بهذا الاصطلاح الأصولي هي التي تتصل بحديثنا في هذا البحث .

السنة والكتاب

الكتاب مصدر كتب ، كالقرآن مصدر قرأ ، ويراد به هنا القرآن الكريم كتاب الله - عز وجل - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ومع استغناء القرآن بالاستفاضة عند أوليائه وأعدائه عن التعريف - عرفه العلماء بخواصه تعريفات منها : « هو اللفظ العربي المنزل على محمد ﷺ المنقول إلينا بالتواتر ، أنزل على الرسول ﷺ عقيدة أصح ما يعقد ، وشريعة أكمل ما شرع ، ولأجل أن يكون دليل ذاته أولا وبرهان النبوة ثانيا ضمنه من الخصائص ما يعجز المخلوق ، ومنها بيانه الباهر أمة البيان ، وأعلن هذا التحدي الصارخ في وجوههم : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ﴾^(٢) أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾^(٣) قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾^(٤) .

ما تضمنه القرآن

والقرآن كما أنه دليل الرسالة ومعجزتها ، هو منهاج الأمة لرشدها ، ومناورها هدايتها ، فهو يتضمن :

(١) العضد على منتهى ابن الحاجب ١١٨

(٢) سورة البقرة : ٢٣

(٣) سورة هود : ١٣

(٤) سورة الأسراء : ٨٨

١ - تصحيح العقيدة وما يجب أن يعتقد .

٢ - تهذيب النفوس وما يلزم أن يتبع .

٣ - التوجيه إلى أعلى ما يلتمس بالفكر الصحيح ، الذي هو أعلى هبة من خالق الأكوان ومُنزِل القرآن .

٤ - تقرير أحوال بسبيل الحكاية عن فردٍ أو أمة يلزم من العلم بها تقرر مسائل الشريعة في النفس .

٥ - الوعد والوعيد ، ليعيش المؤمن بين الرجاء والخوف في جادة الاستقامة .

٦ - الأحكام التي يلزم المؤمن أن يتخذها قانون الحياة ليعيش سعيداً بنفسه وبمجتمعه السعيد المثالي .

وهذا كله يهيء له المكان الأعلى في عالم أحلامه وآماله المرتقب : ﴿ جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾^(١) وأعلى من ذلك وأكبر ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ إلى ربها ناظرة ﴾^(٢) .

تعبيره عن ذلك

ولكي يخف حمله في القلوب ، ووعيه في الصدور ، وجمعه في الصحف ، ولكي تلزم بلفظه ومعناه الحجة إلى يوم القيامة ، فلا ينتشر ويتفرق ، فيأخذه ما أخذ الكتب الأخرى من التحريف والتبديل ، كان مجتمعا مكتنزا ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾^(٣) يجمل ويعمم ما شاء فإن أطب التمتع خصيصة الوجازة في عبارات إطنابه ، ليكون فوق ما سلف نسقا أسلوبييا

(١) سورة الكهف : ٣١

(٢) سورة القيامة : ٢٢ - ٢٣

(٣) آل عمران : ٧

يدل على نفسه بنفسه ، فلم يكن في أكثر أحكامه مفضلا بذكر الوقائع ، وتتبع الصور والجزئيات ، ولكنه يؤثر الإجمال ويكتفي في أغلب الشأن بالإشارة إلى مقاصد التشريع وقواعده الكلية ، ثم يترك للمجتهدين فرصة الفهم والاستنباط في ضوء هذه القواعد وتلك المقاصد^(١) ، وإن يكن « قد فصل في نواح لا بد فيها من التفصيل ، سموا بها عن مواطن الخلاف والجدل كما في العقائد والعبادات ، أو لأنه يريد لها مستمرة على الوضع الذي حدده ، لا بتناؤها على أسباب لا تختلف ولا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة ، وذلك كما تراه في تشريع الموارث ، ومحرمات النكاح ، وعقوبة بعض الجرائم^(٢) » .

الحاجة إلى السنة

لذلك احتاجت إشارات القرآن وإجماله إلى البيان والتفصيل ، فكانت السنة هي الشارح لما أوجز ، والمفصل لما أجمل ، والمبين لما تحت العموم من هيئات وصفات ، وفروع وجزئيات ، فلا عجب أن يقول عليه السلام : « أوتيت القرآن ومثله معه^(٣) » وهذه العبارة توحى إلينا بمتى الدقة والوضوح أن حكم حديثه حكم القرآن من جهة المصدر ، فكما أن القرآن ليس صنعه وإنما أوتيته ، فالسنة ليست ابتكاره وإنما أوتيتها ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ إن هو إلا وحي يوحى^(٤) .

السنة والبيان

السنة بيان للقرآن أو زيادة على ذلك^(٥) يقول تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾^(٦) .

(١) الإسلام عقيدة وشريعة : ٤١٦ . (٢) الإسلام عقيدة وشريعة : ٤١٦ .

(٣) تيسير الوصول : ١ / ٢٥ . (٤) النجم ٣ - ٤ .

(٥) الموافقات : ٤ / ٣ والاستقراء يدل على أن في السنة أشياء كثيرة لم ينص عليها في القرآن كتحرير الخمر والأهلية وكل ذي ناب من السباع .

(٦) النحل : ٤٤ .

والبيان هو إخراج الشيء من حيز الإشكال إلى حيز التجلي^(١) وله وجوه :

١ - موافق للقرآن فهو مؤكد لبيانه ، ومثاله قوله عليه السلام : « إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته^(٢) » وموافقته ظاهرة لقوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾^(٣) وقوله عليه السلام : « ليس المسكين الذي ترده الأكلة والأكلتان ولكن المسكين الذي ليس له غنى ويستحي ولا يسأل الناس إلحافا » وتظهر موافقته لقوله تعالى : ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾^(٤) .

٢ - مفصل لمجمل القرآن وموضح له ، والمجمل هو اللفظ الدائر بين احتمالين فصاعدا ، والمبين هو اللفظ الدال بالوضع على معنى : إما بالأصالة وإما بعد البيان^(٥) .

ومثاله قوله عليه السلام : « العجماء جبار ، والبشر جبار ، والمعدن جبار وفي الركاز الخمس^(٦) » وقوله : « فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر ، وما سقي بالنضح نصف العشر^(٧) » وأمثال هذين من بقية الأحاديث في الزكاة لتفصيلها إجمال قول الله : ﴿ وآتوا الزكاة ﴾^(٨) .

٣ - مخصص لعمومه ، والعام هو لفظ يستغرق جميع ما يصلح له بوضع واحد^(٩) والتخصيص هو صرف الدلالة أو الحكم عن بعض ما يتناول صدر الكلام^(١٠) ، فلا يدخل المخصوص تحت العام .

(١) الورقات : ١٣ .

(٢) الجامع الصغير : ١ / ٦١ .

(٣) هود : ١٠٢ .

(٤) البقرة : ٢٧٣ .

(٥) الذخيرة : ٩٩ .

(٦) ، (٧) صحيح البخاري ١ / ١٤٨ .

(٨) آخر سورة الحج .

(٩) نهاية السؤل على هامش التقرير والتجديد ١ / ٢٨٢ .

(١٠) تهذيب توضيح الأصول على التنقيح للسنة الأولى - شريعة ١٩٤٩ .

ومثاله قوله عليه السلام : « لا تبيعوا الثمرة حتى يبدو صلاحها » وحمل عمر رضي الله عنه رجلا على فرس في سبيل الله ، فأضاعه الذي كان عنده فأراد عمر أن يشتريه ، فسأل النبي ﷺ فأجابه : « لا تشتري ولا تعد في صدقتك وإن أعطاكه بدرهم ، فإن العائد في صدقته كالعائد في قيئه^(٢) » وأمثال هذين مع قوله تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾^(٣) وكقوله عليه السلام : « لا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم » فهو مخصوص لقوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ الشامل للولد الكافر (الورقات - الجلال المحلي) .

٤ - مقيد لمطلقه ، والمطلق هو ما دل على شائع في جنسه ، والمقيد ما أخرج من شياعه بوجه (العضد على منتهى ابن الحاجب ٢٨٤) أو المطلق هو اللفظ الموضوع لمعنى كلي ، والمقيد هو اللفظ أضيف إلى مسماه معنى زائد عليه (الذخيرة للصنهاجي ٥٦) وكل حقيقة إن اعتبرت من حيث هي هي فمطلقة ، وإن اعتبرت مضافة إلى غيرها فمقيدة ، (الذخيرة / ٩٧) ومثاله : ما روى في الوصية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لو غض الناس إلى الربع ، لأن رسول الله ﷺ قال : الثلث والثلث كثير أو كبير وأصله في رواية عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال : مرضت فعادني النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله : ادع الله أن لا يرزني على عقبي . قال : لعل الله يرفعك وينفع بك ناسا . قلت أريد أن أوصي ، وإنما لي ابنة . قلت : أوصى بالنصف ؟ قال : النصف كبير . قلت : فالثالث ؟ قال : الثلث والثلث كثير أو كبير ، قال فأوصى الناس بالثلث ، وجاز ذلك لهم^(٤) .

وذلك تقييد لإطلاق الوصية في قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية ﴾^(٥) .

وكقوله عليه السلام وقد سئل عن الثمر المعلق في أصله : ما أصاب بفيه من ذي حاجة غير متخذ خبنة فلا شيء عليه^(١) ، ومن خرج منه شيء فعليه غرامة مثله والعقوبة ، ومن سرق منه شيئا بعد أن يؤديه الجرين فبلغ ثمن المجن فعليه القطع ، ومن سرق دون ذلك فعليه غرامة مثله والعقوبة^(٢) ، ولا قطع في حريسة الجبل ، فإذا ضمها المراح قطعت في ثمن المجن^(٣) .

فذلك تقييد لإطلاق قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾^(٤) .

٥ - بيان ارتفاع حكمه وهو المسمى بالنسخ ، والنسخ كما يقول القاضي (منا) والغزالي : هو خطاب دل على ارتفاع حكم ثابت بخطاب متقدم على وجه لولاه لكان ثابتا مع تراخيه عنه .

قال في الذخيرة : يجوز نسخ الكتاب بالسنة المتواترة لمساواتها في الطريق العلمي عند أكثر الأصحاب ، وهو واقع كنسخ الوصية للوارث بقوله عليه السلام : « لا وصية لوارث » ونسخ الحبس في البيوت بالرجم ، وقال الشافعي رضي الله عنه : لم يقع ، لأن آية الحبس في البيوت نسخت بالجلد^(٥) .

وفي جمع الجوامع : « اختلف في أنه رفع أو بيان » أي رفع للحكم أو بيان لانتهاء أمده^(٦) ، والمراد بالرفع زوال التعلق المظنون قطعا ، أي بالنظر إلى المستقبل ، لا التعليق الواقع فيما مضى إذ هو لا يرتفع ، والمراد بانتهاء أمده أمد التعبد به .

ومع ذكر هذا الاختلاف ، فإن الرفع في ذاته كشف لأمر سريان الحكم المنسوخ ، فهو لا يخلو من البيان .

(١) أصحاب السنن بلفظ الترمذي .

(٢) زيادة في رواية أبي داود والنسائي .

(٣) زيادة في رواية النسائي والحديث كله في تيسير الوصول : ١٣ / ٢ .

(٤) المائة : ٣٨ .

(٥) الذخيرة : ١٦ / ١ .

(٦) بحاشية العطار : ٩٦ .

(١) صحيح البخاري : ١ / ١٤٩ .

(٢) صحيح البخاري : ١ / ١٥٠ .

(٣) البقرة : ٢٧٥ .

(٤) صحيح البخاري : ٤ / ٤ .

(٥) البقرة : ١٨٠ .

وفي جمع الجوامع أيضا : « والحق أنه لم يقع نسخ القرآن إلا بالمتواترة ، وقيل : وقع بالأحاد كحديث الترمذي وغيره « لا وصية لوارث » فإنه ناسخ لقوله تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين ﴾ قلنا : لا نسلم عدم تواتر ذلك ونحوه للمجتهدين الحاكمين بالنسخ لقربهم من زمان النبي ﷺ (١) .

٦ - بيان مشكله : والمشكل من أشكال الأمر إذا التبس ، ويأتي ذلك حينما يقع في الكتاب النص على طرفين مبينين فيه ، بينهما واسطة يبعد على المجتهد إلحاقها بأحدهما ، أو تكون محل تعبد ، فتجيء السنة دافعة للإشكال بإيقاع الواسطة في أحد الحكمين ، أو بأخذها من كل بطرف .

ومن أمثلة ذلك : أن الله تعالى أحل الطيبات وحرم الخبائث ، فبقيت بين الطرفين وسائط يلتبس حكمها ، كالتي ألحقت بالخبائث في نهيه ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير وعن أكل لحم الحمر الأهلية ، وكالتي ألحقت بالطيبات في إباحته عليه السلام أكل الضب والخباري والأرنب وأشباهاها .

ومنها : أن الله أحل صيد البحر فيما أحل من الطيبات ، وحرم الميتة فيما حرم من الخبائث ، فدارت ميتة البحر بين الطرفين فأشكل حكمها فقال عليه السلام : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وروى في بعض الأحاديث « أحلت لنا ميتتان : الحيتان والجراد » (٢) .

ومنه بيان ما يشكل القياس على مثاله كما ذكر الكتاب دية النفس ولم يذكر ديات الأطراف ، فبيئتها السنة ليحذى حدوها .

٧ - بيان ما نبه الكتاب إلى أصله ، ومثاله : أنه تعالى ذكر الفرائض المقدرة من النصف والربع والثلث والثلث والسدس ، ولم يذكر ميراث العصبية إلا ما أشار إليه

(١) جمع الجوامع : ١٠١ .
(٢) تنظر الموافقات : ٢٨ / ٤ وما بعدها .

قوله في الأبوين : ﴿ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ﴾ الآية . وقوله في الأولاد : ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ وقوله في آية الكلاله : ﴿ وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ﴾ ، وقوله : ﴿ وإن كانوا أخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ فاقضى أن ما بقي بعد الفرائض المذكورة للعبصبة . وبقي من ذلك ما كان من العصبية غير هؤلاء المذكورين : كالجد ، والعم ، وابن العم ، وأشباهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : أحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر » وفي رواية « فلأول عصبه ذكر » فأتى هذا على ما بقي مما يحتاج إليه ، بعدما نبه الكتاب على أصله (١) .

هذه أضرب من البيان بالسنة ، أما الزيادة على ذلك « أي ما ليس بيانا لما في الكتاب » فالمقصود بالنفي مقابلة السنة في جزئياتها بالكتاب في جزئياته على نحو ما سبق ، وإلا فالسنة كلها تدور في فلك القرآن في عمومه وموضوع المسألة ما لا يقع موقع التفسير ، ولا فيه معنى التكليف الاعتقادي أو العملي ، فذلك لا يلزم أن يكون له أصل في القرآن ، ومن ذلك في الصحيح : حديث أبرص وأقرع وأعمى ، وحديث جريج العابد ، ووفاة موسى ، وجملة من قصص الأنبياء والأمم ، ولكن فيه من الاعتبار ما في قصص القرآن ، وهو غلط ربما رجع إلى الترغيب والترهيب ، فهو خادم للأمر والنهي ، ومعدود في المكملات - لضرورة التشريع - فلم يخرج بالكلية عما سبق (٢) .

أي الدليلين يسبق ؟

ولما كان هذا موقف السنة من الكتاب ، قدمها بعضهم عليه في الاستدلال على الحكم ، ولكن الذي تسنده النصوص ، وتساعد الأدلة النظرية ، ويذهب إليه الراسخون ، أن الكتاب مقدم على السنة ، ومن النصوص حديث معاذ حين أرسله النبي عليه السلام إلى اليمن فسأله : كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ قال :

(١) الموافقات : ٢٤ .

(٢) الموافقات : ٣١ .

أقضي بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أقضي بسنة رسول الله ﷺ . قال :
فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله ؟ قال : قلت : أجتهد برأيي
ولا آلو . قال : فضرب رسول الله ﷺ صدري وقال : الحمد لله الذي وفق رسول
رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ (١) .

ومن الأدلة النظرية أن الكتاب من جهة الثبوت والنقل مقطوع به جملة
وتفصيلاً ، وليس من السنة كذلك إلا المتواتر وهو قليل ، فالقطع في السنة إنما
يصح في الجملة ، والمقطوع مقدم على المظنون .

ومنها أن السنة إما بيان للكتاب أو زيادة على ذلك ، ومنزلة البيان ثانية على
المبين ، وأما الزيادة فلا تعتبر إلا إذا لم توجد في الكتاب .

وقد رد هؤلاء شبهة الفريق الأول - الذي يقول بأن السنة قاضية على الكتاب -
بأن قضاءها عليه ليس بمعنى تقديمها وإطراحه ، بل بمعنى أن وظيفتها معه وظيفة
المفسر الشارح لمعاني أحكامه ، وهو مراد قوله تعالى : ﴿ لتبين للناس ما نزل
إليهم ﴾ شأنها في ذلك شأن تفسير المفسرين لآياته ، فلا يصح لنا أن نقول : إننا
عملنا بقول المفسر الفلاني دون أن نقول : عملنا بقول الله (٢) .

اتحاد السنة بالقرآن إجمالاً

مدح الله رسوله عليه السلام فخاطبه بقوله : ﴿ وإنك لعلي خلق عظيم ﴾
والخلق محصور في القول والفعل والتقرير والصفة ، وقد فسرت عائشة رضي الله
عنها خلق النبي عليه السلام فقالت : كان خلقه القرآن ، فدل ذلك على المطابقة
بين القرآن والسنة إجمالاً ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾
وقوله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ يعني إنزال القرآن ، فلا نقص في الكتاب من
هذه الوجهة حتى تكمله السنة ، وإنما هي تشبه مسوط الكتاب وإذا كانت كذلك

فلا غنى عنها لفهمه وإرشاد الناس إلى ما فيه ، إذ كان من لم يقف عليها يظل
ناقص الفهم له ، ولن يستطيع مهما كانت ملكته أن يصل بها إلى ما بين المعصوم ،
الذي ما ينطق عن الهوى ، والذي أمرنا الله - لعصمة عقولنا - بطاعته فكانت طاعة
الله ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ وأمرنا أن نأخذ ما آتانا وننتهي عما نهانا ،
وليس ذلك خاصاً بما أنزل الله في كتابه : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه
فانتهاوا ﴾ فمجموع القرآن والسنة هو الإسلام ، والإيمان بهما معا هو الإيمان ، ولا
عبرة بالمريين عند من يريد برد اليقين .

ولقد اتخذ الصحابة والعلماء من بعدهم هذه الآية الأخيرة عنواناً من القرآن ،
يندرج تحت إجماله ما لم يرد فيه نص يوافق كلام الرسول عليه السلام أو يفسر به ،
مما عُدَّ عند بعضهم أمراً من السنة زائداً على ما في القرآن ، ففي المروي قول
عبد الله بن مسعود : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات
للحسن المغيرات خلق الله ، قال : فبلغ ذلك امرأة من بني أسد فقالت : يا أبا
عبد الرحمن ، بلغني عنك أنك لعنت كيت وكيت . فقال : مالي لا ألعن من لعنه
رسول الله ﷺ ، وهو في كتاب الله ؟ فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين لוחي
المصحف فما وجدته ؛ فقال : لئن كنت قرأته لقد وجدته : قال الله عز وجل :
﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

وكذلك كان التابعون - رضوان الله عليهم - يصنعون حين يطالبون بالدليل من
كتاب الله على حكم أفتوا فيه بحديث رسول الله ﷺ ، فيسوقون الآية دليلاً لما
قالوا .

مرادفات السنة وأنواعها

ويرادف السنة على قول مشهور : الحديث والخبر والأثر ، وأنواعها على ما سبق
هي : القول والفعل والتقرير والصفة ، والذي يعيننا في الدراسة البيانية من هذه
الأنواع ما كان من السنة قولاً ، لأنه مناط الصفة الأسلوبية التي تتعلق بها البلاغة .

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنقل من تيسير الوصول : ٤ / ٤٨ .

(٢) الموافقات : ٤ / ٦٠٥ .

يصرح القرآن لذاته بأنه منزل من عند الله ، فمادة (نزل) تدور معه في كثير من الآيات التي تؤيد إعجازه وحججه ، وتبين وجوب الإيمان به ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ﴾ .

ويصرح الرسول عليه السلام بحديث - غير القرآن - يسنده إلى ربه عز وجل وينطق ﷺ بكلام غير القرآن وما يسنده إلى الله ، وقد سمي الحديث المسند إلى الله : الحديث القدسي ، وسمي الأخير : الحديث النبوي ، أما مصدر النوع الأول فواضح من هذه النسبة ، وأما مصدر النوع الثاني فهو إما الوحي الخالص من الله ، وإما الاجتهاد من الرسول عليه السلام ، اجتهادا معتبرا بوحى صحيح من كتاب أو سنة ، وعلى كل من التقديرين لا يمكن فيه التناقض مع القرآن ، لأنه ﷺ ﴿ ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ .

ومن الطرق التفصيلية للوحي أن يتلقى عليه السلام تلقيا مباشرا عن ربه ، كتلقي فرض الصلاة وعددها ليلة الأسراء ، إذ تدل النصوص على لزوم جبريل مكانا لم يمض بعده إلى الحضرة الإلهية ، ومنها حوار الملك ظاهرا كالذي ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمر عن أبيه : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبته إلى ركبته ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام ، فقال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . . « وفي نهاية الرواية سأل النبي عليه السلام عمر قائلا : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله

ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم (١) » ، ومنها أن يبلغه الملك عن ربه فقول عليه السلام مثلا : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم . . . (٢) » ، أو أن ينفث في روعه ويلقى في قلبه ما يراد ، وقد صرح حديثه ﷺ بذلك فقال : إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب (٣) » ، أو أن يتلقى الوحي بالرؤيا في منامه ، عن عائشة رضي الله عنها : « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم (٤) » فرؤيا الأنبياء حق ، وقد ورد في الصحيح « أن عينه تنام وقلبه لا ينام (٥) » ، ومن أمثلة الحديث بالرؤيا قوله ﷺ : « أريت ليلة القدر ثم أيقظني بعض أهلي فنسيتها ، فالتمسوها في العشر الغواير (٦) » ، وقد تكون رؤية كشف في يقظته عليه السلام ، فيرى ما ليس أمام العين من حاضر أو غيب ، ومن الأول الحديث : « صلى رسول الله ﷺ يوما ثم انصرف فقال : يا فلان ألا تحسن صلاتك . . . ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي ، فإنما يصلي لنفسه ؟ إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي » (٧) ، وهذا الإبصار كما ترى يؤكد كل التأكيد في العبارة الكريمة ، ومن الثاني قوله عليه السلام وقد رقي المنبر وأشار بيده قبل القبلة : أريت الآن منذ صليت لكم الصلاة الجنة والنار مثلتين في قبل هذا الجدار فلم أر كالיום في الخير والشر (٨) » وقوله : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أممي سيلغ ملكها ما زوى لي منها (٩) » يجمع الضربين .

(١) تيسير الوصول : ١ / ١٣ .

(٢) تيسير الوصول : ٢ / ٢٢١ .

(٣) عمدة القاري : ١ / ١٤ .

(٤) تيسير الوصول : ٢٠٤ / والحديث للشيخين .

(٥) صحيح أبي عبد الله البخاري : ٢٣٢ / ٤ ط صحيح من حديث عائشة في صفة صلواته ﷺ في رمضان :

« فقلت : يا رسول الله تنام قبل أن توتر ؟ قال : تنام عيني ولا ينام قلبي » .

(٦) تيسير الوصول : ١٦٣ / ٤ من حديث أنس عند البخاري .

(٧) الموافقات في أصول الأحكام : ١ / ٤٤ .

(٨) تيسير الوصول : ١٧ / ٢ وأخرجه أبو داود . (٩) نفس المصدر السابق .

أما أمثلة حديثه ﷺ مجتهدا اجتهادا موافقا للوحي فكثيرة منها حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : من حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى فقد ضاد الله عز وجل ومن خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله تعالى حتى ينزع ، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال ، ومن أعان على خصومة بظلم فقد باء بغضب من الله تعالى^(١) » فقد أكبر القرآن شأن الحدود ، ونهى عن أن تأخذ الرأفة قلوب المؤمنين فيها ، كما ندد بالذين يجادلون في الحق بعد ما تبين ، وتوعد الذين يرمون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، ونهى عن التعاون على الإثم والعدوان ، وجعل الذي يغري بالشر شيطانا ﷻ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﷻ ، وقدم شيطان الإنس لأن ضرره أشد ، لشدة الأُنس به ، ومظنة النصح فيه .

فروق بين الكتاب والحديث

وهنا يستوجب البحث أن نذكر ما فرق به العلماء بين القرآن والحديث القدسي ، ثم بينها وبين الحديث النبوي ، حتى يخلص النص الكريم - الذي هو مناط الدرس - بتمييزه ، والإلمام بما هو من خواصه .

١ - بين القرآن والحديث القدسي

كل منهما لفظا ومعنى من عند الله ، غير أن القرآن معجز حصل به التحدي ، وليس كذلك الحديث القدسي ، وقد كان للقرآن كتاب يكتبونه ويرتّبونه ، بتوقيف من الله ، ونقل إلينا بالتواتر حفظا وكتابة ، وليس كذلك الحديث القدسي .

٢ - بين القرآن والحديث النبوي

مع صفات القرآن السابقة تلقاه النبي بالوحي الجلي - أي مباشرة - عن جبريل

(١) تيسير الوصول : ٢١٠ / ٤ عن ثوبان عند مسلم وأبي داود والترمذي .

عليهما السلام ﷺ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﷻ^(١) فكان يأتيه على صور مختلفة ، وبعلامات متميزة . أخبر عمر رضي الله عنه « أنه إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ كان يسمع عند وجهه كدوي النحل^(٢) ، كما جاء أنه كان يأتيه مثل صلصلة الجرس ، فيغيب في حال التلقي ، ويتغير لونه ويتصبب عرقه . . . » .

أما الحديث النبوي فلفظه لفظ الرسول ، ومعناه من عند الله ، ولذلك نسب الرسول الفصاحة إليه فقال : « أنا أفصح العرب ، بيد أي من قريش ، ونشأت في بني سعد بن بكر^(٣) » وتعليقه عليه السلام بأسباب تقويم اللسان إلى أعلى درجة عرفها العرب ، يدل على أن لفظ الحديث من لدنه ، وأما قوله عليه السلام : أوتيت جوامع الكلم^(٤) ، فيحمل على ما آتاه الله من حسان المعاني وكبارها ، تجتمع له تحت لفظة الموجز .

ولم يكن للحديث كتاب يفرض عليهم الكتابة ، بل تردد أمر كتابته بين الإباحة والحظر ، كما أنه عليه السلام - وإن أثبت لنفسه هذه الدرجة العليا في الفصاحة بصيغة التفضيل المطلقة - لم يتحدّ بمنطقه ، ولم يدع الإعجاز به ، ولحكمة الله العلية في حفظ القرآن الذي تكفل له به تم جمعه وعرضه قبل انتقاله عليه السلام إلى الرفيق الأعلى ، وأجمع المؤمنون عليه ، دون الحديث الشريف حتى تطمئن الأمة على كتابها ، وتلزم به الحجة إلى يوم القيامة ، فكان أن تأخر تدوين السنة إلى عهد التدوين ، حتى دار حولها من الحوار ما دار ، وبُذِلَ من العرق والجهد الحميد ما بُذِلَ ، إلى أن ماز الله صحيحها ، وجمع منتشرها ، وأمن المسلمون عليها ، والله غالب على أمره .

(١) الشعراء : ١٩٣ .

(٢) تيسير الوصول : ٢٠٦ / ٤ .

(٣) مقدمة الفائق في غريب الحديث .

(٤) تيسير الوصول : ١٣٢ / ٤ من مسلم وأبو داود .

أما الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي فيظهر مما سبق ، فهما يشتركان في أنه لا تحديّ بأحدهما ولا إعجاز ، ويفترقان في أن لفظ القدسي من عند الله ، ولفظ النبوي لفظ الرسول عليه السلام .

ومثال الحديث القدسي :

- ١ - عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « الكبرياء ردائي ، والعز إزاري ، فمن نازعني شيئا منها عذبتة » .
- ٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل : « من أذهبت حبيبته فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة » (١) .

وسائل حفظ الحديث

١ - الكتابة بالتلقي عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتلك أوثق الوسائل . أخرج أبو داود عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : « كنت أكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ ، فنهتني قريش وقالوا : تكتب كل شيء ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الرضا والغضب ؟ ، فأمسكت عن الكتاب حتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فأومأ بإصبعه إلي فيه وقال : اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق (٢) » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : شكا رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني لأسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه ؟ فقال ﷺ « استعن بيمينك » وأومأ بيده إلى الخبط (٣) .

وعنه : « خطب رسول الله ﷺ فذكر قصة في الحديث فقال أبو شاه : اكتبوا لي يا رسول الله . فقال : اكتبوا لأبي شاه (١) .

هذه أسبق وسيلة لتدوين الحديث ، غير أن الرسول عليه السلام دعت شدة الحرص على تميز القرآن وخوف التباسه بالسنة - فيما يلي - إلى أن يقف انطلاق تدوين الحديث في زمنه اكتفاء بحفظه ، نقل عنه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : « لا تكتبوا عني شيئا غير القرآن ، ومن كتب شيئا غير القرآن فليمحاه (٢) » .

وتردد الكتابة بين الإذن والمنع دعا العلماء إلى النظر ، حتى عقب الزبيدي في فصل كتابة الحديث بقوله : « والإذن في الكتابة ناسخ للمنع منه بإجماع الأمة على جوازه ، ولا يجتمعون إلا على أمر صحيح ، وقد قيل : إنما نهى أن يكتب الحديث مع القرآن في صفحة واحدة فيختلط به فيشتهبه (٣) » .

٢ - الكتابة بالتلقي عن الحفظ ، وهذه هي الوسيلة التي تم بها التدوين الكامل فيما بعد .

٣ - الحفظ في الصدور ، وكان هذا هو الشأن الغالب في صحابته عليه السلام ، لعدم تمكنهم من الكتابة ، واعتمادهم على قوة الحافظة ، وتذاكرهم دائما ما سمعوه من إمامهم ومعلمهم ، وحرصهم أن تشملهم دعوته : « نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع » (٤) .

ومن النصوص الدالة على كثرة حفظهم ، وحرصهم على ما يستمعون من نبيهم ما أخرجه الترمذي عن يزيد بن سلمة : « قلت : يا رسول الله إني سمعت منك حديثاً كثيراً أخاف أن ينسيني أوله آخره ، فحدثني بكلمة تكون جماعاً فقال :

(١) تيسير الوصول : ٣ / ١٥٦ .

(٢) نفس المصدر ٣ / ١٥٦ واللفظ لمسلم .

(٣) تيسير الوصول : ٣ / ١٥٦ .

(٤) نفس المصدر ٣ / ١٥٤ للترمذي .

(١) تيسير الوصول : ٣ / ٣١٧ وأخرجه الترمذي .

(٢) تيسير الوصول : ٣ / ١٥٥ .

(٣) نفس المصدر : ٣ / ١٥٥ .

اتق الله فيما تعلم^(١) . وما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة : « حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين ، فأما أحدهما فبثثته فيكم ، وأما الآخر فلو حدثتكم به لقطعتم هذا البلعوم^(٢) » .

بعد وفاة النبي

تردد عمر بعد وفاة الرسول عليه السلام في جمع الحديث خوف تفرقه وانتشاره ونسيانه ، فعرض ذلك على صحبه حيناً ، ثم أشفق منه آخر ، فعاد يقول : إني كنت قد ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً^(٣) .

وهكذا كان الأمر إلى زمن أمير المؤمنين (عمر بن عبد العزيز) على رأس المائة الأولى من الهجرة ، إذ خاف دروس العلم وذهاب العلماء ، فكتب إلى (أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم) : انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه : فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولا تقبل إلا حديث رسول الله ﷺ ، وليفشوا العلم ، وليجلسوا له حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا - أخرجه البخاري ترجمة ، كما كتب إلى الأفاق : « انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ ، فاجمعوه^(٤) » .

وقد أعجلت المنية أمير المؤمنين أن يرى الثمرة يانعة ، ومضى نصف قرن لا يرى المسلمون فيه صحيحاً جامعاً ولا مسنداً ، إلى أن هبت ريح النهضة ، وكثرت الحوافز من آل العباس للتأليف في شتى العلوم ، فبدأ الحديث يجمع ويصفي ، ليكون المصدر الثاني بعد الكتاب ، يجد فيه الفقهاء والمتكلمون السند والهادي ، فظهرت الكتب الجامعة على اختلاف طرقها وترتيبها ، واطردت حركة الجمع

وتحيص ما يجمع ، حتى رأينا كتباً أسبقها شهرة موطأ الإمام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هجرية رضي الله عنه ، وأهمها الكتب الستة :

١ - الجامع الصحيح للبخاري . ٢ - صحيح مسلم .

٣ - سنن ابن ماجه . ٤ - سنن أبي داود .

٥ - جامع الترمذي . ٦ - سنن النسائي .

درجة الطمأنينة على النصوص

لما كانت دراستنا متعلقة بالبيان النبوي الكريم ، ومتخصصة في القيمة الفنية لتعبيره ، والخصائص التي انفرد بها عن بيان فصحاء العرب حتى قال عليه السلام : « أنا أفصح العرب » كان لا بد من الطمأنينة على النصوص التي هي مناط البحث ومحل الخصائص ، ولهذا نطرح تلك الأسئلة ونجيب عنها توصلاً إلى النتيجة :

١ - أي كتب الحديث نعتمد في هذه الدراسة ؟

٢ - هل ما تحمل هذه الكتب موثوق من صدق نسبته لفظاً إلى رسول الله ﷺ ؟

٣ - أما جواز العلماء رواية الحديث بالمعنى ؟

٤ - أما اختلفت الروايات في الحديث الواحد ؟

السؤال الأول

وفيه نقول : سيكون جل اهتمامنا بدواوين السنة الشريفة ، التي استفاد إجماع أهل الحديث على صحتها ، وهي صحيحا الإمامين البخاري ومسلم ، وسنن أبي داود والترمذي والنسائي ، ومعها مسند الإمام أحمد - رضي الله عنهم أجمعين .

(١) ٢ ، ١ / تيسير الوصول : ١٥٤ / ٣ .

(٢) تقييد العلم : ٢٩ وما بعدها و ٦٥ وما بعدها .

(٤) فجر الإسلام : ٢٤٩ وما بعدها وضحى الإسلام : ١٠٦ وما بعدها ، وتيسير الوصول : ١٥٧ / ٣ .

أما السؤال الثاني فتجيب عنه أمور

١ - تحري هؤلاء الأئمة - رضي الله عنهم - طرق الحديث ، بتمحيص الرجال الموصولين إلى المتن ، واشتراطهم لصحة الحديث وروايته شروطاً تملأ القلب رضا ، ولم يضطلع أحدهم بهذه الأمانة إلا وهو أهل لها ، مقدر تبعثها ولناخذ لذلك البخاري مثلاً ، فالبخاري دارس واع محيط ، له كتب تدل على حصافته ، وتطمئن إلى اختياره ، منها مؤلفاته الثلاثة : التاريخ الكبير ، والتاريخ الأوسط والتاريخ الصغير ، وحسبه أنه ألف التاريخ عند قبر النبي وفي الليالي المقمرة ، تلك الكتب وغيرها ثمرة الكد والرحلة إلى الأمصار ومختلف الأقطار ، يطلب الحديث والمحدثين ، والحفاظ الثقات ، مع ملكة الحفظ التي صحبتته من الصغر ، والتي مكنته وهو ابن إحدى عشرة سنة من تصحيح السند لشيخه الداخلي ، ولقد خرج كتاب البخاري من زهاء ستمائة ألف حديث ، ذكر الحافظ ابن حجر أن عدده بالمكرر سبع وتسعون وثلاثمائة وسبعة آلاف سوى المعلقات والمتابعات والموقوفات ، وبغير المكرر من المتون الموصولة حديثان وستمائة وألفان ، ما وضع حديثاً فيه إلا صلي ركعتين ، وقد استغرق في تأليفه ستة عشر عاماً ، ولما قدم بغداد اجتمع عليه أهل الحديث ليختبروه ، فقبلوا متون مائة حديث وأسانيدها ، وفرقوها على عشرة منهم ، ليلقي كل واحد عليه عشرة منها بتلك الطريقة الخاطئة ، فاستمع إليهم جميعاً ، وأنكر معرفة شيء منها ، فلما فرغوا عاد إليهم على الترتيب ، يصحح الأوضاع التي قلبوها حافظاً ثبتاً حتى بهرهم^(١) ، وإنما يدل هذا على أمانته وأناته ، ودقته وثقته بحفظه ، حتى يقول الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام : وأما جامع البخاري الصحيح ، فأجل كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله تعالى ، قال : فلورحل الشخص لسماعه من ألف فرسخ لما ضاعت رحلته ، وقال الإمام أحمد : ما أخرجت خراسان مثله ، وقال الترمذي : لم أر بالعراق ولا بخراسان في معنى

(١) جامع المنقول : ٨٨ / ١ وقيل مثل هذا عند دخوله سمرقند .

العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من البخاري ، وقال ابن خزيمة : ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخاري ، والأقوال فيه أجل من الحصر ، يدل أدناها ثناء عليه على ورع وحفظ وثقابة فكر ، وطول صبر على الأرتياد والغوص ، وحسبه أن يؤلف مثل : « قضايا الصحابة والتابعين » في الثامنة عشرة من عمره المبارك ، ثم في كتبه الأخرى غير ما ذكر برهان أي برهان على بركته ومديد الثقة فيه .

بين الحاكم طريق اختيار البخاري - بعد دراسة فاحصة مستوعبة - فوجد حديثه يرويه الصحابي المشهور بالرواية عن رسول الله ﷺ وله روايان ثقتان ، ثم يرويه عنه التابعي المشهور بالرواية عن الصحابة ، وله روايان ثقتان ، ثم يرويه عنه من أتباع التابعين الحافظ المتقن المشهور ، وله رواة من الطبقة الرابعة ، ثم يكون شيخ البخاري حافظاً متقناً مشهوراً بالعدالة في روايته ، (وهذا الشرط نفسه شرط مسلم) .

فإذا رجعنا إلى شيوخه وشيوخهم ، إلى الأصل الفيض ، وجدنا في أساتذته أصحاب المجد الأثيل من العلماء الناقدین أمثال (إسحاق بن راهويه) الذي كان سبباً في جمع البخاري صحيحه ، وهو من أعلام الفقه والحديث الذين ارتحلوا كثيراً في طلب السنة ، وقد استمع من كبار رجالها ، كجرير بن عبد الحميد الرازي ، وإسماعيل بن علي ، وسفيان بن عيينة ، ووکیع بن الجراح والنضر بن شميل ، وغيرهم ، وكان إسحاق شيخاً كذلك لمسلم ومحمد بن نصر المروزي والترمذي وغيرهم ، وكان قريناً للإمام أحمد ، ومضرب المثل في الحفظ والإتقان قال فيه أبو داود الخفاف : أملي علينا ابن راهوية أحد عشر ألف حديث من حفظه ، ثم قرأها علينا فما زاد حرفاً ولا نقص حرفاً ، وكان أبو حاتم الرازي يعجب من إتقانه وسلامته من الغلط مع ما رزق من الحفظ^(١) .

(١) تاريخ بغداد : ٢٤٥ / ٦ وما بعدها ، وتذكرة الحفاظ : ١٢٢ : ٢ وتهذيب الكمال : ٤٧ / ٩ ، ومقدمة فتح الباري ج ١ ، ومقدمة عمدة القاري ج ١ ، والجهاد العالية (أعلام الفكر) ٤١ ، والأعلام ٨٦٤ / ٣ ، وجامع المنقول والمعقول : ٧٧ وغيرها .

٢ - النهضة التحقيقية الكبرى ، التي أنتجت هذه الصحاح بشروطها التي اطمأن إليها المؤمنون ، والتي أصبح عنوانها تفرع أصول الحديث ، ووضع الأسس السليمة الفاحصة ، من رجاله الذين وهبوا حياتهم لحمايته وتمييزه وطرده الدخيل عنه ، ورعا خالصا ، وزيادا عن العقيدة حميدا ، فبينوا متواتره وآحاده ، ومشهوره ، وعزیزه ، وغريبه ، ومقبوله ، ومردوده ، وشاذه ، ومنكره ، ومحكمه ، ومختلفه ، ومعلقه ، ومرسله ، ومنقطعه ، ومعضله .

وميزوا الموضوع المفترى والمتروك المنكر ، وبحثوا علله ، وسموا وكنوا ، ولقبوا رجاله ، وعدلوا وجرحوا ، وأرخوا ونقدوا ، فكان من ذلك كله المؤلفات الضخام ، التي تقف الدارس على أن ما حكموا بصحته وحسنه إنما هو لب اللباب من حديث الرسول عليه السلام .

الجرح والتعديل

العدالة استقامة السيرة والدين ، ترجع إلى هيئة راسخة في النفس ، تحمل على ملازمة التقوى والمروءة جميعا ، حتى تحصل الثقة للنفس بصدق صاحبها ، وقد اشترطوا لها التوقي من بعض المباحات القادحة في المروءة نحو الأكل والشرب في السوق .

قالوا : ولا تقبل رواية من عرف باللهو والهزل في أمر الحديث ، أو بالتساهل فيه ، أو بكثرة السهو فيه ، إذ تبطل الثقة بجميع ذلك ، وجعلوا مما يحتاج إليه طالب الحديث أن يقتدي بعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقد كان إذا فاته حديث لم يسمعه من رسول الله ﷺ ، ثم سمعه من غيره ، حلف الذي يحدثه على صحته ، وعلى ذلك كان أكثر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين رحمة الله عليهم^(١) .

وبحث حال الراوي لتعديله أو تجريجه أو تجهيله - وإن دعا إلى التجسس على

المسلم - فيه درء المفسدة المقدم على جلب المصلحة ، وقد عدل القرآن وجرح ، وصنع الرسول عليه السلام صنع القرآن ، فمدح وذم .

والذين تكلموا في هذا الفن ثقات ورعون ، شديدو التحري ، بعيدون عن التساهل والمجازفة خوف تجريح البريء ، أو تعديل المجروح ، لأنها شهادة يعرفون حقها ضراً ونفعاً ، وعلى ذلك يشترط في المعدل والجرح : العدالة ، والتيقظ ، والمعرفة التامة بأسباب العدالة والجرح ، وبحقيقة الضبط ، مع حسن تطبيق ذلك على المروءة ، وتام الدراية بالرواة وبمروياتهم خبرة وتمرسا ، ومقارنة واستيعابا ، مع بيان سبب الجرح ، أو صدوره من خبير عارف ، أو ممن عرف من مذهبه أنه لا يجرح إلا بقادح بين^(٢) .

وقد جعلوا للعدالة مراتب : أعلاها التفوق فيها وفي الضبط إلى أعلى درجات الصحة ، كما في رواية الصحيحين ، ولا سيما المتفق عليه ، وصيغ التعديل في هذه الحالة هي (لا أحد أثبت من فلان ، فلان يسأل عنه ، فلان إليه المنتهى في التثبت) ويلها التفوق في العدالة وفي الضبط ، وتساوي الأولى في أعلى الدرجات من الصحة إلا أنها يقدم عليها مرويات الأولى عند التعارض ومثاله أيضا رواية الصحيحين ويقال فيهم : (فلان ثقة ثقة - فلان ثقة ثبت - فلان حجة متقن) وبلي ذلك أولى مراحل الكمال في العدالة والضبط ، ويقال فيهم (فلان حجة - فلان متقن - فلان ثقة) وأمثلتها في الصحيحين وصحيح ابن خزيمة وصحيح ابن حبان ، ثم تأخذ الألقاب صوراً أدنى ، مثل (فلان صدوق - فلان لا بأس به - فلان مأمون) .

وأدنى درجات التعديل أن يوصفوا بمثل (فلان مقبول - فلان صويلح - فلان أرجو أن لا بأس به)^(٣) .

أما مراتب الجرح : فهي منازل الرواة الذين جهلت عدالتهم ، أو اختلفت

(١) ضوء القمر على نخبة الفكر ٧٩ وما بعدها .

(٢) تقريب النووي : ١٤ وضوء القمر ٨٦ وما بعدها .

(١) جامع المنقول والمعقول : ٣٣ / ١ وما بعدها .

بارتكاب مفسق أو خاتم للمروءة ، وكذلك الرواة الذين لم يعلم ضبطهم ، أو ساء حظهم ، أو فحش غلطهم .

وأعلى هذه الدرجات وصف الراوي بمثل : (فلان لين سيء الحفظ فلان مجهول الحال - فلان فيه مقال) .

وأحاديثهم لا تصلح للاحتجاج ، وإنما تصلح للاعتبار بعد النظر والانتقاء ، ومروءتهم حسن لغيره ، إن اعتضد بأقوى أو بمماثل أو بأقل وإلا فهو ضعيف .

وأنزل من هذا أن يوصف الراوي بمثل (فلان ضعيف - فلان واه - فلان مضطرب الحديث - فلان له مناكير) .

وقد تتدلى المنزلة إلى أن يقال : (فلان متهم بالكذب - فلان متروك فلان غير ثقة . . .) .

والصحيح أن الجرح والتعديل يثبتان بواحد ، وقيل لا بد من اثنين ، وإذا اجتمع فيه جرح وتعديل فالجرح مقدم ، وقيل : إن زاد المعدلون قدم التعديل ومن الخيطة المحمودة قول الصيرفي : كل من أسقطنا خبره بكذب لم نعد لقبوله بتوبة ، ومن ضعفناه لم نقوه بعد ، وقول السمعاني : من كذب في خبر واحد وجب إسقاط ما تقدم من حديثه

كما حكموا بعدم قبول الرواية ممن عرف بالتساهل في سماعه أو إسماعه كمن لا يبالي بالنوم في السماع ، أو يحدث لا من أصل مصحح ، أو عرف بقبول التلقين في الحديث ، أو كثرة السهو في روايته إذا لم يحدث من أصل أو كثرت في حديثه الشواذ أو المناكير .

ولا شك أن في هذا كله طمأنينة على النصوص التي يرويها المعدلون .

٣ - ورع الحفاظ وتحريم لفظ الرسول ﷺ - سواء كانوا من الصحابة أو من غيرهم - رهبة من الكذب على نبيهم قصداً أو مساهلة وقد تهدد الكاذبين عليه

بتبؤئهم مقعداً من النار^(١) ، ورجاء أن ينضر الله وجوههم ببركة دعائه عليه السلام في قوله : ، نضر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع » حتى تخرج أكثر الصحابة والتابعين من التحديث تغليبا لخوفهم^(٢) وقد روي عن شعبة بن الحجاج قوله : التذليل في الحديث أشد من الزنا ، ولأن أسقط من السماء إلى الأرض أحب إلى من أن أدلس^(٣) ، وقد عرفوا أن نبيهم عليه السلام كان يجب من أصحابه حفظ النص ، ويؤخذ على مخالفته ، كما يظهر من عبارة التشبيه في حديث التفسير السابق : (كما سمعه) وكما جاء في حديث البراء بن عازب قال : قال لي النبي ﷺ . « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك ، وأجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيك الذي أرسلت . فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به » قال : فرددتها على النبي ﷺ ، فلما بلغت : اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت » قلت ورسولك قال : « لا . ونبيك الذي أرسلت » وفي رواية : فقلت كما علمني غير أني قلت ورسولك ، فقال بيده في صدري و (نبيك) . . . (٤) .

٤ - إثبات الراوي شكه بالترديد أو كلمة لا أدري دون حرج تحريماً للصدق في اللفظ : عن أسهاء قالت : « أتيت عائشة وهي تصلي فقلت : ما شأن الناس ؟ فأشارت إلى السماء فإذا الناس قيام . فقالت : سبحان الله قلت : آية : فأشارت برأسها أن نعم ، فقامت حتى علاني الغشى فجعلت أصب على رأسي الماء ، فحمد الله عز وجل النبي ﷺ ، وأثنى عليه ثم قال : ما من شيء لم أكن

(١) عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » رواه البخاري والترمذي (تيسير الوصول : ١٥٥ / ٣) .
(٢) فتح الباري ١ / ٢٠٩ .
(٣) تذكرة الحفاظ ٥ ب .
(٤) فتح الباري ١ / ٢٧١ والكفاية : ١٧٥ .

أرسته إلا رأيت في مقامي ، حتى الجنة والنار فأوحى إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريباً - لا أدري بأيهما قالت أسماء - من فتنة المسيح الدجال ، يقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو الموفق - لا أدري أيهما قالت أسماء فيقول : هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى ، فأجبنا واتبعنا . هو محمد ثلاثاً . فيقال : نم صالحاً ، قد علمنا أن كنت لموقنا به ، وأما المنافق أو المرتاب - لا أدري أي ذلك قالت أسماء - فيقول : لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته^(١) .

وعن أبي حجرة قال : كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس فقال : إن وفد عبد القيس أتوا النبي ﷺ فقال : من الوفد ؟ أو من القوم ؟ قالوا ربعة . . . ونهاهم عن الدباء والحتم والمزفت . قال شعبة : ربما قال : النقيير وربما قال : المقير . قال احفظوه وأخبروا من وراءكم^(٢) وهذا الحديث فيه إثبات الراوي شكه ، وفيه أمر النبي بالحفظ والبلاغ .

٥ - عدم التحرج من ذكر النسيان : عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : قلنا لزيد بن أرقم حدثنا عن رسول الله ﷺ قال : كبرنا ونسينا والحديث عن رسول الله ﷺ شديد^(٣) . وعن الأسود قال : قال لي ابن الزبير : كانت عائشة تسر إليك كثيراً فما حدثتك عن الكعبة ؟ قلت : لقد حدثتني حديثاً كثيراً نسيت بعضه وأنا أذكر بعضه ، قال (أي ابن الزبير) ما نسيت ذكرك . قلت : قالت لي : قال النبي ﷺ : يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم - قال ابن الزبير : بكفر (أي أذكره ابن الزبير بقولها : « بكفر » كان الأسود نسيها) لتقضت الكعبة فجعلت لها بابين : بابا يدخل الناس وبابا يخرجون^(٤) .

٦ - التشكك فيها يأخذون ويروون : قيل لمسعر بن كدام : ما أكثر تشككك قال : تلك محاماة عن اليقين^(٥) .

٧ - تأكيد المحافظ حفظه ليثق السامع : عن أبي شريح أنه قال لعمر بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قال به النبي ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ووعاه قلبي ، وأبصرته عيناي حين تكلم به : حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ، ولم يجرمها الناس ، فلا يجزى لأمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، ولا يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، ثم عادت حرمانها اليوم كحرمانها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب^(١) .

٨ - التنزه عن الجزم ورعا : عن محمد بن سيرين عن ابن أبي بكرة عن أبي بكرة ذكر النبي ﷺ قال « فإن دماءكم وأموالكم » قال محمد : وأحسبه قال : وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا . . . قال ابن حجر : (قوله : أحسب) كأنه شك في قوله « وأعراضكم » أقالها ابن أبي بكرة أم لا ، وقد تقدم في أوائل العلم الجزم بها^(٢) .

٩ - عدم التحرج من إظهار التحرج بمظنة الخطأ : قال أنس رضي الله عنه : لولا أني أخشى أن أخطيء أحدثكم بأشياء سمعتها من رسول الله ﷺ^(٣) وقد كان رضي الله عنه إذا حدث عن النبي عليه السلام ففرغ منه قال : أو كما قال رسول الله ﷺ^(٤) .

١٠ - شدة الحرص على ترتيب الألفاظ النبوية والتنبيه إليها : روى ابن عمر حديث « بني الإسلام على خمس » فأعاده رجل فقال له ابن عمر : « لا » اجعل صيام رمضان آخرهن كما سمعت من في رسول الله ﷺ^(٥) .

(١) فتح الباري : ١ / ١٩١ وجمع الفوائد : ٢٨٧ / ١ برقم ٢٠٥٦ .

(٢) فتح الباري : ١ / ١٩٤ .

(٣) فتح الباري : ١ / ٢٣٥ .

(٤) فتح الباري : ١ / ٢٢٥ .

(٥) المحدث الفاصل : ١٣٢ ب .

(١) فتح الباري : ١ / ٢٠٨ .

(٢) فتح الباري : ١ / ٢٠٩ .

(٣) سنن الدارمي : ١ / ٧٧ .

(٤) سنن الدارمي : ١ / ٤ .

(٥) الكفاية : ١٧٦ .

١١ - شدة التحري للكلمة الواحدة من جهة التحريف والتصريف والزيادة والنقص ، روى سفيان عن الزهري أنه سمع أنس بن مالك يقول : نهي رسول الله ﷺ عن الدباء والمزفت أن يتبذ فيه ، فقيل لسفيان : أن يتبذ فيه . فقال : لا . هكذا قاله لنا الزهري : يتبذ فيه^(١) . وقد ألف أبو سليمان الخطابي كتابه : (إصلاح أخطاء المحدثين) فذكر فيه نحو خمسين ومائة من الأحاديث يرشد فيها إلى اللحن أو التحريف ، ومن أمثلتها قوله عليه السلام : « خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » قال : أصحاب الحديث يقولون : « خلوف » بفتح الخاء وإنما هو خلوف مضموم الخاء مصدر خلف فمه يخلف إذا تغير

ومنها قوله ﷺ : « قولوا بقولكم ولا يستجرينكم الشيطان » قال : معناه لا يتخذنكم الشيطان جرياً ، والجري الأجير والوكيل ، ويروى لا يستحرنكم الشيطان » رواه قطرب : ويستحرنكم وفسره من الحيرة وهو غير محفوظ ، والصواب لا يستجرينكم من الجري^(٢) ، وشارحو الصحاح ينيهون دائماً إلى الروايات التي اختلف فيها الحرف ويردونها إلى نصابها .

١٢ - شدة حرص المحدثين على ما يكتب التلاميذ خوفاً من الخطأ الخطي الذي يتسبب عنه اتهام المحدث : روى الرامهرمزي بسنده عن طلحة بن عبد الملك قال : أتيت القاسم وسألته عن أشياء فقلت : أكتبها ؟ قال : نعم . فقال لابنه : انظر في كتابه لا يزيد شيئاً ، قلت : يا أبا محمد ، إني لو أردت أن أكذب لم أتك ، قال : إني لم أرد ، وإنما أردت أن أسقطت شيئاً يعدله لك^(٣) .

ومن المحدثين من كان لا يحدث إلا الكاتبين حتى يأمن نسيان الحافظ وتبديله ، روى ذلك الخطيب عن ابن عيينة عن محمد بن عمرو قال : لا والله لا أحدثكم حتى تكتبوه . إني أخاف أن تغلطوا علي^(٤) .

(١) الكفاية : ١٧٨ .

(٢) إصلاح أخطاء المحدثين : ٣٤ .

(٣) المحدث الفاضل : ١٢٨ - ١ .

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١٠١ - ١ .

١٣ - كتابة الحديث بالخط منذ نشأته : وهذا لا يتداخل النفس فيه الشك ، وهو جزء ليس قليلاً كما سبقت إليه الإشارة . ولكتابة الحديث آداب جمعة ينبه إليها الأساتذة . ليؤمن الضبط وتضمن الدقة ، ومن هذا ما حرره النووي في تقريره ، ومنه على سبيل المثال قوله : « ينبغي أن يكون اعتناؤه بضبط المتبس من الأسماء أكثر ، ويستحب ضبط المشكل في نفس الكتاب وكتبه مضبوطاً واضحاً في الحاشية قبائه ، ويستحب تحقيق الخط دون مشقة وتعليقه ، ويكره تدقيقه إلا من عذر : كضيق السورق ، وتخفيضه للحمل في السفر ونحوه ، وينبغي ضبط الحروف المهملة . . . ولا ينبغي أن يصطلح مع نفسه برمزا لا يعرفه الناس ، فإن فعل فليبين في أول الكتاب أو آخره مراده ، وينبغي أن يعتني بضبط مختلف الروايات وتمييزها ، فيجعل كتابه على رواية ، ثم ما كان في غيرها من زيادة الحقاها في الحاشية ، أو نقص أعلم عليه ، أو خلاف كتبه معينا في كل ذلك من رواه بتمام اسمه ، لا رامزا إلا أن يبين أول الكتاب أو آخره^(١) .

وقوله : « عليه مقابلة كتابه بأصل شيخه وإن كان إجازة ، وأفضلها أن يمسك هو وشيخه كتابيهما حال التسميع ، ويستحب أن ينظر معه من لا نسخة معه ، لا سيما إن أراد النقل من نسخته ، وقال يحيى بن معين : لا يجوز أن يروى من غير أصل الشيخ إلا أن ينظر فيه حال السماع ، والصواب الذي قاله الجماهير إنه لا يشترط نظره ، ولا مقابله بنفسه ، بل يكفي مقابلة ثقة أي وقت كان^(١) .

١٤ - الرحلة الطويلة الشاقة في طلب حديث أو تصحيحه : حدث عطاء بن أبي رباح قال : خرج أبو أيوب الأنصاري إلى عقبة بن عامر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ ولم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيره وغير عقبة ، فلما قدم إلى منزل مسلمة بن مخلد الأنصاري - وهو أمير مصر - فأخبره ففعل عليه ، خرج إليه يعانقه . ثم قال له : ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ فقال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ ولم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيري وغير عقبة ،

(١) التقريب : ٢١ و ٢٢ .

العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع^(١)» وأمثال ذلك من البواعث . قال الشعبي : لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن لسمع كلمة حكمة ما رأيت سفره ضاع^(٢) .

السؤال الثالث

أما السؤال الثالث : فنجيب بالتسليم ، إن رواية الحديث بالمعنى جائزة ولكن هذا النوع قد خرج فيه الرواة عن عهدة التزام النص ، فهم عادة ينيهون إلى التغيير في التعبير ، كما رأينا في الألفاظ الدالة على عدم التأكد من اللفظ النبوي سابقا ، دون أن يروا في ذلك حرجا ، إذ يجدون كل الحرج في افتراء حرف ينسبونه إلى نبيهم ، وإن كذبا عليه ليس ككذب على غيره فيه يتبوأ الكاذب مكانه من النار ، وقد روي عن أبي الدرداء أنه كان إذا فرغ من الحديث عن النبي ﷺ يقول : هذا أو شكله . وربما قال : اللهم إلا هكذا فشكله^(٣) كما كان أنس يقول إذا فرغ من الحديث : أو كما قال رسول الله ﷺ^(٤) وذلك تورع بالغ ، واتهام للنفس أمام المقام الجليل . كما نقل إلينا أن الرواي للحديث بالمعنى كان يمنع الكاتبين أن يأخذوا عنه ، حتى لا يلتبس الأمر ، فيظن قارئ كتبهم أنه لفظ النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن هؤلاء عمرو بن دينار ، الذي كان يقول إذا حدث على المعنى : أخرج على من يكتب عني^(٥) ، على أن طائفة من أصحاب الحديث والفقهاء والأصول لا تحيز إلا اللفظ مهما كان الرواي عالما بالألفاظ والمقاصد ، خبيرا بما يحيل معانيها^(٦) ، خلافا للشافعي وأبي حنيفة وجماهير الفقهاء ومعظم أهل الحديث لمن

(١) أخرجه الترمذي عن أنس في تيسير الوصول ١٥٢ / ٣ .

(٢) جامع بيان العلم ١ / ٩٥ .

(٣) التقريب ٢٥ .

(٤) الكفاية ٢٠٥ .

(٥) سنن الدارمي ١ / ٤ .

(٦) تذكرة الحفاظ ١ / ١٠٧ .

فابعث من يدلني على منزله قال : فبعث معه من يدل على منزل عقبة ، فأخبر عقبة فعجل ، فخرج إليه فعانقه ، فقال : ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ ، لم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيري وغيرك في ستر المؤمن . قال عقبة : نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول « من ستر مؤمنا في الدنيا على خزية ستره الله يوم القيامة » فقال له أبو أيوب : صدقت . ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعا إلى المدينة ، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر^(١) .

كما نقل إلينا أن جابر بن عبد الله ابتاع بعيراً شد رحله عليه شهراً ليقدم الشام على عبد الله بن أنيس ليسأله عن حديث بلغه ، خشى أن يموت أو يموت عبد الله دون أن يتحققه قال عبد الله : سمعت النبي ﷺ يقول : « يحشر الله العباد - أو الناس - عراة غرلا بهما » قلنا : ما بهما ؟ قال : ليس معهم شيء فيناديهم بصوت يسمعه من بعد - أحسبه قال : - كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة ، وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمته ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار ، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمته . قلت : وكيف وإنما تأتي الله عراة بهما ؟ قال بالحسنات والسيئات^(٢) .

ولمثل هذه الرحلات التي تملأ القلب رضا عن التحري والضبط ، ألف الخطيب كتابه (الرحلة في طلب العلم) وجاء الكلام في باب (العلم) من كتب المحدثين والشراح والمترجمين للرجال ، فترى أصحاب التراجم يتحدثون عن رحلة الرجال في سيرهم ، بما يزيد إعجابنا بهم وثقتنا فيهم ، والأصل في الباب قوله تعالى ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾^(٣) وقوله عليه الصلاة والسلام : « من خرج في طلب

(١) جامع بيان العلم وفضله : ٩٣ : ١ .

(٢) جامع بيان العلم : ١ / ٩٣ .

(٣) عمدة القارئ : ٢ / ٧٣ .

(٤) التوبة : ١٢٢ .

يعلم مواقع الخطاب ودقائق الألفاظ^(١) وقد قيد العلماء أنواعا من الحديث لا يصح نقلها بالمعنى ، كالخبر المشترك أو المشكل ، لعدم الوقوف على مراده إلا بالتأويل ، وتأويل الراوي لا يكون حجة على غيره ، ومثله الخبر المجمل ، فإنه لا يتصور نقله بالمعنى ، لعدم الوقوف على معناه وقوفا « يقنيا ، ونظيره ما يكون التعبد بلفظه كالتشهد والتكبير^(٢) ، والأذكار ، وما كان دليلا على فصاحتها التي وصف بها نفسه ، كجوامع الكلم وما عت لفظه ذاكرة الراوي ، إذ لا يجوز العدول عن اللفظ عند من أجازه إلا لغية اللفظ .

السؤال الرابع

وأما السؤال الرابع : « أما اختلفت الروايات في الحديث الواحد ؟ » فيمكن الجواب عنه بأنه ﷺ كان يخاطب أصحابه في المناسبات بما يناسب مقام كل مجلس ، فيتكرر الحديث بصور كل منها يؤدي الغرض في موضعه ، وربما سئل مسألة أكثر من مرة ، فيجيب كل سائل بما يراه موافقا حاله ، فتأتي الألفاظ الدائرة حول المعنى العام الواحد مختلفة باختلاف الخصوصيات ، وربما نشأ الاختلاف بالزيادة والنقص من سماع الصحابي الحديث كله لحضوره المجلس كاملا ، وسماع الآخر جزئه لتأخره عن سماع أوله ، أو انصرافه لعذر طرأ عن سماع آخره ، انصرافا فعليا أو نفسيا .

على أن علماء الحديث أجاز بعضهم اختصار عبارته - ولو من أثنائها - اكتفاء بمكان الاستدلال منها ، ويرد بعض الروايات إلى بعض يعرف الحديث بتمامه ، ولا يطعن هذا من حيث الزيادة أو النقص في المروي من جهة توثيق اللفظ .

مثال هذا حديث البخاري : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها . . . » فقد نقص من تمام الحديث كما

(١) التقريب ٢٥ .

(٢) جامع المنقول والمعقول ١/٤١ .

ثبتت الروايات المختلفة قوله عليه السلام : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله » قبل « ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها » ويسمى علماء أصول الحديث ذلك (خرما) ، وقد أجاب عنه أبو محمد علي ابن سعيد الحافظ ، بأن البخاري جعل الحديث استفتاحا لكتابه ، كخطبة الكتاب التي تتضمن ما ذهب إليه من التأليف ، فكأنه ابتداء كتابه بنية رد علمها إلى الله ، فإن علم منه أنه أراد الدنيا ، أو عرض إلى شيء من معانيها فسيجزيه بنيته ، ونكب عن أحد وجهي التقسيم مجانبة للتركيز التي لا يناسب ذكرها في ذلك المقام^(١) .

وبعد فقرات يقول ابن حجر : وقد وقع في رواية حماد بن زيد في باب الهجرة تأخر قوله : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله » عن قوله : « فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها » فيحتمل أن تكون رواية الحميدي وقعت عند البخاري كذلك فتكون الجملة المحذوفة هي الأخيرة ، كما جرت به عادة من يقتصر على بعض الحديث ، وعلى تقدير أن لا يكون ذلك ، فهو مصير من البخاري إلى جواز الاختصار في الحديث - ولو من أثنائه - وهذا هو الراجح والله أعلم^(٢) .

ثم أكد هذا المصير بعد قليل ، فقال عن صحيح البخاري : « لا يوجد فيه حديث واحد مذكور بتمامه سندا ومنتأ في موضعين أو أكثر إلا نادرا^(٣) » ومحل جواز ما صنعه البخاري ومثله من اختلاف الرواية بالتمام والاختصار ما لا يؤدي إلى التحريف واللبس ، فإن ما لا يغير المعنى ولا ينقصه مستفيض في الاستدلال بأجزاء من الأحاديث ، يكفي سوقها في الدليل لحصول الغرض ، ولكن يبقى الأدب بالمحافظة على ألفاظ الرسول صلوات الله عليه وإيرادها كما ذكرها وتلفظ بها^(٤) .

وأيا ما كان فلا يستطيع شيء من هذه المسائل أن يسقط النصوص النبوية من

(١) فتح الباري ١٧ / ١ .

(٢) فتح الباري ١٧ / ١ .

(٣) فتح الباري ١٨ / ١ .

(٤) جامع المنقول والمعقول ٤٣ / ١ .

خطوات كبيرة سبقت

عني العلماء منذ القدم ببلاغة الحديث . بل راع الصحابة منهم بيانه حتى كانوا يتناشدونه بينهم ، ولهذا وجد الباحثون أفكارهم مسوقة للكلام عن أسرار البيان في مجالسهم ومؤلفاتهم ، وهذه دراسة توجيهية عارضة في شرح الحديث ، وتلك دراسة متخصصة في بلاغته ، إلا أن الدراسة التخصصية من الوجهة البيانية لم تظهر فيما عرفنا إلا في كتاب « المجازات النبوية » للشيخ الرضي ، وقد تحمل كتب الأدب وتاريخه بعض الفصول القصار في ذلك المعنى ، ويحاول علماء البديع أن يجدوا المثال أو الشاهد للنوع البديعي من الحديث ، وكثيراً ما يجدونه .

والمحدثون عن إعجاز القرآن قد يفردون فصولاً يتحدثون فيها عن الحديث النبوي والبلاغة النبوية .

قيامها شاهداً على البلاغة البالغة في قول النبي عليه السلام ، واتخاذ حديثه الشريف مناهجاً للدراسة ، وأساليبه البيانية مجالاً للبحث ، يفيد منها الدارسون بعد كلام الله العزيز أمثلة مثالية في تقويم اللسان والفكر ، ويجدون من راحة النفس وسعادة القلب في أفيائها أضعاف ما يجدون في خالص الشعر ورائع النثر ، ويؤمنون إيماناً بصيراً بما تحمل عبارته الشريفة من عمق مدلولها : « أنا أفصح العرب . . . » فهي لا تعني الفخر الذي يعنيه البلغاء ، ولكنها تصور الحق الذي بعث به الأنبياء .

هذه الإمامة عاجلة ندخل بها إلى البحث ، والله المستعان ، وهو الولي الحميد .

١- المجازات النبوية للشريف الرضي

كان شيء عن بلاغة الحديث يأتي متفرقا أثناء شرحه والتعليق عليه عند الشارحين ، أو كان الحديث يذكر مثالا أو شاهداً لضرب بديعي لدى رجال البلاغة . . غير أن رعاية الله وجهت ذلك العالم الملهم إلى كتاب الله يستخرج ما فيه من المجازات ، ويتحدث عنها الحديث الواعي في تفسيره الكبير « حقائق التنزيل ودقائق التأويل » ثم في كتابه « تلخيص البيان » فأغرى صنعه الراغبين في تلك الدراسة للحديث النبوي الشريف . فطالبوه به ، فجمع ستين وثلاثمائة حديث جلي محاسنها . وبين مبلغ البلاغة فيها ، قائلاً في مقدمته بعد حمد الله : « فإني عرفت ما شافهتني به » من استحسانك الخبيثة التي أطلعتها ، والدقيقة التي أثمرتها من كتابي الموسوم بـ « تلخيص البيان عن مجازات القرآن » وإني سلكت من ذلك حجة لم تسلك ، وطرقت باباً لم يترك ، وما رغبت فيه من سلوك مثل تلك الطريقة في عمل كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ ، إذ كان فيها كثير من الاستعارات البديعة ولمع البيان الغريبة ، وأسرار اللغة اللطيفة . يعظم النفع باستنباط معادنها ، واستخراج كوامنها ، وإطلاعها من أكمتها وأكنانها ، وتجريدها من خللها وأجفانها ، فيكون هذان الكتابان بإذن الله لمعتين يستضاء بهما ، وعرينين لم أسبق إلى قرع بابهما ، فأجبتك إلى ذلك مستخيراً الله سبحانه فيه على كثرة الأشغال القاطعة^(١) .

وقد اعتذر عن الاطناب ، وسلوك طريق الأيماء والإشارة ، بقصد عدم المشقة على القارئ لضعف القلوب في زمانه ، إذ لم يبق من الفضلاء إلا الأسماء . وهو مع هذا متواضع ، يذكر أنه لا يشك في أن ما يفوته من الجنس الذي

(١) مقدمة (المجازات النبوية) ص ١٩ .

يقصده أكثر من الحاصل له منه ، ويشير إلى أنه ترك التكرار ، واعتمد في الإيجاز على كتب السابقين التي تشرح متشابه الأخبار وترد عليه ، وبين بعض المصادر التي اعتمدها في استخراج ما يتضمن غرضه وهو استخراج المجاز ، وتلك المصادر هي : كتب غريب الحديث - أخبار المغازي المشهورة - مسانيد المحدثين الصحيحة - الموجز من حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، مما لم يسبق إلى لفظه ، ولم يفترع من قبله .

ويذكر لنا طريق وقوفه على كل ذلك من : إتيان الرواية ، أو الإجازة ، أو التصفح والاطلاع ، مما يدل على حصافته وأمانته ، ويزيد الثقة في دراسته .

منهج الرضي

لم يشأ الرضي أن يرتب مختاره على أبجدية خاصة ، فجاء بأحاديث أو بأجزاء منها ، بحسب ما وقع له في اطلاعه على مراجعه ، ومنهجه أن يذكر النص ، ويعقبه بالإشارة إلى اللون البياني ، ويذكر ما يستدعي الذكر من المناسبة التي ورد فيها ، شارحاً موجهاً في إيجاز ، مبيناً الوجه أو الوجوه التي يخرج عليها المعنى ، وكثيراً ما يجعل سر التعبير وأثره تعريفاً بالقيمة الجمالية التي تلزمه .

مثال من كلامه

١ - فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها » وفي رواية أخرى : قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها » وهذا من أنصح العبارات ، وأوقع الاستعارات ، وقال ذلك عليه الصلاة والسلام عند خروجه إلى بدر للقتال ، وقد خرجت قريش من مكة مجلبة عليه ومجلبة إليه^(١) وكان المسلمون قد ظفروا ببعض فراطهم^(٢) فأتوا به النبي عليه الصلاة والسلام فسأله عن خرج في ذلك الجمع من علية قريش ، فقال « فلان وفلان » وعدد قادتهم وزادتهم ،

(١) أجلب عليه توعدده بشر وجمع عليه الجموع وأجلبه أعانه على أمره والأصل الإعانة في الجلب ثم أطلق .

(٢) الفراط الذين يتقدمون القوم إلى الورد لإصلاح الحوض والدلاء (من هامش المطبوع) .

والوجوه والسادات منهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها » .

ولهذا الكلام معنيان : (أحدهما) أن يكون المراد به أن هؤلاء المعدودين صميم قريش ومعضها ولبابها وسرها . كما يقول القائل منهم : فلان قلب في بني فلان ، إذا كان من صرحائهم وفي النضار من أحسابهم ، فيجوز أن يكون المراد بالكبد ها هنا كالمراد بالقلب هناك ، لتقارب الشيتين وشرف العضوين فيكنى بإسم كل واحد منهما عن العلق الكريم واللباب الصميم ، والأفلاذ القطع المتفرقة عن الشيء ، وقل ما يستعمل ذلك إلا في الكبد خاصة ، قال الشاعر

تكفيه فلذة كبد إن ألم بها من الشواء ويروى شربه الغمر^(١)

(والمعنى الآخر) أن يكون المراد بذلك أعيان القوم ورؤساؤهم والعرانين المتقدمة منهم ، فكأنه عليه الصلاة والسلام أقام مكة مقام الحشا التي تجمع هذه الأعضاء الشريفة ، كالقلب والنياط والكبد والفؤاد ، وجعل رجال قريش كشعب الكبد ، التي تحنو عليها الأضالع ، وتشتمل عليها الجوانح وقاية لها ، ورفرفة عليها^(٢) .

والرضي هنا يردد « أفلاذ أكبادها » بين أن يكون مستعملاً على سبيل الكناية من النطق بالملزوم وإرادة اللازم ، إذ يلزم من كونهم أفلاذ أكبادها أن يكونوا اللباب الصميم من أهلها كناية عن صفة على الأظهر - وأن تكون العبارة مجازاً بالاستعارة التي لا تقوم إلا على لمح التشبيه بين طرفيها ، ونراه قد حل العبارة في تشبيهين اثنين : تشبيه مكة بالحشا التي تجمع الأعضاء الشريفة وتشبيه رجال مكة بشعب الكبد التي تحنو عليها الأضالع .

وصنيعه هذا أقرب إلى ما سمي بعد عصره بالاستعارة المكنية ، فالمشبه به في

(١) الغمر (بضم ففتح قدح صغير أو هو أصغر الأقداح) .

(٢) المجازات النبوية ٢٢ و ٢٣ .

التشبيه الأول وهو (الحشا) محذوف من الكلام ، والمذكور هو المشبه (مكة) وقد رمز إلى الحشا المحذوف بلازمه ، وهو أفلاذ الأكباد ، وإثبات أفلاذ الأكباد للحشا هو التخيل أو الاستعارة التخيلية .

وأيا ما كان ، فإن الوجه الأول قد جرى فيه لفظ « أفلاذ أكبادها » على الاستعارة ، والتعبير بهذا الطريق يدل بلاغة على المعنى اللازم الذي حدث عنه آنفاً .

٢ - وقد يشير أحيانا إلى قرينة المجاز كما في شرحه للحديث الثاني من مختاره ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام وقد نظر إلى (أحد) منصرفه من غزوة خيبر : « هذا جبل يحبنا ونحبه » يقول : « هذا القول محمول على المجاز لأن الجبل على الحقيقة لا يصح أن يحب ، وإذا محبة الإنسان لغيره كناية عن إرادة النفع له ، أو التعظيم المختص به . . وكلا الأمرين لا يصح على الجماد^(١) .

وملخص ما يراد علمه عن فهمه للمجاز ، أنه يعرفه بصفة أعم ، ويصور حديثه في هذا الكتاب وفي كتابه (تلخيص البيان) تصور المدرسة الأدبية للبلاغة في القرن الرابع الذي عاش فيه ، والذي مهد لازدهار الدراسات البلاغية في القرن الخامس على يد (عبد القاهر) وأمثاله .

فتعد كتاباته صورة تطبيقية على المفهوم الأعم للمجاز أو الاستعارة أو الكناية أو الاتساع ، لا تعرف المنطق الشكلي ، ولا تتعمق التشقيق والتفريع ووضع الحواجز التي تغلب عليها الاعتبارية بين الأنواع ، وقد يرى منهج الرضي بصورة أوسع في كتاب (المجازات إلى عهد السعد)^(٢) .

من هو الرضي

هو العالم الملهم والناقد المحقق والشاعر الفذ محمد بن الحسين بن موسى

(١) المجازات النبوية ٢١ .

(٢) بحث معد للطبع .

المنتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب ، ولهذا لقب بالشريف ولد سنة ٣٥٩ هجرية ، وتوفي سنة ٤٠٦ هجرية وعاش في خلافة (القادر بالله) عزيزاً كريماً حافل العمر عامره بالدرس والتأليف ، غلب على كل أثر له ملكة الأدب الكاملة ، والشاعرية البارعة الفارعة ، وكتابه هذان مطبوعان متداولان ، وفي قراءتهما للقارئ رياضة ونفع لا غنى عنها

٢- الفائق في غريب الحديث

للزمخشري

ألفت كتب مختلفة جعلت خاص عنايتها بيان المفردات التي يحتاج إلى شرحها وبيان أصلها اللغوي والمراد منها ، مما ورد في الحديث الشريف سميت كتب (غريب الحديث) ، ولقد وجد الزمخشري طائفة منها ، فأراد بما أنس في نفسه من القدرة أن يخرج في ذلك الفن كتاباً ، يستدرك فيه ما يرى من جوانب النقص أو تقويم الخطئة ، فألف كتابه (الفائق) ، وسماه تلك التسمية ليبدل بالاسم على درجة الكمال التي وصل إليها ، وأنها فوق ما سبق للسالفين .

تحدث في مقدمته عن بلاغة العرب وما يتصرفون فيها من الكناية والتعريض ، والاستعارة ، والتمثيل ، وأصناف البديع ، وضروب المجاز والافتنان ، والإشباع ، والإيجاز- ما لو عثر عليه السحرة في زمن موسى عليه السلام لقعدوا مبهورين ، ولبقوا مبهوتين . ولعلموا أن نفائث العرب بألستها أحق بالتسمية بالسحر ، وأنهم في ضحضاح منه وهؤلاء لججوا في البحر ، ثم إن هذا البيان العربي كأن الله - عزت قدرته - مخضه وألقى زبدته على لسان محمد عليه وآله أفضل صلاة وأوفر سلام . . . قال عليه الصلاة والسلام : أوتيت جوامع الكلم ، أنا أفصح العرب بيد أبي من قريش ، واسترضعت في بني سعد بن بكر . . . وبعد أن ذكر الجهود السابقة عليه في المادة ، وأثنى على رجالها قال : « ولكن لا يكاد يجد بدا من نبغ في فن من العلم وصبغ به يده ، وعانى فيه وكده وكده ، من استحباب أن يكون له فيه أثر يكسبه في الناس لسان الصدق ، وجمال الذكر ، ويخزن له عند الله جزيل الأجر . . . وفي صوب هذين الغرضين ذهبت عند صنعة هذا الكتاب » ثم بين أنه لم يأل جهداً في إفادة القارئ ببذل ما استطاع من « اقتضاب ترتيب سلمت فيه كلمات الأحاديث نسقا ونضدا ، ولم تذهب بددا . . . ومن اعتماد فسر موضع

ألف كتب مختلفة جعلت خاص عنايتها بيان المفردات التي يحتاج إلى شرحها وبيان أصلها اللغوي والمراد منها ، مما ورد في الحديث الشريف سميت كتب (غريب الحديث) ، ولقد وجد الزمخشري طائفة منها ، فأراد بما أنس في نفسه من القدرة أن يخرج في ذلك الفن كتاباً ، يستدرك فيه ما يرى من جوانب النقص أو تقويم الخطئة ، فألف كتابه (الفائق) ، وسماه تلك التسمية ليبدل بالاسم على درجة الكمال التي وصل إليها ، وأنها فوق ما سبق للسالفين .

تحدث في مقدمته عن بلاغة العرب وما يتصرفون فيها من الكناية والتعريض ، والاستعارة ، والتمثيل ، وأصناف البديع ، وضروب المجاز والافتنان ، والإشباع ، والإيجاز- ما لو عثر عليه السحرة في زمن موسى عليه السلام لقعدوا مبهورين ، ولبقوا مبهوتين . ولعلموا أن نفائث العرب بألستها أحق بالتسمية بالسحر ، وأنهم في ضحضاح منه وهؤلاء لججوا في البحر ، ثم إن هذا البيان العربي كأن الله - عزت قدرته - مخضه وألقى زبدته على لسان محمد عليه وآله أفضل صلاة وأوفر سلام . . . قال عليه الصلاة والسلام : أوتيت جوامع الكلم ، أنا أفصح العرب بيد أبي من قريش ، واسترضعت في بني سعد بن بكر . . . وبعد أن ذكر الجهود السابقة عليه في المادة ، وأثنى على رجالها قال : « ولكن لا يكاد يجد بدا من نبغ في فن من العلم وصبغ به يده ، وعانى فيه وكده وكده ، من استحباب أن يكون له فيه أثر يكسبه في الناس لسان الصدق ، وجمال الذكر ، ويخزن له عند الله جزيل الأجر . . . وفي صوب هذين الغرضين ذهبت عند صنعة هذا الكتاب » ثم بين أنه لم يأل جهداً في إفادة القارئ ببذل ما استطاع من « اقتضاب ترتيب سلمت فيه كلمات الأحاديث نسقا ونضدا ، ولم تذهب بددا . . . ومن اعتماد فسر موضع

من هو الرضي
هو العالم الزاهد والمحقق والشاعر القد محمد بن الحسين بن موسى
هو الرضي

وكشف مفصح ، اطلعت به على حاق المعنى ونص الحقيقة ، اطلاقاً مؤداه طمأنينة النفس وثلج الصدر ، مع الاشتقاق غير المستكره ، والتصريف غير المتعسف ، والإعراب المحقق البصري . . . » .
وهو يعرض في تلك العبارات ، بما يرى من عيب في كتب الأسلاف ، ويتعصب للمدرسة البصرية في النحو والإعراب ، ولكل مذهبه .

ونستطيع أن نستشف من أول المقدمة ، وتنويه فيها بشأن البلاغة - وهو فارس من فرسانها ، وله مذهب في كثير من بحوثها - أنه سيضرب بسهم في ذلك الميدان ، وإن لم يكن جهة التخصص الأصلية في بحثه .

قيمة الكتاب ومنهجه

قسم الزمخشري فائقه كتباً كالأبواب ، بعدد حروف المعجم التي بدت بها مواد دراسته : كتاب الهمزة - كتاب الباء - كتاب التاء . . .

ثم سار في كل كتاب منها على ترتيب حرف الكتاب مع ما يليه في الكلمة على نفس النسق : الهمزة مع الباء - الهمزة مع التاء أشبه بطريقة (المصباح المنير) التي تهتم بترتيب الأول والثاني من الكلمة ثم تطلب ما يثلثها .

وبهذا الترتيب أثبت في كتابه مواد أصيلة تبلغ (ثمانية وسبعين وثلاثمائة ألف لفظ) على مقربة من التحقيق ، تفرع على كل منها الكثير من الكلمات إذ لا يفرد هذه الكلمة ، ولا يبدد عقدها ، بل يورد النص الذي وردت فيه أو الجزء الكبير منه ، فيفسر مع كلمة الأصل باقي الكلمات تبعاً ، يشير في نهاية كل فصل من كتاب الحرف إلى كلمات لم يتناولها فيه ، لأنها في مكان آخر يدلنا عليه بطريقة رمزية . كأن يقول في فصل (العين مع السين) (١) .

العسلوج في (صب) . عسا في (هع) وفي (دش) عسيفا في (كت) وفي (ذر) عسيب في (فر) بعسا في (من) يعسوباً في (سبج) . . .

ونحن بالتطبيق على ذلك نرجع إلى فصل الصاد مع الباء لنرى لفظ (العسلوج) فنجد في مادة (صبر) في قول طهفة النهدي : « وسقط الأملوج ومات العسلوج . . . » .
فسره بقوله : « الأملوج واحد الأماليج ، وهو ورق كأنه عيدان ، يكون لضرب من شجر البر . . . » .

(والعسلوج) الغض الناعم ، ومنه قولهم طعام عسلوج . . . (١) واهتمام الفائق هو أولاً باللغة ، يبين أصل الكلمة من الاشتقاق ويذكرها معناها اللغوي ويضرب له المثل والشاهد ، ويوجه اللفظ على احتمالاته التي يقبلها من منقوله عن الثقات ، أو من رأيه المشفوع بالتعليل ، مرجحاً وناقداً ، كما يهتم بالإعراب مركزاً اهتمامه على المذهب البصري ، ويرد ما لا يرى صحته من إعراب يراه بعض العلماء .

والذي دفعنا هنا إلى ذكر الكتاب ، أنه لم ينس طابعه البلاغي ، فقد خرج الكثير من أضرب البيان النبوي ، مما لو جمع في باب لكان خيراً كثيراً ، كل ذلك في رباطة وثقة ، وراجح عقل وتمام دربة ، وتدقق دراية .

أمثلة من حديثه البياني

١ - التعبير الرمزي : قال في الحديث : « لا تسموا العنب الكرم . فإنما الكرم الرجل المسلم » أراد أن يقرر ويشدد ما في قوله عز وجل : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ بطريقة أنيقة ، ومسلك لطيف ، ورمز خلوب فبصر أن هذا النوع من غير الأناس المسمى بالاسم المشتق من الكرم أنتم أحقاء بأن لا تؤهلوه لهذه التسمية ، ولا تطلقوها عليه ، ولا تسلموها له ، غيرة على المسلم التقي أن يشارك فيما سماه الله به ، واختصه بأن جعله صفته فضلاً أن تسموا بالكرم من ليس بمسلم وتعترفوا له بذلك (٢) .

(١) الفائق ٥ / ٢ .

(١) الفائق ٣ ، ٤ / ٢ .

(٢) الفائق ١٩٩ / ٢ : ٦١٧ (١) .

وليس الغرض حقيقة النهي عن تسمية العنب كرما ، ولكن الرمز إلى هذا المعنى كأنه قال : إن تأتي لكم أن لا تسموه مثلا باسم الكرم ، ولكن بالخفنة والحملة فافعلوا . وقوله « فإنما الكرم » أي فإنما المستحق للاسم المشتق من الكرم المسلم . ونظيره في هذا الأسلوب قوله : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ .

٢ - التشبيه والتشخيص بالاستعارة : وقال في الحديث « المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور » .

المتشبع على معنيين : أحدهما المتكلف إسرافاً في الأكل وزيادة على الشبع حتى يمتلىء ويتضلع ، والثاني المتشبه بالشبعان وليس به ، وبهذا المعنى الثاني استعير للمتحملي بفضيلة لم تزرُق وليس من أهلها ، وشبهه بلباس ثوبي زور ، أي ذي زور ، وهو الذي يزور على الناس بأن يتزيا بزوي أهل الزهد ويلبس لباس ذوي التقشف رياء ، وأضاف الثوبين إلى الزور لأنها لما كانا ملبوسين لأجله فقد اختصا به ، اختصاصا سوغ إضافتهما إليه .

أو أراد أن المتحملي كمن لبس ثوبين من الزور ، قد ارتدى بأحدهما وائتزر بالآخر كقوله :

إذا هو بالمجد ارتدى وتأرزا
وقوله :

يجر رباط الحمد في دارقومه
وقول ذي الرمة :

على كل كهل أزعكي ويافع من اللؤم سربال جديد البنائق^(١)

وهو في هذا المثال الثاني يعطينا درساً في دلالة المفرد ، وأن الكلمة بوزنها الصرفي تعطي لونا من الزيادة على أصل المعنى ، « فالمتشبع » على تفسيره الأول من الشبع ، ولكن هذا الوزن يأتي لمعان منها التكلف للحدث مع عدم وجوده ، ويساعد على هذا التفسير التشبيه لهذا الوصف الذي لا أصل له بثوبي الزور اللذين

لا أصل لهما ، أما تفسيره الثاني فهو قائم على تشبيه مدعي ما ليس له بمظهر الشبع وهو جوعان ، واستعارة المتشبع (أي مدعي الشبع) للمتحملي بما ليس له ، ثم يذكر أنه بعد الاستعارة في (المتشبع) عقد التشبيه بينه وبين من يلبس ثوبين يُظهِرَان انه زاهد وهو في داخل ثوبيه جشع وقاع ولما كانا آلة التزوير أضيفا إلى ما هما آله لظهور اختصاصها به .

وقد أشار إلى وجه المبالغة الحاصلة بالتشبيه في المضاف تهويلا لجرم المتشبع وأنه أحاطت به جريرته .

وهكذا نبصره في كثير من النصوص ناحيا ببعض العبارات نحواً بيانيا . والكتاب قد طبع في الهند ، فكان مجلدين عظيمين زهاء ثمانين وستمائة صفحة ، وأعاد طبعه الحلبي في مجلدات ثلاثة ، وأضاف إليه فهرسا يسهل الرجوع إلى الكلمات التي لم يجعلها الفائق في المواد الأساسية ، والتي كان يشير إلى أماكنها إشارات تحوج إلى جهد للعثور عليها في حنايا الصحائف .

من هو الزمخشري

هو جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري صاحب تفسير (الكشاف عن حقائق التنزيل) و (الفائق في غريب الحديث) و (المفصل في النحو) ، و (أساس البلاغة في اللغة) وغيرها من الكتب فهو الحجة في علوم العربية ، وفهم الكتاب والسنة فهما يعتمد على سعة الموروث من لغة العرب ، وطرق أدائه وخصائص أساليبه ، ولد بخوارزم بزمخشري يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربعمائة من الهجرة ، وتوفي ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسائة^(١) عن إحدى وسبعين سنة ، امتلأت به علما وجهادا ودرسا . رحمه الله وأحسن مثوبته .

(١) نزهة الألباب في طبقات الأدباء ٤٦٩ .

(١) الفائق ٣١٣ : ١ : ٦٦١ : ٦٦٢

٣- كتب الشرح للحديث

وأشهر هذه الكتب اتصالا بفن البلاغة (عمدة القارى) للإمام العيني ولا سيما في أجزائه الأولى ، وقد انتفع بأقوال السالفين من الشراح وباستيعاب البلاغيين مسائل البلاغة بالشرح والنقد .

قيمة الكتاب ومنهجه

وقيمة الكتاب من هذه الجهة غير قليلة ، ولكن منهجه فيه غير قويم ولا مطرد ، وذلك لأنه كلف نفسه عناء لم يعف منه القارىء ، بالشرح المطنب لقواعد البلاغة لمجرد ذكر المثال أو مصادفته في البيان الكريم غير آبه بانتظار القارىء إسعافه السريع بما يهيمه ، ضاربا به في التعريف والتقسيم والتفريع ، ناسيا أنه شارح حديث ، لا معلم بلاغة على الإطلاق ، ومن الأمثلة التي نستظهر بها قوله في (بيان المعاني^(١)) من (باب كيف كان بدء الوحي) .

« اعلم أن كيف متضمنة معنى همزة الاستفهام : لأنه سؤال عن الحال ، وهو الاستفهام ، وقد يكون للإنكار والتعجب كما في قوله تعالى ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا ﴾ المعنى أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان ، وهو الإنكار والتعجب ، ونظيره قولك أتطير بغير جناح ؟ وكيف تطير بغير جناح ؟ .

وقوله : ﴿ إنا أوحينا ﴾ كلمة إن للتحقيق والتأكيد ، وقد علم أن المخاطب إذا كان خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر نفيًا وإثباتًا والتردد فيه - استغنى عن ذكره مؤكدات الحكم ، وإن كان متصوراً لطرفيه ، متردداً فيه طالبا

(١) عمدة القارىء ١٥ / ١ .

للحكيم - حسن تقويته بمؤكد واحد من (إن أو اللام) أو غيرهما كقولك : لزيد عارف أو إن زيدا عارف . وإن كان منكراً للحكم استوجب زيادة التأكيد فتقول لمن لا يبالي في إنكار صدقك : إني صادق ؛ ولن بالغ فيه : إني لصادق . ولن أوغل فيه : والله إني لصادق ، ويسمى الضرب الأول ابتدائياً ، والثاني طلبياً ، والثالث إنكارياً ، ويسمى إخراج الكلام على هذه الوجوه إخراجاً على مقتضى الظاهر . وكثيراً ما يخرج على خلافه لنكتة من النكات كما عرف في موضعه .

وإنه لحقيق بتقديم الشكر على قوله بعد هذا كله : (كما عرف موضعه) وهو على أوسع من ذلك يتحدث عن القصر في « إنما الأعمال بالنيات » فيذكر الآراء المختلفة وحججها في الاستدلال على إفادة (إنما) الحصر كأن إمتحانا فرض عليه في بحث (إنما) وهناك وبعد الرحلة الطويلة مع العلماء فيها يعود إلى مثالها في الحديث الذي أثار البحث .

وصنعه هذا مع البلاغة هو صنعه مع النحو وغيره من الفنون ، وهذا سنن اختاره لنفسه ، ليكون كتابه مجمع الفوائد وقيد الشوارد ، إلا أنه يبعد القاصد عن استجلاء روعة الفرائد ، ويخلخل طريق الرائد أمام أعذب الموارد .

قال رحمه الله :

« ونزلت في فناء ربع هذا الكتاب لأظهر ما فيه من الأمور الصعاب . وأبين ما فيه من المعضلات ، وأوضح ما فيه من المشكلات ، وأورد فيه من سائر الفنون بالبيان ، ما صعب منه على الأقران ، بحيث أن الناظر فيه بالإنصاف المتجنب عن جانب الاعتساف . إن أراد ما يتعلق بالمنقول ظفر بأمله ، وإن أراد ما يتعلق بالمعقول فاز بكماله ، وما طلب من الكمالات يلقاه ، وما ظفر من النوادر والنكات يرضاه » ، فجاء بحمد الله وتوفيقه فوق ما في الخواطر ، فائقاً على سائر الشروح بكثرة الفوائد والنوادر ، مترجماً بكتاب (عمدة القاري في شرح البخاري) ومأمولي من الناظر فيه أن ينظر بالإنصاف ويترك جانب الطعن والاعتساف ، فإن رأى حسناً يشكر سعي زائره ، ويعترف بفضل عاثره أو خللاً يصلحه ، أداء حق

الأخوة في الدين ، فإن الإنسان غير معصوم عن زلل ميبين^(١) .

والكتاب مرجع فذ على رأيه ومنهجه ، ودليل إحاطة واطلاع ، وتدبر للمقروء وانتفاع ، ولا أكون من الذين قال فيهم : « فالناس فيما تعبت فيه الأرواح وهزلت فيه الأشباح ، على قسمين متباينين : قسم هم حسدة ليس عندهم إلا جهل محض ، وطعن وغضب ، لكونهم بمعزل عن انتزاع أبنكار المعاني وعن تفتيق ما رتق من المباني ، فالمعاني عندهم تحت الألفاظ مستورة ، وأزهارها من وراء الأكمام زاهرة منظورة .

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر فإن غمطَ الفضل والتعمية على الحق كفر من الكفر ، ولكنها إشارة البيان عن المنهج ترشد إلى المفارقات والملابسات بين كتاب وكتاب من الكتب التي تعرضت لبلاغة الحديث ، والحق أنها ربما يحتاج بعضها إلى بعض وتحتاج جميعها إلى الكثير من الأمثال ، لتقفنا على ما للبيان النبوي من خصائص تشرح قوله الكريم عليه السلام : « أنا أفصح العرب . . . » .

من هو بدر العيني

هو أحد من يضرب بعلمهم المثل ، والذين تركوا للعالم ثروة من العلم منقطعة النظير : محمود بن أحمد بن موسى بدر الدين العيني الحنفي . أصله من حلب وقد تنقل لخدمة العلم بينها وبين دمشق والقدس ومصر ، وولي أعمالاً في الأخيرة ، منها الحسبة وقضاء الأحناف والنظر في السجون ، وكان من خاصة الملك المؤيد لعلمه وفضله ، وعكف أخيراً على التدريس والتأليف ، فترك عشرات المجلدات في التاريخ وعلوم اللغة والدين ، وهي تشهد بالخصافة وسعة العلم ومذخور الاطلاع .

وقد عاش بين سنتي ٧٦٢ و ٨٥٥ وتوفي بمصر ، ودفن بها في مكانه المشهور رحمه الله بما بذل من جهد وترك من نفع .

(١) عمدة القاري : ٤ / ١ .

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية

عقد الرافعي^(١) للبلاغة النبوية قسماً من كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) أجاد فيه وأحسن ، افتتحه بفصل يجمل فيه ما يريد تفصيله ، وفرق بين بلاغته ﷺ وبلاغة الفصحاء من العرب بأمر موجزها : تكلفهم القول وصناعتهم فيه ، وإرساله الحديث فطرة وإلهاما ، وسلامته مع ذلك من عيب ، وعدم سلامتهم من الاستكراه والزلل والاضطراب ومن حذف في مواضع الإطناب ، وإطناب في مواضع الحذف ، ومن كلمة غيرها أليق بمكانها ، ومن معنى غيره أولى بالسياق منه .

ثم نقل لنا وصف الجاحظ لكلامه ﷺ :

« هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه . وجل عن الصفة ونزه عن التكلف ، استعمل المبسوط في مواضع البسط ، والمقصور في مواضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول ، وجمع له المهابة والحلاوة وحسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا افحمه خطيب ، بل يبرز الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواردية ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطن ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط ، أعم نفعاً ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم

(١) مصطفى صادق الرافعي .

مطلباً ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه - من كلامه ﷺ^(١) .

وقد آثرت - كالرافعي - نقل هذا النص بتمامه في مقام التعريف بخصائص البلاغة النبوية ، وقد تحدث الجاحظ فيما ترك عنصرا من عناصر الأسلوب إلا حدثنا به : ما يرجع إلى المعنى ، وما يعود على الإطار ، في خلاصة جاحظية .

وأما الرافعي فقد أجمل أسباب اختصاصه ﷺ بهذه البلاغة في الأمور الآتية :

١ - التوفيق من الله والتوقيف ، إذ ابتعثه الله للعرب وهم قوم يقادون من ألسنتهم ، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة ، وعلمه ﷺ بمختلف طبقاتهم وطرق أدائهم ، والرد عليهم بأفصح وجه ، كأنما تكاشفه اللغة بأسرارها . دون دراسة علمية محيطة بنقد الكلام ، مما يدل على أن ما خص به عليه السلام توقيف وإلهام من الله .

٢ - تفوقه ﷺ في اللغة القرشية التي هي أفصح اللغات وأبينها ، وقد فضل جميع أهلها بصفاء الفطرة واستمرارها وتمكنها ، مع صفاء الحس ونفاذ البصيرة ، واستقامة الأمر كله ، يصرف البيان على أسد وجوهه ، وبما لا قبل به لأحد من الفصحاء ، إذ اصطنعه الله لوحيه ، ونصبه لبيانه .

٣ - نشأته في أفصح القبائل إذ ان مولده في بني هاشم . وأخواله من بني زهرة ، ورضاعه في سعد بن بكر ، ومنشؤه في قريش ، ومتزوجه في بني أسد ، ومهاجرته إلى الأوس والخزج من الأنصار ، ولذا قال ﷺ : « أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر » . وقد أقر له بذلك فصحاؤهم ، فلم يتعاطفهم قوله ، ولم تأخذهم الحمية منه ، لأنهم لم يجدوا فيه مغمزاً يلين لنقدهم^(٢) .

(١) إعجاز القرآن ٣٩٨ ، ٣٩٨ .

(٢) إعجاز القرآن : يقرأ فصل فصاحته ﷺ ١٦٦ .

وتحت هذا العنوان تحدث الرافي حديثاً طويلاً ، نلتقط منه انفراد الأسلوب النبوي عما عداه بأسباب طبيعية فيه ، فهو من جهة اللغة مسدد اللفظ محكم الوضع جزل التركيب ، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات ، فخم الجملة واضح الصلة بين اللفظ ومعناه ، واللفظ وضريه في التأليف والنسق ، ثم لا ترى فيه حرفاً مضطرباً . ولا لفظاً مستدعاة لمعناها ومستكرهه عليه ، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى وتأتيا لسره في الاستعمال .

وهو من جهة البيان تراه حسن المغزى ، بين الجملة ، واضح التفصيل ظاهر الحدود ، جيد الوصف ، متمكن المعنى ، واسع الحيلة في تصريفه^(١) بديع الإشارة ، غريب اللمحة ، ناصع البيان ، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراها ولا ترى اضطراباً ولا خطلاً ، ولا استعانة من عجز ، ولا توسعا من ضيق ولا ضعفاً في وجه من الوجوه^(٢) .

ثم أضاف إلى هذا سمو المعنى ، وفصل الخطاب ، والتصرف في كل طبقات الكلام ، ليجتمع من هذا وما إليه نسق في البلاغة يجمع الخالص من سر اللغة ومن البيان ومن الحكمة ، قلما يتهيأ لبليغ ، فرق ما بين الفطرة المصطفاة للنبوة وبين الصنعة والمعانة .

وتحدث عن الأوضاع التركيبية التي سبقت في بيانه الكريم غير مسبوقه من كل حكمة جامعة بارعة ، أو مثل عزيز غريب ، وقد كثر هذا النوع في البلاغة النبوية مع ندرة وقوعه لكبار الفصحاء من العرب .

ثم ساق على ذلك أمثلة منها :

« مات حتف أنفه - الآن حمى الوطيس - هدنة على دخن . . . »^(١)

(١) لا يعجبني هذا اللفظ على الحقيقة وقد يكون على سبيل المجاز .

(٢) إعجاز القرآن ٤١٢ وما بعدها .

وأبدى ما وسعه الجهد سر البيان في بعض أمثله ، ثم تحدث عن إيجاز القصر حيث تقوم اللمحة منه في دلالتها بأوسع ما تأتي به الإطالة ، ومثل ذلك كثير رائع في البيان الشريف وإن قل عند البلغاء ، لما عرف من أسباب قلة كلامه عليه السلام ، وقد مثل لذلك الضرب بما يقرره في نفوس الدارسين .

والكتاب عظيم النفع ، لاذً للدارس لا يستغني عن قراءته بذكر شيء منه إلا كل كليل ، وقد طبع عدة طبعات ، والله نسأل أن ينفع به الدارسين .

من هو الرافي . . ؟

هو الأديب الشاعر الناثر والعالم المحقق الموهوب مصطفى صادق الرافي صاحب الأسلوب الغريب في عصره ، المزدحم المعاني تحت لفظه . الذي تطالعه البلاغة بكل ذخرها ، فينفثها كالسحر متعانقة متكاتفه ماثجة ، لا يدري ما هي من الفن لأنها فوق معروفه ، وما لونها من البيان إذ هي غير مألوفه . صاحب (وحي القلم ، والمساكين ، ورسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر) وصاحب (إعجاز القرآن) و (تحت راية القرآن) وغير ذلك من شعره المنظوم والمنثور .

توفي رحمه الله في العاشر من مايو سنة ١٩٣٧ .

منهجنا على الإجمال

أما منهجنا نحن فيما نسأل الله السداد فيه ، فهو استنباط الظواهر العامة للبلاغة النبوية والخصائص الأسلوبية للبيان الكريم . نسوقها فصولاً قصاراً بطريقة التعريف والتقرير بالمثال أو الشاهد ، ثم التطبيق العام على طائفة مختارة من الأحاديث ، نأخذ منها لوامع البيان وأسرار التعبير ، لنطعم هذه البلاغة متذوقين ، بعد أن شاقنا إليها ما سبق من الوصف ، وما نحس على الإجمال من الروعة عند سماع الحديث أو قراءته ، والله الهادي ومنه المعونة .

الرسول المعلم والطريقة التقريرية

رسالة الأنبياء هداية البشر ، وقد نزل القرآن الكريم لتلك الهداية منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، ومنه القاعدة العامة والقضية المجملة ، يشرحها النبي لأمته ، فيبين ما يعوزهم بيانه ، ويفصل ما ينقصهم تفصيله ، ويتوخى من الوسائل ما يكفل تمام البلاغ ، تماما يصل به الجاهل إلى قمة العلم ، ويصل به الفيلسوف إلى نسيان الفلسفة ، ليقف الجميع أمامه خاضعين ، مولودة قلوبهم من جديد ، واعية عقولهم كل ما فيها ، مغفورا لها ما قد سلف .

والمعلم مقرر : يتخذ وسيلة وأخرى كي يصل إلى قلوب التلاميذ في رفق رحيم ، وحرص هادف ، لأنه من أنفسهم ، ومصطفى لهدايتهم ، ومهيأ بالفطرة ليكون إمامهم وقودتهم .

فلا عجب أن يتخذ النبي ﷺ طريقة تقريرية ، يجعلها المنهج الأعم لتوضيح العالم ، وتمكين الرسالة ، وليس أدل على هذا النهج الذي عم أدق الأمور وأخفهاها من حديث سلمان رضي الله عنه وقد قال له المشركون ساخرين : إنا نرى صاحبكم يعلمكم حتى الخراءة ، فأجاب فخورا عالما : أجل لقد نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه ، أو يستقبل القبلة بغائط أو بول ، ونهى عن الروثة والعظام ، وقال : لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار^(١) .

المظاهر العامة للتقرير

ولذلك نرى عموم تلك المظاهر في حديثه الشريف وهي : ^(١) قلنا منه (١)

- ١ - صفاء اللفظ ووقاؤه أفرادا وتركيبيا .
- ٢ - وضوح المعنى وظهور المغزى .

(١) تيسير الوصول ٥٩ / ٣ .

٣- وسائل التشويق والإيقاظ بعثا للنشاط وإجابة للداعي ، ومنها القولي ومنها الحسي ، ولتكن هذه النصوص الكريمة مثالا نتعجل به بيان تلك المقدمة قبل الإفاضة في التفصيل .

عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فسَقُوا وزرعوا . وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثني الله تعالى به ، فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به (١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أد الأمانة لمن ائتمنك ، ولا تخن من خانك (٢) .

وعنه رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : اشترى رجل ممن كان قبلكم عقارا من رجل ، فوجد الذي اشترى العقار في العقار جرة فيها ذهب فقال للبائع : خذ ذهبك فإنما اشتريت العقار ولم أبتع منك الذهب . فقال البائع : إنما بعثك الأرض وما فيها . فتحاكما إلى رجل . فقال الرجل : ألكما ولد ؟ فقال أحدهما لي غلام ، وقال الآخر : لي جارية . فقال : أنكح الغلام الجارية ، وأنفقا عليهما منه ، وتصدقا (٣) .

الجانب اللفظي

(١) هذه أمثلة من كلامه ﷺ ، إذا تناولنا ألفاظها مفرداً مفرداً لا نجد منها ما ينكر بعض حروفه بعضاً ، فلا ثقل على اللسان في لفظ ، ولا تعثر بالنطق في

(١) تيسير الوصول ٢٥ / ١ .
(٢) تيسير الوصول ٢١ / ١ .
(٣) تيسير الوصول ٢٨٧ / ٤ .

كلمة ، كما نجد ما نؤسسه الاستعمال فلا غرابة ، جارية على مألوف الموازين الصرفية التي عرفت للغة فلا خروج عن القياس في كلمة ، ولا خضوع للضرورة في أخرى ، رخيمة الجرس ، واضحة الدلالة ، جارية على القياس .

(ب) فإذا بحثنا تجاورها في الجمل وجدناها متألّفة متعانقة ، تتساند في أداء المعنى والوفاء بالغرض ، لا ينبو بأحدها مكانه ، ولا يطلب مكان لفظاً أدل من لفظه ، قد جرت على النسق الراجح من قواعد التأليف ، لم تترخص مساهلة ، ولم تغرب وقوعاً في ضيق المعجم ، وإيقاعاً في لبس الدلالة ، والربط بين العبارة وغيرها محكم كل رابط في موضعه ، لا نجد غيره خيراً منه .

هذا إجمال أحيل على نظرك تفصيله وتطبيقه بديناً . حتى يأتي مكان الكلام في مثله .

جانب المعنى والغرض

لا مجال للشك في وضوح الدلالة على المقصود من العبارات النبوية السابقة : فالحديث الأول يصور أحوال الناس مع شريعة الإسلام . فيجعلهم طائفتين ويجعل الأولى في نوعين : نافعة منتفعة على وجه الكمال ، ونافعة على وجه الكمال منتفعة على وجه النقص . أما الثانية فهي غير نافعة وغير منتفعة ، ويرشد إلى هذه القسمة نهاية الحديث التي جعلت الممثل له طائفتين متقابلتين في الصيغة .

وفي الحديث الثاني يأمرنا بأداء الأمانة إلى أهلها الذين ياتموننا عليها ، وينهانا عن مجازاة من يخونون بجنس إجرامهم ترفعا بالمؤمن أن يوصف بهذا الخلق الذميمة .

والحديث الثالث يقص علينا قصة رجال ثلاثة ، انطبعوا على الخير وترفعوا عن الطمع ، كان المبتاع أميناً فلم يخف خبر الكنز منهزماً أو منهوماً ، وكان عفيفاً زاهداً فلم يطلب شركة فيه ، وكان ورعاً ملتزماً فنظر إلى عقد البيع ونوع المبيع فبرىء مما زاد ، ورآه حراماً على نفسه .

وكان البائع يشبهه حذرا من الغدر ، وخوفاً من مغبة الطمع ، ونأيا عن الشبهة ، نظر إلى العقد ولم يفصل إجمال المبيع ، فلم يغلبه بريق الذهب على الوازع فرفض الذهب ليسلم الدين .

وكان الحاكم غير متجانف لإثم ، ملهما سديد الحكم فسوى بين المحتكمين باجتهاد صالح ذكي ، وأرضى الله وأنصف المحتكمين في حكومته .

وسائل التشويق والإيقاظ

بالنظر إلى الحديث الأول نجد أنه جاء على سبيل المثل ، وضرب المثل من الأساليب التي تشوق السامع إلى الخبر ، وتمكنه من نفسه ، وتجيل فكره فيه التقاطا لحكمته .

فتمثيل مَنْ فُقِّهَ في دين الله تعالى وانتفع بما بعث به رسوله فعلم وعلم بالطائفتين الصالحتين من أرض طيبة قد أخرج هؤلاء - وإن كانوا يتناوهم الحس - في صورة حسية أوفى بالغرض ، تملأ النفس إعجابا وروعة : كالأوعشب كثير أنجبته الأرض غب الغيث ، جنة فينانة فيها الخير والبركة ، والزيادة والنماء ، ومتعة القلب وبهجة خاطر .

كم يعرف العربي في صحرائه المضيئة قيمة هذا التمثيل ؟ ؟ !

ومياه ظاهرة في هذه البوادي ، تجمع الرائح والسارح يشرب فيروى . ويسقي سواه ، ويزيد فيزرع ، كم تكون هذه الأرض نافعة ، وكم يكون الرضا بها والدعاء لها بالخير والصلاح .

أليس طي هذا تجسيم الدين الذي جاء به النبي ﷺ في صورة الغيث المغيث الذي تقام له الأعياد ، وتزف به البشرية عند أهل البادية والبعيدين عن المنابع والأنهار ؟

حسب الطائفة الأقل انتفاعا من أختها دعاء الرسول ﷺ في قوله « نصر الله

أمرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه . فرب مبلغ أوعى من سامع^(١) » وقوله : « فرب حامل فقه إلى من هو أوعى منه » .

إن هذا التمثيل حافظ للعاقل على حرصه أن يكون في الأمثل من هذه الطوائف ، وإن تمثيل الطائفة التي ترفع بالدين رأسا ولم تقبل هدى الله بالطائفة من الأرض التي خابت وخاب قاصدها ، وبارت وباءت بكآبة الوجه ، وحرارة القلب وسوء المصير ، حتى لا يعرف خبرها مرتحل إلا نأي بجنبه حذر الموت - إن تمثيلها بذلك حامل للنفس على الأناة والتهدي ، ودافع لها إلى المقارنة والنظر ، حتى لا تكون في الهالكين .

والحديث الثاني

جملتان متصلتان طلبان : أولهما أمر ، والآخر نهي ، مقابلة ظاهرهما الجمع بين الأضداد وليست جمعا بينهما ، ففيها المخاتلة عن المعنى بتأكيد المعنى أمر بأداء الأمانة متعلق به الجار والمجرور، يشير فيه حرف الجر ضمن الغاية إلى الملك : (لمن ائتمنك) لينفي طمع المؤمن ، ويشير الموصول الذي دخل عليه الحرف بواسطة الصلة الماضية إلى ما يخجله من نفسه إذا أراد أن يخون ، فإنه يخون من وثق فيه ، وعده بالفعل آمينا ، إيقاظا للضمير ، وتمثلا للمودع حال إيداعه الأمانة مفتوح القلب ، آمنا جانب الصاحب .

ثم نهي عن الخيانة . أليس النهي عن الخيانة يتضمن الأمر بالأمانة ؟ إنه تأكيد وتقدير ولكنه لا يقتضي الفصل وترك الواو ، لأن الأمر بالأمانة تخصص بالمتعلق (الجار ووالمجرور) والنهي عن الخيانة تخصص بالمفعول به (من خانك) فتغايرا من هذا الوجه فوجب فصلهما ، انظر إليه لو قيل : (أد الأمانة لمن ائتمنك . لا تخن من خانك) ، أتكون الثانية توكيدا مساويا فتشبهه : (أد الأمانة . لا تخن) أو (أد الأمانة لمن ائتمنك لا تخنه) ؟

(١) تيسير الوصول : ١٥٤ / ٣ .

وإنما كانت تأكيدا على الوجه الأبلغ من جهة المغزى والغرض ، فالخائن لك جان عليك ، وقد نهيت مع جنائته عن خيانتته مجازاة له بمثل عمله ، وذلك يعلى باللزوم شأن الأمانة ويضاعف زكاتها في النفس ، ويقف المؤمن حي الضمير إزاء ما ائتمن عليه ، ولو سنحت له الفرصة في مجازاة الخائنين بمثل ما صنعوا .

ويبقى بعد هذا دوي صراحة الأمر والنهي حول الضمير (أد الأمانة . . لا تخن . .) فيها فعلا مباشران صريحان ، لكل منهما دلالتة الحادة في المعنى ، فالأداء غير الإعطاء ، والإرجاع والإعادة ، والقضاء ، في النفاذ إلى النفس ، وتصوير الحق الواجب الذي لا يحتمل التأخير ، و (لا تخن) غير لا تجاز بالخيانة ، أو لا تعاقب بالخيانة ، لأن فيها ما لا تحمل الأخرى من تفضيع الأمر ، وعد من يجازي الخائن بمثل صنعه خائنا يتجه إليه النهي عن خيانتته ، ثم هما أسرع وأدق مما لو قيل : كن أميناً . . ولا تكن خائناً . أليست هذه الدقائق ومثلها مما يشوق السامع المتأمل ، ويملك عليه خاطره . . ؟

والحديث الثالث

قصة ، والنفوس تسكن للقصص ، والقلوب تهش للحكايات ، فإذا كانت هادفة ترسبت منها بالتأثير أهدافها .

مقدمة

اشترى رجل ممن كان قبلكم عقارا من رجل . . وماذا صنع ؟ . . فوجد الذي اشترى العقار في العقار جرة فيها ذهب . رزق جميل . . فماذا صنع ؟

عقدة :

« فقال للبائع : خذ ذهبك فإنما اشتريت العقار ولم أبتع الذهب . . عجباً لقد فرح البائع بالذهب إذن . . . »

تصعيد للعقدة :

كلا بل رده عنه قائلا : « إنما بعثت الأرض وما فيها » .

الحل :

لم يقبل المتاع الذهب . . ولم يقبل البائع الذهب . . لا بد من رفع القضية للفصل . . . « فتحا كما إلى رجل » ترى كيف حكم الرجل ؟ ولأي دليل استند ؟ إنه لم يجد الدليل فاجتهد ليصل إلى ما يطمئن إليه من عدل « فقال الرجل : ألكما ولد ؟ فقال أحدهما : لي غلام ، وقال الآخر : لي جارية فقال : أنكح الغلام الجارية وأنفقا عليها منه وتصدقا » .

كم كان متهفلا فرحا ذلك القاضي لأن الله وفقه للرأي ، ثم لأن الله وفقه لتحقيق ما اهتدى إليه . . إنها ثمرة الخير والأمانة والعفة في نفوس الجميع .

سطور قليلة استوعبت عناصر القصة في عرض سريع شائق ، لمعادن من الطباع كريمة ، يترسب منها في نفوسنا حسن الأسوة بهؤلاء الأبطال وقوفا عن الشبهات ، وحذرا من طائش الحكم ، وإيماننا بأن أعمال الأبناء يلحق خيرها الأبناء .

مقياس الغرابة (استدراك لازم)

عند الحديث من جهة اللفظ في الأمثلة السابقة حكمنا للكلمات بالبراءة من الغرابة ، وعرفنا فيما أسلفنا أن العلماء قد ألفوا كتباً قيمة في غريب الحديث . وقارئ السنة يرى أفصح الصحابة يسأل النبي ﷺ عن الكلمة يسمعها منه ، وكل ذلك يثبت الغرابة في حديثه فكيف نفيها ونشبتها ؟ .

أما الكلمة يسمعها الرجل فيسأل النبي عنها فلعله لهذه الأسباب أو شبهها :

١ - أن الصحابي - وإن كان عربياً - لم يحط بمفردات اللغات كلها لاختلاف بعضها في الدلالة باختلاف الجهات ، ولانفراد بعض الأصقاع بوضع لفظ لا يوجد في سواه ، ولتعدد اللهجات التي يشتهبها المفرد فيوهم التعدد ، مما دعا الشافعي

رضي الله عنه أن يقول في أول رسالته : لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلم أن يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي^(١) .

٢ - تجدد المفاهيم إذ أمت الإسلام ألفاظا ، وابتدع معاني لألفاظ خصصتها ونقلتها عن مألوف ما حفظه العرب كالصلاة ، والزكاة ، والحج . . . ومن أمثلة ما أتمته ما نهي عن قوله : ففي الحديث لا تقولوا : دع دع (وهي كلمة كانت تقال للعائر كما في القاموس^(٢)) ولا لع لع ولكن قولوا : اللهم ارفع وانفع^(٣) .

٣ - رغبة الصحابي في التأكد من المفهوم لعله يجايد ما فهم ، لأنه لا يوحى إليه ما يوحى إلى النبي ، ولا يكشف له كل ما أراد .

٤ - تأدب المتعلم بإظهار الثقة وإبداء التواضع في صورة العجز .

٥ - رفع الحرج عن حاضر في المجلس غافل لتنبهه ، أو جاهل لتعليمه ، أو مستح ليأنس بالسائل .

أمثلة من أسئلة الصحابة

١ - قال عليه الصلاة والسلام « لا يكن أحدكم إمعة . قيل : وما الإمعة ؟ قال : الذي يقول : أنا مع الناس^(٤) إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت .

٢ - قال البراء رضي الله عنه : لما صالح رسول الله ﷺ المشركين بالحديبية - صالحهم على أن يدخل هو وأصحابه مكة من قابل ثلاثة أيام . ولا يدخلونها إلا

(١) المزمهر : ١ / ٦٥ .

(٢) القاموس المحيط .

(٣) المزمهر : ١ / ٧٠ .

(٤) تيسير الوصول ٢٦٨ / ٤ .

بجلبان السلاح فسألته : ما جلبان السلاح ؟ قال : القراب بما فيه^(١) .

٣ - وقال ﷺ : « تراصوا في الصلاة لا يتخللكم الشياطين كأنها بنات حذف ، وروى : أقيموا الصلاة لا يتخللكم كأولاد الحذف قيل : يا رسول الله وما أولاد الحذف ؟ قال : ضأن سود جرد صغار تكون باليمن « كأنها سميت حذفا لأنها محذوفة عن مقدار الكبار^(٢) .

(١) الفائق : ١ / ١٠٦ .

(٢) الفائق : ١ / ١٢٥ .

الغربة عند البلاغيين

وضع علماء البلاغة من المتأخرين مقياسا لفصاحة المفرد ، وهو خلوصه من تنافر الحروف ومن الغرابة ، ومن مخالفة القياس .

عرفوا الغرابة بأن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ، فيحتاج في معرفته إلى أن يبحث عنها في مطولات المعاجم .

والذي يفهم من هذا أنهم قصروا الفصحح غير الغريب على قاموس خاص ، كلماته هي التي درجت على الألسنة ، وأقلام العصر ، حتى شاعت فعرفت للأوساط من المثقفين .

والحق أن هذا المقياس ينبغي أن تترىث في قبوله ، لأنه يخرج عن الفصاحة - لو اعتبرنا به - عيونا من الكلمات التي راجت في شباب العروبة وزهو العربية ، بل يخرج ما لا يسبغ العربي الغيور خروجه من ألفاظ الحديث النبوي الشريف والكتاب العزيز ، وخطب الراشدين ومن إليهم في صدر الإسلام والعصر الأموي على الأقل .

أفيكون من الفصحح بهذا الاعتبار ذلك النص :

« لما قدمت عليه صلى الله عليه وسلم وفود العرب قام طهية بن أبي زهير الهندي فقال : أتينا يا رسول الله من غور تهامة بأكوار الميس ، ترمي بنا العيس ، نستحلب الصبير ، ونستحلب الخبير ، ونستعضد البرير ، ونستخيل الرهام ، ونستحيل - أو نستحيل - الجهام ، من أرض غائلة النطاء ، غليظة الموطاء ، قد نشف المدهن ، ويبس

الجعثن ، وسقط الأملوج ، ومات العسلوج ، إلى آخر حديثه . ورد النبي ﷺ ،
ثم تحميلة هذا الكتاب إلى بني نهد :

« من محمد رسول الله إلى بني نهد بن زيد .

السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة ،
ولكم العارض والغريش وذو العنان الركوب والفلو الضبيس ، لا يمنع سرحكم ولا
يعضد طلحكم ، ولا يجبس دركم ، ما لم تضمروا الإماق ، وتأكلوا الرباق من أقر
بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ، ومن أبي فعليه
الربوة»^(١) .

رأينا كثيرا من الكلمات بحاجة إلى المبسوط من كتب اللغة ، وقارىء السنة في
الصحاح والمسانيد يرى هذا واضحا ، مما استدعى الحريصين على دينهم ولغتهم أن
يضعوا كتبهم في شرحه وإفراجه ، وما يقال في السنة يمكن أن يقال في غيرها من
عيون الشعر والنثر .

وإذا كان القرآن المعجزة الخالدة في الفصاحة قد ألفت الكتب في شرح غريبه
فقد ثبت أن مقياس الغرابة عند البلاغيين فيه محاباة كثيرة لجهالة المحدثين بلغة
الأسلاف ، وقد فطن إلى ذلك المرهفون منهم . فقال السبكي في (عروس
الأفراح) : « ينبغي أن يحمل قوله :^(٢) (الغرابة) على الغرابة بالنسبة إلى العرب
العرباء (الصرحاء) لا بالنسبة إلى استعمال الناس ، وإلا لكان جميع ما في كتب
الغريب غير فصيح ، والقطع بخلافه^(٣) .

وإنه لمن أحسن الحسن ما صنع البشري والرافعي والزيات وأمثالهم - غفر الله

(١) الفائق : ٣ ، ٤ ، ٢ .

(٢) يزيد (الخطيب صاحب التلخيص) .

(٣) عروس الأفراح من شروح التلخيص والمزهر ١٨٧ / ١ .

لهم - من إحياء طائفة كبيرة من المفردات التي يحكم عليها العصر بالغرابة لو أتبع
قياس البلاغيين .

والذي ينبغي أن يفهم من ميزان فصاحة اللفظ أن يكون عربيا متأكد
الصحة ، وأن يكون أدل المفردات على معناه في التركيب ، متجانسا مع النسق في
جرسه ، وبذلك لا نستوحش غريب القرآن ولا الحديث ، إذ القرآن هو المعجزة
الكبرى ومن آلتها العبارة ، والحديث هو المعجزة الأخرى بماله من خواص أعلاها
الفصاحة التي صرح بها النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي تكرر ذكره :
(أنا أفصح العرب) فسلم له الأعداء كالأحباب لأنه يخاطب النائين عن قريش
بأفصح لسانهم فلا يكبو بيانه ، كما يخاطب خاصة أهله الأذنين مؤيدا بالوحي معانا
بالعصمة .

وسائل التقرير الفعلية

للإشارات والحركات والأفعال دلالة عميقة في إيضاح المعاني وترسيخها في
النفس ، ودارس الحديث النبوي يرى من ذلك الشيء الكثير الذي يدل على
اهتمامه البالغ ﷺ بوسائل الإيضاح في تعليم أمته ، وشغل الحاسة مع العقل في
لباقة تحول التلميذ بكل ما فيه إلى المعلم الحريص على سيطرته في درسه ، وقد
يكون الفعل قبل العبارة لافتا ومشوقا ، فإذا تبعه البيان ازداد الغرض تقررا لا
يسهل في العادة نسيانه ، فإذا ظن به النسيان كذبت الظن المناسبة الخفيفة التي
سرعان ما تبرزه جليا كيوم تلقيه ، وهذه أمثلة من تلك الوسائل النبوية التي رافقت
حديثه الكريم عليه السلام :

١ - عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أنا وكافل

اليتيم في الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما»^(١) .

(١) تيسير الوصول : ٤٩ / ١ .

٢ - « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً - ثم شبك بين أصابعه » (١) .

٣ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « خط رسول الله ﷺ خطاً مربعاً ، وخط خطاً في الوسط ، وخط خطاً خارجاً منه ، وخط خطوطاً صغيراً إلى هذا الخط الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال : هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به - أو قد أحاط به - وهذا الذي هو خارج أمله ، وهذه الخطوط الصغيرة الأغراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا » (٢) .

٤ - عن أنس رضي الله عنه قال : خط رسول الله ﷺ خطاً وقال : هذا الإنسان ، وخط إلى جانبه خطاً وقال : هذا أجله ، وخط آخر بعيداً منه وقال : هذا الأمل فبينها هو كذلك إذ جاءه الأقراب (٣) .

٥ - عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « هل تدرون ما مثل هذه وهذه ؟ - ورمى بحصاتين - قالوا : الله ورسوله أعلم : قال : هذا الأمل ، وهذا الأجل » (٤) .

٦ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثاً . قلنا : بلى . قال : الإشراف بالله وعقوق الوالدين ، وقتل النفس - وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » (٥) .

ويلحق بهذا سكتاته ﷺ بين أجزاء القول بوجه ملحوظ . نقل ابن حجر عن القرطبي قوله في خطبة حجة الوداع : أي يوم هذا ؟ « قال القرطبي : سؤاله ﷺ عن الثلاثة وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهمهم ، وليقبلوا عليه

(١) المجموعة النجدية : ٣١٠ من كتاب الكبائر

(٢) تيسير الوصول ٤٣ / ١ وما بعدها .

(٣) تيسير الوصول ٤٣ / ١ .

(٤) تيسير الوصول ٤٣ / ١ .

(٥) تيسير الوصول ١٣٥ / ٤ .

بكليتهم ، وليستشعروا عظمة ما يجرون عنه ، ولذلك قال بعد هذا : فإن دماءكم إلى آخره مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء (١) .

خصائص التقرير اللفظية

الأساليب العربية - بعد المظاهر العامة للتقرير - تتكىء على ركائز من أدوات ظاهرة أو أدوات مقدره ، أو أنواع من التأليف تحسب كلها وسائل هامة تفيدها اهتمام المتكلم بالخبر الملقى أو الطلب المرغوب ، وتزيل من حوله الأسباب الظاهرة أو المحتملة من الش والجحد ، تثبيتاً له في عقول المخاطبين .

والبيان النبوي الكريم يكثر من استعمال هذه الخصائص حول أخباره وإنشاءاته ليحقق المنشود ويبلغ المراد من دعوته ، وها هنا نسوق طائفة من هذه الخصائص التي قرر عليه السلام بها الدين في نفوس المؤمنين .

١ - التأكيد

الاهتمام بالشيء وانفعال النفس به يستوجب ضرباً من تأكيده ، امرأ أو نهياً ، أو خبراً يستلزم طلباً ، أو خبراً يقع في الجواب .

ويمكن حصر أسبابه في أمور :

١ - إنكار المخاطب أو شكه .

٢ - تنزيه منزلة المنكر أو الشاك .

٣ - إنكار غير المخاطب أو شكه .

٤ - كون الخبر غريباً أو مهماً عند المتكلم .

(١) فتح الباري ١٦٨ / ١ والثلاثة المشار إليها في كلام القرطبي هي (اليوم والشهر والبلد) التي وردت مسؤلاً عنها في الحديث .

وضروب التأكيد والتقريب مختلفة ، منها اللفظي الذي يتأدى بتكرار اللفظ ، والذي يؤدي بأداة من أدواته المعروفة ومنها المعنوي الذي يفهم من تكرار المعنى في صورة كلية أو جزئية من صور كمال الاتصال أو صور الإطناب . . . إلى غير هذا مما عرفه الأسلوب العربي وحرصُ النبي ﷺ على تقويم سلوك المؤمنين ونجاح مصيرهم عامل نفسي يتحرك به بيانه الشريف مع هذا النحو ، على أحكم ما يكون البيان دقة في النسق وإحكاما للربط ، وموافقة للداعي المثير تأثيراً في القلوب .

التأكيد اللفظي

والتأكيد اللفظي أظهر أنواع التأكيد وله طريقان : أن يكون بأداة وضعتها اللغة أو العرف البلاغي لإفادته ، وأن يكون بإعادة الجملة أو شيء منها على الوجه الذي يلمس المتكلم حاجة المعنى إلى إعادته .

والإعادة والتكرار^(١) سنة بيانية من سنن العرب ، جاء عليها القرآن الكريم والحديث الشريف ، قال السيوطي في مزهره : من سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر .

قال الحارث بن عباد :

قربا مربط النعمة مني لقت حرب وائل عن حيالي
فكروا قوله « قربا مربط النعمة مني » في رؤوس أبيات كثيرة عناية بالأمر ، وإرادة الإبلاغ في التنبيه والتحذير^(٢) .

وهذه الغاية التي يقصد إليها المعلم المعصوم يصرح لنا بها (أنس) رضي الله عنه إذ يقول : كان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه^(٣) .

ويضع صحيح البخاري باب إعادة الحديث بهذا العنوان « باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه » فيذكر الخصيصة والعلة ، ويزيد الخطابي فيقول : إعادة الكلام ثلاثاً إما لأن من الحاضرين من يقصر فهمه عن وعيه فيكرره ليفهم ، وإما أن يكون القول فيه بعض الإشكال فتتظاهر بالبيان ، وقال أبو الزناد : أو أراد الإبلاغ في التعليم والزجر في الموعظة^(١) .

وهذه أمثلة من البيان النبوي تمثل هذه الظاهرة الأسلوبية :

في مقام التهيب : للإلذار والتهديد

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « رغم أنفه . رغم أنفه . رغم أنفه . ! »

قيل من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة^(٢) .

نجد في هذا الحديث جملة دعائية بالفعل الماضي تأكيداً للوقوع لو لم يكررها الرسول لكفى بصاحبها خيبة وخسرا ، وتكرر ثم تتكرر حتى يخفق قلب السامع ، ويستولي عليه الرعب والفرع إشفاقاً على نفسه ، أن يكون ذلك الراغم الأنف ، وقد أهبهم الحديث بيانه فأضممره غائبا قبل الذكر حتى يستثير النفس بالانتباه ، والنفس طلعة بطبعها إلى من يصدر عليه الحكم ، وقد فزع الصحابي لأنه لا يطيق الأنتظار ، فبادر بالسؤال فأجابه عليه السلام إن هذا المحروم الشقي هو عاق الوالدين أو أحدهما عند الكبر ، وهو يزيد ذلك توكيدا من قبل اللزوم ، فينسب إدخاله الجنة أو عدم إدخاله إلى الوالدين كأنها يملكانه تماما ، أترى ملء الصحائف نصحا ببر الأبوين وبيانا لحقها أجدى في بيان العاقبة من هذا الحديث الذي كانت كلماته مع المكرر زهاء العشرين .

(١) اقرأ كتاب (التكرير بين المثير والتأثير) للمؤلف .

(١) عمدة القارئ ١١٥ / ٢ ط منير الدمشقي .

(٢) تيسير الوصول ٤٥ / ١ .

(٢) المزهر ٣٢٢ / ١ .

(٣) تيسير الوصول : ١ / ١٩٨ .

٢ - وحين يخف الانفعال ، وتهتأ نفسه الكريمة ، ويتعدد المهددون يفرق الجملة الدعائية بينهم فيقول : رغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ ولم يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك أبويه أو أحدهما وهو حي ولم يدخله الجنة ، ورغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي^(١) .

كان من الممكن أن يسبق الدعاء مكرراً كما في الحديث الأول ، ثم يعطف بعض الرجال على بعض فيسري الحكم إلى الجميع ، كما هو مقتضى التشريك بالواو ، ولكن تجديد التهديد مُصَرَّحاً به مع كل صنف أدل على عقابه وعظم جريرته ، ثم هو أنفى لإيهام أن السابق أولى بالعقاب من سواه ، فرب واهم يقول : ليس صيام رمضان صياماً كاملاً مكفراً للذنوب - وفيه ما فيه من المشقة وضبط النفس - مساوياً صلاة على النبي ﷺ إذا ذكر وهي أمر لا مشقة فيه ، فلا يكون المفرط هنا كالمفرط هنا .

وكان الحديث قد رد على الواهم بالتسوية بينهما حينما جعل الكلام من عطف الجمل لا المفردات بتفريق الدعاء وتجديده مع كل صنف .

أليس إهمال الصلاة على النبي ﷺ عند ذكره جحداً لحقه . . ؟ أليس مغبوناً من يحرم البر بترك جملة لا مؤنة فيها على اللسان . . ؟

هل يرجى كسول عن بر النبي عليه السلام - بالصلاة عليه حين يذكر اسمه - ليجاهد في سبيل الدين أو الوطن بنفس أو نفيس ، أو ليصلي أو يصوم ؟ ألا رغم أنفه رغم أنفه .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً . قلنا . قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس . وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت^(٢) .

نجد في هذا الحديث أموراً من التوكيد أظهرها التكرار في جملة العرض السابقة للتشويق وبعث الإهتمام إذ قالها ثلاثاً . ولما كانت هذه الكبائر مقررة بالكتاب مقررة بالسنة في وصاياه اكتفى بذلك العطف بينها ، لأنها ليست كل المقصود ولا أهم المقصود لظهورها ، فجعلت كالتمهيد لما يلي ويصور الصحابي مدى ما صعّد إليه اهتمام النبي ﷺ ، حتى نتصوره غاضباً جاهراً بالصوت ، محمر الوجه ، مشيراً بيديه ، مهتزازاً بجسمه ينذر بالعذاب ، ويهدد بالسخط !

يصور هذا بانتقال مفاجيء من حال الانتكاء إلى حال الجلوس لا ليكون ترويحاً من وضعه الأول ، ولكن ليكون نذيراً بأن شيئاً خطيراً سيحدث .

عبارة قصيرة تتبع هذه الأنفاضة : « ألا وقول الزور ، وشهادة الزور » فارتقت الكبائر الأولى مع ما فيها من الشرك بالله : فارتقتها بأنها سبقت بعمل يقسر الانتباه ، وبأداة تساوق العمل في مغزاه ، وهي (ألا) ثم كررت مرات لم يقدر الصحابي على حصرها .

أترأه عليه السلام لو قالها عشر مرات كان يعي عدها الصحابي ؟ .
ربما كان العدد أقل من ذلك . فماذا نفهم إذن ؟

نفهم أن الصحابي وإخوانه قد أخذوا وكادت قلوبهم تسقط فزعاً وتنخلع إشفاقاً على أنفسهم وعلى إمامهم وحببيهم عليه السلام فلم ينتبهوا لعددها .

أليس يقول الراوي : « حتى قلنا : ليته سكت ؟ » ، فقد كان سكوتة ﷺ مَتَمَّنِيَّ محبوباً ، يشغل نفوسهم إشفاقاً عليه من انفعاله ، وعليهم من غضبه .

أترى الناس يعرفون هذا التأكيد البالغ ، وهذا التقرير العجيب الذي جعل الزور فوق الشرك ؟ أليس الكفر بالله نوعاً واحداً من قول الزور وشهادة الزور ؟ وهل هذه الكبيرة خاصة بالتقاضي ؟ ما أحوجنا في أهلينا ومجتمعنا وأداء وظائفنا إلى البراءة من قول الزور وشهادة الزور .

(١) تيسير الوصول ٢٦٩ / ٤

(٢) تيسير الوصول ١٣٥ / ٤

٤ - عن أبي بكر رضي الله عنه قال : « أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ فقال : ويحك قطعت عنق صاحبك قال له ثلاثاً ثم قال من كان مادحاً أخاه لا محالة فليقل : أحسب فلانا والله حسيبه ، ولا يزكي على الله أحداً ، أحسب فلانا كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه (١) » .

صدر البيان الكريم بجملتين متتابعتين تكررنا ثلاثاً ، لأنها معلول وعلته (ويحك قطعت عنق صاحبك) أما ويحك « ففي حكم الجملة لأنه هنا مصدر منصوب على المفعول المطلق بفعل محذوف يقدر من مادة أخرى وإضافته إلى الكاف لتعيين المخاطب ، والمقصود به الدعاء ، وهذا رأي (سيويه) ويرى (الفراء) أنها كناية عن (ويلك) وهي كلمة تقال عند الشتم والتوبيخ معروفة ، وكثرت حتى صارت للتعجب يقولها أحدهم لمن يجب ولن يبغض (٢) ، وقد يقال : إنها للترحم كما في القاموس المحيط : « ويح لزيد ويحاله كلمة رحمة » (٣) .

ونخلص من هذا إلى أنها إما دعائية على المخاطب ، وإما تعجبية من صنعه وإما للإشفاق عليه ، وهذه الأمور كلها يستلزمها ما ارتكبه من أمر خطير يسمعها في مستهل رد النبي عليه السلام فيستشرف مبهوتاً لأمر لم يحتسبه ، ويبين ﷺ علة الدعاء أو التعجب أو الإشفاق مصوراً ثناء مخاطبه ومدحه صاحبه بصورة الجريمة الكبرى : قطع عنق الممدوح ، وحسبك بأن يكون قطع العنق من صاحب لصاحبه ، إنه غاية في الشناعة . هل ثناء الإنسان على الآخر يشبه قطعه عنقه ؟

هل هو أمر خطير يستحق الدعاء ، أو العجب ، أو الإشفاق ، المكرر ثلاث مرات ؟ الرسول المعلم المثالي ﷺ ، يربي المؤمنين على الحيطة والحذر والأناة وضبط اللسان ، صوناً للعقيدة وبراءة من الكذب في صورة ما ، ومن الناس منافقون تسكن الذئاب الخاتلة لين أبشارهم وخافض أطرافهم ، والثناء شهادة ، فإذا كانت

(١) تيسير الوصول : ١٦٧ / ٤ .

(٢) شرح المفصل ١٢١ / ١ .

(٣) القاموس المحيط ٢٥٦ / ١ .

لأحدهم ربما غرت طائفة من الخلق تضيع في مخالبتهم إذا خلّوا بهم ، ألا تكون شهادة مضلة ؟ أما توقع صاحبها من بعد في الأسف والاعتذار الشديد ؟

والمؤمن كيس فطن حذر وقاف ، أما كان يحسن أن يتحول عن صيغة الثناء بالجزم إلى لفظ يبرئه من الظنة ، ويجافيه عن التهمة ، ويبعده عن الأسف والاعتذار ؟

هنا يجيء البيان الكريم كالقانون الناشيء من واقع الحادث ليعصم من جديد يحدث . يأمرهم بالاحتباس حتى لا يزكوا أحداً على الله ، يعلم الله سره ونجواه - إلا أن يقولوا نحسب فلانا صالحاً إذا ثبت في علمهم صلاحه ، وهذا من الرسول عليه الصلاة والسلام إشارة واضحة إلى أن علمنا بواطن الناس مهما صاحبناهم لا يزيد عن الظن في إثبات الصفات أو نفيها ، لأنه علم من الظاهر الذي تمكن المصانعة فيه والصبر على التظاهر به .

ولمحة لطيفة أخرى في الحديث ، هي من جنب التأكيد لتترك الثناء الأنف الذكر يفيدها قوله الكريم : « من كان مادحاً أخاه لا محالة » ليست تساوي : من ألبأته الضرورة إلى مدح أخيه ؟ .

إنه يؤكد طلب نزاهة المؤمن عن التورط في الشهادة إلا بحقها ، وعند الحاجة إليها ، إذ أن فريقاً آخر من الناس لا يجرمهم المدح إلى الغرور فيقتلون أو يخدع بهم جماعة من الناس فيوبقون - فريقاً مؤمناً ينجل من الثناء فيربو به نور الإيمان في وجوههم من أثر الحياء في قلوبهم ، أولئك من مفر من مدحهم ، ليزيدوا من نشاطهم في الطاعة والتحصيل فينتفع الدين والوطن بمثلهم ، ولكن على هذا الطراز المرسوم : أحسب فلانا ، والله حسيبه .

٥ - عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم قالها ثلاثاً ، قلت خابوا وخسروا يا رسول الله من هم ؟ قال : المسبل ، والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » .

ثلاثة . . نكرة منونة مبدوء بها الكلام ، لا يعلم معنى تنكيرها لما هي عليه من إبهام « لا يكلمهم الله » يظهر الآن معنى التنكير ، وهو التحقير إلى درجة الحرمان من أسمى الخير .

أربع جمل موصولة تتصف بمجموعها النكرة ، ثلاث منها سلب يجرّد النكرة من أجر الثواب وصالح العمل ، وأوفى في الثواب (كلام الله - نظره سبحانه يوم القيامة - تزكية الله) وهي جمل فعلية مضارعية تدل على أمرين أولاً : على التجدد أي الحصول بعد العدم ، وقد انتفى عنهم أزلاً فانتفى أبداً لا لسذواتهم ولكن لصفاتهم الموجبة للحرمان .

وثانياً : تدل على مثوبة المؤمن وكرامته الذي تتجدد له هذه الجزاءات ثبوتاً ، لأنه بريء من تلك الصفات .

ثم تتقرر الجملة الإسمية الأخيرة ، وهي للدوام والثبوت في ذاتها - بتقدم المسند وهو الجار والمجرور على المسند إليه ، ثم بوصف المسند إليه وصفاً على المبالغة ، (وهم عذاب أليم) فتقطع كل وهم يستبقي لهم شيئاً قليلاً من الأمل ، أيكون من سلب تلك المكارم جديراً بغير ذلك العذاب ؟

الجمل الموصولة الثلاث يلزم بعضها بعضاً من جهة المعنى ، فكل مفهوم يؤكد ما سبقه ، فالمحروم من رحمة كلام الله ومتعة إقباله عليه محروم - لا شك - من نظره إليه ، ومن لا يكلمه الله ولا ينظر إليه غضباً لا يكون محل تزكيتته ثم من كان كذلك كله ليس له إلا العذاب الأليم .

لكنها وصلت بالواو ، أما أولاً : فللتناسب وعدم المانع ، وأما ثانياً : فلأن العطف كما يقولون يقتضي المغايرة ، والمغايرة حاصلة بالتنوع لأنها ألوان من العذاب بعضها غير بعض ، وكونها كذلك أشد في الإيجاع وأدل على الجريمة ، فالكلام غير النظر ، والتزكية أعم من أن تكون كلاماً : هذا كله كرره البيان النبوي ثلاث مرات تكريراً لفظياً يوجهه التقرير ، للإنداز والوعيد في مقام التهيب

ليقتلع جذور الشر الموجبة للحرمان ، وليقي الأصحاء أن يختلس الشيطان قلوبهم فيمرضوا فيموتوا .

إن الثلاثة ما يزال أمرهم مبهماً ، وإن الوعيد والسخط ليعظم . . !

لم يصبر أبو ذر تقاة من شرهم واطمئناناً على سلامته ، ولذا بادر فأخبر عنهم بالخيبة والخسران تصديقاً للصادق المصدوق ثم سأل : من هم ؟ فأتى البيان بالصفات الموثقة :

١ - المسبل : يكتفي به عن المتكبر المتعالي الذي ينازع الله رداء عظمته وينسى أنه إن يسلبه الذباب شيئاً لا يستنقذه منه ، وأنه يخلو كل يوم مرات لينجو من شر ما فيه .

٢ - المنان : الذي يعطى ما استخلفه الله فيه من الرزق فينسى أنه وماله ملك الله ، فيفسد ما أعطى ، ويبطله بالمن والأذى كفراً بأنعم الله ، وإذلالاً للكرماء من خلقه ، أو يقدم - بمعونة الله طاعة له - خدمة لخلقه ، فيمحقها فيبدلها بالحديث عنها تيهاً وإعجاباً .

٣ - المروج سلعته بيمين فاجرة كذوب ، يقتطع بها عرضاً فانياً ويخسر دينه ، لأنه غاش أولاً ، ويروجها بإسم الله ثانياً .

وهذه الثلاثة يسيرة في الظاهر عند كثير من الناس لا يظنون بها ذلك الخطر الخطير ، وأن جانباً كبيراً من هذه الخطورة قد ساعد على تصويره التقرير بالتكرير كما تبين فيما سبق .

التكرار في مقام الترغيب للاغراء والإكرام

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . (١)

بعد الإجابة الأولى أراد السائل أن يعرف من يلي الأم في زيادة الحرمة وأحقية حسن الصحابة فأراد عليه السلام أن يقرر في نفسه واجب حسن الصحابة للأم ، فأعاد الجواب السابق ، ولم يتوقع أنه إذا سأل للمرة الثالثة عن التالي للأم في ذلك أن يجيبه بنفس الجواب . ولكن هذا الذي قد كان .

ويعني ذلك منه عليه السلام تأكيد حق الأمومة تأكيداً لا يتأتى معه غبن ، وإذا كان الله سبحانه قد سوى بين الوالدين في خفض جناح الذل من الرحمة ، وفي الإحسان العام إليهما ، وعدم الخروج عليهما بالتأفف من حال يضيق بها الابن منها - فقد خص الأم بالحمل كرها والوضع كرها ، وبالحمل وهنا على وهن ، وذكر الزمن الذي هو أشد عليها من عمر ولدها أجمعه، فقال : وحمله وفصاله ثلاثون شهرا « ليبين كم في هذه الثلاثين للأم من سهر وضنى يكفل لها - لو انفرد - أن تستحق المكافأة بأعظم البر والحنان ، ولذلك نرى أن تكرار اللفظ النبوي في الجواب حتى ذكر ثلاث مرات كالتنبيه لهذه الثلاث : الحمل كرها ، والوضع كرها ، والفصال وما فيه من المشاق فإذا لوحظ أن السائل كان يعطف جملة السؤال بـ (ثم) نشعر من صنيعه أنه كان يريد النقلة بعيداً عن الأبوين ، ظناً منه أن عرفان حقها أمر مفروغ منه فكان تصدير الجواب بنفس الأداة انتقالاً بالسائل إلى مرحلة أبعد مما

يعرف من حق الأم لأنه أعلى وأكد من صورة عامة تدور في خلدته ، فالجنة تحت أقدام الأمهات ، كما أخبر المعصوم في حديث آخر ، ليجعل أنظار قلوبنا تحت أقدامهن هضما للنفس وخفضا للجنح مهما كان حظهن من نقص الثقافة وحظنا من علوها ، وحتى لا نؤثر عليهن عزيزا من مال أو زوج أو ولد ، فالإجابة الأولى هي حق السائل المستعلم ، والثانية هي حق السائل المستشرف جديدا والمشعر للمسؤول بهذا المراد ، إذ لو لم يكن كذلك لأتى برابط غير (ثم) كالواو أو الفاء والإجابة الثالثة هي حق السائل الذي بلغ الغاية من الانتظار وإيراد الرسول عليه كل ذلك بالجملة المقدر صدرها إيجازاً أولاً ، والخالية ثانيا وثالثا من خصيصة التأكيد بالأداة ، إشارة لطيفة إلى أن هذا - وإن دق - أمر مما يجب أن يعلم ، وقد اكتفى بتصعيد واجب الأم إلى هذا الحد بالتكرار المقرر لهذا المراد .

وإذا كان الأب وهو من هو في حياة الولد وأمه وقع في رابع المنازل وآخرها ، فوقوعه كذلك يطبع واجب الأم السابق بطابع الجزم ، فليس فيه جوح بالخيال ولا غلو ، فالبنت الفطيم تتخذ من الدمى أولادا ، ثم يعيش هذا في خيالها أملا عزيزا ، فإذا تأخر بعد الزواج حملها شقيت بأملها إلى أن توهبه ، فإذا وهبته كان مسكنه أحشاؤها تنال فيه من الجهد ما تنال ، فإذا طالعتها بعد الجهد والضحى تفجر له ثديها بالغذاء حنانا وعطفا ، وارتبط حسها بحسه : ببيغامة ، وإشارته ، ونظرتة في الغضب والرضا ، أيكون الرسول عليه الصلاة والسلام مع هذا غاليا فيما أوجب من جعل حقها أعلى وأكد مما سواه ؟ .

٢ - عن عبد الله بن مغفل من صحيح الترمذي قوله ﷺ : « الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاني فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»^(١) .

صدر هذا الحديث تكرر فيه اللفظ الجليل لتأكيد التحذير ، أو لتأكيد

الإغراء ، يساعد المعنى على تقدير أحدهما ، فيكون على معنى : احذروا غضب الله بسبب النيل منهم باتخاذهم غرضا ، أو يكون على معنى : إلزموا تقوى الله بسبب إكرامهم ، وعلى كلا الوجهين فالتحذير المكرر أو الإغراء المكرر يدل على إعظام السبب وإكباره ، ويستلزم إكبار الصحابة وإكرامهم على وجه التأكيد .

ثم في باقي الحديث نجد ألفاظا أعيدت - وهي وإن كان تكرارها يستلزمه بناء المعنى على المكرر - تقرر تكريم الصحابة ، وتزيد من إكبارهم : « من أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم » والمقابلة بين الجملتين تحمل معنى التأكيد في تصوير اتحاد شأنهم بشأنه حبا وبغضا ، وهذا الاتحاد ارتفاع إلى درجة أعلى في تقرير السبب الذي من أجله حذر أو أغرى ، وارتفاع بالتشجيع والتفطيع لاتخاذ الصحابة غرضا يرمى ، وليس هذا آخر تأكيد ، بل يصعد الرسول ﷺ المعنى فينقل ذلك الاتحاد بين حبه وحب صحابته إلى درجة أشد مهابة وجلالا ، لا يعبر عنها بصريح لفظ المحبة .

أما أولا : فنزاهة للأسلوب من كثرة التردد اللفظي على وتيرة واحدة . وأما ثانيا : فلأن ذكر اللازم الدال على هذا التصعيد يؤكد الربط بالمحذر منه أو المغرى بتفاديه في الكلام السابق ، حتى تظل أو اصر النسق متلاحمة . ذلك السابق هو : لا تتخذوهم غرضا بعدي « إنه يساوي : لا تؤذوهم في الدلالة العامة ويزيد معنى القصد ، لأن اتخاذ الشيء غرضا يدل على العمد ، ويترتب عليه جملة « من أبغضهم » كالتعليل له ، تأكيدا لهذا القصد ، وهنا نجد النسق قد حصل على الموازنة المعنوية في جانب البغض وجانب الحب ، فقلب واحد لا يحمل حب الرسول وبغض أصحابه ، لاتحاد البغض للصحابة بالبغض للرسول .

والدرجة التي هي أشد مهابة وجلالا في تصعيد المعنى حتى يكون عند قمتهما صدور الحكم بالجزاء - هي إيصال الأذى إلى الله ، لأن الله ورسوله وأصحاب رسوله في جهة واحدة ، من قصد إلى واحد منهم بحبٍ قصدهم جميعا فكان معهم ، فالله يقول ﴿يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ ويقول : ﴿ولله

العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴿ وخاصة المؤمنين صحابته . . . ولأن في الجهة الأخرى
المبغضين والمؤذنين الذين حقت عليهم كلمة العذاب بذلك السبب من بغضهم .

فالبيان الكريم يحدونا على درج مريح إلى قمة الحكم نشرف منها على الغرض
منه ، وكم حمل من آيات التأكيد والتقرير ، إعلاء لشأن الصحابة واحترام حقوقهم
من الإمامة والسبق ، وعرفانا لحرمة التفاهم حوله عليه الصلاة والسلام ، تنعكس
على قلوبهم انطباعاته قولاً وفعلاً وتأثراً ، ثم تفيض علينا ديناً وجهاداً وبدلاً .

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ألا أدلكم على ما
يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إسباغ
الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ،
فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط (١) .

أي عبد ما ألم بالخطيئة من قول أو فعل ؟ وأي عبد يسره القيد على الخسف في
مكان لا يعلو ؟

يعرض الرسول عليه السلام على أمته ممثلة في أصحابه ، معرفة أمور تمحو
الخطايا وترفع الدرجات ، ليستشير كوامن شوقهم ، وليبعث عظيم انتباههم وهم
أشد الناس خوفاً من صغير الذنب ، فضلاً عن كبيره ، وأعظمهم حرصاً على
الصعود في معارج الجنات .

والرسول يستطلع هذا الانتباه في التفاتهم وجوابهم ، فيبين لهم أن أموراً ثلاثة
يعتقد أنها يسيرة - وهي يسيرة على من يسره الله للفلاح - تكفل تلك الغاية العليا
التي يطمح إليها كل مؤمن غيور .

وقد يكون أمر الصحابة أنهم لم يجدوا فيما نبههم إليه جديداً ، ولم يذهب بهم
عنه بعيداً فيفتقر الأثر في نفوسهم ، ولكن النبي ﷺ يرشدهم بما لا غاية فوّه من

التقرير والتأكيد إلى فعل هذه الأعمال مع يسرها ، ليرسخ في العقيدة ، ويظل
حاضراً في القلب ، وكأنه يقول : إذا عرفتم ذلك فذلكم هو الرباط .

ورباط الخيل كناية عن عسكرة الجيش استعداداً للمفاجأة بالغزو أو الدفاع .

ما أدق التمثيل في البيان الكريم ، وما أدق النسق ، إن اسم الإشارة يدل على
التفخيم ، وزيادة الميم زيادة في تنبيه المخاطبين لإفادتها اختصاص الإشارة به
إليهم ، ثم وقوعه مسنداً إليه ، والمسند معرف باللام (الرباط) يفيد قصره عليه ،
وكانه يقول : لا رباط إلا ذلكم المشار إليه لكمال المعنى فيه ولئلا تتوهم المجازفة في
الإخبار عنه بهذا الخبر مع ما للجهد المسلح من فضل ظاهر ، قطع تكرار العبارة
كل وهم ، وأكد ذلك المعنى تأكيداً لاسباغ للشك بعده .

إن رباط الجيش فرض كفاية ، والصلاة بأوقاتها فرض عين .

وإن رباط الجيش فترة لها غاية ، ورباط المؤمن للصلاة مد الأجل .

وإن رباط الجيش لحرب عدو هو الإنسان أخو المحارب في الجنس وعسائه أن
يسلم أو يستكين ، ورباط المؤمن للصلاة لحرب عدو غير ظاهر يرانا ولا نراه : هو
الشیطان الذي أخرج الإنسان من الجنة فدلاهما بغرور وأقسم : لأضلنهم أجمعين ،
وجاهر الله بقوله متوعداً : ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ .

ورباط الجيش عبادة فعلية ، ورباط المؤمن للصلاة عبادة فعلية ، وصلة
قلبية ، وذكر وقرآن ، وتفرد ولا ينفرد عنها رباط الجيش . فهي أكد في مفهوم
العبادة .

والحماس للغزو طبيعة في النفس لغير دين ، ولأنفه سبب ، ويشارك فيه
الحيوان الإنسان ، ولذا فهو من هوى النفس وإن لم يكن ديناً ، وعادة النفس
الكسل عن الطاعة والفتور عن الصلاة والتسويق في الأداء ، لإلقاء الشيطان في
أمنية الإنسان عفو الله وصفح الله ، فإسباغ الوضوء على المكاره قمع له يحتاج إلى
العزيمة والحزم ، لما في لفظ الإسباغ من دلالة على الاستيعاب ، ولما في الوضوء من

تكرار بتكرار الصلوات ، ولما في الجار والمجرور (على المكاره) من انتظار للنفس على انتحال الأسباب الداعية إلى التقصير ، وكثرة الخطأ إلى المساجد دحر لوسوسة أن يخاف المؤمن الحر والبرد ويتعلل بالضيف أو بالضعف فيفوته إما أداء الصلاة وإما فضل الجماعة وأجر الخطأ إلى المسجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة قهر للمعصية ، ونهي عن الفحشاء والمنكر اللذين هما حظ الشيطان ، وكلمة (انتظار) تدل على يقظة المؤمن وترقبه ما ينتظر ، ولا يتربص ويتنظر إلا المهم العظيم . ألا يكون ذلكم هو الرباط ؟ ألا يفسر هذا قوله عليه السلام : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ؟ أيقدر على الرباط المسلح من لا يعد نفسه له بمثل هذه الأمور ؟ ألا فليتعلم المرابطون هذا النوع العظيم من الجهاد ليحرزوا النصر ويفوزوا بالنجاح .

٤ - في الترمذي عنه رضي الله عنه « غفر الله لرجل كان قبلكم سهلا إذا باع ، سهلا إذا اشترى ، سهلا إذا اقتضى » (١) .

الحديث خبر بالغفران مجزوم به ، لأنه بصيغة الماضي المسند إلى الله والمختص بمبهم نكرة ، مُهَّدَ بتكثيرها للوصف بالجملة ، وذلك على سنة البيان الكريم من بعث همة السامع وتشويقه للخبر بمثل هذه المقدمات ، وقد جاء المهم المراد بيانه بعد أن أشرأت له الأعناق وصفا يكشف سبب الغفران للرجل المكرم به ، وهو سهولة معاملاته ولين جانبه مع البائع والمشتري والمدين ، ويدل هذا بالأولى والأبلغ على بقية أنواع التعامل ، إذ أن ما ذكر في الحديث هو المظهر الأقرب لانطباع النفس بهذا الخلق الكريم ، وقد تكرر الوصف بالسهولة في الأمور التي تقع فيها المشاحة غالبا ، ليتقرر بالتكرار أن السهولة كانت جبلة وطبعها ، فلم تكن في البيع رغبة التخلص من سلعة كاسدة ، ولا في الشراء لانفراد السلعة وإجاء الحاجة ، ولا في الأقتضاء خوف الإهانة من مدين شرير ، تؤكد هذا تلك المطابقة التي لم يقصد بها التحسين لعبا بالألفاظ ، إذ جاءت يقتضيهما المقام ، وتقديم الوصف الواقع سببا

وهو (سهلا) على ظرفه الشرطي في كل مرة تأكيد آخر ، لأنه يدل على الاهتمام به ، إذ هو مناط المغفرة ، فقد كان صحيحا لو قيل : إذا باع كان سهلا وإذا اشترى كان سهلا . . . وبالمقارنة تظهر بلاغة العبارة النبوية في التقديم والإيجاز بالحذف . ينضم إلى هذا أن الفصل بين المكرر إيدان بأن ذكره إنما هو على سبيل العد لمجرد المثال ، بحيث يكون ما ذكر نموذجاً لما لم يذكر ، كما أن وقوع (إذا) مكان أداة أخرى للشرط ، يفيد التقرير بصفة أوسع لطابع السهولة في أخلاق الرجل فهي للظرفية ، وطردها مع هذه المعاملات الممثل بها لما سواها يساوي ما لو قيل : سهلا في عموم أوقات المعاملة ، ومن جانب آخر هي أداة الوقوع والحصول ، فهذه الأمثلة المعبر عنها بالماضي كلما وقع منها شيء اقترن به طبع الرجل من السماحة ولين الجانب .

هذه الإمامة خاطفة للتقرير بالتكرير وبعض ما صحبه من وسائل أخرى في هذا الحديث القصير من كلامه رضي الله عنه .

٥ - في حديث أبي هريرة عنه رضي الله عنه قال : يأبى الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا . قال أبو هريرة رضي الله عنه : ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء : يا رب ! يا رب ! ومطعمه حرام ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأني يستجاب له ؟

نداء الناس وهم حضور يستمعون استحضر آخر لأذهانهم ، وتأكيد الخبر دون استشراف السامع تنبيه إلى العناية به ، وعبارة القصر بالنفي والاستثناء تؤكد تأكيداً كاملاً اختصاص قبول الله بالطيب من القول والعمل ، فإذا خالط القبيح الخبيث نفس المرء وجسده أفسد عبادته ، حتى يقلع فيتوب ويستبرئ ذمته ، فالله لا ينظر إلى مستبيحي الحرام . ويعيد أن يستجيب دعاءهم .

والبيان الكريم يعطينا صورة واضحة من هذا النوع لتمثلها أمامنا يمتلىء بها الإطار شكلا ولونا وحرارة ونطقا : الرجل يطيل السفر ، أشعث مختلط الشعر طويله مضطربه ، أغبر علا وجهه وثيابه الغبار من وعثاء الطريق ، يمد يده بالرجاء

إلى السماء يقول : يا رب يا رب ! تكرر منه الدعاء إلحاحاً في السؤال والاسترحام ، وما يدري أنه لا أمل في دعائه المتكرر .

بين الرسول ﷺ سر خبيته ببيان أحواله الحائذة عن الدين ، فقد التبس باطنه وظاهره بالحرام ، ومثله بعيد الإجابة .

وَنَسَقُ الحديث يُفصّل ذلك الإجمالَ في أمور يعدها ، ويحكم عليها بالحزمة حتى ينشأ اليأس في نفس السامع من رجاء الرحمة له ، ويعظم التشنيع والتقييح الذي يبشر بالحكم إرصاداً له ، فإذا جاء بعد ذلك مُصَرِّحاً به كان كالصدي لما تقرر في النفس من قبل .

وإذا تصورنا شقاء المرء في الحصول على طعامه وملبسه - لما لذلك من ثمن يحوج إلى الجهد والعمل والتحصيل - لا يدخل كثيراً في تصورنا أن الشرب بهذه المثابة ، إذ أنه قليل المؤنة ، وإذا فإسناد الحزمة إليه يؤكد لنا انطباع هذا المحروم بطابع عدم المبالاة في أيسر الأمور من الكسب ، وقد يكون ذلك مبتدأ في نشأته بجريرة المربين والأهل ، يدل على هذا قوله عليه السلام « وقد غُدِّيَ بالحرام » فهو المذكور بعد المطعم والمشرب المضافين إليه ، والفعل الماضي المبني للمفعول مسند إلى ضمير الرجل النائب عن الفاعل المحذوف ، فإذا لوحظ أن جملي المطعم والمشرب اسميتان تؤكد الثبوت والدوام للحال التي عليها نشأ .

بعد هذا جاءت جملة الاستفهام الاستيعادي مربوطة بما قبلها بالفاء الفصيحة على مقتضى دقة الوصل ، إذ تقدير الكلام : إذا كان هذا شأنه فأتى يستجاب له ؟

وهذا الاستفهام يحقق نفي الاستجابة نفيًا يصحب البعد ويقطع الأمل .

فالتكرير في نداء الرجل حكاية تصويرية لإلحاحه ، والتكرير للفظ الحرام المخبر به عن أمره تشنيع وتفضيح لحاله ، ينذر بالحكم ، وينفر النفوس من الوقوع في مثل بليته - أمور يؤكد بعضها بعضاً ، لتصل إلى المرمى موثقة جدوى الفضيلة .

٦ - تكرر التبرئة وقد جاء التكرار في بيانه الكريم ﷺ لتأكيد البراءة من القصور ، ولتقرير نزاهة الساحة من اللوم ، وللتعريض بانتقال التبعة إلى أهلها وتحملهم حقوقها مع الإشعار بعظم جانبها ، أخذاً من ذلك التأكيد وذلك كقوله ﷺ :

« ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع . لكم أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . ألا وإن كل دم من دماء الجاهلية موضوع . اللهم قد بلغت ؟ قالوا : نعم . ثلاث مرات . قال : اللهم فاشهد . ثلاث مرات (١) .

العبارة دون تكرر فيها جانب من التوكيد هو دعاؤه الله قبل الإخبار بالبلاغ في صورة الاستفهام التقريري . ودخول حرف التحقيق (قد) على الفعل الماضي . ولذلك لم يسع الصحابة إلا أن يقرأوا بحرف الجواب الإثباتي (نعم) .

فإذا كان هذا قد تكرر فليل ثلاثاً ، فإن مدى تفرقه في نفوس السامعين بعيد ، إنه تبرئة من تبعة شديدة ، وحق أمانة كبيرة ، وإشعار للأمة بأن كل من وصله الدين بالبلاغ مطالب بحدوده ، وكل من جهد في البلاغ أميناً عليه برىء من تبعته .

أليس الله شهيداً دون إشهد ؟ لم إذن يشهده الرسول عليه السلام مكرراً العبارة « اللهم فاشهد » ؟

عبارة موجزة تفرع السمع والقلب في شدة ، سريعة نافذة ، لما حذف منها من ذيول . أليس التقدير : اللهم بلغتهم ، وطلبت إقرارهم على أنفسهم بالبلاغ ، فأقروا به على أنفسهم ، فاشهد على ذلك . . ؟

كم يضيع في هذا النسق من الإطناب من حدة العبارة ، وكم يتشتت من اجتماع فكر السامع المتأمل ، وكم يختفي من دوي اللفظ في امتداد العبارة ؟ .

(١) تيسير الوصول : ٦٨ / ١ .

إنها إيقاظ للمؤمنين إلى ما يجب من طريق اللزوم ، في إبطار من الحزن العميق ، والتأثر البالغ ، لاستشعارهم قرب تمام الرسالة بتمام البلاغ ، وقد اختطف عليه السلام قلوبهم بقوله حين البدء : « لَعَلِّي لا ألقاكم بعد عامكم هذا » تمثل نفسك مستمعا للنبي ، وتأمل عمق هذا الحديث في نفسك أيها المؤمن .

التأكيد اللفظي بالأداة

في اللغة العربية أدوات وضعت لإفادة معنى التأكيد لمضمون ما تدخل عليه من الجمل ، يختلف التعبير بوضعها وجودا وعدما ، وبمضاعفتها عند الوجود باختلاف المقام خفي سرها على بعض السابقين غير المشتغلين باللغة فاعترضوا على تلون الأساليب من جهتها ظنا غافلا أنها سواء في الغاية .

يروى عبد القاهر عن ابن الأنباري أنه قال : ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له : إني لأجد في كلام العرب حشوا : فقال أبو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟ فقال أجد العرب يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم ، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد .

ثم يروي إجابة أبي العباس على الوجه الذي ندرسه في أضرب الخبير للمبتدئين اليوم ، من أن الجملة الأولى خبر لخالي الذهن ، والثانية للمستشرف الطالب ، والثالثة للمنكر .

والكلام قد يؤكد جوابا ولكنه أيضا قد يؤكد ابتداء لأنه مما يهتم به أو من شأنه أن يشك فيه ، أو ينكر لغرابته أو مفاجأته أو غيرهما ، يقول الجرجاني : ينبغي أن يعلم أنه كما يكون (التأكيد) للإنكار قد كان من السامع فإنه يكون للإنكار يعلم أو يرى أنه يكون من السامعين ، وجملة الأمر أنك لا تقول : إنه كذلك حتى تريد أن تضع كلامك وضع من يزع فيه عن الإنكار^(١) .

(١) دلائل الإعجاز ٢٥٢ .

ان مفتوحة الهمزة ومكسورتها

(إن) مكسورة الهمزة تأتي على وجهين : أولهما أن تكون حرف توكيد وثانيهما أن تكون حرف جواب بمعنى : نعم^(١) .

و (أن) مفتوحة الهمزة تكون حرف توكيد . قالوا : والأصح أن تكون فرعا من مكسورة الهمزة^(٢) .

ولأن في الاستعمال أغراضا منها : تأكيد الربط وتحسين موقع ضمير الشأن وتجميله وتهيشة النكرة وإصلاحها لأن يكون لها حكم المبتدأ فيحدث عنها بما بعدها ، وزيادة جمال موقع النكرة إذا كان مسوغها الوصف وإغناؤها عن الخبر في بعض الكلام ، ودلالتها بطريق التعريض على ظن ملوح به والإشارة إلى ظن منك فيما كان أنه لا يكون .

ويقول عبد القاهر في مثل : ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء . . . وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم - يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ . إن التأكيد بها في مثل هذه المقامات لتصحيح الكلام السابق ، والاحتجاج له ، وبيان وجه الفائدة فيه ، وقال ابن حجر في الحديث : « دعه فإن الحياء من الإيمان » : والظاهر أن الناهي ما كان يعرف أن الحياء من مكملات الإيمان فلهذا أوقع التأكيد ، وقد يكون التأكيد من جهة أن القضية في نفسها مما يهتم به وإن لم يكن هناك منكر (فتح الباري : ١ / ٨١) .

ورودها في الحديث

١ - عن علي بن الحسين قال : قالت صفية رضي الله عنها : « كان رسول الله ﷺ معتكفا ، فأتته أزوره ليلا فحدثته ، ثم قمت لأنقلب فقام معي حتى إذا بلغ

(١) مغنى اللبيب ٣٧ / ١ .

(٢) مغنى اللبيب ٣٧ / ١ .

باب المسجد مر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعَا : فقال : على رسلكما ، إنها صفية بنت حيٍّ فقالا : سبحان الله يا رسول الله : فقال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرا - أوقال : شيئا^(١) .

إسراع الرجلين في هذا المقام مشعر بالتحرج من رؤية الرسول عليه السلام في هذه الحال ، وعدم تحديدهما الموقف بمعرفة المرأة مجال للظن (وإن بُعد اعتقادهما كل البعد أن يلم نبيهما بما يريب) فإتيان (إن) في الجملة الأولى لتأكيد المعرفة بالمرأة ، ويدل بطريق التعريف على الظن الذي لوح به إسراع الرجلين ، ولم يشفع بمؤكد آخر ، لأنها - وحاشاهما - لم ينكرا على رسولهما شيئا ، وقد راعهما أن يجعل هو إسراعهما على شيء من الاتهام ، فيطلب منهما الأناة في السير ، ويعلن لهما بالجملة المؤكدة بالأداة تبريئا لساحته الشريفة فعجبا وتعجبا ، إظهاراً لطهارتهما من ظن السوء .

وقد جاء رده عليه السلام مُصَدِّراً مرة أخرى (إن) تنبيها لما ينبغي أن يُعَلَّمَ على وجه من التأكيد ، وهو شدة ملابسة الشيطان لقلب الإنسان ، والفعل المضارع المخبر به يفيد تجدد وثبات الشيطان ، والتعبير بمجرى الدم كناية عن القلب لأنه أخص أجهزة الجسم بتصريف دمه ، فإذا انبثق الدم مشفوعا بنفثته إلى باقي الأعضاء أصاب كل قاصية عن القلب .

ثم لما تعجبا بقولهما : سبحان الله ، كان تعجبهما كاستبراء النفس من تهمة المَتِّ ، فكان جوابه عليه السلام مؤكدا لحرصه الشديد عليهما ، وخشية أن يقدر الشيطان على النفاذ إليهما بقذفه الشرِّ في قلوبهما . فحسَّن ذلك إدخال (إن) على جملة الخشية .

٢ - عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنها أن رجلا قال : يا رسول الله .

إن لي مالا وولدا ، وإن أبي يحتاج إلى مالي . فقال : أنت ومالك لأبيك ، إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم^(١) .

في هذا البيان النبوي أتت (إن) تؤكد الربط بين الجملة المستأنفة للبيان وبين جملة الجواب السابقة ، والسائل مستشرف للحكم عما سأل ، وقد كان عرضُه حاله مبشرا بغير ما أجيب به ، لأنه يعتذر عن ملكه المال بوجود الولد الذي يستحقه ، والذي هو في نظره أولى من الأب ، وإذ كان الجواب بانقطاع العذر على خلاف ما ينتظر السائل كان التأكيد مستحسنا .

٣ - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل وُدِّ أبيه بعد أن يولي »^(٢) .

بقاء صلة الابن بمن كان يودهم أبوه امتداد لتلك الصلة ، إذ الابن امتداد للأب ، ولا يخفي ما في ذلك من توثيق الصلات بين الناس ، وتماسك الوشائج في المجتمع ، وترك هذه المكرمة نوع من الجحد والغدر بحقوق الأبوة ، والتزام الوفاء أمر واجب ينبغي أن يتأكد في نفوس المؤمنين نحو الآباء أحياء لأنفسهم ، وأمواتاً لمن كانوا أصفياء لهم وأخلاء ، ولذلك جاء الحديث على ضرب من التأكيد بالأداة (إن) داخله على المسند المقدم الذي يحمل معنى الاهتمام للتشويق بتقدمه أولا ، وبصيغة التفضيل للمسند إليه المؤخر ثانيا « إذ ليس من مطلق البر هذه الصلة ، وإنما هي في أعلى أدراجه شرفا ، وإضافة (أبر) إلى (البر) دون الأعمال زيادة أخرى في هذا الشرف لأنه إضافة إلى الأخص ، فكأنه يقول : إن أفضل الأفضل من الأعمال .

هذا فضلا عن ملاحظ أخرى يتجلاها المتذوقون لجمال البلاغة النبوية .

٤ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : « استأذن رجل على رسول الله ﷺ

(١) تيسير الوصول ٤٥ / ١

(٢) تيسير الوصول ٤٧ / ١

(١) تيسير الوصول ٣٥ / ١

فقال : بئس أخو العشيرة ، فلما دخل انبسط إليه والان له القول ، فلما خرج قلت : يا رسول الله حين سمعت الرجل قلت كذا وكذا ، ثم تطلعت في وجهه وانبسطت إليه ؟ يا عائشة متى عهدتني فاحشا ؟ إن من شر الناس عند الله تعالى منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه^(١) .

يقرب هذا البيان الكريم مما سلف في تصدير الحكم بأداة التوكيد وتقديمه للاهتمام البالغ بالتحذير منه ، وقد صحب ذلك أنواع من التخصيص تُصعد الشعور بشديد العقاب تأكيداً لشناعة الإثم ، فالتقييد بالظرف المكاني (عند الله) الذي يملك المجازاة ، وجملة التنزيه والإجلال (تعالى) وتوسطهما بين صيغة التفضيل وتمييزها بتكبيرٍ بتربية المهابة ، ثم التقييد بالظرف الزمني (يوم القيامة) الذي لا يقدر من يدعي ملكا في الدنيا أن يدعي فيه شيئا ، وقد اختص بقوله تعالى : لمن الملك اليوم ؟ ليقطع أوهام الواهمين ويسقط طمع المتجبرين .

كل هذه الخصائص التي حاطت الحكم في المكان والزمان جوانب من التأكيد فضلا عن الأداة المنذرة به ، تضع من يتركه الناس خائفين لسانه في أشنع موقف من الرذيلة إذ ينتظر أفضع منزلة من العقاب .

وقد جاء أنواع من استعمال (إن) في الحديث الشريف فمن استعمالها لتحسين موقع ضمير الشأن قوله ﷺ : « ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ولا غدره أعظم من غدره إمام عامة^(٢) » .

وهي مع ضمير الشأن لا تخلو من التأكيد مع التحسين ولا يخلو ضمير الشأن من تقرير المعنى مع دلالتها عليه ، فإنه لعدم سبق مرجعه وكونه ضمير غيبة يكتنفه شيء من الإبهام حتى يذكر المرجع ، فيحمل النفس على الانتباه والتشوف ، فيجيء التفسير إشباعا لظما النفس فيتقرر به المراد ، لا سيما وأن ضمير الشأن والشأن أمر واحد ذكر بلفظين .

(١) تيسير الوصول ٢٧٩ / ٤ .

(٢) تيسير الوصول ٢٧٩ / ٤ .

ومن ذلك في نفس النص « ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى » .

ومنه قول رسول الله ﷺ : « إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم^(١) » .

ومن استعمال (إن) داخل على النكرة لتجميل موقعها قوله عليه السلام : « إن أناسا من أمتي يأتون بعدي ، يود أحدهم لو اشترى رؤي أبي بأهله وماله^(٢) » .

وله من التوكيد : إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل ، ويرفع فيها العلم ، ويكثر فيها الهرج ، والهرج القتل^(٣) .

ومن مجرد تهيئتها النكرة للابتداء « إن رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة^(٤) » .

أن مفتوحة الهمزة

وهي من الحروف المصدرية فضلا عن إفادة التوكيد ، تحسن وقوع الجمل موقع المفردات ، لأنها مع مدخولها مؤولة بالمصدر ، ومن أمثلتها قوله ﷺ : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل^(٥) » .

ومن دخولها على ضمير الشأن لتجميل موقعه مع التأكيد على ما سبق :

(١) تيسير الوصول ٢١ / ٤ .

(٢) الجامع الصغير ٧٤ / ١ الحاكم عن أبي هريرة

(٣) الجامع الصغير ٧٥ / ١ .

(٤) الجامع الصغير ٧٦ / ١ .

(٥) تيسير الوصول ١٠ / ١ .

عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » (١) .

التأكيد بالقسم

والقسم من المؤكدات اللفظية القوية ، كان عليه السلام يؤكد به ما يستحق المقام تأكيده من المعاني ، وكانت ألفاظه في البيان الكريم متفاوتة القوة مع تفاوت المثيرات والدوافع ، فيقول عليه السلام مرة : « والله » : وثانية : « وأيم الله » وأخرى : « والذي نفسي بيده » وتارة : « ومقلب القلوب » ومرة : « والذي نفس محمد بيده » أو « والذي نفس أبي القاسم بيده » وقد لا يذكر المقسم به ، مكتفياً بالإخبار عن القسم فيقول : « أقسم » ثم يذكر ما يريد القسم عليه ، وقد يجعل قسمه استغفاراً ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كانت يمين رسول الله ﷺ إذا حلف : لا وأستغفر الله . وهو ينصح أصحابه عليه السلام أحياناً إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : « ورب الكعبة » وقد يلقن صحابياً صيغة اليمين فيقول : « إحلف بالله الذي لا إله إلا هو ماله عندك شيء » (٢) .

وكان الصحابة يدركون الفرق بين هذه الصيغ في درجة القوة حتى يقول أبو سعيد رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا اجتهد في اليمين قال : لا والذي نفس أبي القاسم بيده (٣) ، كما يدركون أكثر صيغة تكراراً منه عليه السلام فيقول ابن عمر رضي الله عنهما : أكثر ما كان يحلف رسول الله ﷺ : « لا ومقلب القلوب » (٤) .

قال الحافظ بن حجر عند الحديث عن قوله عليه الصلاة والسلام : « فوالله لا

يمل الله حتى تملوا » فيه جواز الحلف من غير استحلاف وقد يستحب إذا كان في تفخيم أمر من أمور الدين ، أو حث عليه ، أو تنفير من محذور (١) .

قال الحافظ بدر الدين العيني في قوله ﷺ : « فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده » فائدة القسم تأكيد الكلام به ، ويستفاد منه جواز القسم على الأمر المهم توكيداً وإن لم يكن هناك من يستدعي الحلف (٢) .

أمثلة من البيان الكريم

١ - في حديث المخزومية عن عائشة رضي الله عنها قوله عليه السلام : « وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (٣) .

٢ - من حديث أبي ذر قوله عليه السلام : « والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » (٤) .

٣ - وروي عن أنس رضي الله عنه قوله ﷺ : « والله لا يلقي الله حبيبه في النار » (٥) .

٤ - ومن حديث المستورد عنه عليه السلام : « والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر به يرجع (٦) » .

٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » (٧) .

(١) فتح الباري ١ / ١٠٩ .

(٢) عمدة القاري : ١ / ١٤٤ .

(٣) تيسير الوصول ٢ / ١٣ .

(٤) تيسير الوصول ٢ / ٢٥ .

(٥) الجامع الصغير ٢ / ١٨٤ .

(٦) المرجع السابق .

(٧) تيسير الوصول ١ / ١٢ .

(١) تيسير الوصول ١ / ١١ والأمثلة في ذلك كثيرة يكتفي منها بالنموذج .

(٢) تيسير الوصول : ٤ / ٥٠ .

(٣) تيسير الوصول : ٣ / ١١ .

(٤) تيسير الوصول : ٤ / ٢٦٠ .

٦ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم ^(١) » .

٧ - ومن حديث حنظلة قوله عليه السلام : « والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي في الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ^(٢) » .

٨ - وعن أبي كبشة الأنماري قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه : ما نقص مال من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ^(٣) » .

الصحابه رضوان الله عليهم يجزمون بصدق الرسول ﷺ في كل قول يقوله ، فهو لا يقسم - وحاشاه - ليجتذب القلوب لتصديقه ، وقد كان قبل الرسالة يوصف بالصادق الأمين ، وقالت له قريش يوم جمعهم في مستهل الرسالة : ما جربنا عليك كذبا ، وإذا ينصرف وجه اليمين إلى أن المحلوف عليه من الأمور المهمة ذات البال التي ينبغي أن يستشرف لها السامع ، ويتلقاها تلقي الإهتمام لما تعيه من مدلول ديني خطير في حياة الفرد والمجموع .

فحديث المخزومية يؤكد فيه الرسول عليه السلام نزاهة الإسلام وعدالة نبيه ، التي لا يستقيم أمر المجتمع إلا بها ، فلا شفاعة في حدود الله لجاه أو مال أو شرف كذوب ، فالشرف للسير على الجادة ، ولا شرف ولا كرامة للمنحرف الضار دينه ، والمعتدي على الناس ، ولا نظر إلى صلة دنيوية - مهما تأصلت وعمقت - يطغى على إقامة ما أوجب الله ان يقام لسلامة دينه ولكرامة المؤمنين وصيانة حقهم ، فصلة

(١) تيسير الوصول ٢١ / ٣ .

(٢) تيسير الوصول ٣٠ / ١ .

(٣) تيسير الوصول ١٦١ / ١ .

النبوة بين محمد وبين فاطمة ابنته لا تحرك رافة النبي فيرحمها من قطع اليد حين يوجب الإسلام قطعها ، ولا أكرم من محمد حاكما ولا من فاطمة بنت محمد محكوما عليه ، فسواهما أولى بالحذر من المخالفة .

ومن المعلوم في الحديث بناء الأمر على أداة الشرط الدالة على الافتراض وقد يلمس القارئ أن الانفعال قد بلغ ذروته حين نطقه الكريم بهذه العبارة ، وأنها بلغت حدا جازما فاصلا يخرس كل شفيع أحق إلى يوم القيامة ، وإتباع الأسم العَلَم (فاطمة) بالبيان - له قيمة كل القيمة في تقرير مضمون الكلام ، فهو لا يدع للشك مجالا في تحديد أعلى صلة بين الحاكم والمحكوم عليه ، ففيه لفظ النبوة ثم هي مضافة على الالتفات إلى الأسم الظاهر (محمد) دون ضمير المتكلم لأنه أشد تحديداً لمدلوله في مقام الترهيب والمهابة ، على العكس من نسبة فعل القطع إلى الضمير ، لأن ذلك أبلغ في الدلالة على مباشرة الفعل ، وأسرع في حسم الموقف .

وفي الحديث الثاني يقسم عليه السلام بالله ليؤكد لأصحابه غيبا يعلمه ولا يعلمونه يستوجب أن يَجِفَّ القلبُ ، ويقلَّ الضحكُ ، وتكثرُ الدموعُ ، حتى يتنبهوا فلا يركنوا للعالم ، ويجتهدوا فلا يخذعهم الأمان .

ويحلف في الثالث مؤكدا حب الله لمن يحبه ورأفته البالغة به ، وثقته الوثيقة في أن الله لا يلقي حبيبه في النار ، ألم يجعل النار بردا وسلاما على خليله . . ؟ .

وهو يُري أمته منزلة الدنيا من الآخرة في الرابع ، والناس ما رأوا غير دنياهم ، وهم يرونها واسعة واسعة ، مضت فيها القرون دراكا وتتابعت الأمم لحافا ، ولم يروا الآخرة لأنها غيب غائب ، فيقسم مؤكدا خبره ليلفتهم إليه ، حتى لا تفتنهم سعة حاضرهم ، وزخرفة ما حصلوا منها غرورا ، وما فاتهم منها ندما ، إذ أن ما يملك منها الناس جميعا من البدء إلى النهاية يعادل لتفاهته وقلته ما يصيب من البلبل أصبعا غمست في اليم ، بينما اليم كله تشبهه الآخرة لبقائها واتساع أرجائها وعمق طبقاتها ، في كلا جانبيها من ثواب الأبرار وعقاب الفجار .

وهكذا نستطيع أن نسترسل مع كل حديث تضمن قسما ، فنجد الأمر ذا بال في مقام : للترغيب لنحرص عليه ، أو للترهيب فنحذر منه ، غير أنه مما يلحظ أن الحديث الثامن فيه خبر بالقسم « ثلاث أقسم عليهم » وليس فيه ذكر للمقسم به ، وذلك مما يفيدنا أن هذه صيغة من صيغ اليمين معتبرة ، يتأكد بها مدلول ما كان القسم من أجله .

التأكيد بالنون

من المعلوم أن في اللغة نونا تسمى (نون التوكيد) تثقل بالتضعيف وتخفف بالتسكين وهي مختصة بتوثيق الأفعال المضارعة ، والدالة على الطلب بشروط يذكرها النحاة ، والبيان الشريف يؤكد هذه النون أفعالا يوجب المقتضى توكيدها ، والناظر في الحديث يجد أدوات التأكيد المختلفة قد تأتي أفرادا ، وقد تأتي يزيد بعضها عمل البعض نزولا على رغبة المقتضي .

وتلك أمثلة من التأكيد بالنون :

١ - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : لا يقيم أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن توسعوا ، وتفسحوا يفسح الله لكم (١) .

تسبب الإنسان مهما كانت مكانته في أن يترك الآخر مكانه ليجلس هو فيه - من الأمور البغيضة التي تجرح الكرامة ، وتغرس الحقد في نفوس الآخرين ، ما لم يكن عرفانا من الجالس لدهشة القادم ، أو إكراما محضا منه له ، طيبة به نفسه ، فالنهي عن هذا العمل الكريه يستحق التأكيد ، لينأى المؤمنون عنه ، توثيقا للمحبة بينهم ، وقد بين عليه السلام ما ينبغي أن يفعل إذا قدم بعضهم على مجالسهم ، استدراكا لمعالجة الأمر علاجا مبنيا على المحبة والتسامح ، وهو أن يتضاموا كالبنيان

(١) تيسير الوصول ٣ / ١٩ .

المرصوص فيفسحوا للقادم يفسح الله لهم ، وبارك مجلسهم ، فالتأكيد في مثل هذا مدعاة للامثال والاهتمام بالمطلوب ، ودلالة دالة على عظم الأمر المؤكد .

٢ - نصح عليه السلام أبا ذر فقال : « يا أبا ذر : إني أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن على إثنين ولا تولين مال يتيم » (١) .

من المعلوم أنه كلما اشتد عطف المرء على ابنه أو صاحبه اشتد حرصه على فائدته ونصحه ، وكلما اشت الحرص استدعى أمره تأكيد النصح ، والإمارة والولاية على الأموال من المسائل التي لا يؤمن معها الزلل ، والنبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، لذلك أظهر لصاحبه ما يراه فيه من سبب لا يؤمن الحيف معه ، وقدم بين يديه اعتذارا لطيفا يضمن التساوي بين الناصح والمنصوح في حب المنفعة ، ليكون ذلك مدعاة إلى الإيمان بالنصيحة على وجه أشد ، وتهئية لوجوب الامثال ، ثم عقب بنهيه نهيا مؤكدا عن الفعلين اللذين يجب لصاحبه البعد عنهما إحرازاً للسلامة وعصمة للدين .

لام التأكيد

١ - عن أنس رضي الله عنه قال النبي ﷺ : لَصَوْتُ أَبِي طَلْحَةَ فِي الْجَيْشِ خَيْرٌ مِنْ فِئَةٍ « وفي رواية جابر : « خير من ألف رجل » (٢) .

٢ - وعن فضالة بن عبيد قوله عليه السلام : « لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته » (٣) .

٣ - وعن المقداد بن الأسود قوله ﷺ : « لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلَابًا مِنَ الْقَدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غُلَيَانًا » (٤) .

(١) تيسير الوصول ٢٥٧ / ٤ .

(٢) الجامع الصغير ١٠٢ / ٢ .

(٣) الجامع الصغير ١٠١ / ٢ .

(٤) الجامع الصغير ١٠٤ / ٢ .

٤ - وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
للهُ أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته ، عليها
طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهب راحلته ، فطلبها حتى
إذا اشتد عليه الجوع والعطش قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى
أموت . فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده
وشرابه . فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده» (١) .

هذه أخبار لتقريرها الأثر البالغ في النفوس ، ومن أدوات التقرير والتأكيد التي
يسرع بها المتكلم اللام المفتوحة الداخلة على المبتدأ ، والمسماة لام الابتداء .

الحديث الأول : عرفان وتقدير لأبي طلحة يطمئن به على أجره ويزداد به
إقداماً وحباً في إعلاء كلمة الله ، ويدفع غيره من الناس ليكونوا مثله فيؤجروا
أجره ، ويذكروا ذكره .

والحديث الثاني : يقرر على سبيل التمثيل شدة إقبال الله سبحانه على قارئ
القرآن بالصوت الحسن يجهر به ، لا إعجاباً بصوته ، ولا تلاعباً به ، ولكن تذكيراً
وتعبداً ، فهذا المعنى لازم الجملة الابتدائية المؤكدة : إذ لا يكون هذا الأثر البالغ
المحمود والمدح إلا لمن خلصت نيته ، فقرأ معتبراً وتعدت بركته إلى سواه بالجهر
الهادف إلى الخير .

وتأكيد هذا الخبر باللام السابقة يحمل المؤمنين على تحسين أصواتهم بالقرآن
وإدامة تلاوتهم له ، ليكونوا في حظوة ما بعدها حظوة من شدة إقبال ربهم عليهم
بالرضا والثواب .

والحديث الثالث : يقرر تقلب قلب ابن آدم ، لأنه محل نوازعه ومكان آماله
وأحلامه ، وميدان الصراع بين الخير والشر ، ويتضمن هذا التقرير توجيه المرء إلى
حماية القلب ، حتى يتخوله بما يحبه من طاعة ، ويقبله بين الرجاء والخوف ، ولذا

سبقت اللام جملة الخبر ، تنبيهاً إلى وجوب الاهتمام بمضمونه وما يترتب عليه من
أمر مهمة .

والحديث الأخير : يقرر أمر التوبة عند الله ، والدرجة التي لا يتصورها العبد
المذنب ، والتي لو عرف قدرها لأمتلأ قلبه بالفرح ، واشتد أنسه بالله وإقباله عليه
ورجاؤه فيه ، تئيساً للشيطان ، وقهراً لوسوسته واستدراجة المؤمن بالذنب تلو
الأخر حتى لا يجد المؤمن لنفسه فرجة أمل في القبول عند ربه ، إذ يملأ قلبه بالقنوط
من رحمة الله .

والبيان الكريم لا يصور فرحة التائب المقبول بالنجاة التي يحق لها أن تطول
فرحته وتعمق ، وإنما يصور فرحة الله الذي لا تضره المعصية من العبد ولا تنفعه
الطاعة ، في تلك الصورة التمثيلية الرائعة والعجيبة ، وهذه الغرابة كان الخبر
محتاجاً إلى تأكيده فكان منه أن يسبق بلام الابتداء تعجيلاً لالتفات السامع ،
وإسراعاً باهتمامه .

وكل من الأحاديث الأربعة يستخدم (أفعل) التفضيل مُسنداً في الجملة
الابتدائية تصعيداً للمعنى ، وزيادة في قسر السامع على الانتباه ، وفي ذكر المفضل
عليه مع كل منها - وهو أمر يبلغ الغاية في جنسه - إعلاءً لشأن المفضل السابق وهو
المسند إليه المرتكز على اللام ، فالخبر كله طرداً وعكساً في جهة التقرير والتأكيد
كالحلقة المفرعة ، وهذا بعض سر البيان الكريم ، سيرى أضعافه من يطيل الوقوف
على دقائقه ، ويرهف الحس مع لطائفه .

اجتماع المؤكدات إن السلام ، وإن والقسم

١ - عن ابن مسعود وأبي موسى قوله ﷺ : « إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل ويرفع العلم ويكثر ، الهرج والهرج القتل »^(١) .

٢ - عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما : أشرف النبي ﷺ على أطم من أطام المدينة فقال : هل ترون ما أرى ؟ قالوا : لا . قال فإني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر »^(٢) .

هذان أمران يخبر بهما الرسول عليه السلام من الأمور المستقبلية ، ومن شأن الأمور الغريبة - التي يخبر بها عن المستقبل وليست مما يعزم على إيجاده من المشروعات التي تعد لها الخطط وترسم المناهج - أن يدخل الشك بها في النفس لعدم وجود الدلائل والأمارات المبشرة بها والمقربة لها ، والرسول عليه السلام وإن لم يكن في خبره شك ، يؤكد لنا هذه الأخبار تأكيداً للشاك والمنكر ابتداءً لنضعها أمام أعيننا موضع المسلم المجزوم به ، برهاناً منه على نبوته ، وثقة من نفسه بها قبل أن يأتي زمانها ، وإلقاء بهذه الثقة على رؤوس القرون المقبلة ، لتشهد آخر الزمان ما شهد أوله من دلائل صدقه ووثائق رسالته ، ثم ليحذر المؤمنون على أنفسهم هذه الأمور النازلة مستعيزين بالله حامدين الأمن من نزولها بهم .

٣ - عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير »^(٣) .

(١) الجامع الصغير ١٧٥ / ١ .

(٢) تيسير الوصول ١٩ / ٤ .

(٣) تيسير الوصول ٢٦٢ / ٤ .

٤ - عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله ﷺ يوماً فصل على أهل أحد صلواته على الميت ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : « إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم ، وإني والله أنظر إلى حوضي الآن وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها^(١) » .

الحديث الثالث : يؤكد فيه عليه السلام عزمه على فعل الأفضل من الأمرين ولو حلف أن يفعل المفضول ، ويبين أن اليمين على مثل ذلك ينبغي التحلل منها بالكفارة ، ليتخلص المؤمن إلى ما هو أجدر به وأفضل ، وقد استثنى بقوله « إن شاء الله » تأدبا واعتزازا بمشيئة الله ، ليلطف شدة الحزم التي تدل على كمال الثقة في النفس ، والتي تفهم من (القسم وإن) وكأنه يقول : هذه نيتي الأكيدة ومشيتة الله تحرسها ، وقد لا يحلف الرسول على يمين غيرها خير منها لأنه لا يأتي التي هي أدنى ، ولكنه تواضع لعلم المعصوم الملهم يحمل به أمته على سلوك المنهج الأمثل .

والحديث الرابع : يخبر فيه عليه السلام بأمر يراه بطريق الكشف الذي يختص ببعض الأصفياء ، ولا يراه قومه ، ومن شأن هذه الأخبار الغريبة أن تشرئب إليها الأعناق وتتطلع النفوس ، فأراد عليه السلام أن يدفع عن خبره الشك ، أو توهم المجاز والمساهلة ، فأكد (بالقسم وإن) تقريراً له في نفوس الصحابة ، وعصمة لأفكارهم أن يلزم بها طائف من الشيطان ، كما أكد باليمين وإن نفى خيفته شرك المؤمنين بعده ، لبعده حصوله ، وخص خوفه بالتنافس في شهوات الدنيا وفتنتها ، واقتران هذا التنافس بالشرك ثم الخوف من التنافس دون الشرك يثير عظيم انتباه المؤمن وشدة حذره أن يضلله التنافس في شهوات الفانية وقد خافه النبي على أتباعه رؤوفاهم لأنه المزلق الذي يكمن الشر ، وعنده يرصد الشيطان .

وهكذا يبين الرسول عليه السلام أن أموراً نستهيئ بها ربما كانت أضمر

علينا من أمور نتأكد ضررها ، ونفر منها بديننا ، فيؤكد عدم خوفه علينا هذه الظاهرة المكشوفة الضرر ، ويجعل الأخرى مناط خيفته ، لخفاء أمرها على الناس ، ليقفوا دائماً من أحكامهم على أعمالهم موقف الحيطة والحذر فيغنموا خير الحياة ويسلموا من شرها .

القَسَمُ والنون

١ - عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم^(١) » .

يَزَعْنَا هذا الحديث أن نتمسك بأمرين فيها صلاح الدين والدنيا معا : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقهر النفس عليهما شأن له خطره ، لأن النفس تحب السلامة من شر تجلبه النصيحة عليها من جانب المنصوح ، والمعروف من العزائم التي يجارب أهلها الشيطان ، والمنكر من المسائل التي تغرق النفوس في لذتها يغوهم بها ويفتنهم ؛ فليس من السهل قهر النفس على ترك المنكر ، وليس من السهل أمر المخالفين ونهيم حين تستشري الرذيلة ، فلما كان حب السلامة يثني عزم صاحبه عن هذين الواجبين ، اللذين عليهما يقوم صلاح المجتمع وتماسكه وطهارته ، أكد الرسول عليه السلام وجوب الفعلين بالقسم وبلامه وبنون التوكيد المضعفة وخير المؤمنين بينهما - إثارة للسلامة الحقة - وبين وقوع العقاب الرادع الذي ليس ببعيد ، وحين إذ يقع لا ينفع نفساً دعاؤها لم تكن أمرت بمعروف ولا نهت عن منكر من قبل .

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لياتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتل ، ولا المقتول في أي شيء قتل . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : الهرج ، القاتل والمقتول في النار^(٢) » .

٣ - عن أبي مالك وأبي عامر الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليكونن من أمتي قوم يستحلون الخنز والحريز والخمر والمعازف ، ولينزلن أقوام إلى جنب علم تروح عليهم سارحة لهم فيأتيهم رجل لحاجته فيقولون : ارجع إلينا غداً فيبيتهم الله تعالى ويضع العلم ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة » (١) .

الحديثان يجبران عن أمور مستقبلية يراها النبي عليه السلام ولا يراها قومه ومن شأن مثلها أن يعززه المخبر بما شاء من المؤكدات ، ليدفع الشك عن نفس يسهل عليها أن تشك لضعفها ، وليكون ذلك الخبر المؤكد دليل ثقة المتكلم بما يجبره به ، ودليل صدق رسالته عليه السلام حين يقع في الأزمان المقبلة وفاق ما أخبر ، فيصير إذ ذاك امتداداً للمعجزة ، فضلاً على ما يلزم الخبر من حذر المؤمن مما ينذر الرسول به أو يحذر منه ، تلك الأمور هي في أحد الحديثين انتشار الفتن بين الناس حتى يشهر بعضهم السلاح على بعض فيقتل أحدهم دون ذنب يعلمه ، وإذا سُئِلَ القاتل لم قتل ؟ لا يعلم سبباً لما فعل وذلك من شدة الاضطراب وفساد الأمر ونفسي الفوضى وسقوط الحكم .

وفي الحديث الآخر أمور من أمارات الساعة ، ومناقضات صريحة للإيمان ، هي استحلال ما حرم الله ، ومنع ما أمر به الله ، يكون جزاؤهما هلاك قوم ومسوخ آخرين ، والرسول إذ يجبر صحبه بهذا - وهو نورهم وسراجهم - يُجْمَلُ هذا الخبر قافلة الزمن ، ترحل به عبر العصور ، ليتخذ كل عصر به جُنَّتَه فلا يجيف ولا ينزلق إلى النهاية البائرة ، وما أقرب حالنا من هذه البوادر التي نسأل الله السلامة منها ، والعصمة من مخاطرها .

٤ - لما اجتمع الناس بكراع الغميم على النبي ﷺ بعد شهادتهم الحديبية خطبهم فقرأ : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ فقال رجل : أفتح هو ؟ قال : « والذي نفس محمد بيده إنه لفتح » (٢) .

هذا الحديث رد على الصحابي الذي لم يُعَدَّ صلح الحديبية فتحاً ، فكأنه بسؤاله ينكر ذلك ، فمقام الكلام يقتضي هذا التأكيد ، وهو مما اجتهد فيه الرسول ﷺ بإطالة القسم ثم بأن ولام التأكيد ، نزاعاً لما حاك في صدر السائل وأمثاله ، وثقة ينشرها بين صحبه فيما يعقب هذا الصلح من فتح قريب محقق .

التوكيد بالحرف الزائد

١ - من حديث بدء الوحي عن عائشة رضي الله عنها « فجاءه الملك فقال اقرأ فقال : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : لست بقارىء ، فغطني الثاني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ خلق الإنسان من علق ﴿ . . . » (١)

الرسول عليه السلام يفاجأ بهذا الأمر الذي لم يُعَدَّ له نفسه : طلب القراءة منه ولم يسبق له عليه السلام شيء من هذه التجربة ، فهو ينفي عن نفسه القراءة بحرف النفي ، ثم يؤكد هذا النفي بزيادة الباء داخله على الخبر المنفي ، وقد يستفاد من ذلك التكرار أن النفي بحرف النفي (ما) أكد من النفي بالفعل (ليس) إذ المفروض أن الجواب في المرة الثانية يحتاج إلى تأكيد أشد، ونفي الوصف الاسمي المشتق عن المبتدأ يفيد عدم ثبوت مدلوله إلى هذا الوقت ، وآخر الحوار بين الملك وبينه عليهما الصلاة والسلام يفيد تجدد الحال وإثبات ما نفي ، وهذا التأكيد كله لنفي القراءة ، وهو في ذاته أشد تأكيداً لثبوت المعجزة يتظاهر مع قوله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون ﴾ (٤٨ العنكبوت) .

٢ - وقد يزدوج التأكيد ، فيجتمع الحرف الزائد مع شيء آخر كالقصر كقوله

(٢) تيسير الوصول ٢٣٦ / ١ .

(١) تيسير الوصول ٢٠ / ٤ .

(١) تيسير الوصول ٢٠٥ / ٤ .

ﷺ : « ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته » .

« ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

« ما من أحد يدعو إلا آتاه الله ما سأل ، وكف عنه من السوء مثله ، ما لم يدع بائما أو قطيعة رحم » .

« ما من أحد يموت إلا ندم : إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع^(١) » .

هذه مثل من تأكيد البيان النبوي (بمن) الزائدة أولاً لتأكيد العموم لوقوعها بين النكرة وأداة النفي ، ثم بالقصر ثانيا .

وتأكيد العموم في المثال الأول يملأ النفس المؤمنة بالطمأنينة إلى الله فيما قضى وقدر ، فهو يقتضي أن يكون كل فرد من أفراد مصائب المؤمن ثمنا لتكفير سيئة من سيئاته ، ومع تأكيد العموم حصل حصر ما يصيب المؤمن في تكفير السيئات واختصاص تكفيرها به ، حتى لا يوجد فرد مما أكد شموله خارج هذه الغاية التي قصر عليها ، ما دام المؤمن محتسبا صابرا .

وفي المثال الثاني يملأ تأكيد العموم نفس المؤمن بالطمأنينة على العهد الذي أخذه الله سبحانه على نفسه من استجابة الدعاء بشرط القبول ، فكل فرد من أفراد دعاء المؤمن مجاب بما يحقق رجاء الداعي ، ما دام يدعو بالخير ، مجتمعاً فيه أوصاف مَنْ يُقْبَلُ دَعَاؤُهُمْ ، وقد جاء ذلك مؤكداً بطريق القصر ، فكل داعٍ بخير مقصور دَعَاؤُهُ عَلَى إِيْتَاءِ اللَّهِ إِيَّاهُ مَا سَأَلَ ، وكفه عنه من السوء مثله ما دام راجياً غير مُعْتَدٍ ولا جائر .

والحديث الثالث : يحمل تأكيد العموم فيه كل إنسان على الاستكثار من الخير خوف الندم ، إذ لا يستثنى من هذا العموم نفس ، وقد تأكد بطريق تخصيص هذه الأحاد كلها بالندم ، وعقب عليه السلام بذكر العلة لشمول الحكم مَنْ أَحْسَنَ وَمَنْ أَسَاءَ ، وفي هذا البيان للعلة ضرب آخر من توكيد المعنى وتقويته من طريق التفصيل بعد الإجمال ، أو البيان بعد الإبهام ، فهو تكرر للمعنى في معرضين يزيده تقررًا وثبوتًا ، ليرتب عليه ما يلزم المخبر من حرص على الخير ، فيزداد المحسن ما وسعه ، ويقلع المسيء ما أمكنه .

ألا :

اختار الرضي تسمية (ألا) مفتوحة الهمزة واللام - حرف استفتاح وفائدة هذا الحرف توكيد مضمون الجملة ، كأنه مركب من همزة الإنكار وحرف النفي ، والإنكار نفي ، ونفي النفي إثبات ، فركب الحرفان لإفادة التوكيد والتحقيق ، فصارا بمعنى (إن) وهو يدخل على الجملتين ، وقد يكون حرف تنبيه ، إذا كان الغرض من إدخاله تنبيه المخاطب لثلاث يفوت المقصود بغفلة عنه .
وحكى عن الخليل أنه يقع حرف تحضيض أيضا كقوله :

ألا رجلا جزاه الله خيرا يدل على محصلة تبيت
وحين يكون للعرض يختص بالفعل ، ولا شك إذن في كونه مركبا من همزة الاستفهام وحرف النفي ، وليس كحرف الاستفهام لدخوله على الجملتين^(١) .
والبيان النبوي يكثر فيه استعمال هذا الحرف إشارة إلى الاهتمام بمضمون الجمل التي يدخل عليها ، ومن ذلك :

١ - من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه : « ألا وإن لكل ملك حمى .

ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب^(١) .

فالحديث يبين ظهور الحلال ووضوح الحرام ، وينوه عن الأمور المشتبه أمرها ، والتي يجب اتقاؤها استبراء لدين المؤمن وعرضه من شين يلحقه ، ويلفت أذهان المسلمين بهذا اللفظ الذي وضعته اللغة ليكون علما للانتباه إلى ما يعقبه ، حتى يرد الخبر على قلب يقظ فلا يغفله ، ولم ينفرد الحرف (ألا) بحفز الهمة للانتباه ، بل آزره التأكيد (بإن) وتقديم متعلق المسند وهو الجار والمجرور زيادة في الاهتمام وتربية للمهابة بذكر المضاف إليه فيما قدم (لكل ملك) وتفخيم المسند إليه بتكثيره (حمى) ثم الانتقال من الممثل له المعنوي وهو حمى الله المخبر عنه بمحارمه ، عاقبا نفس الأداة الدالة على الاهتمام المثير للانتباه ومعها أداة التوكيد (ألا وإن) .

وإضافة الحمى إلى لفظ الجلالة إشعار بهيبته وارتفاع جلالته فوق ما يحمى الملوك ، لأن جلالهم نقطة من جلاله ، وسلطان قدرتهم منحة منه ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ .

وإضافة المحارم إلى الضمير العائد عليه تعالى حارس للنفس بعد وسائل الإيقاظ والتأكيد السابقة ، يزعها عن مقاربة تلك الحدود التي هي حماه .

ونرى أنه عليه السلام أعاد (ألا وإن) داخلتين على القلب مرتين في ضرب من التشويق والإبهام ، تصوره صورة مضغة صغيرة عجبية مع صغرها لتوقف صلاح الجسد كله أو فساده كله على صلاحها أو فسادها ، ولا يخفى ما في تقديم الظرف (في الجسد) على (مضغة) من مضاعفة الانتباه إلى هذا العضو العجيب ، فهو على علو منزلته ليس غريبا ولا بعيدا منفصلا ينشد خارج بناء الجسم ، كما لا يخفى إشارة تنكير (مضغة) إلى تقليلها تعجبا من أمرها .

فإذا نظرنا إلى أثر هذه المضغة في الحالين وجدناه عليه السلام يؤكد بلوغه ونفاذه وإحاطته بلفظ الشمول ، ليبين مدى الخطر حين يقول (صلح الجسد كله - فسد الجسد كله) .

وإذا كان الكلام إلى هذا الحد قائما على الإبهام للتشويق وزيادة تقرير الانتباه ، فإن الجملة الموضحة المنتظرة لم تنقص مع شدة التلهف إليها من السامع أن تُصدَّر بأداة الاهتمام (ألا وهي القلب) .

إن التنقل السريع بين هذه اللافتات الشاخبة يجعلنا نفتش عن قلوبنا ففسأها أن تنأى بنا عن ظلال الشبهات ، ونسأل الله العصمة لها بالتزام الصلاح والتقوى ، وهو وحده الولي الحميد .

٢ - عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير الشهداء ؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها »^(١) .

ألا في هذا الحديث للعرض ، وهو استحضار نفس المخاطب وعقله بهذه الجملة التي تحمل سؤالا مشوقا إلى ما يكون من جواب ، فالشاهد الذي لا يقيم الشهادة حتى يسأل قد يغمط الحق وهو لا يأبه خوفا على نفسه فينقلب آثما قلبه . فليس خير الشهداء ، وأما الذي يتطوع فيقيم الشهادة لله - متى عرف أن العدل في إقامتها - لا ينتظر أن يطلب لأدائها فذلك خير الشهداء ، لأنه آثر رضا الله وإن سخط الناس .

ولا شك أن السياق على هذا الترتيب : من عرض السؤال مفتتحا بأداة العرض ، ثم تعقيبه الجواب يقرر مضمون الجواب ، ويسوقه إلى أعماق النفس ، لوقوعه موقع المنتظر المطموح إلى علمه ، فإذا انضم إلى ذلك أن المخبر به المعروف قد وقع اسم تفضيل مضافا إلى جنسه ازداد الشوق إليه وعبرة الجواب التي باغت السامعين عجلت بالإيجاز الذي يؤثره البيان الكريم دائما ، فحذف صدرها المسند

(١) تيسير الوصول : ٥١ / ٤ .

(١) تيسير الوصول : ١٢١ / ٤ .

إليه والمحكوم عليه بما سبق إسراعاً بتقريره بالموصول الدال بصلته على سبب التفضيل على الجنس ، ولا يخفى ما في إضافة الشهادة إلى الضمير من الدلالة على اختصاصها به على وجه معين ، قد يوافق أو يخالف شهادة غيره ، فتكون متعينة لإقامة العدل ، وأنها ملكه هو ، ليس لسلطان أن يحولها عن وجهها متجانفاً لإثم ، وبناء فعل السؤال للمجهول مع إيجازه فيه التعميم المناسب للتفضيل ، سواء كان السائل الحاكم ، أو السائل المجني عليه ، أو هو المتهم .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أخبركم بخيركم من شركم ؟ ثلاث مرات . قالوا : بلى . قال : خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره .

عرض لسؤال مهم كل المهم ، به يتميز الضدان ، ومع ما لأداة العرض فيه من استنهاض قُوى النفس وإثارة نشاطها ، تكررت الجملة مع الأداة نفسها ثلاث مرات لاستغراق خبايا الشعور بالانتباه ، ونرى بين هذا وبين الحديث السابق فرقا واضحا ، فهناك لم ينتظر الرسول عليه السلام جواب المخاطبين ، فعرض وأجاب مكتفيا بتأسيس الجملة عن إعادتها . وهنا عرض وكأني به صمت قليلا ينتظر الجواب ، تبشيراً بأن ما يلقي هو من الأمور الخطيرة ، ولم يكتف بالعرض مرة بل كرر ثلاثاً ليلهب صحبه حماسا وشوقا وبعد أن طلبوا الخبر أعطاهم المقياس الذي به يسبر كل غور نفسه ، ليحكم لها أو عليها .

أليس هذا الخبر أهم درجات كثيرة من الإخبار بخبر الشهداء في الحديث السابق ؟ إنه يشمل كل فرد من الأمة دون استثناء وليس كذلك الآخر ، إنه يقسم الناس أربع طبقات يجبر عن أعلاها بالتفضيل في الخير (خيركم) وعن أدناها بالتفضيل في الشر (شركم) ويبين معيار كل منها ليميز امرؤ نفسه ، ويبقى بين الطرفين حشو حائر من ضعاف الإرادة : من يرجى خيره ولا يؤمن شره ، ومن يؤمن شره ولا يرجى خيره . وكثير من الناس كرماء أنجاد ، ولكنهم يتبعون ما

ينفقون بالمن والأذى ، وكأين من الناس ليسوا من الشر في شيء وإن هان ، ولكنهم لا يُرَجَوْنَ لُجْلِي ، ولا يعينون على مكرمة .

هذه هي المقاييس ، أليس كل إنسان واحداً من الأربعة ؟ لذلك اشتد اهتمام النبي الكريم عليه السلام بتكرار العرض ، ليضع كل سامع نفسه في مكانها ، ثم ينظر ماذا يريد .

٣ - ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه تأخذ قوله ﷺ : إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه ، ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى^(١) .

(ألا) في هذا المقام الطلبي للحض على الامتثال ، ومعناه تأكيد الطلب والاهتمام بتلبية طالبه ، فإذا كانت مع الخبر كالدخلة على (إن) في الحديث فهي لزيادة التأكيد لمضمون الجملة الذي يلزم من تقريره شدة الانتباه إلى لازمه ، ولازم الجملة الأولى : (ألا إنه ينصب . .) أن يأخذ المؤمن حذره من لواء الغدر فلا يشهر نفسه بين الناس في الموقف العظيم ، ولازم الثانية (ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات . . .) أن يجاهد نفسه ليكون من أسلمها مصيرا ويسلم وجهه لله ضارعا .

أمثلة أخرى

٤ - من خطبته عليه السلام في حجة الوداع :

« ألا لا يجني جان إلا على نفسه ، ولا يجني والد على ولده ، ولا ولد على والده ، ألا أن المسلم أخو المسلم ، فليس يحمل لمسلم من أخيه شيء إلا ما أحل

(١) تيسير الوصول ٢٧٩ / ٤ .

من نفسه ، ألا وإن كل ربا في الجاهلية موضوع .. ألا فاستوصوا بالنساء خيرا^(١) .

٥ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بمن يحرم على النار ومن تحرم النار عليه ؟ على كل قريب هين سهل ^(٢) » .

٦ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بشراركم ؟ الذي يأكل وحده ، ويجلد عبده ، ويمنع رفته ^(٣) » .

٧ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم ^(٤) » .

٨ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم ^(٥) » .

٩ - عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى قال : إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة ^(٦) » .

أما

و (أما) مفتوحة الهمزة والميم المفردة ، حرف تبدأ به الجملة للتنبيه والإشارة إلى تحقق ما يذكر بعده ، وتأكيده مضمونه ، ويظهر من أقوالهم أنها تدخل على (أن) مفتوحة الهمزة مشددة النون فتكون بمعنى (حقا) أو على مكسورة الهمزة فتكون للتنبيه إلى ما يذكر بعدها لتقريره ، أو على الجملة الفعلية فتكون للعرض

(١) تيسير الوصول ٢١ / ١ .

(٢) تيسير الوصول ٢٦٨ / ٤ .

(٣) تيسير الوصول ٢٧٥ / ٤ .

(٤) تيسير الوصول ٢١ / ٣ .

(٥) تيسير الوصول ٣٥ / ٣ .

(٦) تيسير الوصول ٣٧ / ٣ .

الدال على الاهتمام بالمعروض ، فكل أحوال استعمالها يرشد إلى تقرير مضمون ما تدخل عليه^(١) .

النوع الأول

وأكثر ما وردت في البيان النبوي أن تدخل على (إن) المكسورة الهمزة للتنبيه والتحقيق ، أو على الفعل للعرض والتقرير ، مع ما يرشد إليه المقام من معنى لازم نشير إليه في الأمثلة ، والتقرير والتوكيد مستفاد في القول الأول منها ومن (إن) معا لشدة الاهتمام ، ومنه قوله ﷺ :

١ - « أما إنك لو قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك ^(٢) » .

٢ - عن الزبير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، وهي الحالقة . أما إني لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين ^(٣) » .

٣ - عن أخت لحذيفة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر النساء أما لكن في الفضة ما تحلين به ؟ أما إنه ليس منكن امرأة تتحلى ذهباً وتظهره إلا عذبت به ^(٤) » .

٤ - من حديث أبي قتادة رضي الله عنه في رواية لأبي داود والترمذي والنسائي « أما إنه ليس في النوم تفريط ، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يدخل وقت الصلاة الأخرى ^(٥) » .

١ - بالنظر إلى المعاني بالترتيب نجد الحديث الأول يوجه اهتمام الصحابي

(١) ينظر جواهر الأدب : ١٦٨ ومغنى اللبيب ١٥٨ / ١ وشرح المفصل ١١٥ / ٨

(٢) الجامع الصغير ٥٣ / ١ .

(٣) تيسير الوصول ٢١ / ٤ .

(٤) تيسير الوصول ١٣٥ / ٤ .

(٥) تيسير الوصول ١٧٩ / ٤ .

والمؤمنين إلى قيمة الثقة في الله ، والاستعاذة به سبحانه وبكلماته ، وأنه لا يكون معها ضرر يلحق المستعيز متى كان خالص القلب واثقه ، وهو معنى يستوجب التوكيد والتوثيق ، ليلتفت المسلمون إلى أمور قد يعدونها هينة ، وهي عظيمة الجدوى كبيرة الأثر .

٢ - والحديث الثاني يتحدث عن أمرين خطيرين طالما أهلكا أما قبلنا ، ولتأكد الضرر البالغ منها إلى صميم الحياة الاجتماعية والروحية في عمق العقيدة - نبه عليه السلام الى شرهما فأعطاهما ما لموسى الحلاق من حدة ومضاء على وجه التشبيه المؤكد المجلد المبني على دعوى الاتحاد ، ثم أراد أن يؤكد المعنى فضل تأكيد ، وينبه إلى الخطر زيادة تنبيه ، ويحقق المراد بما تحلقه هذه الرذيلة المنكرة وهو أعلى شيء يملكه المرء ، فأق بالآداة (أما) وعقبها بحرف التوكيد جذبا للانتباه ومصاعفة لليقظة ، ثم بين بالفعل الواقع منها على المفعول أن مخلوقها هو الدين ، وأي شيء بعد الدين يحرص عليه المؤمن ؟ ولا يخفى ما للمضارع من إفادة التجدد فكل ما ينبت في القلب من معاني الدين يمر عليه حدها ما دامت باقية معه ، وذلك كناية عن أن هذه الخصلة لا تجتمع مع الدين في قلب ، فمن أوتىها حرم الدين ، ومن أوتي الدين عصمه الله منها ، ومراده عليه السلام أن تجاهد الأمة أنفسها ، فلا تلبس لحرب الشيطان الذي يوغر الصدور ، وينزع بين الناس يحبط أعمالهم .

٣ - والحديث الثالث يخشى فيه النبي ﷺ على رجال أمتهم إظهار الزينة من نسائها ، وما أفعل الذهب البراق بقلوب الرجال ، ملتبسا بالبنان الرخص والمعصم البض ، وأماكن الزينة من أجسام الحسان .

فضلا عن أنه يسوق المرأة إلى استحسان نفسها ، والانخداع بحسنها فتدل أو تزل ، أو تكسر نفوس أمثالها من اللاتي لا يملكن ما تملك من حليها ، فهو ﷺ يحرص على نقاء المجتمع الإسلامي من تلك المعاني السيئة ، فينبه مقررأ أفضلية التحلي بالفضة ، إذ هي في تناول الفقيرات حتى لا تنكسر قلوبهن ، كما أنها أقل خطراً من الذهب في العادة الغالبة من تلك الجهات الأنفة الذكر . لذلك دخل

حرف التنبيه على الجملة الأولى ينكر فيها بطريق الكناية تزين النساء بالذهب ، ويصرح فيها بذكر الفضة على سبيل التقرير الذي يلزمه التفرغ لترك ما هو الأولى ، ودرء لما عساه أن ينجم من الضرر .

وللمرة الثانية تأتي (أما) في الحديث لقسر الانتباه إلى الحكم البالغ خطره ، ويعقبها (إن) الحرف الدال على تأكيد الحكم ، ويكون اسم (إن) ضمير الشأن وفيه نوع من الإبهام ، يَشْخَصُ معه البصر متسائلا عما يراد من هذا كله ، فيليه المفسر بالعموم الشامل أفراد الجنس والمؤكد فيه ذلك الجنس تأكيداً لا يقبل الاستثناء (ليس منكن امرأة) ويعقب بالوصف المستوجب للحكم ، فيصف الفرد الدائر بالتحلي بالذهب المكشوف للأعين ، ويجعل من حالها ذلك مقصوراً ، ثم يجعل عذابها بهذا السبب مقصورا عليه .

وهنا يجدر بنا أن نلاحظ ملاحظتين ، إحداهما تنكير (ذهباً) ليعم الجنس قليله وكثيره جوده وبهرجه ، سداً للذريعة ودرأً للشر ، والثانية أن طريق القصر هو النفي والاستثناء أبلغ أضره استعمالاً فيما من شأنه أن يجمله المخاطب وينكره ، وحسبك بهذا من تقرير .

٤ - والحديث الرابع تسكين لأنفس الصحابة الذين راعهم فوت صلاة عن وقتها بنوم مستغرق حتى كأنهم أنكروا على أنفسهم ما صنعوه ، فهو عليه السلام يؤكد لهم عدم تفریطهم ، لأنهم لا يملكون أنفسهم ، فمن آيات الله منامهم بالليل والنهار ، وهو الذي يتوفاهم ويرسل أرواحهم إلى أجل قريب فيعذرهم من أنفسهم ، فيأتي بحرف التنبيه سابقاً حرف التأكيد (أما إنه) جاعلاً اسمه ضمير الشأن ، فيصعد الأهتمام بمضمون ما يلي ، ثم يصدر الحكم بنفي التفریط منهم وقت نومهم ، مقررأ بكل ما سبق ، ثم يؤكد الحكم مرة أخرى بحصر ما نفاه - وهو التفریط - في غير ما نفاه عنه - وهو النوم - فيخصه بمضيح الوقت يقظان حتى تدخل الصلاة العاقبة .

النوع الثاني

أما النوع الثاني من استعمال (أما) بدخولها على الفعل لتقرير المضمون بإنكار مالا ينبغي عمله - فمن أمثله قوله عليه الصلاة والسلام :

١ - « وأما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار ، أو يجعل الله صورته صورة حمار^(١) » .

٢ - « وأما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه في الصلاة ألا يرجع إليه بصره^(٢) » .

٣ - « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله^(٣) » .

٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما ثمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه ، فقال النبي ﷺ : كخ كخ إرم بها . أما علمت أنا لا نأكل الصدقة أو أنا لا نأكل لنا الصدقة^(٤) » .

٥ - « أما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه : أما كان يجد هذا ما يغسل به ثيابه^(٥) » .

يعرض الرسول عليه السلام في كل من هذه الأحاديث أموراً تهم المؤمن في دينه ومروءته ، على طريق أبلغ ، فينكر أحوالاً لا يصح الاتصاف بها إنكاراً يصحبه التهديد ، أو يلزمه التوبيخ ، ليزيد بذكر العقوبة على الأمر المحظور تأكد لزوم المرغوب ، فخشية المصلي أن يجعل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورته تؤكد في

نفسه لزوم متابعة إمامه وعدم سبقه . وخشيته أن يخطف منه البصر تقرر عنده ألا يرفعه فيصلي خافض الطرف خاشعاً .

وإنكار العلم بالشيء ، وصف للجهل بما ينبغي أن يعلم ، وهو عقوبة أدبية عند ذوي الحس المرهف ، تؤكد في نفوسهم قيمة هذا الشيء الذي أنكر عليهم الجهل بقيمته ، فيرون العلم به لازماً ، ولزم العلم به محتوماً ، فكون الإسلام يهدم ما سبقه من الكفر أمر ينبغي أن يعلم ويتقرر ، والعلم به يلزمه إغفال ما كان من النقائص في الذي أسلم بعد إسلامه ، فلا يهتم به ولا يعير ولا ينبغي منه هو لنفسه أن يقتل قلبه هما به وتفكيراً .

وعلم الحسن رضي الله عنه أن أهل النبي لا يأكلون الصدقة لأنها طهرة أموال الناس أمر كان ينبغي ، فعدم العلم به وصف يوجب التعليم والمؤاخظة ، ولازم ذلك تأكد هذا العلم ليؤتي ثمرته من عدم تكرار هذه المخالفة ، فأفواهم الطاهرة أنقى من أن تلوك الصدقة ، وأكفهم العلية أركى أن تكون هي السفلى ، وقد جاء هذا التوجيه الشديد تعليلاً للزجر المؤكد بتكرار اللفظ « كخ كخ » والأمر برمي التمرة ، وقد أكد بزيادة الباء الداخلة على الضمير ، إذ الفعل يصل إليه دونها ، والعبارة تحمل جانباً من الأفعال لا يصوره : إرمها ، أو ألقها .

هذه الخطورة التي يصورها الحديث تنشأ بسبب ثمرة ما كان أهونها ، إلا أنها المبادئ ترسم ، والمناهج توضع ، وهي لا تقبل التساهل بحال ، فما أجدنا أن نتخذ من هذا الحزم منهجاً تربوياً ، ننشئ به جيلاً صالحاً ، يلتزم الحدود ويعرف الدقة في آداب السلوك ، أليس معظم النار من مستصغر الشرر .

التأكيد بالقصر

تعد طرق القصر ضرورياً من التأكيد للمعاني على وجه أخص ، سواء كان النفي لما عدا المقصور عليه عاماً أو خاصاً ، لأن القصر معناه تخصيص أحد الطرفين بالآخر ، وكون أحدهما مختصاً بصاحبه يجعله ألزم وألصق من كونه متصفاً بملابسته

(١) الجامع الصغير : ٥٣ / ١ - رواية أبي هريرة - البيهقي .

(٢) الجامع الصغير : ٥٣ / ١ - رواه جابر بن سمرة .

(٣) الجامع الصغير : ٥٣ / ١ - عن ابن عمرو بن العاص - الحاكم .

(٤) تيسير الوصول : ٢١ / ٤ .

(٥) الجامع الصغير : ٥٣ / ١ عن جابر - الحاكم وأبو داود .

اتصافا مطلقا ، ولذلك جاء القصر للرد على منكر الحكم باعتقاد عكسه ، وعلى معتقد الشركة اعتقادا غير صحيح ، بإفراد مستحق الحكم عند المتكلم ، وعلى المضطرب المشكك في مستحق الحكم بتعيينه له ، كما جاء للمبالغة في الخاص بجعله كل جنسه لكماله في الحكم ، فينزل غيره بالنسبة إلى وجوده منزلة العدم .

وقد أتى القصر في البيان النبوي كثيراً للتأكيد مطابقة لما تقتضيه الأحوال ومنه هذه الأمثلة :

النفي والاستثناء

(أ) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : من سكن البادية جفا ، ومن أتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد عبد من السلطان دنواً إلا ازداد من الله بعداً^(١) .

(ب) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أعطاكم من شيء ولا أمنعكموه إن أنا إلا مأمور . وفي رواية : أنا قاسم أضع حيث أمرت^(٢) » .

(ج) وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا والمسجد الأقصى^(٣) » .

(د) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه السلام : « لا يجزي ولد والدا ، إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه^(٤) » .

(هـ) وعنه عن النبي ﷺ : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون

كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده^(١) .

١ - أمور من أمور الناس يجدر بها أن تؤكد : ضرر القرب من الحكام إلا للنصيحة الواجبة ، فإذا لم يكن للنصيحة فليس إلا للملق وإظهار الرضا بالحاكم خوفاً أو طمعا ، وهو منزلة من منزل الشيطان لصاحب السلطان ، ويكون جانب الرحمن مقابل جانب السلطان ، والمؤمن هو الوسط فبمقدار ما يخطو إلى الله يبعد عن الآخر ، وبمقدار ما يقرب من السلطان لغير غرض ديني يزداد عن الله بعدا ، وإلى الفتنة قربا .

يمهد النبي ﷺ لهذا الحكم المؤكد بالقصر فيلقننا الحكمة المستقاة من الواقع : (من أتى أبواب السلطان افتتن) ويجعلها كالعلة السابقة لإقرار الحكم . وقد جعل ازدياد دنو العبد من السلطان مختصاً بازدياد البعد عن الله ، نزولا على ما هو الغالب ما لم يكن السلطان سلطان الله ، والقرب منه قرينة لتلقي أوامر الله . ولعله عليه السلام يقصد بأبواب السلطان رجال حاشيته الذين يقربون إلى السلطان من يمالئهم ، والجمع يقرب هذا المجاز ، كما أنه يمكن أن يفهم من الجمع أن من علقت بالسلطان نفسه يضرب بالفكر في أبواب الحيل المنجحة التي توصله إليه ، وكل هذا من الفتنة الصارفة عن الله ، وأي مصلحة مهما سمت تلذ المؤمنين في بعده عن الله ؟

في كل شيء إذا ضيعته عوض وليس في الله - إن ضيعت - من عوض

٢ - والحديث الثاني يؤكد معنى ينبغي أن يؤكد ، حتى ينتزع من النفوس الضعيفة شكاً يتجالحها في عدله ، فتصبح وليس لها خلاق من الإيمان .

فالرسول لا يعطي من تلقاء نفسه ولا يمنع ، وإنما هو ينفذ في مال الله أمر الله ، فمن أعطاه الله حظاً مقسوماً لم يألته الرسول حقه ، ومن حرمه الله لحكمته لم

(١) تيسير الوصول : ٢ / ٢٨٨ .

(٢) تيسير الوصول : ٤ / ٢٨٩ .

(٣) الجامع الصغير : ٢ / ١٩٠ .

(٤) الجامع الصغير : ٢ / ١٩٠ .

يستطع أن يعطيه ، براءة من الحيف والهوى تحفظ قلوب المؤمنين من الزلل ، يقصر نفسه على تنفيذ ما أمر به ، فليس له أن يتجاوزَه إلى سواه ، من نقص زائد أو زيادة منقوص ، أو إعطاء ممنوع ، أو منع معطى ، عصمته النبوة أن يتجانف لإثم .

٣ - وفي الثالث تأكيد لحرمة المساجد الثلاثة وتعظيم لشأنها ، حتى تظل على المؤمنين عزيزة مرموقة ، تهفو إليها القلوب ، وتجمل الرحلة ، تجديداً للمعاني التي صحبتها . أليست هي الأعلام التي انبجست منها الأنوار تكشف الظلمات ، وما تزال تؤدي ما لا يؤدي العلماء من جذب القلوب إلى الله ؟

فقصر الواجب من شد الرحال اهتماماً على هذه المساجد الثلاثة دون غيرها من المزارات ودور العبادة ، إجماعاً بما لها من فضل يتأكد على المؤمنين أن يعرفوه ، لما شرفها الله به من إمامة الأنبياء ونشر دعوتهم .

٤ - والحديث الرابع يؤكد حق الأبوة على الأبناء وأجدربه أن يؤكد فقصر الوفاء بحق الأبوة على حال واحدة هي أن يصادف الإبن أباه عبداً مملوكاً ، فيشتريه من سيده فيعتقه ، فيكون سبباً في حياة الأب حياة الأحرار مقابل أن كان الأب سبباً في حياة الولد حياة الأبرار . وهنا يصغر كل ضرب آخر من البر ، حتى يستحي الولد من ذكره ، فضلاً عن المن والأذى ، وإذا كانت الحال المقصور عليها نادرة الحصول لزم أن يكون النادر من الأبناء مكافئاً ، وبقي أن يقاربوا ويسدوا ما استطاعوا ، فإن الأب أوسط أبواب الجنة ، وإن الجنة تحت أقدام الأمهات .

٥ - والخامس تأكيد لعمارة المساجد بالذكر الحكيم ومدارسة أحكامه ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ ، والذين يتلون آيات الله يرجون تجارة لن تبور ، فالخريص على أمته والرؤوف الرحيم يبين لها هذه المفازة لتنجو وتسعد بياناً مؤكداً بحصر جلوس القوم هكذا في تلحم الأضراب من الجزاء الكريم والتجلي الإلهي ، حتى يروا ما يبذلون من السبب هيناً يملكونه . وما يوهب من الثواب عظيماً يرجونه ، فتعش قلوبهم للمساجد يتنافسون فيها ، وتستيقظ قلوبهم فتري -

وهي تتلو كتاب الله وتدرسه - ما أخبر به الصادق المصدوق رأى عينها ، والحديث يشير بلفظ القوم إلى فضل الجماعة ، يذكر بعضهم بعضاً ما نسي ، ويكشف ما خفي ، والله يؤتي فضله من يشاء .

إِنَّمَا

يقول العلماء مقام (إنما) في القصر أن تدخل على أمر من شأنه أن يكون معلوماً ، وأحسن مواقعها التعريض بلازم العبارة .

وهذه أمثلة من القصر بها في البيان الكريم :

١ - عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق لهم في الآخرة^(١)» .

٢ - وعنه قال : رأى عمر رضي الله عنه حلة إستبرق تباع ، فأق بها النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ابتع هذه فتجمل بها للعيد والوفود فقال رسول الله ﷺ : «إنما هذه لباس من لا خلاق له» .

٣ - عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : «سمع رسول الله ﷺ جلبة خصم بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم ولعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها»^(٢) .

٤ - ومن حديث رافع بن خديج رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « . . . إنما أنا بشر . إذا أمرتكم بشيء من أمور دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»^(٣) .

(١) تيسير الوصول ١٤٥ / ٤ .

(٢) تيسير الوصول ٤٨ / ٤ .

(٣) تيسير الوصول ٢٨٣ / ٤ .

٥ - عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (١) .

١ - الحرير لباس المترفين ، رقيق ناعم يوائم البشرات الناعمة الرقيقة ، والدين يريد الرجل للجهاد والعمل خشناً صلباً ، فلا لبس الحرير من الرجال هارب من رسالته ، متشبه بالغانيات ، والرسالتان مختلفتان :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغنابات جر الذبول
فهل ترى المتشبه بهن ذا خلاق في الدنيا فضلا عن الآخرة ؟

من نصائح الرسول لأمته : اخشوشنوا (٢) وتمعددوا لأن ضرراً بالغاً على المسلمين فسولة الرجال وانحلال أخلاقهم ، والأكسية كما هي لباس الأجسام لباس الأنفس ، وهل تحس الأجسام خشونة الثوب أو نعومته إلا بحس أنفسها ؟ .

إنه معنى يستحق أن يؤكد بالقصر فيخصص فيه لبس الحرير بمن لا نصيب له من خير الآخرة ، حتى ينظر من له طمع فيه مصيره ، فينأى بجانبه وقد جعل الظرف الفاني مقابلاً للخالد ، وحرير في الفاني يجرم صاحبه سندسا وإستبرقا دائمين ، وإطلاق خلاق الآخرة يتجاوز الحرير فيعم كلها ترى كم تكون الخسارة في لبس ثوب من حرير لغير عذر طبي ؟ .

أمر إن لم يكن معلوماً فهو مما ينبغي أن يعلم ، ولذلك استعمل معه (إنما) ولم يتجه الكلام إلى لابس معين ، تعريضاً بكل لابس حرير ، وتحذيراً لكل عازم على لبسه .

(١) تيسير الوصول ٢٤٧ / ٤ .

(٢) ينظر الكلام على تحريجه ومعناه في كشف الخفا ص ٦٧ / ١ برقم ١٥٧ .

٢ - ويؤازر الحديث الثاني سابقه بوصف أشد ، يظهر فيه التعريض بالقصر أولاً بنفس الأداة (إنما) وثانياً بالعتاب على المخاطب الذي نزل منزلة من لا يعلم الحكم ، لأنه شديد الحرص على المظهر الحسي للرسول عليه السلام كما لا حبه ، فأكد له بإنما على طريق حصر الحلة المذكورة في لباس من لا خلاق له ، ووجهه بها إلى أن هذا الحكم مما ينبغي أن يكون معلوماً عنده ، وحرصه الشديد على رفضها ، وإظهاره علة الرفض وهي الضرر الناجم عن لبسها يؤكد شدة عنايته بكمال خلاقه الأخروي ، ورغبته أن تكون أمته ، مؤتسية به ، ومن يكون أعظم من مصطفى الحق نصيباً في الجنة ؟

٣ - ويؤكد الرسول في الحديث الثالث بشريته ، فيقصر نفسه عليها دون ما يقتضي علماً بالغيب إلا ما يظهره الله عليه ، تحذيراً لأصحابه أن يجبر أحدهم حب النصر بالباطل إلى أكبر الكبائر ، بأن يغش النبي باللسان الخلوب يحل لنفسه به حق غيره ، ممن لا يضارعه لسنا ، وفي ذلك تعريضان معا : أولهما ببراءة القاضي من ذنب حكم جار فيه مخدوعاً غير قاصد ، ولو لم يكن عليه السلام هكذا ، وثانيهما بفداحة الجرم اللازمة لمفهوم المجازاة بحمل قطعة من النار ، ليست شيئاً غير ما استحلّه طالباً من حق غيره ، أنرى عاقلاً من يخير بين حمل النار أو تركها ، فيجرؤ على حملها بخديعة الحاكم والقاضي وتزييف الدليل ؟ وكم من ويل ينتظر المحامين الذين همهم الشهرة والمال يربحونها بتبريء المجرمين والسفكة ، وإزهاق حقوق الضحايا المساكين ؟ .

إن العبارة الدالة على عظم الجزاء مؤكدة بالقصر أيضاً ، وفيها التعريض بأن فاعل ذلك الجرم جهل أمراً معلوماً ، أو تجاهله بدفع الشيطان ، وبأنه يجهل أو يتجاهل لعبه بالنار ، ويفيد تنكير (قطعة) في مقام التحذير والتهديد ضخامة القطعة وخطورتها ، وتعريف (النار) بأل العهدية يبعد الذهن عن نار الدنيا التي مهما اشتد أوارها فمآها التراب . . . فاللهم اكفنا أن نزل أو نضل بلحن القول وفصاحة اللسان .

٤ - والحديث الرابع يؤكد فيه الرسول أيضا بشرية المعلومة للمخاطبين تعريضا بمن يفهم أنه فوق البشرية بعموم الوحي لما يخص الدين وما يخص الرأي في أمر من شؤون الحياة لا يمس العقيدة ، ولذلك جاء (إنما) ، ولذلك تكررت عبارة القصر التي أفرد فيها نفسه بالبشرية المتضمنة انفراد الشخصية الإنسانية حيناً ، حيث يجوز عليه السهو ، وعلى اجتهاده في شأن دنياوي بجانب الأُولَى ، والتواضع بعرض المشورة ، والأخذ برأي الصحابي في مسألة ما ، كما ينبغي أن يفهم بالضرورة تبرئة النفس الشريفة من دعوى الخروج على البشرية تألها ، عرفانا لمقامه من الله ، وتعلما للمترفعين بأثارة من علم تثبت الأيام والتجارب نقضه أو نقضه ، وتخزي حجته أو تعفى مجبته .

٥ - والحديث الخامس يؤكد فيه الرسول ﷺ ضرورة النية لقبول العمل في الأمر العازم غير المصادف ، وقد عرف المسلمون من أول أمرهم قيمة القلب في عقيدتهم وأعمالهم ، ولما كان ذلك معلوما لهم كان القصر (إنما) تعريضا بالموهين على الناس والمرائين المخادعين ، وبيانا لحبوط أعمالهم عند المطلاع على مواقع نياتهم ومجامع أسرارهم .

أثذا خدعوا المخلوق هم خادعو الخالق ؟ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟

لقد طال حديث الشراح عن هذا الحديث العظيم ، وسنستأنف الكلام عنه في باب الوجازة إن شاء الله . . أما الآن فنلتقط منهم بعض ما قيل في عبارات القصر .

أما جملة الاستهلال (إنما الأعمال بالنيات) فهي من مقابلة الجمع بالجمع ، أي كل عمل بنية ، وفسر بعضهم هذا بأن النية تتنوع كما تتنوع الأعمال ، كمن قصد بعمله وجه الله أو تحصيل موعوده ، أو اتقاء وعيده ، وقد قال الكرمانى في هذه الجملة : هذا التركيب يفيد الحصر عند المحققين واختلفوا في توجيه الحصر فقيل : لأن الأعمال جمع محلى بالألف واللام مفيد للاستغراق وهو مستلزم للقصر

لأن معناه كل عمل بنية ، فلا عمل إلا بنية وقيل : لأن إنما للحصر . . . والنية في اللغة انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض من حب نفع أو دفع ضرر ، حالا أو مآلا وهي شرعا الإرادة المتوجهة نحو الفعل لا بتغاء رضا الله وامثال حكمه ، وهي في الحديث محمولة على المعنى اللغوي ليحسن تطبيقه على ما بعده ، وتقسيمه أحوال المهاجرين ، فإنه تفصيل لما أجمل .

واختلفوا في تقدير متعلق الجار والمجرور : (بالنيات) أهو صحة الأعمال ؟ ذهب إليه الذين اشترطوا النية لصحة العمل . أم هو كمال الأعمال ؟ ذهب إليه غيرهم ، والأول الراجح ، لأن الصحة أكثر لزوما للحقيقة من الكمال ، فالحمل عليها أولى .

« وإنما لكل امرئ ما نوى » جنح القرطبي الى أنها مؤكدة فالأولى تأسيس ، وعليه فهي تقرر اشتراط النية والإخلاص في الأعمال ، وقال غيره : إنها تفيد غير ما أفادته الأولى ، لأن الأولى نبهت على أن العمل يتبع النية ويصاحبها ، فيترتب الحكم على ذلك ، والثانية أفادت أن العامل لا يحصل له إلا ما نواه .

وقال ابن عبد السلام : الأولى لبيان ما يعتبر من الأعمال ، والثانية لبيان ما يترتب عليها ، وأفاد أن النية إنما تشترط في العبارة التي لا تتميز بنفسها ، وأما ما يتميز بنفسه فإنه ينصرف بصورته إلى ما وضع له ، كالأذكار والأدعية والتلاوة ، لأنها لا تتردد بين العبادة والعادة . . . كذهاب إلى السوق للشراء وذهاب إليه للتصدق على فقير فيه ، وزيارة قريب للالتئاس ، وزيارته مريضا رجاء ثواب الله في زيارته .

وقال الكرمانى في تقديم المسند (لكل امرئ) على المسند إليه وهو الأسم الموصول : إذا قلنا إن تقديم الخبر على المبتدأ يفيد الحصر ، ففي قوله : « وإنما لكل امرئ ما نوى » نوعان من الحصر : قصر المسند على المسند إليه ، إذ المراد إنما لكل امرئ ما نواه ، والتقديم المذكور^(١) .

(١) ملقط من فتح الباري ١٦ / ١ .

وعلى هذا نرى دارسي الحديث قد وصلوا بدقة النظر إلى أن كلا من الجملتين تحمل قصرين ، يؤكد كل منهما صاحبه في تقرير مدلول العبارة ، وأن الجملة الثانية بقصرها تؤكد مضمون الأولى حتما ، مهما اختلف الوجه لدورانها حول العمل والنية ، ولماذا لا يؤكد هذا البيان بكل ذلك التأكيد لقسر السامع على الأهتمام ؟ أليست الجنة والنار ثمرة العمل والنية ؟ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ بل إن النية وحدها قد تنفرد بالجزاء فتكون من العبادات ، ألم يقل عليه السلام :

« من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » ؟

القصر بحرف العطف

وطريق القصر ولكن ولا وبل هو أصرح الطرق يذكر فيه ما أثبت له وما نفى عنه تأكيدا لمضمون الكلام ، وقد وردت (لكن) في هذه النصوص ومثلها :

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس ^(١) » .

٢ - وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمررة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس ^(٢) » .

٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها ^(٣) » .

(١) تيسير الوصول ٤٠ / ٤ .

(٢) الجامع الصغير ١١٢ / ٢ .

(٣) تيسير الوصول ٤٠ / ٤ .

٤ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء . قلنا : إنا نستحي من الله يا رسول الله والحمد لله . قال : ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر المسوت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله الحياء ^(١) » .

٥ - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر لي إن شئت . اللهم ارحمني إن شئت . ولكن ليعزم المسألة فإن الله تعالى لا مستكره له ^(٢) .

(لكن) في هذه الأمثلة مسبوقه بالنفي أو شبهه ، وما بعدها إيجاب ، ونفي الشيء عن آخر وإثباته لسواه يحقق معنى القصر والاختصاص ، إلا أنها في تلك النصوص ليست للعطف ، لأنها مسبوقه بالواو ، بل هي لمجرد الاستدراك ، ونستطيع أن نلمس على جانب من الوضوح أن معنى التخصيص مقصود وقائم في كل منها وكأنه قيل :

ما الغنى المستحق الذكر لكماله وتمام نفعه إلا غنى النفس .

ما المسكين المستحق هذا الوصف إلا الذي لا يجد غنى يغنيه .

ليس الواصل إلا الذي إذا انقطعت رحمه وصلها .

ليس الحياء الحق إلا أن تحفظ الرأس وما وعى .

لا يصح الدعاء إلا بعزم المسألة .

غير أن فرض وجود هذا الحرف عاطفا أو مستدركا به ، أن يذكر معه ما نفى وما أثبت ليكون ذكرهما معا أكد للأفهام ، وأشد تقريرا للمراد ، والمعاني المذكورة

(١) تيسير الوصول ٢٢ / ٢ .

(٢) تيسير الوصول ٥٧ / ٢ .

كلها والمستدرك عليها بالأداة هي من الأمور التي ثبت في العادة مفهومها الخاطيء عند الناس ، ولها مفهوم صحيح يقابله ، وكل عبارة منها تنفي الخطأ وتثبت الصواب ، فهي بقصر القلب أشبه لتصحيح تلك المفاهيم وتقريرها بإبطال معتقد المخاطب ، إبطالا على سبيل الحقيقة أو المبالغة .

التقديم

وتقديم جزء من الكلام بمقتضى البلاغة حقه أن يتأخر في الترتيب بمقتضى الأصل العام في القواعد - يفيد أمورا منها القصر للمتأخر على المتقدم بدلالة المقام ، ومما يحمل على ذلك تقديم الجار والمجرور في كل موضع من الحديث التالي :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يتهجّد قال : اللهم ربنا لك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد ، أنت مالك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد ، أنت الحق ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاکمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت (١) .

فهذه الأخبار كلها على معنى التخصيص لتأكيد الثقة بالمقصود عليه سبحانه والاعتداد به وحده والامتداد منه وحده .

« لك الحمد - لك أسلمت - بك آمنت - عليك توكلت - إليك أنبت - بك خاصمت - إليك حاکمت » .

فالحمد ، والإسلام ، والإيمان ، والتوكل ، والإنابة ، والمخاصمة ، والمحاکمة من أفعال الرسول عليه السلام مقصورة على الله وحده ، مدلولاً عليه تعالى بكاف

الخطاب تشرفا بعز الحضور ، لا يتعداه إلى غيره شيء منها تحقيقا لمقام ربوبيته ، والتعبير بالماضي يشمل في المعنى ما حضر وقت الخطاب وما يستقبل ، ثقة واثقة في ثبات العزيمة على العقيدة ، وتساوي ما سيكون بما قد كان ، وعلى الله قصد السبيل .

وفي الحديث صيغ للقصر أخرى تتضافر كلها على تأكيد التقديس والاعتراف بالجلال الإلهي ، منها تعريف الطرفين في هذه الأخبار :

« أنت الحق - وعدك الحق - أنت المقدم - أنت المؤخر » .

فمعنى هذه العبارات : ما الحق من الذوات إلا ذاتك ، وما الحق من الوعد إلا وعدك ، وما المقدم إلا أنت ، وما المؤخر إلا أنت ، صفات من صفات الجلال هي له عين اليقين ، وقد يظن بعضهم اتصاف الحادث بشيء منها على الاشتراك في اللفظ ، والرسول عليه السلام ينفي عن نفسه بتخصيص هذه المعاني بربه ، أن يكون من الظانين ظن السوء - وحاشاه - ويرشد من يهدها يسترشد إلى سواء السبيل .

ولما كانت هذه الصفات كلها صفات الألوهية الحقّة ، وأرباب متفرقون لا يملكون شيئا منها - انتفت الألوهية عنهم بأداة النفي لفقدهم أسبابها وصفاتها ، وأثبتت بأداة الاستثناء لله المستحق ثبوتها وحده مقصودا بضمير الخطاب ، تأكيدا وتحقيقا لما انطوت عليه الضلوع من عقيدة الأنبياء : « لا إله إلا أنت » وكأن العبارة تقول : لا إله إلا من كانت له الأفعال والصفات المذكورة فيما سلف ، وهي لك يا الله وحدك وليست لسواك فلا إله إلا انت .

« إن الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .

التأكيد المعنوي

١ - التأكيد بالتشبيه والتمثيل

التشبيه والتمثيل أداة فطرية لإظهار صورة ذهنية عند المتكلم لا يرى التعبير عنها كافيًا في تصويرها - في صورة أشد وضوحًا ، وأكمل أطرافًا ، يزيد قياسها بها ومطابقتها لها تقرير المعنى وتأكيد الدلالة ، فمن الأشياء المحدث عنها ، ما يكفي اللفظ المجرد في بيانه ، والوصف القائم في الدلالة به ، ومنها ما لا تكمل دلالاته ، ولا تتمكن في النفس صورته ، ولا يملك الحس والوجدان مدلوله ، إلا بإخراجه هذا المخرج التصويري ، الذي تتعاون قوى النفس - من فكر وخيال معا - في إحكامه وبث الحياة فيه ، وليس التشبيه والتمثيل مختصا بلغة أو جيل أو فرد ، ولذلك قلنا : إنه أداة فطرية ، وإنما يكتسب الاختصاص من المنهج أو الطابع أو دقائق السمات التي يمهر بها عند المنشئين ، حتى يمكن أن يوضع تحت عنوان كهذا في الحديث عن بلاغتهم .

والبيان النبوي يضرب بسهم وافر في هذا الميدان ، ويتخذ من التصوير بهذه الوسيلة أداة ناجحة فعالة للوصول إلى هدفه ، من شغل الحس الظاهر والباطن ، وامتلاك النفس بكل ما فيها ، لأن هذه الوسيلة أقرب إليها ، وهي بها آنس ، ولها أمل ، ولا سيما أن الرسالة التي جاء بها البيان النبوي تجديد للقيم ، وتعديل للمفاهيم ، وتعريف بأنماط من المعاني ، لا يسيغها العقل الدارج على ضدها ، إلا مأخوذاً بقهر العاطفة وتأثر الوجدان ، يثيانه ليعيد النظر ويختبر الدليل ، وإنما يهزهما فيهز العقل ليخلي مكانه إلى مكان جديد - ذلك التصوير المقنع ، الذي ينتجه المتكلم بكل قوى نفسه ، ليسكن أغوار نفس صاحبه ، وسنرى في هذا الفصل كيف استطاع عليه السلام أن يختص بالعصمة من الزلزل في استعمال تلك

الوسيلة ، فلا نقد على تشبيهه ، ولا إخفاق في تمثيل ، ولا جموح في عبارة ، ولا إسفاف في دلالة ، لأن شيئاً من ذلك إنما يكون عند كذب العاطفة أو نقص الشعور ، أو التباس المعنى ، أو الجهل باللغة ، وهو ﷺ معصوم من ذلك وأمثاله مما يعوق الرسالة ويؤثر في البلاغ .

تشبيه الحسي بالحسي

في التشبيه البسيط

١ - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي وقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »^(١) .

الغريب وعابر السبيل لا يتعلقان في دار الغربة بما يثقلهما عن السفر ، أو يعوقهما عن المضي ، من المآرب الحسية أو المعنوية ، زاهدان في أكثر مما يبلغهما المحل من زاد وثوب ومركب ، لأن في الزيادة مغرماً يشق عليهما وإنما يحرص على مثل ذلك المقيم .

هذه حال يعرفها ابن عمر ، ويعرفها كل الناس ، لأنها من المقرر المحس والمكرر المعلوم ، والرسول ﷺ يطلب من صاحبه عبد الله أن يكون في الدنيا شبيهاً بالغريب أو عابر السبيل في عدم التعلق بما يثقله من متاعها الخادع الذي يعوق همته ، ويشغل قلبه عما هو أحق ، إذ الدنيا طريق غربة يفضي بكل نفس إلى دار إقامة وقرار .

ولما كنا في الدنيا وجدنا ، وعلى آثار آبائنا درجنا ، وجعل الله لنا فيها تملكا يباح ، وأوطاننا تصان ، وعنها يدافع ، لم يظهر معنى الغربة للإنسان في داره ، ولذا كانت البلاغة النبوية تقتضي في التشبيه وضع الأداة (كأن) لحمل حال بحاجة إلى أن تتقرر على أخرى مقررة معلومة ، وهذه العبارة أقرب إلى طبيعة الناس والحياة مما

لو كانت العبارة « إنك في الدنيا غريب أو عابرة سبيل » لأن العبارة الأولى تجعله مشبهاً للغريب ، فتعطي حق المقيم لعمارة الدنيا في قصد وعرفان غاية ، والثانية تنزع هذا الحق فتصرفه صرفاً ، وتجعله سفيهاً في تشبثه به ، مهما كانت العلاقة بينه وبينه .

وهذه الصورة التشبيهية تترك خيال ابن عمر وخيالنا يصور لنا أوصاف الغريب وعابر السبيل عند وقوفنا من الدنيا على نوافذ الآمال وأبواب المطامع ، فتحد من جموحنا الشارد ، أو تورطنا المهلك ، وعند نظرنا إلى ما تعودت الأقدار أن تسلبه منا ، فلا نحزن لفقدته حزن الهالكين ، كما توحى إلينا في سعة أن خلوداً في دار ثانية ينتظر خطونا ويعقب غربتنا ، وأنه أولى بنا أن نتزود له من هذه الغربة بما لا بد منه هنا ، لأنه سبب السعادة هناك .

٢ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت عليّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندي شيئاً غير تمر ، فأعطيتها إياها ، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ، ثم خرجت ، فدخل عليّ رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار » .

عرفت جاهلية العرب بواد البنات خشية عار أو إملاق ، وجاء الإسلام يرفع شأن الحياة ، ويصعد معاني الخير ، ويعطي القيم مكانها لينتظم الوجود .

وهذه قصة صغيرة لكنها عجيبة آثرتها من جانبيين : أنها تبين بالتطبيق العملي ما كان بيت النبي عليه السلام يحققه من القدوة للمؤمنين ، فيتخفف من زاد الدنيا حتى لا يوجد فيه لأهله وللوسائل غير تمر . وإنما تقر بقوله ﷺ : « كن له ستراً من النار » ما تقرر من عظيم المعنى .

ابتلاء من الله أن يولد لإنسان بنت في ذلك الوقت السابق على الإسلام !
وابتلاء من الله أن يولد لإنسان بنت في ذلك الوقت الذي نزلت فيه أحكام

الإسلام ! وابتلاء من الله أن يولد لإنسان بنت في هذا الوقت الذي نعيش فيه كذلك !

أما أولاً فيكفي أن يصور ذلك القرآن الكريم بقوله ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ . وبقوله منكرأ على المشكرين نسبة البنات إليه سبحانه إذ كانوا يقولون : الملائكة بنات الله : ﴿ أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴾ .

وأما ثانياً فلا اتصال هذا الزمن بما قبله ، ولتأصل تلك العادات وصعوبة التحول حسا ومعنى دفعة واحدة .

وأما ثالثاً فلما يحس به كل والد ووالدة من أن البنت أشد حاجة للرعاية وأعظم كلفة في اليقظة ، لما يناط بها من الشرف ، ويتمثل فيها من الكرامة .

لهذه المعاني كان التعبير الكريم مصوراً كل التصوير بقوله : ﴿ من ابتلي ﴾ أما كلمة « شيء » ، فلعموم العدد ابتداء من أقله وهو الواحدة .

من كان حظّه هكذا فأحسن إلى ما رزقه الله من هذا الجنس الجدير بالإحسان جاعلاً الحب مكان البغض ، والاستبشار مكان الإنكار ، وحسن الصحبة محل سوء العشرة ، والتأديب بأدب الإسلام ، والتربية بخلق القرآن دون ما سواهما - من كان له ذلك في الدنيا « كن له سترأ من النار » في الآخرة .

والستر هو الحائل الحاجب ما وراءه ، والفواصل بين ما هنا وما هناك ، وما هنا هو الذي أحسن إلى ما رزقه من البنات ، وما هناك هو نار جهنم بحرهما وشرها ، وإنسان ضعيف كل الضعف ، واجف القلب ، مرتعد الفريضة ، في موقف هولاه خطير ، وشرره يطير .

كم تعلق النفس بالساتر الواقعي ، وكم تتأكد الرغبة في الحامي الشفيق ، وكم يكون ذلك الساتر الحامي حبيباً عظيماً كريم الصنيع ؟

إنه هذه البنت التي أحسن أبواها إليها بما سلف ، فأحسن الله إليهما بها حجاباً بينها وبين النار .

ترغيب عظيم في الرضا بالبنات ، والإحسان إليهن ، نقل الإحساس بهن لحماً ودماً إنسانياً وصورة جميلة من البشرية إلى الإحساس بهن سترأ حصيناً حامياً ، يقف بين النار وهولها ، والأجسام الضعيفة وخوفها .

إني منذ عرفت هذه العبارة ، أتمثل ابنتي سترأ دون وجهي يعصمه من النار ، ويسبح خيالي بسقوط حرف التشبيه في المدى الواسع من الهول الذي أرجو أن أكون وقيته ، فإن سقوط هذا الحرف لا يجعل البنات شيئاً والستر شيئاً آخر ، فيهز الثقة ، ويضعف الأمل ، بل يجعلها شيئاً واحداً كما هو الأصل في المسند إليه ومسنده في الجملة الأسمية .

٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم ولا تتخذوها قبوراً » (١) .

٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تجعلوا بيوتكم مقابر . إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة » (٢) .

كما لأنفسنا على أنفسنا حق ، ولأهلينا علينا حق ، ولغيرنا كذلك - لبيوتنا التي تؤوينا حق .

إننا نملأ رحابها بما يستطاع مما يجلب أنسنا ، ويريح نفوسنا ، ولكن شيئاً قد لا يعرفه الكثير من الناس إذا فقدته بيوتنا كانت قبوراً موحشة مظلمة ، وإن امتلأت نشيداً وتألقت بالمصاييح . .

عجباً . . أهنالك أنس غير هذا الأنس ، ونور غير هذا النور ؟

(١) تيسير الوصول ٢٣٦ / ٢

(٢) تيسير الوصول ٩٠ / ١

نعم . إن أنس الحياة ونورها اللذان يبعدان عن الدين ، وينبعان من الفاني لا ينفذان إلى الروح ، ولا يتصلان بالسماء ، فهما والعدم سواء والبيوت معها مقابر .
والصلاة نجعل شيئاً منها في بيوتنا ، والقرآن نتلوه فيها ، يلد في البيوت حياة ترفعها عن المقابر ، تدفع عنها الوحشة والظلمة ، اللتين لا تحسان بالبصر ، وإنما تدركان بالبصيرة .

والبيان الحكيم ينهانا ، ويجعل الأمر في يدنا ، فنحن الذين نجعل بيوتنا مقابر بملكتنا إذا لم نُصلِّ فيها ولم نقرأ ، ونحن الذين نرفعها عن هذه الصفة إذا صلينا في بيوتنا وقرأنا .

و (جعل) من أفعال التصبير والتحويل ، تصور لنا استعداد البيوت لما يراد بها منا وبراءتها من فعلنا ، فهي في ذاتها صالحة لجعلها مقابر أو غيرها بما نزاول فيها من العمل .

وبناء العبارة على حذف أداة التشبيه يزيد في تقرير تحول البيت الذي لا يُصلِّ فيه ولا يُقرأ القرآنُ قبراً ، ويؤكد وجوب النهي عن جعله كذلك ، وكلما تأكد النهي تأكد الأمثال .

إننا لتطالعنا الوحشة والانقباض في المقابر ، ويستوي علينا الشعور بالحزن ، وتنطلق بخيالنا الألوف من الأوهام . فلم نسكنها ونحن أحياء ؟ ولم لا ننتفع بالحياة النابضة والبشر الباسم ؟

لنتمثل دائماً هذا الحديث لنعرف ما قرره بالتشبيه المؤكد المجمل من شأن بيوتنا ، ومن جنائتنا عليها وعلى قلوبنا إذا أخليناها من قراءتنا وصلاتنا إنه تشبيه يحمل معنى التقييح والتنفير للبيوت التي هذه مثابتها ، ومعنى التوييح والتقصير لمن يكون صاحبها وساكنها .

٥ - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام كتاب الله تعالى » (١) .

يريد الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن يبين المقياس الحق للوالي الذي يجب له السمع والطاعة ، دون نظر إلى اعتبار آخر ، أما ما يوجب هذا الحق فهو أن يقيم الوالي كتاب الله فيمن ولي عليهم ، فيحل ما أحل ، ويحرم ما حرم ، ويوجب ما أوجب ، ويسير على هدى الله ، وأما الاعتبارات الأخرى التي لا يصح النظر إليها ، ولا تبيح الخروج وشق عصا الطاعة ، فقد مثل لها النبي عليه السلام بأدناها افتراض وجود ، ليكون ما سواه أولى بلاغة بالحكم ، فقال : « وإن استعمل عليكم عبد حبشي » ولما كان العبد قد يرد لونه على غير السواد قيده بهذه النسبة ليؤكد سواده ، ثم أوغل في هذا التأكيد بعبارة التشبيه التي تبين مقدار ما وصل إليه هذا العبد من السواد وتجعد الشعر فقال : « كأن رأسه زبيبة » .

هذا التشبيه الدقيق يرسم في رؤوس المسلمين صورة لا تُنسى لطاعة الوالي كلما نظروا إليه اقترنت صورته بها ، فرضيت نفوسهم عنه ما كان مقبياً لكتاب الله فيهم ، وليس الرسول عليه السلام حاقراً بذلك أحداً ، وهو الذي جاء بفك الرقاب ومحو الرق ، وإثبات الأخوة والمساواة بين الأبيض والأسود ، والعربي والعجمي ، فلا مفاضلة إلا بالتقوى ، وإنما هي المجازة الأسلوبية لمألوف العرب والناس ، وقد جاءت العبارة لإثبات الحق بالسمع والطاعة لا لنفيه ، وإقامة الكتاب في معنى التقوى التي لا تحصل الأكرمية والتفاضل إلا بها ، فإن أتقى الناس أولاهم بإقامه كتاب الله سبحانه .

٦ - من حديث أبي هريرة في النصيحة قوله ﷺ : « إن أحدكم مرآة أخيه فإن رأى به أذى فليمطه عنه » (١) وفي رواية : « المؤمن مرآة أخيه المؤمن يرى فيه حسنه وقيحه » .

كلما سمت نفس الإنسان ، وأشرق بنور ربها ، واستيقنت أنها مع غيرها من النفوس الزاكية بالإيمان تمثل طاقة واحدة ، تنبع من مصدر واحد وتملأ صعيداً واحداً ، أحست أن عيياً صغيراً في أي جانب يتصل بها هو عيب فيها ، فاتجهت

(١) تيسير الوصول : ٢٤ / ٣ .

إلى إصلاحه ، حرصا على كمالها الذي لا يتحقق مع هذا العيب ، فبذلت النصح
أمانة ، وساعدت في الخلاص جاهدة ، وقابلت النفس المنصوحة هديها شاكرة ،
ونصحها عاملة ، ما دامت تشعر بالتضامن في الهدف ، والتكامل في البناء .

والحديث الشريف بأوجز لفظ وبأبين عبارة يحدثنا عن هذا المعنى ، ويؤكد
ويقرره بما نرى أول الكلام من حرف التوكيد (إن) ، وما جعله مسندا إليه في
الجملة ، وهو الأحد الدائر الذي يشمل الجميع على البدل ، لأنه مضاف الى ضمير
الجميع من المخاطبين ، ثم يجعل المسند المشبه به متصلا بالمسند إليه على التأكيد
بسقوط أداة التشبيه ، حتى كأنها واحد في خيال السامع ثم يجعل هذا المشبه به
(المرأة) مضافا إلى الأخ ليظهر اختصاصه به ، وتؤكد ولاته له ، وأنه يجب عليه أن
يضع نفسه في نصحه موضع الشيء الذي يملكه ويختص به ، فإذا لوحظ مع ذلك
أن المرأة لا تكذب الرائي ، لزم هذا المعنى وجوب الصدق في الناصح المشبه
بالمرأة ، ووجوب التصديق في المنصوح الذي لا يتهم مرآته .

وقد أمر المؤمن الناصح في الحديث والمشبه بالمرأة - أن يميظ الأذى عن أخيه
المنصوح زيادة في تقرير واجبه المفهوم من عبارة التشبيه ، وتوسيعا في جوانب ذلك
الواجب ، ليشمل ما يستطيع أن يسديه من عمل ، مع ما يستطيع أن يقدمه من
قول ليسلم عرض أخيه ويصح ، فيسلم عرضه هو الآخر ويصح ، لأن جمال المرأة
وكمالها جمال ما ينعكس عليها من الصور وكماله ، وما دام المؤمن الزكي مرآة
حية ، تملك تجميل ما ينطبع على وجهها فهو لا يرضى النقص والتشويه دون أن
يجهد ويخلص ما وسعه الجهد وأمكنه الإخلاص .

٢ - تشبيه العقلي بالحسي

في التشبيه البسيط

إذا كان تشبيه الحسي بالحسي يقرر المضمون ، ويؤكد اللازم على ما علم
بالأمثلة السابقة - فإن إخراج المعاني العقلية في صورة الحسي أشد تمكينا لها في
النفس وتقريراً في البيان ، لأنها بذلك الوجه تشخص وتتجسم ، حتى تقع تحت

الحاسة وقوعا خيالها ، يظل يدور بها في مدار المعرفة حتى تأنس وتسكن ، وهذا
الضرب من البيان هو أوسع أضرب التشبيه استعمالا ، لأنه أتمها فائدة . وألصقتها
بحاجة الإنسان إلى نقل محصوله من المعاني ، ليتصورها المخاطبون على شكلها
عنده ، وهنا نضرب الأمثلة للفصاحة المحمدية في استعمال هذا الضرب الناصع
من التشبيه :

١ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه من خطبة للنبي عليه السلام : « ألا
وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟
فمن أحس بشيء من ذلك فليصق بالأرض » .

أصدر الرسول ﷺ حكمه على الغضب بأنه جمرة . . . وقد أكد الحكم وقرره
بوقوعه بعد أداة الاستفتاح الدالة على الاهتمام ، وبعد (إن) المؤكدة ، والحكم
قائم على تشبيه الغضب - وهو انفعال نفسي ، وحال معنوية - بالجمرة وهي جسم
محس ، ندركه بأكثر من حاسة ، وهو من تشبيه المبالغة المبني على دعوى الاتحاد بين
الطرفين ، لأنه مؤكد بحذف الأداة ، ومجمل بحذف الوجه ، ليباعد بين الذهن
وقصد التشبيه ، وقد رشح هذا الاتحاد بلطفية من السر النبوي ، وهي إيلاء
الظرف (في قلب ابن آدم) للجمرة دون الغضب ، وكان من الممكن أن يقال
(وإن الغضب في قلب ابن آدم جمرة) ولو قيل هذا لانطمست القيمة الفنية
للتعبير ، إذ تفقد الجمرة اتحادها بالغضب واقعة معه في مكانه ، ويؤذن الفضل
بينها بأنفصالها ، فيسقط التأكيد المفاد بحذف أداة التشبيه ، لما بينهما من التعارض
في الهدف ، مع أن المقام للتخويف والتحذير ، الذي يقتضي أكد الوجوه لتجسيم
الغضب في هذه الصورة المنذرة بالخطر .

ولما كثرت المقررات المؤكدة للحكم ، حتى أن توهم من لم يتمكن من أسرار
البيان ، أن يظن فيها المجازفة والتساهل - أحوجت إلى دليل من المنطق الحسي
والبرهان القريب المشاهد ، فانخذ عليه السلام من المظاهر الفسيولوجية الناشئة عن
الغضب ذلك الدليل على حكمه .

وهنا ينبغي أن ننظر في إكبار بالغ المدى إلى فلسفة التعبير وحكمته ، فالجمرة نار والقلب وعاء الدم ، يصل بدورته إلى كل عضو في الجسم حتى الشعر ، فإذا غلى الدم على نار الغضب فار في العروق وظهر في الأعضاء حتى تنتفخ الأوداج وتظهر في العين حمرة .

وتشبيه الغضب بالجمرة تشبيه واقع من جهات :

فحرارة الجسم ترتفع عند الغضب نتيجة لصعود الأنفعال النفسي وزيادة النبضات حتى يهيم الدم كله أن يجتمع في مراكز الغضب كالجند الحاشد للهجوم .

والنار تحدث التورم في الجسم والحمرة والالتهاب فيما تمسه ، والغضب تنتفخ به الأوداج وتحمر العين وتلتهب الأعصاب .

والأعظم لطفاً في البيان النبوي ، أنه عليه السلام أحال المخاطب عن طريق الاستفهام إلى اكتناه الحقيقة بفكره هو ، ليؤكد عن روية ، ويقرر عن رؤية ، فإذا حصل له التصديق بالمشاهدة ، وقبح في عينه المنظر بالتجربة ، وآمن بالخطر الناشئ عن الغضب ، حاول الهرب بالعلاج الناجح الذي لم يتركه الطبيب دون بيان .

عندما نراه سيغلبنا الغضب لنلصق بالأرض نفثاً حره عن قلوبنا ، لتتشبث بها حتى لا يستخفنا شيطانه ، فتنتلق جوارحنا غالبية عقولنا لارتكاب الجنايات .

إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، كما في حديث آخر ، فالغضب من النار ، وكلما علت النار عن الأرض اشتد أوارها ، ففي تطامن الغاضب إلى الأرض انكسار لحدة الغضب ، وكلما اشتد نظره إليها ارتبط بالأصل والمآل المفهوم من قوله تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ فتحدث له العبرة ، ويرى ما يندفع إليه بالغضب ثائراً محطماً ، ساباً ساخطاً ، يحطم مع ما يحطم نفسه وجهه ، وقد ينجر الأثر إلى دينه وشرفه ، فيرعوي قادراً النتيجة متجرعاً جرعة غيظه ، لاثداً بالعفو فإذا الذي بينه وبينه عداوة كأنه ولي حميم .

وحديث أبي ذر عن النبي ﷺ : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع . » علاج نفسي على مراحل من جنس ما سلف . نريح به أنفسنا ، وعلاقتنا ما لم يكن غضبنا أعظم من مثيره ، وتضحيتنا أقل من ربحنا به ، حين نعلي بالغضب صرح الحق وصرخة الرعب في قلوب المبطلين .

٢ - من مختار الرضي في (المجازات النبوية) قوله ﷺ : « العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والعمل قيمه ، واللين أخوه ، والرفق والده ، والرفق والده ، والصبر أمير جنوده » (١) .

وهذه الملكات والصفات والقوى النفسية أمور معنوية ، يريد عليه الصلاة والسلام أن يؤكد وظائفها ، ويقرر مزاياها في حياة الإنسان ، فيشخصها تشخيصاً يعطيها الحياة والحس والإرادة ؛ فلا تدرك من بعد إدراك المعقول المجرد ، على نوع من الخفاء والقصر ؛ وإنما تدرك من قرب إدراك المحس المشاهد ، المحدد العمل ، سواء أدركت أفراداً أو مجتمعة في نظام مملكة مدبرة ، وجميع التشبيهات المتلاحقة المسماة بالمفروق ، قد ذكرت دون الأداة زيادة في تأكيد مدلولها ، وحلا على تصور اتحاد الطرفين في كل منها . أما الوجه في الربط بين هذه المعاني والكيفيات النفسية وبين ما شبهت به فنكتفي فيه بتوجيه الرضي الذي يقول : فالمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « العلم خليل المؤمن » أنه يأنس به من الوحشة ، ويسكن إليه في الوحدة ، كما يأنس الخليل بخليله ، ويسكن الحميم إلى حميمه ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « والحلم وزيره » أنه يقوى به على الأمور ، ويؤازره على كظم المكروه ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « والعقل دليله » أنه بالعقل يهتدي في ظلم المشكلات ، وينجو من مضايق الغمرات ، فهو كالدليل الذي يرشد في المضال ويجنب عن المزال ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « والعمل قيمه » أن العمل يثقف ميله ، ويقوم زلله ، ويسد خلله ، فهو كالقيم الذي يأتي لمصالح

(١) المجازات النبوية ١٤٩ وما بعدها .

ما يقوم عليه ، ومرأشد ما يوكل إليه ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « واللين أخوه » أن اللين يفيد مؤاخاة الإخوان ومخالصتهم ، ويحفظ عليه صفاءهم ومودتهم ، فجعله عليه الصلاة والسلام أخاه من حيث كان سبباً لاجتلاب الإخوان إليه ، حفظ المودات عليه ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « والرفق والده » والمراد بقوله « واللين أخوه » لأن الرفق يقبل إليه بالقلوب ، ويظار عليه كوامن الصدور ، فيصير كل واحد في الحنو عليه والميل إليه كالوالد الرؤوف ، والجد العطوف ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام « والصبر أمير جنوده » أن الصبر ملاك أمره وشداد أزره ، وبه تبلغ الآراب ، وتدرك المحاب ، فهو كأمر جنده الذي يقوى به على أعدائه ويصل به إلى أغراضه وطلباته ، وقد يجوز أن يكون المراد أن الصبر رأس خلاله ، ورئيس خصاله ، فهو متقدم عليها . وكالأمر لسائرهما ، كما أن الأمير متقدم على رعيته ، وله شأن على من في طبقته .

٣ - ومنها قوله ﷺ : « الإيمان قيد الفتك » . فالإيمان تلك العقيدة الدينية القائمة بالقلب ، يجسمه الرسول عليه السلام في صورة القيد ، ليؤكد بذلك قيمته في عصمة صاحبه من التعدي الجائر على الدماء التي حرم الله سفكها إلا بحقها ، والنفس دسيسة الشيطان في جسم الإنسان ، توسوس إليه أن القتل شجاعة ، والظلم عظمة ، والتعدي مهابة ، والإيمان روح الله في قلبه ، يجزم له أن القتل جريمة والظلم كبيرة ، والتعدي منكر ، فيقمع نفسه أن تتردى في الجحيم بهذه الجرأة ، كما يعوق القيد صاحبه عن السعي إلى غاية لولا القيد لانطلق إليها ، ولما كان القيد يعوق عن مطلق الغاية خيرها وشرها ، لم يشبه به الإيمان إلا مقيداً بالإضافة إلى (الفتك) الذي هو شر غاية ، والخير والشر ضدان ، ولا يدفع الشر أو يعوق عنه إلا الخير المتمحض في جانب المشبه وهو الايمان ، ولزيادة تقرير اتحاد الطرفين أكد التشبيه وأجمل ، فلا أداة ولا وجه في هذه العبارة الموجزة الحكيمة .

٤ - ومنها قوله عليه الصلاة والسلام : « الحياء نظام الإيمان » قال الرضي : « والمراد أن الحياء يجمع خلال الايمان كما يجمع السلك فرائد النظام ؛ لأن الإنسان

الكثير الحياء يحجم عن مواجهة المعاصي ، ومطوعة المغاوي ، فإذا قل حياؤه تفرق جماع إيمانه فأشبهه السلك في أنه إذا انقطع تهاقت خرز نظامه . . » (١) .

فترى هذه الكيفية النفسية والخلق الكريم ، الذي هو من المعاني المجردة قد تجسم بالتشبيه البليغ المؤكد بحذف الأداة والمجمل بحذف الوجه في صورة العقد ، انتظمت حباته حول سلكه ، ليتقرر كالمشاهد المحس ما للحياء من أثر صالح في الحياة ، لأنها شقيقا مادة واحدة ؛ فمكارم الإسلام ينتظمها الحياء ، ولا خلق لمن لا حياء له ، والجرأة على الذنب مزلق ، وليس من السهل للقدم المنزلة أن تقف دون غايتها إلا بعاصم يجسها ، أو رادع يكفها ، فإذا لم يزعها الحياء السابق ، ولم يردعها العقاب العائق ، ارتكبت من الشر ما زينه الشيطان ، فحرمت من الخير ما أعد من الأمان لأهل الإيمان ، وصانع هذا يقول له الرسول عليه السلام : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

تشبيه الهيئات

هذه لقط من تقرير المضمون بأسلوب التشبيه البسيط الواقع بين المفردات وإذا كانت البسائط تتأكد بهذا الأسلوب المقرر فإن الهيئات المركبة أشد تأكدا واستبانة ، وقد استعمل البيان الكريم مسلك التشبيه التمثيلي ، كوسيلة من وسائل الإيضاح التي يتذرع بها المعلم لتقرير درسه بما لا يدع للتلميذ مجالاً للنسيان ، ولهذا نراه ظاهرة أسلوبية واسعة الجوانب ، بعيدة الغور في تعميق المعاني ، وتأثيرها في القلوب .

١ - في الترغيب

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ما تقولون ؟ أيبقي

(١) المجازات النبوية : ٢٧٥ وهو في (المستقصى) للزخشري : « قيد الإيمان الفتك » ٢٠٠ / ٢ .

ذلك من درنه شيئاً؟ قالوا : لا يبقى ذلك من درنه شيئاً . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يحو الله بها الخطايا . . «(١)» .

يريد عليه الصلاة والسلام أن يقرر لأمتة فضيلة الصلاة ويؤكد أجرها ليصبروا عليها ، فمثل المؤمن الذي يعد نفسه للصلاة فيصلبها ، ثم يعد نفسه للصلاة فيصلبها ، حتى يتم فرض اليوم ، بحال المؤمن الذي يمر ببابه نهر فهو يغتسل فيه خمس مرات كل يوم ، والمماثلة بين الحالين مقصود منها إثبات الغاية التي هي جهتها ؛ وقد جاءت للتقرير مصرحاً بها على وجه التقابل ، فتكرار الصلوات يحو الخطايا ، كما أن تكرار الاغتسال لا يبقى من الدرن شيئاً ، وهنا ينتقل المؤمن كلما توضع ليصلي ، أو كلما سمع النداء إلى تصور نهر لا يجهد ببعده ، إذ هو قريب ببابه ، وتصور درن يؤذيه بقاؤه ، إذ هو مشين فوق جسمه ، وتصور اغتسال يورث النشاط ويزيل الدرن ، فيرى نفسه مندفعاً إلى الصلاة سعيداً بها لينقى مما يشينه ، ويبرأ مما يثقله .

وصورة الممثل به سابقة في التعبير الكريم ، لتقسر انتباه السامعين وتحرك شوقهم لا سيما وقد اقترنت بذلك الاستفهام التقريري الذي يطلب منهم جوابه ليظيل الشوق ويزيد الانتباه ، مع أن الصورة الممثل بها فرضية محبوبة يتشهاها كل فرد يشعر بالحياة ، ويحس بالجمال : نهر ببابه يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، وحسبك ما توحى به كلمة نهر النكرة من رقة ، وصفاء وعدوية ، وعظمة ، وما توحى به (الباء) بين النهر والباب ، من الالتصاق حتى كأن الدار تجري من تحتها الأنهار ، وما يخيل لنا الفعل المضارع (يغتسل) من استحضار الصورة مع التجدد والحدوث طرفي النهار وزلفاً من الليل ، يدل عليهما العدد المحصور في اليوم ، ثم يطرد هذا مع العمر صعوداً بإضافة لفظ العموم إليه (كل يوم) دلالة على اتصال النعيم ودوامه .

ثم أنظر معي إلى هذه الجملة : (يبقى ذلك من درنه شيئاً) وسر الإشارة بهذا اللفظ الدال على التعظيم لما فيه من لام البعد وكاف الخطاب ، وداعي تقديم البيان وهو الجار والمجرور على المبين تعجيلاً بالمهم ، ثم تنكير المبين وهو (شيئاً) لإفادة التعليل فمعناه : شيئاً أي شيء مهما كان قليلاً .

أما في جانب الممثل به المتأخر الذي أغنت فيه (الفاء الفصيحة) عن الإطناب بذكر الشرط ، فقد أعيدت عليه الإشارة بالتعظيم إجمالاً لتأكيد الربط وشدة الإيصال بين الهيئتين .

وهنا نرى تعريفاً لا تنكيراً في جميع الأسماء ، يرشد المؤمن إلى أن الصلوات المعهودة له والمفروضة عليه - بدليل إتباعها بهذا العدد - هي بنفسها التي مثل لها هذا التمثيل الهادف ، ثم نرى جانباً لم يظهر هناك ، وهو إسناد فعل المحو إلى لفظ الجلالة ، وجعل الصلوات آلة المحو وسببه ، ليزيد التفات الذهن إلى أن الممثل له هو الجانب الأشرف ، والعمل الأسمى الذي ينيل العبد رعاية الله ، فإذا روعي مع هذا أن لفظ المفعول المحو وهو (الخطايا) جمع لا مفرد ، وبصيغة منتهى الجموع ، علم مقدار ما تفعل هذه الصلوات التي لم تتل منا ما هي أجدر به من إيثار ، ومقدار غفلتنا عن نهر من النور لا يزيل درنا شاخصاً فحسب عن البدن ، وإنما يحو آثاماً وخطايا تغمر العبد التارك فتقذف به في النار .

٢ - عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا ، كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء » (١) .

يريد عليه الصلاة والسلام ترضية المؤمنين برقة ملكهم في الدنيا ، ونقص حظهم منها ، ويرغبهم في الحياة المملقة الحافلة بالبلاء ؛ لأن الدنيا والآخرة في طرفين ؛ فمن شاء الله للآخرة خالصاً حماه في الدنيا ما زاد على الكفاف ليوفر نصيبه في الخالد الباقي محبة له وإكراماً ، كمحبة أحدنا ابنه أو غيره من أترائه ،

(١) تيسير الوصول ١٠٤ / ٢ .

(١) تيسير الوصول ١٧٤ / ٢ .

محنة تحرمه شرب الماء إذا كان سقيماً وعلم أن الماء يفسده ، فهو حرمان رحمة وحكمة ، رجاء أن يصح ويقوى .

وإذا كانت الهيئة الممثل بها من المقرر المؤلف الذي يشاهده كل منا ويعالجه بوصايا الأطباء مع أحب أحبائه - فقد ضربها الرسول عليه السلام مثلاً للحال الحاصلة بين العبد الفقير وربّه الحكيم الخبير ، الذي يعطيه ما به صلاحه وقوته وصحته ، ويحميه ما يضره ويهلكه ، وهو أرفأ به من العصفور على فرخه .

والعبارة التمثيلية قد صدرت بفعل يدل على الاستمرار التجديدي وهو (يظل) ليفيد تجدد التعهد ودوامه ، دلالة على الحب والشفقة والصبر والرجاء ، ولا شك أن المؤمن حين ينظر إلى هذه الصورة الممثل بها ، وينعم في صدقها ، يقتنع بانسحابها على حاله من قَسَمِ الله له ، فيزداد بالفقر أنساً ، وبالقناعة رنماً ، وبالزهد تمسكاً ، حتى يرى زيادة إقبال الحظ محنة ، وترادف النعم فتنة .

٣- عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما^(١) » .

بذل الخير سعادة ، وإسعاد الحزين متعة ، ومسح دموعه هناء تملأ النفس رضا ، والقلب سكينه ، وتجعل فرحة الباذل بابتسامته المكتئب أضعاف فرحة المكتئب بابتسامته برئه ، واليتيم صغير ضعيف ، عاجز حائر ، سلبه القدر من يكفله ليكبر ، ويحميه ليقوى ، ويمده ليقدر ، ويهديه ليهتدي ، فإذا جعل امرؤ من نفسه لليتيم أباً لا يحس مع وجوده فقد ما سلب ؛ فليس هذا المرء إلا المؤمن الكامل ، الذي ينبض قلبه بنبضات القلوب الواجفة ، مشاركة لها في الوجدان وتجاوباً معها في العاطفة ، وتعمقاً إلى الأغوار في فهم قوله عليه الصلاة والسلام : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »^(٢) ، وانطلاقاً بالخيال الرشيد إلى المستقبل

الذي يحتمل أن يكون ، والذي يحيل عليه قوله تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ﴾^(١) .

ترى أين يكون كافل اليتيم بعد تلك التقدمة ؟ وماذا يكون جزاؤه ، جعل الرسول الكريم حاله مع كافل اليتيم مشبهاً ، وجعل حال السبابة والوسطى مشبهاً به ليدل بالمقرر المحض ، والمؤكد المشاهد ، على تأكد أجر الكافل وتقرره .

واللطائف التي فرقت على الطرفين جديرة بالإعجاب ، وحقيقة بالنظر ، فالمعية أو المصاحبة في جانب المشبه إرصاد إلى جنس الجزء الذي يدل عليه كمال العبارة ، وجذب لانتباه المخاطب إلى أن يسعد بهذه النعمة المثلى ، ثم التعجيل بأصل المجازاة - وهو الوجود في الجنة - توثيق لمفهوم هذه المعية المستفادة من الواو أو المصاحبة ، وليست هي الغاية أو الممثل به أو المسند في العبارة ، بل هي تابعة المقدم عليه لتعجيل المسرة ، أما الجانب المحمول والممثل به فقد صور صورتين : إحداهما لفظية والأخرى فعلية ، وكانت اللفظية اسم الإشارة (هكذا) المفتوح بحرف التنبيه ، والذي توسطه أداة التشبيه ، ووقع هو بعد ذلك بالموضوع للقرب ، ليلفت الأذهان بشدة إلى الصورة الشاخصة القريبة من العين ، المرافقة للنطق ؛ وهي السبابة والوسطى ، الممتدتان مع قبض غيرهما لتمام التمييز ، والمفترق ما بينها لكمال تمكن النظر ، ولتأكد رؤية الجوار بلا فارق محس ، وتقرر مشاهدة الأصل الذي بسقتا منه ، رمزا إلى القرب الروحي الذي يجمع بين الرسول وبين هذا الإنسان الرحيم ، وإلى طفولة النبي وحبه المكافئ للكافرين ؛ وفاء لمن شاركوهم في البذل ورأفة بمن شاركوه في الفقد .

هل يحمل اليتيم إلى قلبك صورة إصبعيه الشريفتين تقترنان بإسم الإشارة ففكره هواك ، وتؤثر الجوار الحبيب في الجنة بإكرام يتيماً . . . ؟

٤- عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل

(١) تيسير الوصول : ٤٩ / ١ .

(٢) تيسير الوصول : ٢١ / ٤ .

(١) سورة النساء آية ٩ .

المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى^(١) .

الإيمان قوة واحدة تنتظم قلوب المؤمنين ، وتنبت فيها النبات الحسن المتماثل من التواد والتراحم والتعاطف ، فترى عند تجاوزها رقعة واحدة لتعانقها وتجانس نتائجها ، والإيمان في قلوب المؤمنين كالدّم المتدفق في الجسم به حياتها وتماسكها ، كما بالدّم حياة الأعضاء وترباطها ، ومعه وجود الروح وفعلها ، وأظهر المظاهر المرشدة إلى الإيمان بذل المؤمن وده ورحمته وعطفه للمؤمنين ، تألما بما يؤلمهم ، وتداعيا لما يصيبهم ، فمن فقد هذا التداعي فلم تعطفه العواطف ، ولم تبكه البواكي ، فليتحسس قلبه وليسأل نفسه : أين أنا من دلائل هذا الإيمان . ؟

يريد عليه السلام أن يقرر حقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين ببيان اللوازم البينة لوجوده ، فضرب لهم فيها مثلاً يصورهم - متى كانوا عليها - صورة أعضاء الجسد في الجسد ، إذا ألم أحدها لم ينفرد بالألم دون سائرها ، فيسهر الجميع لسهره ، ويحجم الجميع لحماءه .

هذه الحال الجسمية والوجدانية من المجرب المألوف ، مرت بكل إنسان ، وستم بكل إنسان ما كانت الإنسانية قائمة ، وهي مقياس دقيق يقيس به النبي عليه السلام حال المؤمنين إذا تم إيمانهم ، ليحملهم على تزكية الأنفس وإرهاق الحس ويقظة الروح ، لكل من يجمع الإيمان بينهم وبينهم ، وليرشدهم إلى أن مجتمعهم بخير ، وأمتهم بانتصار ما كانوا هكذا : لا يتصورون أنفسهم أفراداً في انفصال شأن ، واستقلال حياة ، وإنما يرونها أعضاء جسم ، يصح بصحة الجميع ، ويقوى بقوته ، ويمرض بمرض الواحد ، ويضعف بضعفه .

أليس تأخر المسلمين وانحدار نجمهم آية صدق هذا الحديث ؟

أليس علاج قلوبهم وأداة انتصارهم وسبب عزتهم أن يعودوا في توادهم وتراحهم وتعاطفهم جسداً واحداً يسهر بسهر الجزء منه ويحجم لحماءه ؟

هذه الظواهر والآثار لحقيقة الإيمان جاءت بصيغة التفاعل التي تدل على المشاركة في إيجاد الفعل ، فالمضاف إليه وهو ضمير الجمع أفراداً متماثلون في بذل الود والرحمة والعطف .

وإتباع (الجسد) بصفة (الواحد) تأكيد للوحدة الحاصلة من تماسك الأعضاء والتي هي سر السهر والحمى ، اللذين يصيبان الجميع بإصابة العضو منه ، ولا شك أن الممثل به كلما زاد تقررأ وتأكداً زاد الممثل له مثله ، لأنه موضوع له ، ومقيس به للاعتبار والموعظة ، ثم مجانسة جواب الشرط لفعله في الماضي مع إمكان أن يكون مضارعاً أدل على هذه الصفات لما فيه من إشعار بالمبادرة وإسراع بالنجدة ، للاقتران الزمني بين الشكوى والتداعي .

والطف اللطف في التعبير وأدق الدقة ما يحمله لفظ (تداعي) من عجب المعنى ، فهو يخيل إليك أن أعضاء الجسد قد هبت للنجدة ، يدعو بعضها بعضاً ويناديه لإسعاف صاحبها أو مواساته ، ثم يجعل تناديهما ليس الصراخ بلا مغيث ، وإنما هو الجواب العلمي المسعف والمساعد : السهر والحمى ، أليس هذا تعريضا بما يصدق عليه قولهم : جعجة ولا طحن ، من كل محبر ومرتجل ومحرر ومذاع ليس وراءه من الرصيد النفسي طائل ؟

٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار تقع فيها ، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ، فأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها »^(١) .

يقرر الرسول عليه السلام شدة حرصه على المؤمنين ورحمته بهم ، وشدة جذب

الشیطان وفتنته وطاعتهم ، فیضرب لحاله معهم مثلاً ، ولحالم مثلاً ويخرجهما في تخييل حسي شهد حقيقته كل منهم : رجل استوقد ناراً فثبت وأضاءت ما حوله ، فجذب الضوء الفراش والجنادب وغيرها مما تغريه النار على اقتحامها ، وأسرع إليها يقع فيها ، فأخذ يحاول إنقاذهم بنزعهم من النار فيغلبهن الحمق فيعدن إلى النار يقتحمن فيها .

إننا نتخيل هذه الصورة المكتملة الجوانب ، ونتمثلها أمامنا نابضة المشاهد أفعالا وحركات سريعة متلاحقة ، وصراعاً ومغالبة بين الهوى والهدى ، وحرارة ولهباً وأشعة وظلمة ، وتمثل ما وراء المحس من نوازع متقابلة ، يدفع بعضها إلى الخير المنجي ، والآخر إلى الشر المردي ، فينتقل إحساسنا إلى حالنا وحال النبي ، فنرى أنفسنا في صراع الهوى الغالب للهدى الرحيم ذلك الفراش الأحمق ، الذي يضحى بالحياة في اندفاع قاهر ، ثمنا غالباً للامح براق ، فإذا اجتذبه المشفق الرؤوف إليه ضانا بحياته ، غلبه الهوى على نفسه فاقترح المهالك ، وهنا نحاول أن نفهم هذه المفارقات ، وأن نقيس حركاتنا وأنفاسنا مع هذا الساهر الحريص ، فنرى كل كبيرة ناراً تغرينا بالبريق ، يصرعنا فيها الهوى ، ويجذبنا منها الرؤوف الرحيم : يأخذ بحجزنا مكرراً الزجر ، مقرراً الحرمة ، مؤكداً النداء ، ما أشقانا وما أتعسنا حين نغلبه فنقتحم في النار .

إن هذا التخييل الحسي لا يبعد كثيراً عن الحقيقة ، بل لا يبعد قليلاً عنها ، أليست الذنوب والكبائر أسباباً توصل إلى النار؟ إنها الضوء الكاذب الخادع يضعه إبليس عدو البشر على حافة النار ليحرفهم فيها ، ثم أليست قلوبنا تتأثر من حين إلى آخر بالزاجر والرادع يكفنا ويجذبنا؟ ذلك الآخذ بالحجز ، فيغلب الشيطان بخداعه من يغلب على المعصية ، فذلك الاقتحام في النار .

في الحديث السابق على هذا ضرب الرسول عليه السلام لحاله مع كافل اليتيم مثلاً واحداً ، وهنا كرر المثل مضافاً إلى نفسه الكريمة مرة في ياء المتكلم ، وإلى أمته أخرى في ضمير الخطاب ، لأن الصلة بينه وبين كافل اليتيم أكيدة ، والجزء

بالجنس متحد ، أما هنا فيظهر الاختلاف بين الحالين حال حكيم رؤوف ، وحال أحمق جامح ، فليست حاله عليه السلام حال أمته إذا استهواها الشيطان فغلبها ، ولهذا كان الكلام على اللف والنشر المرتب ، والذي يلقب فيه التشبيه (بالملفوف) ، وقد حصل الاكتفاء بالتكرار الأول عن التفصيل في الآخر .

وليس لفظ (مثل) في البيان الكريم أداة التشبيه ، إذ هو بمعنى الحال والصفة ، وإنما الأداة الكاف ، والجمع بينها وبين (مثل) للدلالة على تشبيه الهيئات والأحوال تمثيلاً ، إذ لو دخلت الكاف على (رجل) لتوهم باديء الرأي مشبهاً به إفراداً ، وارتباط جواب (لما) بشرطها يشير إلى ارتباط المسبب بالسبب في الوجود ، ووص الدواب المشار إليها للتحقير إشارة القريب الداني المنزلة بالموصول ، وصلته تدل على العادة والطبع الغالبين ، اللذين هما بحاجة كبيرة إلى التهذيب والمقاومة والكبح ، وتكرار الصلة : (تقع في النار) يجعلها جواباً لفعل الشروع : (تقع فيها) يشير إلى الاستسلام ، وعدم التدبر لما هو معتاد ، والنظر إلى ما يجره من الردى .

وقد اقتضى شروع الدواب في الوقوع شروع المستوقد ، وترادفت الأفعال مضارعة للدلالة على تجدد الفعل ومعاودة الصراع من جانب ، ولاستحضار هذه الصورة في أذهان المخاطبين من آخر ، كأنها الآن تحدث حتى يزيدوا بها استيقاناً ، ويمدلوها معرفة ، أما العبارة الأخيرة التي تصرح بوجه المماثلة من جهة الرسول وأمته : « فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها » ففيها جملتان اسميتان متقابلتان ، تدلان على الثبوت من جهة الأسمية ، وعلى تجدد الفعل المسند إلى كل من المبتدئين من جهة المضارعية فيها ، وهذا يدل على ثبوت الصراع وتجدده زيادة حرص ورحمة عن جانبه عليه السلام ، وضعف وانصياع للهوى من جانب المخالفين .

هذه بعض المزايا الواضحة في الحديث الكريم ، ما أراك إلا مستظهاً أمثالها فيه بإنعام الفكر واجتلاء المحاسن .

أ يكون هناك ترغيب في اتباعه وطاعته عليه السلام أكثر من هذا وقوعاً في القلب ؟ أ يكون هناك ترهيب من المخالفة عن أمره أشد من هذا الترهيب على النفس . . ؟ اللهم لا .

٢ - في الترهيب

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، أو قال العشب^(١) » .

ليس أفسد طبعاً ولا أدنى نفساً ولا أشقى حظاً ممن تؤله النعمة يمنحها الله من يشاء لحكمته ، فيعترض على الله وينتقص حكمته بالنظر الحاقداً على هذه النعمة وتمني زوالها .

الخلق السيء الذي يحمل على هذا هو الحسد ، يحذرنا منه الرسول الكريم عليه السلام تحذيراً شديداً ، معللاً بسببه وهو عدم الانتفاع بصالح العمل مهما أتى منه الحاسد ، لأن الله لا يقبل إلا الطيب الخالص ، ولا طيب ولا خالص ممن اسخط الله بالشك في حكمته ، والاعتراض على قسمة الرزق في خلقه .

أراد الرسول عليه السلام أن يقرر هذا المعنى في نفوس المؤمنين فأتى في تحييل حسن حكيم : شبه الهيئة الحاصلة بين الحسد والحسنات ، وحبوط الحسنات الصالحة الجميلة بقبحه ودمامته وحدة شره بالهيئة الحاصلة بين النار والحطب يلقي إليها فتحياله رمادا .

الصورة الواقعة المحسة التي نراها كل حين . . أحمال الحطب الجزل تفنيها رأس عود من الثقاب ، تنقل إلى أجزائها العدوى في ثانية أو ثوان فإذا هي مثلها ينتقل منها اللهب إلى ما وراءها ما وجد منه موجود .

هذا الخطر الداهم المخيف نتوقاه كل التوقى بحفظ مواد الاشتعال كل الحفظ

(١) تيسير الوصول ٢١ / ٢ .

خوف الكارثة ، ويحذر منه الآباء الأبناء ، هو صورة مطابقة للحسد هذا الخطر النفسي الذي يفني أطنانا من الحسنات يتركها هباء .

تلك المعاني المتعلقة قد تجسمت بالتشبيه في هذه الصورة ، فتقررت وتأكد مدلولها ، غير أن في طي التمثيل أموراً ترى ، تزيد من قوته ، وتضاعف من قيمته .

تصدير الكلام بصيغة التحذير تعجيلاً بالإلذار وإعلان الخطورة ، ليلتفت السامع بكل ما يملك إلى المحذر منه ، والتعجيل في هذه الصيغة مستفاد من بنائها على الإيجاز بحذف الفعل والفاعل ، لتكون علماً بذاتها على الخطر ، فإذا روعي أن المحذوف مكرر الحذف ، مرة مع الضمير وأخرى مع الحسد الظاهر المعطوف - تبين حرص المتكلم على السامع بسرعة المبادرة .

ثم ربط التحذير بما بعده بفاء السببية أو التعليل للاقناع ببيان علتة ، فإذا علمنا أن بين الفاء وبين العلة حرف التوكيد (إن) رأينا جزماً بهذه العلة يقررها في الذهن ، فإذا شاهدنا الفعل : (يأكل) قد أخبر به عن ضمير الحسد الواقع اسماً لحرف التوكيد مرة ، وأسند أخرى إلى مثله الواقع فاعلاً له ، آمناً بالقوة الفائقة في التقرير ، والناشئة مع ما سبق من تكرر الإسناد ، فإذا تحققنا الفعل نفسه واقعاً على (الحسنات) لم نر حسداً ولا حسنات ، وإنما نرى شخصاً جشعاً شرها يأكل ، وطعاماً بين فكيه يلتهم ، وذلك لأن الأكل فعل الحي الذي يتجدد منه بالضرورة لحفظ وجوده ، ولهذا كان مضارعاً .

أرأيت هذا كله ؟ إنه قبل عقد التمثيل ، ولذا جاءت المماثلة لتزيد التقرير والتأكيد في جانب علة التحذير ، ولتبين مقدار حال الأكل الواقع من الحسد على الحسنات ، وأنه لا زهد فيه ولا رضا ، ولا قناعة دون ألا يجد فينتظر ما عساه أن يوجد ، وفي هذا الجانب الممثل به صورت النار صورة الأكل المبير ، غير أن التشخيص هنا أقرب لانتقال الخيال من محس إلى محس ، وهو هناك أبعد وأوقع لانتقاله من معقول إلى محس ، هل يدرك الحاسد أن نارا في قلبه . . ؟ هل يعلم

أنها تأكل حسناته مهما قدم من قربه . . ؟ هل يراها نارا حية تترقب الجديد وتطلب المزيد . . ؟ اللهم فقها بفقه رسولك واجنبنا ما نهيتنا عنه . .

٢ - عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه^(١) » حب المال من حب الدنيا رأس كل خطيئة يزينه الشيطان للناس ليفتنهم فيه ، ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾^(٢) .

وحب الرياسة والظهور ، وأن يشار إلى المرء بالبنان ، ويُنهض إذا أقبل للقائه ، نفخة ينفخها الشيطان في قلبه ، وعقدة يعقدها في نفسه ، وينفث فيها نفثة الغرور والكبرياء والإعجاب بالنفس واحتقار ما سواها ، ومن يموت على هذا من الكبر والفخر يكون أهون على الله من الجعلان الذي يدهده الخراء بأنفه ، فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب^(٣) .

صاحب إحدى البلويين أو كليهما فاسد الدين ، ومفسد دينه هو هذه البلوى ، لأنه لا يهدأ له بال ، ولا تستقر له نفس ما دام هذا الحب يشغله ويوجه قواه المدركة ، لأن حبك الشيء يعمي ويصم ، فكيف يبصر في الدين فضيلة ، والدين يأمره وينهاه ليعيش عفا قنوعاً ، وكاسباً مقتصداً ، يجتنب الشبهة وإن أربحت كثيراً ، وينفق ما جعله من ماله حقاً عليه : « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

وكيف يأنس للدين والدين يأمره وينهاه ليخفض جناحه ، ويلين عريكته ،

(١) تيسير الوصول : ٢٢ / ٢ .

(٢) آل عمران ١٤ .

(٣) ينظر الحديث في تيسير الوصول : « ليتهن أقوام يفتخرون بأبائهم الذين ماتوا وإنما هم فحم جهنم أو ليكون أهون على الله من الجعلان الذي يدهده الخراء بانفه » ١٣٣ / ٤ .

ويذل للمؤمنين ويجعل العزة على الكافرين : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ .

ألم يناد الدين أعلى جبهة في البشرية بهذا الأمر : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ ؟ .

ألم يعاتب أعظم البشر لأنه ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ ؟ .
إذن فالدين حرب على هذين ، وفساد الدين عندهما أيسر من فساد نزعتيهما ، إنها من عمل الشيطان . إنه عدو مضل مبين .

يريد الرسول عليه السلام النهي عن هذين والتحذير من شرهما ، ولا شر أعظم ولا ضرر أنكى مما يصيب الدين ويفسده ، فيضرب المثل لحال الأمرين مع دين المرء ، بحال ذئبين خطيرين جائعين أرسلا في غنم .

ماذا يفعل ذئبان جائعان أطلقا في غنم ؟ أليس الفتك في شره ، والسفك في سفه ؟ . . إنه بقر البطون ، وشق القلوب ، وإشباع النهم .

صورها الرسول هكذا ليشغل فكر السامع في مدى الخطر ، وليستحضر هذه الصورة كلما غره الهوى فأوقع في نفسه خاطر المال أو الشرف ليخاف حب المال أو حب الشرف أن يفسد دينه ، كما يخاف ذئبا جائعا أرسل في غنمه .

ولكننا فوق ذلك الإيضاح العام نرى في البيان الكريم أمورا أدق تقريراً ، وأوغل في تأكيد هذا الخطر ، منها ذكر الحرص دون الحب ، لأن فيه إشارة إلى عمل النفس الإرادي ، ثم بناء الجملة على نفي التفضيل مثبت للمساواة إن لم يثبت العكس ، إذ أن العكس محتمل فيكون التمثيل حملاً على الأقل ، وهو يقتضي المبالغة في إثبات الإفساد ، وقد هيا هذا النفي لتأكيد آخر حاصل بزيادة حرف الجر الداخل على الخبر (بأفسد) ثم إتباع النكرة بالوصفين عمل له مدلوله ، فالذئب طبعه الفتك والإفساد جائعا وشبعان ومرسلا ومقيدا ، فهو مخوف على كل حال ، فإذا انضم إلى طبعه الجوع ضاعف الخطر وأندر بالفاجعة ، فوجبت مضاعفة الخوف

وتزايد الحذر ، فإذا انخرق السياج . وسقطت الحماية ، فأرسل في الغنم ، فليكن على ما أولم به للذئب صاحبها .

كل هذه المعاني في ألفاظ من الحديث القصير ، الذي أوجز بهذا القصر وبحذف ما يسهل تقديره ، فإن إفساد الذئبين للغنم يقابله إفساد حرص المرء على المال والشرف لدينه .

هل يرى المرء حرصه على المال ذنباً جائعاً مرسلًا ؟ وحرصه على الشرف مثله ، وهل يرى دينه الفريسة المنبوذة لِعَدُوِّ الذئاب ؟ وهل يرى خوفه على دينه أجدر بحرصه من خوفه على ماله .

٣ - عن أبي وائل قال : سمعت أسامة رضي الله عنه يقول : قال النبي ﷺ « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنت أمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية (١) » .

هذه صورة أخروية ، ومشهد من مشاهد العذاب يصورها البيان النبوي ذلك التصوير الكامل الذي يروع السامع ، لما جعله أمامه رأي العين من جزاء المرائي الذي يأمر بالمعروف ولا يعمل بالمعروف ، وينهى عن المنكر ويرتكب المنكر .

والصورة واضحة من جهة الرجل قد يقال : إنها ليست إلى التمثيل بحاجة : رجل يلقى في النار فتتشق بطنه ، وتندلق أمعاؤه فيدور بها يجرها خلفه وهي به معلقة ، صورة بشعة حقاً لهذا النوع من العذاب ، وجزاء موجع لهذا اللون من الذنب ، ولكنه أمر تندر مشاهدة نظيره في الدنيا ، فهو مع إمكان وجوده ، يمضي العمر من كثير من الناس وما رأوه مرة ، ولهذا البعد لم يقدر من المحس المحض ، فاحتيج معه إلى التقرير بالتمثيل .

دوران الحمار بالرحى من الصور المحسة تشاهد في كثير من البيئات التي تستخدم هذا الحيوان أو غيره في إدارة الرحى ، فإذا تمثلنا أمامنا هذه الصورة رأيناها بعد سماع الحديث صورة هذا الرجل في دوران قهري يضره ولا يسره ، ويجهد ولا يسعده ، ومنظر مؤلم لا يرضاه الحمار لو لم يكن له رأس حمار ، إنه من أعجب المشاهد في النار .

أليس دليلاً على ذلك اجتماع أهل النار لسؤاله عما دهاه ، مع أن لكل امرئ منهم شأنًا يغنيه ؟

إنها صورة من العذاب واضحة ، زادت تقرراً بهذا التمثيل : تمثيل حال الرجل يدور بأفتاب بطنه بحال الحمار يدور بالرحى .

ولكن أموراً أخرى من البيان تلمس واضحة في بناء الفعلين : (يؤتى - يلقى) للمجهول فذلك عنوان الإكراه والحمل على الفعل ؛ وكل كربه للنفس تساق إليه سوقاً ؛ ولا تقدم عليه إرادة ، ولهذا نرى أسلوب القرآن على تلك الخصيصة :

﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً^(١)﴾ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وجوههم^(٢)﴾ ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السَّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ^(٣)﴾ ، أما بناء الفعلين الأخيرين في صورته للفاعل ؛ فليشيرا إلى حصولها منه ، فاندلاق الأمعاء إثر انفجار الحاجز ، وهو أمر تحدثه القذفة ، والدوران بها إثر الصدمة ، وهو أمر تحدثه الفواجع ؛ وكثيرا ما يحدث تلقائياً عند المباغطة ، أما أنها أفعال مضارعة لم تقترن بالتسويق ، مع أنها أمور أخروية مستقبلية ، فذلك لاستحضارها في الحال ، كأنها تدرك وتحس كما يدرك ويحس دوران الحمار بالرحى ، والتشبيه بأمر يتصل بالحمار لا يكون إلا تقبيحاً ، وذلك سر اختياره دون ما يجز الرحى من سائر الحيوان .

(١) سورة الطور ١٣

(٢) سورة القمر ٤٨ .

(٣) سورة نون ٤٢ .

النقير بالمجاز

التشبيه يقرر المعاني بصورة قياسية ، وكلما تأكد بخصيصة من خصائص التقوية زاد المعاني تقريرا ، وكان أعمق تصويرا ، فإذا انتقل عن الجمع بين الطرفين لفظاً وتقديراً تناسياً للتشبيه ، وتأكيذا للاتحاد - كان وسيلة أعلى من الوسائل السابقة للتشخيص والتجسيم ، ودخل بالفكر في مسابح أبعاد .

وقد عرفت أن البلاغة تسمى ذلك (مجازا بالاستعارة) وعرفته بأنه استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع القرينة المانعة .

والتصوير بهذا الأسلوب في البيان النبوي يبلغ الغاية من الجمال والدقة ، ويتسع ويمتد ليشمل أمور الدنيا والدين ، والحياة الحاضرة والحياة الخالدة ، فلنعش فترة مسعدة مع المجاز النبوي والإشراق المحمدي في هذه اللقطات السريعة .

نقل القيم النفسية

١ - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهدأ جبل يجبنا ونجبه ^(١) » وفي رواية للشيخين أنه ﷺ أقبل حتى بدا له أحد ، فقال « هذا جبل يجبنا ونجبه .. ^(٢) » .

وإن كثيرا من الأشياء الجامدة والأماكن وغيرها ترتبط بنا ارتباط الحب والصدقة ، كما لو كانت أناسي عاقلين ، أو ارتباط البغض والعداوة كما لو كانت

وبعد هذا التصوير والتمثيل يجيء دور البيان ، وقد التهبت النفوس إشفاقا وارتعدت شوقا إلى معرفة الرجل بذنبه لعلها تتقي أن تكونه ، فيتقرر باجتماع أهل النار على المنظر العجيب ، وإذا يعرفون صاحبه عالماً أمرا بالمعروف ونهاياً عن المنكر ، يكون عجبهم أشد مما كان ، فيسألون منكرين ما هو فيه لما كان منه من صالح العظة ، ومتعجبين لما أصابه مع ما أسلفه ، فلا يستطيع أن يكن عنهم سرا كان يخفيه ، إذ كان يأمر بالمعروف ولا يأتيه ، وينهي عن المنكر وهو يأتيه .

ترى ما هي المناسبة بين الجريمة والعقاب، وإنما يكون الجزاء من جنس العمل، ألم يكن الرجل يظن الجرائم ، ويسر المنكرات ، وهو ظاهر الصلاح والتقى ؟ فالיום يفتضح وينكشف الداخل حتى يعجب لافتضاحه من لا حق له أن يعجب ، ويتساءل عن ذنبه من لا وجه له أن يتساءل ، إذ هم شركاؤه في الدار وقرناؤه في النار .

ترى كم رأيت الدنيا من هذه الصورة . . . اللهم عصمة بك من قولهم « يا فلان » .

(١) تيسير الوصول ٢٨٤ / ٣ .

(٢) تيسير الوصول : ٢٨٠ / ٣ .

غرماء ظالمين ، كثير من الصلوات بينها وبيننا : أدركتنا عندها السعادة بالأمل الباسم والرجاء الحبيب . . . التقينا معها بالأحباء في ساعة صفوه هائلة استرحنا فيها من عبث الحياة بقلوبنا . فمنا ساعة هادئة نسبح في عالم سحري من أحلام السلام ، بادرتنا في أفيائها العبرة فاتصلنا بعد غربة الروح وحيرة النفس بهادي الطريق وباب المتاب ، أودعنا تراها الأحباء وغيينا الأصفياء ، وقفنا فيها مواقف الوداع وسفحنا عبرات الحنين ، أودهمتنا عندها الكوارث وفاتتنا السعادة ، وغربت عنا شمس الآمال فعشنا نتخبط بينها في الظلام ، أو وقع فيها الخصام والصراع بيننا وبين الأحباب ، فانقلبنا على الأعقاب وتقطعت بيننا الأسباب . . . خرج علينا قاطع الطريق وهاجمنا بهم وضيق . . .

ذكريات وذكريات تصلنا بالأشياء ، فإذا بنا نحدثها ، ونزيد فنصغي إليها كأنها تحدثنا ، ثم نتنقل عنها فنحكي حوارها معنا .

إنه فيض إحساسنا بها ، انتقل إليها منا ، آية الزيادة في الحب ، فنشخصها نابضة بالحياة ، جياشا يمثل ما نجد قبلها من عاطفة أو وجدان .

كثير هذا في الشعر والنثر ، وهو دليل على الصحة النفسية والتذوق الجمالي ، وبرهان على الوفاء الغامر لجميع المخلوقات .

والمدينة أهلها ورباعها ودروها ، وشعابها وجبالها ورباها - آوت الرسول ونصرته ، وأعز الله بها الدين ، وحى الرسالة ، وحصن الدعوة فكل ذلك منها حبيب إليه عليه الصلاة والسلام ، و (أحد) جبل ، والجبال أول ما يطالع القادم ، وهي البواكير لرؤية عين القاصد ، ويتنزل عندها الشوق ويستهدف وجهها الحنين ، فتظل وإن نأى عنها أول ما أطفأ الوجد وبشر بالوصول وشفى من التشوف ، فإذا أحب الرسول (أحدا) لهذه المعاني الإنسانية ، أو لأسرار سواها غيبية فلا عجب لهذا الحب ، وإذا أضفى على (أحد) ما زاد من حبه له ، وإحساسه به ، حتى رآه مشاركا له فيه متجاوبا به معه - فلا غرابة في هذه الرؤية ،

ولا كذب في هذه العبارة ، لأنها لغة الحب وبيان العاطفة ، الذي لا يغنى غناءه تعبير الواضع للفظ لنقصه في الدلالة .

والرسول بشر من البشر ، وقد أثبت القرآن أنه كذلك فأثنى عليه في مقام الثناء ، وعاتبه في مكان العتاب ، ونصحته في وقت النصح ، وواساه في ساعة المواساة ، وبين قوة انفعاله وشدة وجدته في كثير من الآيات يعرفها القارىء المتبصر ، فإذا تصور الأمن والسلام في جوار الجبل إيناسا ، والاستبشار برؤيته بشاشة منه وحبا ، فصوره صورة من يجب ، وشخصه شخص من يفى - فذلك آية التذوق وسلامة الوجدان ، وصحة العاطفة فيما يعود بالخير على الدين ويزيد الناس حبا للمدينة ، ووفاء للأنصار ، لأن حب الدار من حب الجار ، ذلك الذي فاض منه الحب لرسول الله ﷺ على الجماد فأحبه .

هذا التقرير المؤكد لحب الأنصار رسولهم ، وحب الرسول أنصاره الذين لهم أحب المدينة وأحب كل شيء فيها ، وأنس لجبلها أنس الحبيب بالحبيب ، صورته المجاز بالاستعارة التي شبه فيها الجبل بالمحب بدلالة إثبات الفعل له وإسناده إليه ، وهذا الإسناد هو الذي يسبح بالخيال تلك المسابح ، ويذهب به يستبطن ما وراء العبارة لأنه بلفظ موحٍ ، بعيد الغور ، وإن ظهر ساذجا عابرا لعابر سبيل البلاغة .

مثل هذا الصنع عند البيانين يَنْحَلُّ إلى استعارتين : يسمون أولاهما المكنية ، لأنها دلالة فعل الحب المسند إلى الجبل في العبارة على الإنسان المحب دلالة اللازم على الملزوم ، ومسوغ هذا الإسناد مشابهة الجبل للمحب المحذوف مبالغة في اتصافه بصفته حتى لم يفترق عنه ، ويسمون ثانيتهما التخيلية ، وهي إثبات فعل المحب المشبه به للجبل المشبه ، لأنها تخيل للسامع إنسانية الجبل وحبه ، وتكسبه ما لا يمكن أن يكون له على سبيل التحقيق .

هذه الذخيرة من المدلول النفسي خلف الاستعارة يفقدها التعبير على ما ارتضاه الرضى من تخريجه له ، فقد أقر المجاز ولكنه جعله مرسلا ، ولاحظ فيه علاقة

المجاورة أو المحلية ، والمجاز المرسل هو لفظ استعمل في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة مع القرينة المانعة .

انظر إليه يقول : « هذا القول محمول على المجاز ، لأن الجبل على الحقيقة لا يصح أن يحب ولا يحب ، إذ محبة الإنسان لغيره إنما هي كناية عن إرادة النفع له أو التعظيم المختص به على ما بيناه . وكلا الأمرين لا يصح على الجماد لا التعظيم المختص ، ولا النفع العائد عليه ، فمستحيل أن يعظم أو يعظم ، أو ينفع أو ينتفع به ، فالمراد إذاً أن (أحدا) جبل يحبنا أهله ، ونحن نحب أهله ، وأهله هم أهل المدينة من الأنصار أو سهم وخزرجهم ، وغير خاف جبههم النبي عليه الصلاة والسلام وحبهم وتعظيمهم له وإعظامه لقدرهم^(١) . »

وقد ترى معي أن قوله : لا يصح أن يحب ولا يحب مبني على تفسيره الحب بالكناية المذكورة وهذا أمر لا يلزم ، فالحب ميل القلب إلى المحبوب من إنسان وغيره ، وإذا لم يصح من الجبل فلا نتصور عدم صحته من الإنسان للجبل لمزايا تميل إليه القلب ، وفي الحديث « حبك الشيء يعمي ويصم » دلالة على تعميمه ، والله يقول : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ﴾ والإيمان ليس الإنسان ، ويقول ﴿ زين للناس حب الشهوات . . . ﴾ ويقول : ﴿ إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ ويقول : ﴿ ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾ ويحبون أن يتطهروا ﴿ هؤلاء يحبون العاجلة ﴾ وتحبون المال حبا جما ﴿ فهل كل هذا حب مجازي لأنها أشياء لا يصح أن تحب لنفع أو تعظيم ، ثم قوله بعدم صحة التعظيم والانتفاع محجوج بما كلفناه من تعظيم الأماكن والأوقات والحرمات ﴿ ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ﴾ ﴿ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ وقد عظم الله أموراً كثيرة ، فكيف لا يصح تعظيم ما عظم الله ؟ لقد أكثر أن

يعظم الأجر والفوز والفضل والقرآن ، ووصف به الطود والكرب والنبأ والقول والبهتان . بل زاد فذكر بصيغة التفضيل بعض الدرجات والأجور فقال تعالى : ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ﴾^(١) لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا^(٢) ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ﴾^(٣) .

وقد خطب النبي ﷺ أصحابه فقال : ألا أي شهر تعلمونه أعظم حرمة ؟ . . . ألا أي بلد تعلمونه أعظم حرمة . . . ؟ ألا أي يوم تعلمونه أعظم حرمة^(٤) ؟ . . .

إن تخريج العبارة على الاستعارة أوقع ، والتصوير بها لهذه العاطفة أروع ، ولك من قبل ومن بعد أن تعمل فكرك ، وتستعين بذوقك على اجتلاء محاسن هذا البيان لتجدها فوق الحسبان .

٢ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لمكة « ما أطيبك من بلد وأحبك إلي ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك^(٥) » .

مبني الإنسان عزيز ، ومنشؤه حبيب ، تفتحت عليه نوافذ إدراكه فبلغت صورته الفؤاد أول وأصل ، وانطبع جماله فيه أول منطبع .

النسمة التي أنعشت رثته يوم ولد . . . واللبن الذي تغذاه من ثدي الأم ، والنور الذي طالع عينه فغازله . . . كل ذلك وأمثاله نقط البدء في محبة الوطن ،

(١) التوبة : ٢٠ .

(٢) الحديد .

(٣) المزمل ٢٠ .

(٤) تيسير الوصول ٢١ / ١ .

(٥) تيسير الوصول ٣٧٨ / ٣ .

حبات زكيات تغرس في القلب ، تنمو مع العمر وتشب مع الزمن ، فإذا هي شجرات طيبة مظلة ، أصلها فيه وفرعها في السماء .

تهدم الريح أكنان الطير ، فتظل تغدو فوقها وتروح ، لا تنسى مكانها من الشجرة حتى تبني فوقه عشا .

وتنزِع الحشرات عن أوكارها ، فلا تسعد ولا تهنأ حتى تحفر لها بابا ، والنملة تحمل وقرها من بعيد بعيد . . . يثقلها عظمه ويؤودها ثقله ، فلا تسكن ولا تستريح إلا داخل جحرها .

والنحلة تذهب الفراسخ وتطير الأميال ، تحتزن الرحيق من الزهر ، ثم لا يثنيها البعد أن تملأ بيتها شهدا .

وفاء الغرس لمكانه يأبى أن ينخلع قسراً دون أن يترك جذوره دليل محبة وصراع ، ووفاء جدار لأرضه يأبى أن يفارق حتى ينقض من فوقها حجراً حجراً .

أخرج الأذى رسول الله من داره . . . وألجأه أن يفارق بلده . . . ويغادر أهله

ألا يقف القلب الحافل بالرحمة النابض بالحب ، الناطق بالوفاء لحظات حاملات يعتذر إلى مكة ؟ إنها مكة بلد جسمه ، إنها مكة بلد روحه . . . وإنها مكة بلد الوحي أول ما نزل .

أتركها ترك الجافي ، ويفارقها فراق القالي ، فيجزئها جزاء الغادرين ولا ينظر إليها نظرة العاذرين ؟ .

ألا إنه النبي الرسول ﷺ ، ألا يكون الإنسان البشر يخفق قلبه للاقتراب ويهتز لفراق الأحباب ، ويعبر عن حزنه ووجه ما يعبر البشر ؟ .

نادى الرسول مكة البلد الحبيب منبته ومنشأه ومسرحه ومغداه . . . ناداها فشحصها بندائه : ما أطيبك من بلد .

إننا نراها بهذا النداء رانية إليه بعين دامعة ، وحانية بقلب رؤوف وسامعة عذره سمع عاذر ، آملة عوده عود ظافر .

خاطبها بالتعجب من طيبها ووجه لها ، والتعجب إنما يكون لعظم الوصف عظما فوق الوصف ، واستدرك يعتذر عن فراقها أسفا ليسكن غيرها ذاكرا .

هكذا نقل النبي إحساسه إلى مكة وأضفى وجدانه عليها فكانت مخاطبة الحبيب بأسلوب المجاز : أسلوب الاستعارة الذي شبه مكة بالحبيب أرغم على فراقه ، وقد حذف هذا المشبه به ورمز إليه بلازمه ، وهو إلقاء الكلام على جهة الخطاب ، والمخاطب هو المشبه (مكة) فهي استعارة بالكناية ، وتوجيه الخطاب إلى المشبه هو التخيل الذي يلزمها ، ومن ورائه يكمن تقرير هذه المعاني من شدة الحب وعظم الوفاء ، وألم الفرقة وشرح العذر .

وقد أضاف القوم إلى نفسه زيادة في تقرير عذره ، وتعريضاً بظلمهم وقسوتهم ، فليس بعد الأهل من خاذل ، وليس مع خذلائهم بقاء .

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

٣ - عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال : كان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل ، فدخل حائطا لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبي ﷺ حن وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذفراه فسكت . فقال : « من رب هذا الجمل ؟ » فقال فتى من الأنصار : هو لي يا رسول الله . فقال : « أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ؟ فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدبّه » (١) .

(١) تيسير الوصول ١٠٨ / ٢ والهدف ما ارتفع من الأرض من بناء وغيره وحائش النخل بخلات مجتمعات .

اشتدت رحمة الرسول عليه السلام - ولا أشد رحمة منه إلا الله - فالتقت بعيني
الجمل تذرфан ، وبصوت حنينه ينبعث ، فنهض إلى الجمل رؤُ وفا يمسخ رأسه بيده
الشريفة ليحس يمنها ، ويلمس رفقها ويناله الخير منها .

لقد أدرك الجمل إدراك الإنسان ، فنقل الرسول إليه قيمة الإنسان . . .
صور حنين الجمل ودموعه صورة الفاظ الشاكي وتعبيره .

حق الجمل على مالكة أن يتعهد طعامه وشرابه ، وأن يرفق به في الحمل
والسفر ، ولهذا علق بها شكوى الجمل .

تصوير الجمل شاكيا الجوع والتعب للنبي كما يشكو الإنسان لمن ينصفه ، أتى
بمجاز الاستعارة ، فقد أشبهت دموع الجمل وحنينه الشكوى لدى الرسول عليه
السلام فزادها الإضافة إلى السبب وعبر بها بدلا عن المشبه ، فلم يقل : إنه حن
وذرفت عيناه من الجوع والتعب ، وإنما قال ليؤكد ظلمه لجمله وعدم رفقته به : إنه
شكا إليّ أنك تجيعه وتدثبه ، ليتصور الرجل مدى ما أصاب بهيمته ، وليذهب
بخياله في شكواها إلى الرسول كل مذهب ، وقد صدرت العبارة بالسؤال عن
صاحب الجمل كالبحث عن المدعى عليه ، وبتوجيه التأنيب إليه بالاستفهام
الإنكاري الذي جعله بعيدا عن التقوى ليسجل عليه .

التعبير بالشكوى عن الحنين والدموع المشبهين بها يسمى استعارة تصريحية ،
وهي في الأساء أصلية وفي المشتق تبعية ، ولا يلزم أن يكون المجاز على هذا الوجه
إذ يمكن إجراء الاستعارة كالمثاليين السابقين : استعارة بالكناية .

٤ - روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « تقيء الأرض
أفلاذ كبدها مثل الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول : في مثل
هذا قتلْتُ ، ويجيء القاطع الرحم فيقول في مثل هذا قطعت رحمي . . . ويجيء »

السارق فيقول في مثل هذا قطعت يدي . ثم يتركونه ولا يأخذون منه شيئا^(١) .
يصور لنا رسول الله ما يتكالب عليه الناس من متاع ، وما يجرم به بعضهم
على بعض هذه الصورة الدميمة ، التي تغطي لها النفس ، ويشمئز منها الطبع ،
فيجمع دونها الثياب ، وينأى بالجانب : صورة القيء . . . والقيء لأفلاذ الكبد .

إننا الآن عمي . . . عمي عن هذه الرؤية . . . ستكتشف تماما في الغد ، حين
يذوب الرواء الكاذب والبريق الخادع ، الذي يلقيه الشيطان ليغشي أبصارنا فتغشى
عن الحقيقة ، ليقتل القاتل طمعا في غير محبي ، ويقطع القاطع رحما في غير
واصل ، ويسرق السارق خلسة ما يبید . . . وهناك عندما يبطل السحر والساحر ،
فتنجس نفثات الشيطان ستخرج الأرض أثقالها ، ويظهر منبؤا ومبتدلا ما كانوا به
يجرمون . . . فلا يرون سوى الذنب قد فعلوه . والإثم قد اقترفوه . في هذا الحطام
الذي يغادرونه ولا يمسونه ، لأنهم به من الشيطان قد ظلّموا ، وفيه للناس قد
ظلّموا .

هذا المشهد الغيبي قطعة رائعة من ختام الحياة ، يصور فيه الرسول الأرض
صورة شخص غثيان ، يطرح من فمه ما يؤذيه حتى يقيء قطعاً من كبده . . . هذه
الأفلاذ من الكبد مثل الأسطوان من الذهب والفضة ، والسر في ذلك أن يرى
الطامع ويقر ما أخبر به من الدين صدقا ، وما كذب به من الحق حقا .

تشبيه الأرض بإنسان يقيء تشخيص للأرض في صورة كريمة ، وقيؤها أفلاذ
كبدها يقوي هذه الصورة ، فالقيء وأفلاذ الكبد لوازم الحيوان ، وإنما جعلنا المشبه
به المحذوف هو الإنسان - وإن وقع اللزامان من غيره - لما أسند الله إلى الأرض في
الآيات المشبهات للحديث من لوازم الإنسان : ﴿ وقال الإنسان ما لها يومئذ تحدث ﴾

(١) أمالي المرتضى : ١ / ٩٥ .

أخبارها بأن ربك أوحى لها ﴿ فهي استعارة بالكناية ، ونسبة القيء وأفلاذ الكبد للمشبه وهو الأرض تخييل يذهب فيه الذهن ما يذهب . يقرر المعنى ويؤكد الغاية .

٥ - عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحميا أرضاً ميتة فهي له ، وليس لعرق ظالم حق (١) » .

الأرض التي لا نتيجة منها ولا فائدة فيها شبيهة بالميت من ذي الروح ، فإذا استصلحت فأنجحت وأفادت أشبهت الحي منه ، فهذا الجزء من الحديث الكريم يصور الأرض في الحالين صورة الميت والحي ، ليبين أن الذي وهبها الحياة بجهدده أحق بخيرها ، وهذا التصوير قد رسمته صورة الاستعارة المكنية فالمشبه به محذوف وهو الحيوان ، وقد أسند وصفان من أوصافه اللازمة الى المشبه وهو الأرض على سبيل التخييل : هذان الوصفان هما : (أحميا وميتة) وقد يظن أن اللازم الأول وهو الإحياء مغن عن ذكر اللازم الثاني ، لأن الإحياء لا يكون إلا لمن مات ، وليس كذلك الأمر فهو حكم شرعي أخبر عنه بالمجاز ، والأحكام قوانين يجب أن يتحدد مدلولها ، وهذا التحديد جاء من اللازم الثاني ، لأنه يفيد تأكيد الأتصاف بالموت فقد تكون الأرض أهملت من قريب ، لنقص الماء أو انتظار البذر أو غير هذا فليست بميتة ، ولكن استنباتها في هذه الحال يندرج تحت الإحياء ، فاللازم الثاني كالقيد المحدد للحكم ، وتركه نقص يوقع في اللبس ويوجد الصراع .

والجزء الآخر من البيان الكريم يصور الغرس المستنبت في غير ملك الغارس - لفائدته - بالإنسان الظالم الذي يغتصب مكان غيره ، فلا يحكم له بحق البقاء ، وهذا التصوير يستوجب اقتلاعه من المكان المغصوب كما يجب بالحكم طرد الظالم من مكان سواه .

هذا التصوير معبرٌ عنه بأسلوب الاستعارة المكنية ، فقد شبه العرق المغروس في غير الملك لفائدة الغارس دون إذن المالك بالإنسان الظالم المغتصب مكان غيره ، ثم طوى ذكر الإنسان المشبه به ، ونسب للمشبه وصفه اللازم وهو الظلم .

إنها أحكام فقهية حقا في قوة القانون التشريعي لبيان الحقوق والمعاملات ولكنه قانون لا يخاطب العقل بالجفاف ، وإنما يخاطب العقل والعاطفة بالمحبة والعطف ، يعرف منه العقل الحكم ، وتعرف العاطفة الطاعة والرضا ، لأنه جاء بعبارة آدب وأبلغ ، وأشد تأثيرا من مادة قانون ، أرأيت لو قال : والغرس المستنبت في أرض دون إذن صاحبها يتنلع ، أتكون له هذه الصورة التي تنفي حق وجوده وتبته معتديا ظلما ، وتترك للساع أن يجول وراءها ليرى من الظالم على الحقيقة ؟ الغرس أم الغارس ، وما جزاء هذا الظلم ؟ أهو اقتلاع الغرس ، أم اقتلاعه وإصلاح الأرض ، أم الاعتناء مع هذا إلى المالك ؟ .

٦ - مما قاله النبي ﷺ لكعب بن عجرة : « يا كعبُ بنُ عَجْرَةَ : الصلاة برهان ، والصوم جنة حصينة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، يا كعب بن عجرة : إله لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به (١) » .

في هذا الحديث أنواع من العبادات والقرب التي تصلنا بالله ، يريد الرسول عليه السلام أن يكتف للصاحب الحبيب قدرها ، ويوضح أجرها ، فجعل إيمان العبد دعوى ، وجعل الصلاة برهانها ودليلها ، فمن ادعى الإيمان بلا صلاة فلا برهان له ، وصوّر الصوم صورة الجنة الحصينة التي يجترز بها المقاتل من عدوه ، لأن في الصوم انتصاراً على الهوى ، وكتباً للنفس وكبحاً للشيطان ، كما جعل الصدقة ماءً يطفئ النار ، والخطيئة ناراً يطفئها الماء مرتين .

الوسائل البيانية التي قررت هذه العبادات محسنة مشهودة ، والتي جسّمت الخطيئة ناراً تلتهب ، هي - أولا - التشبيه بين الصلاة والبرهان ، والصوم والجنة

(١) تيسير الوصول ٣٥ / ١ .

(١) تيسير الوصول ٣٨ / ٣ .

الخصية ، واتصاف الجنة بالحصانة زيادة تقريرٍ وفضلُ تأكيد ، ثم هي - ثانياً - استعارتان لطيفتان في الصدقة والخطيئة ، تنبئ عنهما معاً قرينة واحدة ، هي (تظيء) وكلاهما بالكناية ، فما شبهت به الصدقة وهو الماء محذوف دل عليه لازمه وهو الفعل ، وما شبهت به الخطيئة وهو النار محذوف دل عليه بنفس الدليل ، وقد أثبت هذا الفعل لكل من المشبهين : الصدقة والخطيئة واقعاً من أحدهما متعدياً إلى الآخر ، وإثباته لهما هو مناط التخييل الذي يجسّم الصدقة في صورة الماء المنقذ المحمي ؛ والخطيئة في صورة النار المحرقة المبيدة ، لتتعلق النفس بالمنجي وتهرب من الرُدي ، ولما كانت الصلاة والصوم عبادتين تختصان بالمرء كفى ذلك فيهما ، وتميّز الصوم لما فيه من زيادة الجهد بزيادة الوصف . أما الصدقة فلأنها تتعدى بإيصال النفع إلى الغير ، فقد تقرر بعد هذا التصوير البليغ الرائع بعبارة التمثيل التي وَعَت التصريح بالحقيقة وهذا معنى التعبير عن هذا المدلول مرتين .

أما الوصاة الأخيرة فهي تحذر كعباً أن يأكل طعاماً حراماً يزيد في بدنه شيئاً فتكون النار مثواه .

ولكنه عليه السلام أعطى المعنى في تخييل يملك النفس ويذهب بالنظر في أكثر من مَطْرَحٍ فَصَوَّرَ اللَّحْمَ الرَّابِي بِالنَّبَاتِ النَّامِي ، لأن (ينبت) في غير الزروع مجاز كما في (أساس البلاغة) وصور السحت وهو الحرام من الكسب صورة المنبت الذي يبتدئ منه النبات ويشب ، وجعل الجنة والنار تقاضيان هذا اللحم أو النبات فيكون الحكم للأولى وهو النار . صور متلاحقة متعاقبة « لحم نبت من سحت » ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ هو غرس نكد من أرض خبيثة ، ولا مصير غير المصيرين : الانتفاع بالخبيث ، أو طرحه في النار .

ترى هل يرضى الخبيث إلا الخبيث ؟ . . . « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات » ، وهل يَصْدُرُ الحكم الطيب على هذا الخبيث بغير النار ؟ .

تَقَرَّرَ المضمون بتلك الوسائل ، ثم زاد تقررًا بطريق القصر ؛ ليحصره في

مصير لا يتجاوزه ، والقصر على الوجه الأكيد لأنه بالنفي والاستثناء ، وهناك أمور أخرى جديرة بالبيان ، منها التأكيد المفتوح به ، والإيهام ثم البيان بالإضمار قبل الذكر ، إذا أوقع اسم (إن) ضمير الشأن ليزيد انتباه المخاطب ، ومنها جعل فعل الزيادة مضارعاً حتى يتخيل كأنه يحدث أمام نظره ، وجعل فعل النبات ماضياً لأنه سابق في الزمن على الزيادة آية الدقة المحكمة ، ثم اختيار الجزاء (بكان) الماضي أدل على الجزم به لتحقق الوقوع ثم التعبير بالترفضيل في (أولى به) يزيد الجزم ويقطع الشك في ولاية المفضول .

وقبل هذا كله نرى علم الأعلام في اجتذاب كعب : في تشييطه للوعي في استحضر قلبه وكل عواطفه . . .

تكرار النداء . . . بالإسم . . . والكنية : « يا كعب بن عجرة » أمام كل وصاة نداء المشفق الرحيم يجوس في حنايا (كعب) المرة تلو السابقة ، يشعل فيها وجد الحب ، ويثير كوامن الإشفاق .

المثل في البيان النبوي

يطلق المثل على التشبيه المركب الذي تشبه فيه الأحوال والهيئات بما هي له شبه ليتقرر أمر الأولى بقياسها على الأخرى ، وقد يصحب التعبير لفظ (المثل) للإشارة إلى هذا القصد ، وقد يزداد ليدل على إرادة الإيضاح لفظ (الضرب) سابقا لفظ (المثل) كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ ضرب الله مثلا طيبة كمشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . . . ﴾ وكما ورد في الحديث : « إن الله تعالى ضرب مثلا صراطاً مستقيماً على كتفي الصراط داران - وفي رواية سوران - لهما أبواب مفتحة ، على الأبواب ستور ، وداع يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو فوقه ، والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » . فالأبواب التي على كتفي الصراط حدود الله تعالى فلا يقع في حدود الله تعالى حتى ينكشف الستر ، والذي يدعو من فوقه واعظ به^(١) . فإذا ذكر هكذا تردد بين سبق الممثل له كما في الآية ، أو سبق الممثل به كما في الحديث ، وإلا جاء على الغالب في التشبيه من سبق المشبه .

كما يطلق المثل على صورة المشبه به المركب تنتزع من قصة ماضية ، فتحكي عند حاضر يشبهها من الأحوال والهيئات ، ويسمى استعارة تمثيلية لعدم الجمع بين الطرفين اكتفاء بالعبرة المنقولة ، كقوله عليه السلام : « إن المنبّت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

عرّف المثل المبرّد فقال : المثل مأخوذ من المثل وهو قول سائر شبه به حال الثاني بالأول ، والأصل فيه التشبيه .

(١) تيسير الوصول ٢٣ / ١ .

وقال فيه النظم : يجتمع في المثل أربع لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة .

وقال ابن المقفع : إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق . وآتق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث^(١) .

والمثل من الضرب الأول يشغل مكاناً كبيراً في الكتب الجامعة للحديث النبوي ، وقد سبقت أطراف منه نزيدها هنا شيئاً ، أما المثل من النوع الثاني فقلما يوجد أخذُه عليه السلام شيئاً من أقوال السابقين للتمثل به في أحوال حاضرة ، ولكنه كثير رائع ما أخذ من كلامه الشريف ليضرب مثلاً وينقل استعارة ، فيصاف به المفصل ويقرر المعنى ويعظم الخطاب .

وهنا أيضاً سنسوق طائفة من المثل الكريمة للبلاغة النبوية ، ترهف الحس . وتربي الذوق وتصلق الفطرة .

من النوع الأول

١ - عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدجلوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به من الحق^(٢) » .

يشبه الرسول عليه الصلاة والسلام حاله مع البشرية في البلاغ لدعوة الحق الذي جاء به ، فيظهرهما في صورة رائعة عرفها العرب واهتموا بها اهتمامهم

بالنفس الغالية وبنبض الحياة ، صورة العين الحريص على القوم يرى أعداءهم قد جمَعوا لهم ، وأعدوا لاجتياحهم ، وزحفوا إلى ديارهم ، فيسرع يلهُث من الجهد عرياناً منذراً بالويل ، ليسهل على الرائي أن يعرف الشر في عريه ، كما يعرف الشر في إنداره الذي أكده تأكيداً لا يدع عذراً لأبله أحق ، فإنهم يدركون بالفطرة ما ندركه بالدراسة من أن هذا التركيب : « إني رأيت الجيش بعيني » يحمل من التقرير لفظاً ينطق به هو (إن) وهيئة تقصد من أجله هي تكرر الإسناد ، فالرؤية حاصلة من النذير ونخبها عنه ، ثم زيادة لا تلزم لغير هذا القصد ، هي تعلق الرؤية بأداتها (العين) مضافة إلى ضمير الرائي المتكلم ولتقطع كل تجوز أو احتمال . فإذا انتقلنا إلى الجملة الثانية « وإني أنا النذير العريان » رأينا عجباً من حرصه ، فالعبارة القولية مصاحبة للصور المرئية ، ولكنه يريد له الحب والرحمة أن يبلغ قوله أبعد ما يبلغ من قلوب السادرين .

إن التركيب المبدوء بحرف التأكيد قد تكرر أيضاً فيه إسناد النذير ، فأسند مرتين : إحداهما إلى ضمير الفصل إخباراً بالجملة الأسمية الدالة على الثبوت ، والثانية إلى اسم (إن) المسند إليه الأصيل في جملته ، وهذا الصنع من وجود ضمير الفصل بين الطرفين طريق للقصر تعرفه البلاغة ، والقصر قد عرفنا قيمته في تأكيد المعاني ودفع الشك ، فإذا أتبعنا النظر أربعة أسماء تكونت العبارة منها بعد الحرف - وجدناها معرفة تشير إلى رؤية المخاطب للمتكلم رؤية العين ، وإلى سبق المعرفة له سبق المعهود . فإذا تأملنا قليلاً رأينا صيغة المبالغة (النذير) تنادي بنفسها على الجهد المبذول والنعمة المهداة ، ولقينا الوصف المعقب بما لقينا في الجملة السابقة قوله (بعيني) . . .

ترى هل هذه الصورة العجيبة الدقيقة المترابطة في المثل به تنطبق على صورة المثل له . . . ؟

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم - بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ .

(١) نهاية الأرب : ٣ / ٢ .

(٢) تيسير الوصول ١ / ٢٥ .

﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ .

﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ .

﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾ .

النصوص القرآنية وتاريخ الدعوة يبين أن هذه الصورة المجملة للنذير العريان والصورة المجملة لإنذاره هي بعض ما يتصف به النبي عليه السلام وتتصف به دعوته من الصدق والإخلاص والحرص والتأكد وقيام الحجة .

أما الفريق المقابل للداعي ودعوته فقد مثل له النبي عليه السلام بمثلين :

١ - من هزهم النذير برؤيته منكشفاً غير ملتبس ، وبندائه مؤكداً غير مشكوك ، فأطاعه مدلجاً ، يستره الليل بظلامه ، ويعينه على السرى برفق جوه ، وعلى النجاة بندرة الرائين فيه ، وأولئك هم الناجون من عدوهم .

ذلك مثل المصدقين رسول الله ظاهراً فيهم بالحق غير ملتبس بالكاذبين معهودا لهم بالصدق ، متكلماً ومنذراً بآكد ما ينذر بالخطر ويهدد بالنار (فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به) .

٢ - من نظروا إلى النذير النظر الشذر ، واستهانوا بصورته ، وهُؤوا عن دعوته ، واستخفوا بما أنذر به ، وخيّل لهم الهلاك بعد عدوهم ، وصور لهم الردى قوة بأسهم ، فأصبحوا مكان ما أنذروا لم يتحركوا لنجاء ، ولم يعبأوا بفوز ؛ فدهمهم العدو ، وفتك بهم الحمق ، وأبادهم الغرور .

(فذلك مثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق) .

ما زال الرسول عليه السلام فينا نذيراً عرباناً ، وما زال القرآن والسنة بيننا ينطقان بكل تأكيد « إني رأيت بعيني » فاللهم نجنا بالاتباع ، ولا تردنا بالابتداع ، وأسّر بأرواحنا قبل الهول لا يدهمنا . لا تجعلنا ربنا من الهالكين .

من النوع الثاني

من أقواله الكريمة عليه السلام ما ذهب في الناس مثلاً ، نقلوه من القصة والأصل الذي فيه قد قيل ، وأوردوه كل جديد يشبهه ، فضربوه مثلاً له يقرره ويجمله ، ويضفي عليه الحسن والإقناع والإعجاب .

من ذلك هذه الروائع :

١ - « إياكم وخضراء الدمن »^(١) قيل : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « المرأة

الحسنة في المنبت السوء »^(٢) .

قال الرضي : للعلماء في تأويله قولان . أحدهما أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن نكاح المرأة على ظاهر الحسن وهي في المنبت السوء أو في البيت السوء ، فوجهه المجاز من هذا القول أنه عليه الصلاة والسلام شبه المرأة الحسنة بالروضة الخضرة لجمال ظاهرها ، وشبه منبتها السوء بالدمنة لقباحة باطنها ، والدمنة : هي الأبعاد المجتمعة تركيبها السوافي ، ويعلوها الهابي^(٣) ، فإذا أصابها المطر أنبت نباتاً خضراً يروق منظره ويسوء مخبره ، فنهى عليه الصلاة والسلام عن نكاح المرأة إذا كانت مغموضة في نفسها^(٤) ، أو مطعوناً عليها في نسبها ، لأن أعراق السوء تنزع إلى ولدها ، وتضرب في نسلها .

(١) المجازات النبوية : ٦١ .

(٢) نهاية الأرب ٢ / ٣ .

(٣) السوافي الرياح والهاي التراب هنا .

(٤) مغموضة : معيبة .

والقول الآخر أن يكون عليه الصلاة والسلام إنما نهي في الخطبة عن تقارض النفاق ، وتغاير الأخلاق ، وأن يتلقى الرجل أخاه بالظاهر الجميل ينطوي على الباطن الذميم ، أو يخدعه بحلاوة اللسان ، ومن خلفها مرارة الجنان^(١) .

هذه العبارة النبوية إذاً لا يراد معناها المطابقي ، وإنما يراد تصوير المرأة السالفة الذكر هذه الصورة التي لها ظاهر يغري وباطن يسوء ، أو تصوير حال المرائي الذي يخفي فتك الذئب في وداعة الحمل هذه الصورة ، فالأمر أصلاً قائم على التشبيه ، ثم ترك الأصل واستعيرت صورة المشبه به استعارة تمثيلية ، تضرب عند كل مورد يشبه مصدرها .

٢ - قال ﷺ « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى^(٢) » .

الرسول الكريم رؤوف رحيم ، ومعلم حكيم ، يعرف ما في الدين من يسر ، وما للبدن من حق ، وما للصلوات العامة والخاصة من واجب ، كما يعلم أن النفس ملول ، وأنها تسكن جسم بشر ، وأن العبادة مهما اتصلت لا تفي بحق المعبود ، وأنه سبحانه الرحمن الرحيم ، والشكور الحليم .

لهذا كله وغيره معه ، أوصى عليه السلام المؤمن أن يرفق بنفسه في عبادة ربه ، فإنها كالمحيط الممتد كلما أوغل السابح فيه لا يرى للبر ظلاً ، فتأخذ قلبه الوسائس ، وتملك نفسه الهواجس ، وتبعد الغاية ، وتضطرب عنده النهاية ، ويحسب نفسه في الغارقين ، ولا يشعر في همه ببرد اليقين .

جَسَمَ النبي عليه السلام الدين بإسناد المتانة إليه ، والمتانة هي الصلابة

والشدة ، ومن معاني (المتن) ما صلب من الأرض وارتفع ، والمتن الضرب في الأرض^(١) وكأنه ﷺ يشبه الدين في شدته وكثرة مصاعبه واتساع مداه بالطريق الطويل الصعب على السالك ، الذي مهما جهد لا يقطعه ، فينبغي ألا ينقطع فيه إعياء وكدا ، ولهذا أمر أن يوغل فيه المؤمن رقيقاً ، يجدد قواه من مرحلة إلى أخرى بفترات من الراحة ، ولا يكلف ظهره أكثر من الطاقة ، ليبقى صاحبياً ذلولاً إلى أن يكون من أمر الله ما يكون ، وليقرر هذا المعنى ويقنع به ضَرْبَ له مثلاً بحال الإنسان في السفر الطويل ، ينقطع عن الركب ، وينفرد عن الصحب ، إشاراً للسبق في الوصول ، فيجهد مطيته إجهاداً يقتلها أو يكاد ، فإذا به منفرد غريب لا استبقى ظهراً يمنحه رفقه ، ولا بقي براً يأنس بالرفقة .

أصبحت عبارة المشبه به - الواقعة في الحديث تعليلاً - مثلاً رائعاً يضرب في كل حال تشبه موردته في أمور الدين أو الدنيا ، فينصح المستعجل والشاق على نفسه والمحمل غيره مثل ذلك بهذا الجزء من الحديث : « إن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى » حيث لا مُنبتٌ في الطريق سقط من الإعياء ، ولا مطية أمام العين قد عطبت ، وإنما هو التقرير بذلك التصوير الذي كان أسلوبه الاستعارة التمثيلية .

٣ - اشتدت المعركة بين المقاتلين يوم حنين ، فقال ﷺ : « الآن همي الوطيس » في الأساس « حفر وطيسا » : حفرة يختبئ فيها ويشتوي^(٢) قال : ومن المجاز « همي الوطيس » وقال الرضي : هو يعني همي الحرب وعظم الخطب مجاز ، لأن الوطيس في كلامهم حفرة تحترق فيوقد فيها النار للاشتواء . . ولا وطيس هناك على الحقيقة ، وإنما المراد ما ذكرنا من حر القراع ، وشدة المصاع ، والتفاف الأبطال ، واختلاط الرجال ، وتشبيه الحرب بالنار يكون من وجهين : أحدهما لحر

(١) القاموس المحيط ٢٦٩ / ٤ .

(٢) أساس البلاغة : ١٠٢٩ / ١٣٢ كتاب الشعب .

(١) المجازات النبوية ٦١ .

(٢) المجازات النبوية ١٩٥ والجزء السائر مثلاً في (نهاية الأرب) ٢ / ٢ .

مواقع السيوف وكرب ملابس الدروع وحمي المعترك ، لشدة العراك وكثرة الحركات ، والوجه الآخر أن يكون إنما شبهت بالنار لأنها تأكل رجالها ، وتفني أبطالها ، كما تأكل النار شعلها ، وتحرق حطبها^(١) .

هذه العبارة التي شبه الرسول بها احتدام القتال واشتداد المعركة انفصلت عن معركة حنين ، وأصبحت مثلاً رائعاً ، يضرب عندما يشتد الصراع بين اثنين من الأفراد أو الجماعات في حرب أو جدل أو رهان أو غيرها ، يصور بها المتكلم ما أمامه من الأمر صورة نار في وطيس اشتعلت ، واشتعلت حتى حمي بحموها ، ويسمى البيانون استعارة تمثيلية .

٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين »^(٢) وفي رواية « لا يلسع »^(٣) .

هذا الحديث من قوله ﷺ لأبي عزة الشاعر ، أسره يوم بدر ثم من عليه فأطلقه ، وأسّر يوم أُحد مرةً أخرى ، فطلب من الرسول أن يمن عليه ، فأجابه بهذا الحديث .

وهو يشبه أبا عزة بمن لدغ من جحر مرة فشفي وسلم ، ثم لم يتعظ فيأخذ من الجحر حذره ، فعاد ليُلدغَ أخرى تقضي عليه ، وليس هذا شأن المؤمن ، وكأنه عليه السلام يقول له : إذا فلست مؤمناً وإلا لما عاودتَ غدركَ الذي أُسرتَ فيه فأطلقتَ من قبل .

صورة رائعة صورت بها حال أبي عزة تصويراً يلجمه ، ويخجله من نفسه ويفحمه ، ثم اقتطعت هذه الصورة البيانية من الأصل فجرت مثلاً من كلام

(١) المجازات النبوية ٤٤ .

(٢) تيسير الوصول ٢٦٩ / ٤ .

(٣) المستقص ٢٧٦ / ٢ .

الرسول عليه السلام يضرب في كل ما أشبه مورده ، من مُعاودِ أمرٍ مرةً أخرى لم يحدّر ما أصابه منه المرة الأولى .

وهذه طائفة من الأمثال التي أثرت عنه ﷺ فكانت روائع خالدة ، يتناولها الناس من بعده ليقرروا بها الأحكام ، ويسكتوا الخصوم ، ويغتنوا بها عن كثير من المنطق ، أسردها لك لتجتلي جمالها بذوقك ، وترجع فيها إلى الأصول من كتب الحديث وكتب الأمثال .

١ - كل الصيد في جوف الفرا - قاله لأبي سفيان يتألفه على الإسلام .

٢ - رفقا بالقوارير - قاله لأنجشة وكان يحدو الإبل فوقها النساء بصوت يخافه عليهن .

٣ - المؤمن مرآة أخيه .

٤ - اليمين الفاجرة تدع الدار بلاقع .

٥ - خير المال عين ساهرة لعين نائمة .

٦ - ذاك رجل بال في آذنه الشيطان (لمن نام عن الصلاة حتى أصبح) .

٧ - الحياء نظام الإيمان .

٨ - الناس معادن .

٩ - الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة .

١٠ - يا خيل الله اركبي .

١١ - اشتدي أزمة تنفرجي .

١٢ - من كسب مالا من نهاوش أنفقه في نهاير . (أي من نواحي مكروهة أو محرمة أنفقه في مثلها مما يضر ولا ينفع) .

أسلوب المجاز المرسل

المجاز المرسل هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة مع القرينة المانعة من إرادة المعنى الوضعي ، وهو أسلوب تصويري يفيد المعاني تقريراً ويزيدها تأكيداً . فضلا عن الإيجاز وإعطاء المضمون في ثوب خيالي ضافٍ شأن جميع المجازات .

وهو من الأساليب التي جاءت في الحديث ناصعةً بارعة ، لا باقتسارها والتصنع لها وتقويم ثقافتها وتعديل أودها ، وإنما بالفطرة المصطفاة ، والطبع الموهوب والتهيئة الإلهية .

وهذه لمع من البيان بهذا الأسلوب نختارها من القول الكريم :

١ - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة : « اليد العليا خير من اليد السفلى » (والعليا) هي المنفقة (والسفلى) هي السائلة) .

ما أعظم اللطف وما أكرم الأدب ، وما أرق البيان الذي يراه المتأمل في هذا الحديث .

الرسول عليه الصلاة والسلام يريد من المؤمن أن يكون عزيز النفس أبي القلب كاسبا ، ولا يريده فارغا عالة يسأل الناس أعطوه أو منعوه ، والشريعة الإسلامية عادلة سمحة ، ترى من الناس مَنْ يُجْرَمُ الكَسْبُ لعلّه تمنعه ، فأباحته لهم الصدقة ما داموا عاجزين ، وعينهم الكتاب في أنواع من الناس بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ . . . ﴾ وحرَمَ الكتاب كما حرمت السنة الصدقة على غيرهم فقال عليه السلام : « لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي »

١٣ - المؤمن موه راقع .

١٤ - حبك الشيء يعمي ويصم .

١٥ - الناس كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية .

١٦ - عمالكم كأعمالكم ، وكما تكونوا يولئ عليكم .

١٧ - الدال على الخير كفاعله .

١٨ - المتشيع بما لم يعطه كلابس ثوبي زور .

١٩ - مثل المؤمن مثل النحلة لا تأكل إلا طيبا ولا تطعم إلا طيبا .

٢٠ - نية المرء خير من عمله .

٢١ - الأعمال بخواتمها .

٢٢ - خير المال سكة مابورة أو مهرة مأمورة (السكة المأبورة : السطر من

النخل قد لقع ليثمر ، والمأمورة الكثيرة التاج) .

٢٣ - سبقك بها عكاشة . (هو عكاشة بن محصن طلب من النبي عليه السلام

أن يجعله من أهل الجنة ، ثم تبعه أنصاري يطلب مثله فقال ﷺ : سبقك . . .

« .

٢٤ - قولوا بقولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان . قاله عليه السلام لمن قال

له : أنت أفضل قریش قولاً ، وأعظمها طولاً (لا يستجرينكم : لا يتخذ منكم

أجرياء أي وكلاء تنطقون بلسانه) .

٢٥ - هدنة على دخن ، وجماعة على أقداء . قاله حين سئل عن آخر الزمان .

٢٦ - وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم ؟

٢٧ - الحرب خدعة (بسكون الدال مع فتح الخاء أو ضمها أو فتح الدال مع

ضم الخاء) .

وقال : « من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر » وقال : « لأن يأخذ أحدهم أحبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعه خيره من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ليحجب إلى الفقراء العمل وعمارة الأرض بكسب حلال لامة فيه ولا ضعة .

وهو مع هذا كله يحث على الصدقة ، ويحض على العطاء ، ويبين مضاعفة الجزاء عند الله للمتصدقين ، ويضرب لذلك الأمثال ، بل يجعل من العطاء فرضاً مفروضاً وحقاً معلوماً ولكن للسائل والمحروم ، متى كان السائل من هذه الأنواع المبينة .

والحديث الذي نحن معه يسلك مسلك التصوير لحال المعطي والآخذ : فيد ممتدة للسؤال ذليلة ضارعة منتظرة نازلة محتشمة ، ويد ذاهبة بالعطاء عزيزة عاذرة مرضية عالية منسرحة .

وكل منهما في معناه معبر عنه باسم التفضيل ليزداد بُعد ما بينهما مرتين ، وقد كنا فيما سبق نرى الرسول عليه السلام يكثر من تأكيد قضاياه إظهاراً للاهتمام ، وجذبا للأذهان فما باله ﷺ لا يؤكد هاهنا . ؟ أترأه لا يرى الأمر مهما يستوجب التوكيد ؟ لا . ولكنه ترك التوكيد ليشير بتركه إلى أنه خبر لا يحتمل الشك ، ولا يمكن أن يتردد سامع فيه ، فترك التوكيد أدل على تأكده بالفطرة وأوفى بحق التأكيد .

أما بعد هذا الاستطراد الكثير ، فإنه لا معنى لمذح يد وذم أخرى ، وإنما الممدوح والمذموم هو صاحب اليد ، فالقصد من الحديث جعل الشخصين في منزلتين عليا وسفلى ، وتقدير فضل الأولى على الثانية في الخير .

وعلى ذلك فيكون من التعبير باليد - وهي الجزء - وإرادة صاحبها - وهو الكل - فالعلاقة بينها الجزئية والكلية .

ولكن انظر معي لو قيل : الرجل الأعلى خير من الرجل الأسفل ، أو صاحب اليد العليا خير من صاحب اليد السفلى ، أيكون له من الدلالة على المعنى وضوح ما للمجاز ؟ أيكون له من جمال الوقع ما له ؟ .

إن عبارة الحديث تصور الحقيقة في الجانب القريب منها : حقيقة الصورة المحسنة بين يد السائل ويد المعطي ، وتصور الحقيقة في الجانب البعيد منها : نقل المدح إلى المعطي ونقل الذم إلى السائل ، لأن كليهما صاحب القصد وعمله مناط الجزاء ، وإنما اختير التعبير باليد لأن الإعطاء والأخذ آتتهما اليد ، فهي أخص الأعضاء من الكل بالفعلين ، وأنت ترى إيجاز العبارة مع إيجازها وتصويرها المعنى صورة تنفر السائل من أن يسأل فيكون الأسفل ، والجمع بين الإيجاز والصورة لا يتأتى وهو الفضيلة في مثل : المتصدق خير من السائل ، ولا في مثل : صاحب اليد العليا خير من صاحب اليد السفلى ، لأن في الأولى إيجازاً دون تصوير ، وفي الثانية تصويراً دون إيجاز ، فسبحان من اصطفى محمداً عليه الصلاة والسلام واصطفى معه بيانه .

٢ - عن أبي شريح العدوي رضي الله عنه قال : قلت لعمر بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح . سمعته يقول : بعد حمد الله والثناء عليه : « إن مكة حرمها الله تعالى ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً أو يعضد بها شجرة . . »^(١) .

يبين الرسول عليه الصلاة والسلام منزلة مكة وكرامتها عند الله ، لأنها محلة بيته الحرام الذي هو أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين ، فعبّر عن ذلك بتحريم الله إياها ، والتحريم لا يتعلق بالذات ، وإنما يكون لأمر أخرى تتلبس بها ، وقد بين بعض هذه الأمور المقصودة بالتحريم كسفك الدم فيها ، أو قطع أشجارها بفأس أو سواه ! وهذه أمور تحل (من الحلول) بالمكان ، فمكة محلها ، فالمجاز من إطلاق لفظ المحل وإرادة الحال فيه ، ولكن فضل التعبير المجازي على التعبير بالحقيقة يدرك بأذن مقارنة بين الحديث وبين قولنا : إن مكة حرم الله سفك الدم فيها ، وقطع شجرها . . لأن التحريم الواقع على البلد يصورها بكل أجزائها وجميع ما فيها صورة المحرم ، فيعم ما ذكر بالبيان وغيره ، ويزيد من تصور الحرمة

(١) تيسير الوصول ٢٧٧ / ٣ .

والقداسة ، وقد تأكدت هذه الحرمة بأكثر من ذلك ، فالتعبير في قوة القصر لإثبات التحريم من الله ونفيه عن غيره ، تنبيهها إلى عظم الحرمة بعظم المحرم ، وقد تكرر وقوع فعل التحريم على مكة بذكرها مسنداً إليه مقدماً في الجملة والياً حرف التأكيد . ثم ذكر ضميرها مفعولاً به للجملة الفعلية المسندة ، فإذا لوحظ أن الفعل في الجملة ماضٍ شهدنا أن الحكم قضاءً من الله سبق ، وأمرٌ بالامثال ثبت من قبل أن يخلق الكون ويوجد الناس ، ولأن تحريم الناس - مع أنه منفي - حادثٌ يصحب وجودهم ، عبّر عن جانبه بالمضارع ليوافق التجدد والحدوث الحاصل منهم . فلو حصل أن الناس يحرّمون مكة ، فإن تحريمهم الحادث مُنزلٌ منزلة العدم ، لأنهم إنما يَحْصُلون حاصلًا فذلك كقوله تعالى : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .

هذا جانب من المجاز المرسل في الحديث ، وجانب آخر منه أن الحرم ليس محدوداً بأسوار مكة ، بدليل ذكر الزروع والأشجار والصيد ، لأن ذلك من شأنه أن يكون خارج البلد ، فالذي حرّمه الله مكة وما حولها ، وذلك من التعبير بالجزء وإرادة الكل ، لما للجزء من عظيم اختصاص بالحكم ، ومزيد ارتباط به ، وفضل التعبير بالمجاز الدلالة على عظم الجزء حتى ينسب إليه الجميع ، وتصوير ما خلف الأسوار مما يحمل الشجر وغيره صورة ما هو داخلها تخيلاً لنقل الأسوار في إثبات الحكم إلى ما وراءها مما ينتهي إليه ، وكلما عظم البناء امتد ظله ، وكلما علا المنار اتسع نوره فنسب إليه مد ظله وامتسع نوره ؛ ولا بناء أعظم ولا منار أعلى من بيت الله في بلد الله .

٣ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس من نفسٍ تُقْتَلُ ظملاً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها لأنه أول من سن القتل » (١) .

تطلق النفس على ما بوجوده في الحيوان حياته ، وبإزهاقه عنه موته ، وهذا هو

(١) تيسير الوصول ٥٥ / ٤ .

المقصود من اللفظ هنا ، والقتل لا يقع على النفس ، وإنما يقع بالحقيقة على المقتول فيقال : قتل فلان فلانا وقتيل بني فلان ، ويقول الله ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ﴾ . ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم . . ﴾ ويقول عليه الصلاة والسلام : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يقتل المؤمن متعمداً أو الرجل يموت كافراً » (١) .

فالتعبير في حديثنا مجازي أطلق فيه لفظ النفس وهو اسم الجزء وأريد منه الكل جسماً ونفساً ، لما للجزء من مزيد اختصاص بفعل القتل ، لأن بزهاقه ضياع الحياة ، وفضل المجاز تصوير شناعة الجريمة ، وأن القاتل في منزلة من يتغلغل وراء البناء فيقتحمه ، أو يهتك أستاره ويهدم جداره ليصل إلى صاحبه المستكن فيه فيصيبه ، فتلك مبالغة في تنفير النفس من هذه الفعلة تنفيرها من عمل الوحوش الضارية وأكثر .

٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير » (٢) .

٥ - وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير » (٣) .

اليمين القسم يُحْلَفُ بها على فعل شيء أو تركه أو وجوده على صفة أو غير ذلك فهي لا يحلف عليها وإنما تحلف عليه ، غير أنه لا يمين دون محلوف عليه فكلمة وجدت اقترنت به ، ولشدة ما بينها من اللزوم عبر الرسول عليه الصلاة والسلام باليمين وأراد لازمها ، فليس قصده عليه الصلاة والسلام أن يحلف بصيغة من الصيغ يراها ثم يرى صيغة أخرى أولى منها بأن يقسم بها فيغيرها إلى الأفضل ؛

(١) تيسير الوصول ٥٤ / ٤ .

(٢) (٣٠٢) تيسير الوصول ٢٦٢ / ٤ .

وإنما يريد الحلف على شيء يفعل ثم يرى تركه أفضل ، أو على شيء لا يفعله ثم يرى فعله أفضل فيخالف ما حلف عليه اليمين إلى غيره ويكفر عن مخالفته .

مثل هذا التعبير بين اللازم وملزومه هو من المجاز المرسل وعلاقته اللازمة ، وفضل المجاز فيه تصوير المحلوف عليه صورة اليمين لتعظيم أمره وتخيل الجزم بالجهة التي من أجلها كانت اليمين عليه ، من الفعل أو الترك ؛ وأن هذا الأمر مهما اشتد العزم عليه والجزم به أفضل للحالف أن يخالفه متى بدا له جانب النقص فيه والكمال في غيره ، ولا شك في عدم هذا التصوير عند التعبير بالحقيقة : من حلف على فعل شيء أو تركه ثم رأى العكس أولى وأفضل فليكفر عن مخالفة يمينه لما حلف عليه وليأت الذي هو خير .

٦ - عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من الكبائر أن يشتم الرجل والديه . قالوا : وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم . يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه (١) » .

البر بالوالدين تال لعبادة الله في قوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾ لأن الولد نتيجة تقدير الله أن يكون الوالدان سبب وجوده ، فهما الرتبة الثانية في هذا الوجود . وعقوق الأبوين مباشر بالمخالفة الظاهرة أو بسوء الصحابة وهو بعيد قد يلتبس على بعض الناس بالتسبب في جر الأذى إليهما ، والرسول عليه السلام يجعل شتم الوالدين كبيرة لما سبق من وجوب حقهما ، ولما كان مغروساً في الفطرة السليمة أن عاقلاً لا يشتم أبويه ، استفهم السامعون استفهاماً إنكارياً يستعظمون به أن يحدث ذلك ، ولكن الرسول عليه السلام أكد لهم حصوله في صورة غير مقصودة لا تنقص كثيراً عن غيرها إثماً ، وهي المبينة في الحديث .

وأنت ترى هذا التفسير يدل صراحة أن الرجل لم يشتم أبويه ، وإنما سب من

شتمهما قصاصاً وعقوبة ، فكان شتمه غيرهما سبباً في شتمهما ، والمذكور في العبارة هو المسبب ، وقد عبر به عن السبب ، فهو من المجاز المرسل ، غير أن قرينة هذا المجاز وقد ظهرت عند المخاطبين - وهي الاستحالة العادية - قد تحفى عند فساد الزمن ، وانقلاب العادات وانتكاس القيم ، وفضل التعبير بالمجاز بين ، فلو أنه قيل : إن من الكبائر أن يتسبب الرجل في شتم أبويه بشتمه آباء الآخرين ، لم يكن شيئاً ، وإن يكن أصاب المعنى الأساسي للعبارة ، ذلك لأنه لو قيل لما استشار وجدان المخاطبين ، ولما هز عواطفهم فاستفهموا منكرين ، ومضى خبراً من الأخبار العابرة .

فالعبارة عبارة تصويرية يصحبها التخيل الذي هو مناط الاهتزازات النفسية والتأثر الوجداني ، أشبهت النعمة العالية المفاجئة في الأستثارة والايقاز ، وذلك لأن الجملة مكونة من جزئين ، السابق منها خولف به عن مكانه ، لأنه مسند مقدم من تأخير ، وقد أعقب حرف التأكيد : (إن من الكبائر) فضلاً على ما يصوره اللفظ من التحذير - تصوير اللافات والإنذارات وزمات الخطر ، أما الجزء الثاني فهو المسند إليه والمصدر المؤول من (أن) وما دخلت عليه ، هو محل المجاز : المجاز الذي يخيل إلى الرجل أنه شتم أباه وأمه وما شتمهما ، والذي يصور له شتم آباء الآخرين صورة شتم أبويه فيعدل عن خطيئته ، ويصدق عن كبريته .

ولكن لماذا عبر الرسول عليه السلام بالمصدر المؤول (أن والمضارع) ؟ أما كان في المصدر الصريح : (شتم الرجل والديه) غنى ؟

إن الجملة الإسمية تفيد الثبوت ، والفعل المضارع يفيد التجدد والحدوث ، وشتم الرجل أبويه أمر لا يراد بثبوته ، فضلاً عن كونه غير ثابت ولا متأصل في العادة بدليل استنكارهم حصوله ، فالمضارع لم يزل مع حرف المصدر محتفظاً بصيغته الدالة على الحدوث والتجدد ، وكأنه عليه السلام يقول : من الكبائر أن يحدث هذا وإن لم يكن موجوداً . وإذا علم أن المضارع يستحضر الصور غير

الحاضرة في الأذهان كأنها ماثلة وقت النطق به عُلِمَتْ قيمته التعبيرية هنا ، ولذلك فزع الأصحاب واستنكروا لتصورهم هذه الصورة القبيحة واقعة في الحال .

٧ - عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنها قال : تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها ، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ ، فجعلنا نمسح على أرجلنا ، فنأدى بأعلى صوته : « ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثاً »^(١) .

٨ - ولسلم : « تعجل قوم عند العصر فتوضؤا وهم عجال ، فاتتهننا إليهم وأعقابهم تلوح لم يمسه الماء ، فقال النبي ﷺ : « ويل للأعقاب من النار أسبغوا الوضوء » .

٩ - قال الترمذي : « وقد روي عن النبي ﷺ : « ويل للأعقاب وبطن الأقدام من النار » .

يحذر النبي عليه السلام أمته من التهاون بشأن الوضوء وعدم إسباغها واستكمال ما ينبغي وصول الماء إليه من أعضائه ، لأن الوضوء أصل تنبئ عليه الصلاة ، فلا صلاة لمن لا وضوء له ، فتهدد المقصرين بالويل ، وهو شدة العذاب ، ولكنه عليه السلام لم يجعل الويل صراحة للمقصرين بأنفسهم وإنما جعله لأجزاء منهم هي الأعقاب ، وذلك لأختصاص هذه الأجزاء بموجب الويل ، ولو كان العقاب للأعقاب وحدها لتصورنا محالاً ، لاتصالها بواسطة الحس وآلاته بمرکز الإدراك ، حتى لنرى أعمالنا التلقائية دليلاً واضحاً على وحدة الإحساس ، فتنتقل أيدينا سريعة إلى مس الأقدام أو أصابعها أو أقل منها كالأظافر عند اصطدامها بأي مثير .

والتعبير بهذا المجاز المرسل يصور تركيز العذاب على جزء معين ، ويخيله منصباً عليه وحده ، ليعظم ما يترتب عليه من تصور الأثر البالغ حده ، فتكون العناية عند الوضوء أشد ، واليقظة أعظم بالأعقاب وبطن القدمين ، وذلك لأنها مظنة

التسامح ، لأنها أدنى الإنسان إلى الأرض ، وأبعد الأعضاء عما يبدو للأعين ويواجه الوجوه ، والسبب نفسه هو الذي دعا إلى توجيه النظر إليهما بصفة أشد ، ليدرك المؤمن أن ما يراه الناس ليس أحق بالعناية مما دونه ، وأن ما لا يقع في مواجعتهم نظير غيره في وجوب الطهارة للعبادة إن لم يكن أكثر منه - لقربه من تراب الأرض وأقدائها ، أليس جزء من أجزاء المصلي أولى من ثوبه ومصلاه ؟ فإذا تأكدت طهارتهما بالطلب فكيف بالجزء من الإنسان ؟

إن الوضوء طهارة خاصة ، وقد اختصت بأجزاء معينة من الجسم ، فالجزء الذي لا يصيبه الماء لم ينل هذه الطهارة ، وبقدر ما يكون من النقص يتقدر الحكم ، حتى يصل إلى ما يستحق هذا الإنذار الشديد بالويل ، وإنما يدل على شدة الهول - مع أن شيئاً من الهول لا يكون سهلاً - تنكيهه في مقام التهديد والإخبار عنه بجنس ما هو منه ، وهو النار المعهودة التي جعلها الله عقاباً للمخالفين ، فإن الويل أمر يختلف بما ينسب إليه ، يحتاج إلى البيان المقرر جنسه ، ليتأكد المخاطب عقابه ، فيختار لنفسه الأمثل . على أن في الحديث السابع قوله : « أرهقتنا الصلاة » وإنما أرهقهم ضيق الوقت عن أدائها ، وهو تعبير عن الظرف بالمظروف ، والمحل بالحال .

١٠ - عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له . ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له »^(١) .

يقصد من كل دابة نوع معين من النفع ، ودابة الركوب والحمل يقصد منها ما أضيفت إليه ، ولما كان أحدهما مكانه الظهر فقد عبر به في الحديث مجازاً عن الكل تعييناً لنوع الفائدة المرادة من الجنس ، ليوازي ما عطف على هذه الجملة من فضل الزاد وغيره ، لأن الزاد متعين للأكل ، والدابة ليست متعينة للركوب أو الحمل ،

(١) تيسير الوصول ١٥٠ / ١ .

(١) تيسير الوصول : ٦٧ / ٣ بلفظ الشيخين أولها .

فتصويرها ظهراً أدل على شدة الحاجة إليه في السفر ، وأشد تناسباً لما بعده في النسق من جهة ما سبق ، ومن مماثلته للزاد في قرب اتساع مدلوله اتساع الأجناس .

ولفظ المعية أعم من حرف الملكية والاختصاص ، وأصدق وأولى في التآزر منه ، وأشمل في بذل المنفعة ، وأنفى للاستئثار والشعور بالتملك في مواطن الإيثار .

وقد يدل تنكير المضاف إليه على التقليل حتى لا يحقر إنسان فضل ما عنده ، فيكون تنكيهه أعود بالنفع على المؤمنين ، أما الأمر بالعودة به فيشعر بانصراف الطبع عما ينبغي ، وبوجوب النظر إلى ما يليق بالرجوع إلى ما هو الأفضل في تماسك الفرد بالجماعة ، وقد جعل الإسلام الضعيف أمير الركب ، حتى يحس العزة والكرامة فتقوى نفسه ، ويزيد إيمانه بعدالة الإسلام ورحمة المجتمع ، فيرتفع عن الحقد ، ويسمو عن الحسد ولا يعرف الشماتة ، هذه الأمراض الحالقة التي إن تكن جنافية الفرد - فليس الفرد أولى أن تنسب إليه من المجتمع الذي يعيش فيه .

١١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله تعالى حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » (١) .

ترك الطعام والشراب بعض ما يوجبه الصوم على الصائم ، ولكنه أظهرها ، لما يتألم به من لذع الجوع والظما ، وهو أيضاً من ألزم لوازم الصوم ، لذلك عبر به الرسول عليه الصلاة والسلام بدل أن يقول : فليس لله حاجة في صومه ، تعبيراً مجازياً بإطلاق الجزء وإرادة الكل ، والأجزاء كما تكون حقيقية تكون اعتبارية ، أو بإطلاق اللازم وإرادة الملزوم . وفضل التعبير المجازي على الحقيقي ظاهر ، لأن ترك بقية المفطرات أسهل شأنًا ، فإذا لم يكن ترك الأشد على النفس مقبولاً فما أهون ما دونه .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « فليس لله حاجة . . . » بين حكمة الصيام ،

وأنه شرع لتطهير المؤمن وإعلاء روحه ، ليتكامل المجتمع به وبأمثاله من الصائمين ، فمنفعته لا تعود على الغني الحميد ، وخصص هذا الجواب بهذا الشرط ، مع أنه تعالى في كلا الحالين ليس له حاجة في ترك الصائم ما يترك ، دلالة على غضبه ، ورد عمل الصائم عليه إذا لم يغلب هوى النفس وينزع طاعة الشيطان ، فيترك الكبائر كما ترك الطعام والشراب ، فالتعبير بذلك عن الغضب وعدم القبول تعبير بالكناية ، لصحة إرادة المعنى الحقيقي مع المعنى المراد ، وهو أقوى دلالة لأدائه المعنى بالإيجاز مع إقامة الدليل ، وكأنه ﷺ يقول :

فالله غاضب عليه وراد عمله ، لأنه ليس بحاجة إلى عمل كامل من العبد فضلاً عن كونه معيباً ناقصاً .

والتعبير بقول الزور على الاكتفاء بأحد المتماثلات في إثبات الناقص والمبطل ، وهو نقص الإرادة وضعف العزم الملازمين للمؤمن لزوماً هو مع الصوم أوجب ، وكأنه عليه الصلاة والسلام يقول : من لم يقو إيمانه ، فتشدد إرادته ويكمل عزمه ، فيترك قول الزور والعمل به وما مثله من الكبائر فليس لله حاجة . . .

ولكن بلاغته ﷺ تأتي إلا أن تكشف شيئاً وتوحي بالآخر ، ليتعادل النسق ما دام الغموض مأموناً -

ولما كان المرء - ما لم يكن نبياً - غير معصوم من الزلة ، وهو بصدد أن يعاود اقترافها كان التعبير بالمضارع في فعل العبد ، ليشير إلى تجدد الجواب كلما تجدد شرطه ، ويتوب الله على من تاب .

أما نسبة عدم الحاجة إلى الرب المغني ، فقد عبر عنها بالاسمية الدالة على الثبوت والدوام ، مع تقديم لفظ الجلالة والحرف ، لمباشرة النفي إسراعاً بالأهم ، وزيادة في التقديس ، ووصلا بين المنفي والنافي ، إذ المنفي هو متعلق شبه الجملة الواقع خبر (حاجة) ولا يقال : إنما تقدم ليسوغ الابتداء ، لأن المسوغ هو النفي .

١٢ - عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا والمسجد الأقصى »^(١) .

يريد عليه الصلاة والسلام أن يبين فضل هذه المساجد الثلاثة على جميع البقاع في الأرض ، فلا يذكر لفظ التفضيل الدال ظاهراً على ذلك ، وإنما يعبر عن المعنى تعبيراً مظللاً موحياً ، فينفي شد الرحال إلى أماكن أخرى مع كونه حاصلًا ، ويدل نفي الحاصل مع العلم بأنه حاصل على عدم الاعتداد بحصوله وتنزيله منزلة العدم ، وقد ورد مثل هذا في حديث رواه رفاعة بن رافع رضي الله عنه في رجل صلى فأخف صلواته ، ثم انصرف فسلم على النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « وعليك . فارجع فصل فإنك لم تصل » وقد تكرر ذلك مرتين أو ثلاثاً^(٢) .

وقد عقب هذا بأداة الاستثناء المخرجة ما بعدها من الحكم على عموم الجنس المقدر ، فأوجبت له عكسه ، وهو ثبوت شد الرحال إليه على الوجه الذي سبق النفي عليه ، وفاء بحق المقابلة ، ويكون التقدير على فرض عدم الوجود وجودًا ، فشد الرحال مختص بهذه المساجد ، إذا حصل فقد حصل ، وإذا لم يحصل فهو في حكم ما حصل ، وكفى بذلك تفضيلاً لها وبياناً لمكانها .

أما وجه إيراد الحديث في هذا المقام ، فلأن التعبير بشد الرحال مسبب عن الإهتمام ، وصدق العزم على الإرتحال إلى المكان البعيد ، تعبيراً بالمسبب عن السبب ، وهذه علاقة من علاقات المجاز المرسل ، ونفي المسبب نفي للسبب باللزوم ، ما دام مسبباً به .

١٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل » ، قال البخاري يعني الأسير يوثق ثم يسلم^(٣) .

يوجه النبي ﷺ أنظار المؤمنين إلى الصورة العجيبة التي تمر بهم وقد لا تلفتهم ، وهي تدل على أن الله يختص برحمته من يشاء من عباده ، فيجعل له من الأئمة الظاهر شره الخبير الظاهر أمره .

أما عجب الحق جل وعلا فقد تركت لنفسي أن تدرك معناه على ما يشاء الله ، دون تعرض للحديث عنه وعن أمثاله الكثيرة ، مما أوجد تفسيرها الشقة بين المسلمين ، ادعاء من كل جماعة أن مذهبها هو الإيمان المحض ، وأن فهم سواها هو الكفر الصريح ، وأما ما أخذت الحديث مثالا له فهو لفظ « الجنة » التي هي مآل المقودين بالسلاسل ، بعد وصولهم إلى مكان النبوة أو الخلافة أو الحكم ، وإعلانهم الإسلام فيه ، ثم بقائهم ما شاء الله لهم البقاء ، فهم إنما يقادون بالسلاسل للإذلال والرق أو الفداء ، فيؤول أمرهم إلى الإسلام فيسلمون فيؤول أمرهم به إلى الجنة ، إذ لا مباشرة بين قيادتهم بالسلاسل ودخول الجنة ، وإلا أشبهوا الكفار في المظهر حيث يقول الله فيهم : ﴿ ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ﴾ أما فضل المجاز على الحقيقة فيما لو قيل : عجب ربنا من قوم يقادون إلى الرق والإذلال فيهدتدون إلى الإسلام فيسلمون فيدخلون الجنة ، فأمره واضح من جهة الإيجاز البالغ أولاً ، وتقوية سبب العجب ثانياً واجتذاب السامع إلى الصورة العجيبة يستبطنها المراد ثالثاً ، لينقدح في ذهنه - بما لا يدخل عليه الريب فيه - مدى الحكمة التي يجب أن يصحبها في الرضا بالقضاء ، والتسليم بالقدر ، وإسقاط الاعتداد بالتدبير مع الأخذ في التدبير سلامة من نسبة التقصير ، وإيماناً برحمة الخبير البصير .

وهذه أمثلة نوجز نوع المجاز فيها بحسب العلاقة :

١٤ - عن أبي قتادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قتل قتيلًا له عليه بينة فله سلبه^(١) » .

القتيل لا يقتل ، فالعبارة مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يؤول إليه أمره .

(١) تيسير الوصول ٢٢٩ / ١ .

(١) تيسير الوصول ٢٧٧ / ٣ .

(٢) تيسير الوصول : ٢٢٩ / ٢ .

(٣) تيسير الوصول : ٢٢٩ / ١ .

١٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمنى ، وإذا خلع فليبدأ بالشمال (١) » .

البدء باليمنى لا يكون بعد الانتعال ، وإنما يكون قبله بعد الإرادة ، فالتعبير بفعل مسبب والمراد سببه ، والخلع لا يكون قبل البدء بالشمال ، وإنما البدء بالشمال يعقب الإرادة ويصحب الخلع ، فذكر لفظ المسبب والمراد السبب .

١٦ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « البسوا من ثيابكم البياض ، فإنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم » (٢) .

البياض عرض قائم بالنسيج ، لا يستقل بأن يلبس ، فهو حال والنسيج محله ، فالمقصود الموصوف بالبياض ، لأنه هو الذي يلبس ، فالعبارة من إطلاق الحال وإرادة المحل .

١٧ - عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا أركب الأرجوان ولا ألبس المعصفر (٣) » فالأرجوان صبغ أحمر شديد الحمرة وهو لا يركب ، وإنما يركب ما هو حال فيه من الدواب .

١٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الولد للفراش وللعاهر الحجر (٤) » .

الفراش محل الوطاء المشروع الذي ينسب الولد إليه ، فهو من إطلاق المحل وإرادة الحال ، والحجر آلة حد العاهر بالرجم ، فهو من إطلاق أسم الآلة وإرادة ما هي له .

١٩ - وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : المستبان ما قالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم (١) » .

بعد الأعتداء وتجاوز الحد لا يسمى الشخص مظلوما ، وإنما أطلق عليه باعتبار ما كان قبل أن يقتص ثم يزيد فيعتدي .

٢٠ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا الأموات ، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا (٢) » .

ما قدموه هو أعمالهم وأقوالهم التي يترتب عليها جزاؤهم ، والجزاء هو الأمر الذي أفضوا إليه ، فهو من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم ، أو السبب وإرادة المسبب .

٢١ - عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه (٣) » .

إنما يكون الشهيد شهيدا بمفارقة الحياة ، وبعده عن المشي على وجه الأرض بسبب من أسباب الشهادة ، وهذه نبوءة من نبوءات النبي ﷺ إخبارا بغيب أطلعه الله عليه ، فإطلاق لفظ (شهيد) على طلحة رضوان الله عليه وهو حي مجاز علاقته باعتبار ما يكون .

٢٢ - سمع رسول الله ﷺ رجلا يقول : « اللهم إني أسألك الصبر ، فقال : سألت الله تعالى البلاء فسله العافية » .

وهذا نقد كريم لأدب العبارة ، وتوجيه حكيم لفهم مضمونها ، يوجه فيه النبي صاحبها إلى إدراك المعنى المجازي للفظ قبل أن يتكلم به ، فرب كلمة أورثت

(١) تيسير الوصول : ١٥٨ / ٤ .

(٢) تيسير الوصول : ١٥٢ / ٤ .

(٣) تيسير الوصول : ٢٣٨ / ٣ .

(١) تيسير الوصول : ١٣٩ / ٤ .

(٢) تيسير الوصول : ١٤٢ / ٤ .

(٣) تيسير الوصول : ١٤٣ / ٤ .

(٤) تيسير الوصول : ١٥١ / ٤ .

عطا ، فالسائل يسأل الله الصبر ، والصبر لا يكون إلا على بلاء ، فكأنه يسأله تعالى البلاء والصبر الذي يعينه عليه ، فعلمه أن يسأل الله العافية التي هي خير .

٢٣ - عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من عاد مريضاً لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع ^(١) » .

قال في القاموس : الخرفة بالضم المخترف والمجتني ^(٢) ، فخرفة الجنة مكان الجنى ، وعائد المريض عادة في داره ، أو مكان نزوله من الدنيا ، ولكن وجوده في هذا المكان محتسباً سبب في وجوده في خرفة الجنة مجازاً ، فأطلق المسبب إشارة إلى المجازة عن السبب .

٢٤ - عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه . قالوا : وكيف يذل نفسه ؟ قال يتعرض من البلاء لما لا يطيق ^(٣) » .

وظاهر من هذا التفسير أنه ذكر المسبب أو اللازم - وهو ذل المؤمن نفسه - وأراد السبب أو الملزوم ، وهو تعرض المؤمن لما لا يطيق من البلاء .

٢٥ - من دعائه ﷺ : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ^(٤) » وهو من إطلاق الغضب وهو سبب ، وإرادة العذاب وهو مسبب ، كما يمكن النظر إليه من جهة العكس إذ الغضب مسبب عن المخالفة بفعل المعاصي ، فهو من إطلاق المسبب وإرادة السبب ، براءة إلى الله من المعصية ، ودعاء بالنجاة منها .

٢٦ - عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تركب البحر إلا حاجاً أو معتمراً أو غازياً في سبيل الله تعالى فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً ^(٥) » .

والركوب أنما هو للسفينة الحالة في البحر أو المجاورة له ، فهو من إطلاق لفظ المحل أو الجار ، وإرادة الحال أو ما جاوره ، والمجاز في مقام التخويف أولى من الحقيقة . قال الخطابي في قوله : إن تحت البحر ناراً . الخ : هذا تفخيم لأمر البحر وتهويل لشأنه ، فإن الآفة تسرع إلى راكمه ، ولا يؤمن هلاكه في غالب الأمر ، كما لا يؤمن الهلاك من النار لمن لامسها و دنا منها ، وهذا في معرض التخيل والتمثيل ^(١) .

هذا والمتأمل في النصوص الكريمة تسعفه عشرات الأمثلة من هذا اللون البياني الذي يكسب الكلام تقريراً بالحجة ، وروعة بالتخييل ، وجمالا بالإيجاء ، وقوة بالإيجاز .

الكناية

الكناية من أروع المسالك البيانية ، والطرق الأسلوبية التي يعبر بها المنشئ عن المعنى ، تعبيراً مُظلاً هادفاً موجزاً ، يخفي تحت ظلاله لطائف مراده ، وقد عرفوها بقولهم : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه ^(٢) .

وفي مصطلح النظار من علماء البيان قال الشيخ الإمام : أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيومىء به إليه ، ويجعله دليلاً عليه ^(٣) ، وقال الخطيب في بيان سر أبلغيتها : أطبق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح ، لأن الانتقال فيهما من الملزوم إلى اللازم ، فهو كدعوى الشيء بيينة ^(٤) .

(١) متن التلخيص بشرح مقدمة البرقوقي : ٣٣٣ .

(٢) متن التلخيص بشرح مقدمة البرقوقي : ٣٣٣ .

(٣) مقدمة البرقوقي على متن التلخيص ٣٣٣ .

(٤) متن التلخيص مع المقدمة ٣٤٢ .

(١) تيسير الوصول ٣١ / ٣ .

(٢) القاموس المحيط ١٣٢ / ٣ .

(٣) تيسير الوصول ٢٦٩ / ٤ .

(٤) ، (٥) تيسير الوصول ١٥٣ / ٢ .

والرسول ﷺ يضرب المثل الكريم السخي في استعمال هذا المسلك الأسلوبي ، للدلالة على المعاني دلالةً أطفً وأكَدَ وأوجَزَ من دلالة الحقيقة المحضة ، وليس من شأننا هنا تشقيق المسائل وتفريعها ، ولهذا نكتفي بالأمثلة من بيانه عليه السلام ، من التنبيه إلى مكان الكناية وحسن التعبير بها ، وفضله على العبارة المجردة .

١ - عن معاوية رضي الله عنه قال : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة^(١) .

أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يثبت شرف المؤذن وكرامته وعظيم أجره عند الله يوم الدين ، غير أنه ترك التعبير باللفظ الدال بالوضع على الشرف والكرامة وعظم الأجر ، وعبر عن مراده بطول أعناق المؤذنين .

وطول العنق يظهر في رفع الرأس إلى أعلى ، شعوراً بكرامة المنزل وفرحاً بحسن الثواب ، وقد شاع هذا التعبير في الدلالة على الشرف والكرامة فيقال لمن أنال أهله شرفاً : أطلت أعناقنا ورفعت رؤوسنا ، ويقال في العكس للمسيء : قصرت رقبتنا .

وفضل هذا التعبير أنه أوجز مما يفسر به لوقيل : المؤذنون أكرم الناس وأشرفهم ، بدليل طول أعناقهم لرفعة رؤسهم يوم القيامة ، كما أنه ذكر للدليل على صحة الحكم المفهوم من وراء العبارة ، فيشبه الجمع بين المعنى ودليل صحته ، وفهم المدلول الكنائي إنما يأتي بحركة تخيلية تكسب العبارة قيمة فنية رائعة لأن الكلام في مقام المدح بحسن المجازاة ، وطول العنق في ذاته - وبخاصة على سبيل المبالغة بصيغة التفضيل - قد لا يكون جميلاً ، وإذ يقترن المقام باللفظ المظل يحرك الذهن إلى ما هو الأنسب من المعاني الملزومة ، فتساعده الصورة التي يستحضرها

الخيال من تجارب الحياة المماثلة ، فيصل إلى المراد بعد هذه الحركة النفسية ، فيكون ذلك سراً من أسرار التقرير والتوكيد .

وإنما خص هذا بيوم القيامة لأنه يوم الحق ، الذي لا يلتبس فيه الحكم بالعمى والجهالة ، وتعظيمه في هذا اليوم الشديد إنما يترتب على عظمته يوم تعظيمه الرب الجليل بقوله : « الله أكبر . الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله » لأنه يوم الجزاء على ما سبق من عمل ، وهذا من أحسن التعريض بمن لا يعينهم أمر الأذان ، ولا يسارعون إلى ترديده وإجابة داعيه . وأنهم من الجهل بمكان ألا يعرفوا ما يجب أن يعرف من حق الصلاة ذاتها ، إذا كان هذا كله حق المؤذن بها .

٢ - عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم قالوا : قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر الزمان رجال يَحْتَلُونَ الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوبُ الذئاب . يقول الله تعالى : أبي تغترون أم على تجتروُن . . ؟ فَبِي حَلَفْتُ لأبعثنَّ على أولئك فتنةً تذرُ الحليمَ فيهم حيران^(١) » .

أولئك هم المرءون ، الذين يُبطنون مالا يُظهرون ، فيكون في ظاهرهم الرحمة ، وفي باطنهم العذاب ، يسمع منهم الناسُ كلاماً معسولاً يخدعهم يجعلونه كحباله الصياد تفرش بالحب إغراء للصيد ، ولفظ الختل يدل على خداعهم ، وهو واقع على الدنيا والدين في مكان أدواته ، قال في القاموس : خَتَلَهُ يَحْتَلُهُ وَيَحْتَلُهُ خِتْلًا وَخِتْلَانًا خَدَعَهُ ، وَالذَّبُّ الصَيْدُ تَحْفَى لَهُ فَهُوَ خَاتِلٌ^(٢) ومعنى ذلك أنهم جعلوا الدنيا بأهلها صيداً ، وجعلوا الدين أداةً يخدعون بها الصيد ، فهذه العبارة كناية عن فقد قلوبهم ما أجادوا التظاهر به ، والمعنى الظاهر دليل المعنى الثاني ، لأنه لازمه ، والجملة الوصفية الثانية تؤكد هذا المعنى مرةً أخرى وبصورة أخرى هي أقرب في التقرير لارتباطها بالحسن .

(١) تيسير الوصول ١١١ / ٢ .

(٢) القاموس المحيط ٣٦٦ / ٣ .

(١) تيسير الوصول ١٩٦ / ١ .

(٢) تيسير الوصول ١١١ / ٢ .

أرأيت إلى قطع الشاء يسرح آمنا وديعا خلف الراعي . . ؟

أرأيت إلى كثافة الصوف على جلده يخبُّ فيه من اللين . . ؟

لقد فتكوا بالضأن ليلبسوا جلودها ، فيخدعوا الناس بلبنها . . .

هل يلبسون جلودَ الضأن تقشفاً وورعا . ، وهَضَمَ نَفْسَ ووداعة ؟ لا . . إنَّما يلبسونها (للناس) لا لأنفسهم .

هل يلزم من تصوُّرك تلك الصورة إلا النفاقَ والرياءَ والخديعة ، وأنهم ذئاب في صورة الخراف ؟ .

هذا هو المعنى الذي تكرر في الجملة الثالثة بصورة أوضح في ذئبية القلوب تستر بجلد الضأن لتخدع وتفتك !

يستجهلهم الأستفهام ، وينادي على بلادتهم وحقهم حين انخدعوا من الشيطان بهذه الألعاب ، فاتخذهم جلدَ الضأن لذاته ، يخدع به الأنام ويفتك ، إنهم أداة الشيطان خادعين ومخدوعين !

ويؤكد الله القسم على أن يجازيهم جزاء لا يُدرى كنهه ، ويعذبهم عذابا لا يحاط بتصوره ، عبَّر عنه بالكناية التي يسبح خلفها العقلُ والخيال معا ، حيث لا وصول إلى تحديد : « فتنة تذرُ الحليم فيهم حيران » الفتنة نكرة في مقام التهويل والترهيب ، وما أعظمها فتنة ، ثم هي موصوفة بالجملة الفعلية وضميرها قد أسند إليه الفعل المتعدِّي إنذارا بالخطورة . . ثم على من وقع الأثر؟ إنه وقع على الحليم ، العاقل ، الحكيم ، المتأمل ، وما أثرها عليه ؟ . إنه الحيرة التي لزمته ، للفتنة التي لزمتهم ، أليس الوصف بزيادة الألف والنون عدولا عن (حائر) يدل على اللزوم ؟ . أليس اتصاف الحليم بذلك دليل فظاعة الفتنة ؟ .

هكذا تُرسم الصورة جزءاً جزءاً ، وهكذا تلتجم وتتماثل ، وهكذا تكون الكنايات من أروع ما يتخذ أفصح العرب من وسائل البيان .

٣ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خياركم اليُنكم مناكب في الصلاة^(١) » .

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وكالجسد الواحد تتضام أجزاؤه وتتلاصق ، والصلاة فضلا عن المعنى التعبدي فيها - لها معان اجتماعية كثيرة ، منها تعويدُ المؤمنين على الطاعة للإمام وحُسنِ اتباعه ، وعلى الأتساق في الصف ، والحُرص على تماسكه واستوائه ، لأن النظام المحكم دليل الفكر الحكيم ، وهو يوفر الوقت ، ويُسرِّع بالنفع ، ويقرب من الغاية ، فإذا اجتمع مع الطاعة للقائد ضَمِنَ النجاح ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام حريصا على هذا الجانب الذي أظهر ما يكون فيه من الفرائض الصلاة ، قال أبو مسعود البدرِيُّ رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة يقول : استووا ، ولا تختلفوا ، فتختلف قلوبكم^(٢) » وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لتسُونَّ صفوفكم أو ليخالفنَّ الله بين قلوبكم . أو قال وجوهكم^(٣) » بل جعل تسوية الصف من تمام الصلاة^(٤) والخلل والفرج من عمل الشيطان . عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذروا فُرَجَاتِ الشيطان ، ومَنْ وصلَ صفا وصله الله ، ومن قطعه قطعه الله^(٥) » .

والتعبير باللين أولين المناكب ، كناية لطيفة عن سهولة الانقياد ، وسرعة الحركة حينما تمس يد المؤمن كتف أخيه ، تؤخره ، أو تقدمه ، أو تدعوه لسد فرجة بينها ، ليكونوا في الصف كالبنيان المرصوص ، وليرتسم هذا النظام في قلوبهم ، فيمكن من تشكيلهم في القتال بلا كلفة أو عناء ، فالمعنى الكنايي الذي يستتر وراء

(١) تيسير الوصول : ٢ / ٢٥٥ .

(٢) ، (٣) ، (٤) تيسير الوصول ٢ / ٢٥٤ .

(٥) تيسير الوصول ٢ / ٢٥٤ .

التعبير - وهو سهولة الانقياد للنظام - معنى عقلي يحوّج إلى الدليل الحسي ، ليزيد تفرراً في النفس ، والمعنى الوضعي للتعبير هو هذا الدليل .

٤ - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليسأل أحدكم ربّه حاجته كلّها حتى يسأله شئع نعله إذا انقطع (١) » .

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « الدعاء هو العبادة ثم قرأ : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ الآية (٢) » .

توجه الإنسان بالدعاء الى الله دليل الشعور بكمال الألوهية ، ونقص العبودية وعجزها ، فهو من إظهار فقر العبد وضعفه ، وحاجته إلى من يملك كشف الضر وإجزال العطاء . ﴿ أمنٌ يجيبُ المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون ﴾ (٣) .

وإذا كانت حاجة من عاش لا تنقضي ، كلما حصل رجاء انفتح له باب رجاء ، وكلما حقق أملاً ابتعد عنه أمل ، وكلما برىء من شاغلة أصابته شاغلة - كان دائم الاتصال بكاشف الضر محقق الرجاء ، ودعاه أدبُ الاتصال إلى الطهارة النفسية ليحظى بالقبول من سيده ، الذي لا يجب إلا التوايين والمتطهرين ، ولا يتقبل الدعاء إلا من المتقين .

ولما كانت منزلة الدعاء هكذا في تدعيم الصلة بين العبد والرب سبحانه - أراد النبي ﷺ أن يؤكدها كل التأكيد ، ويعمّقها في قلب المؤمن لتتصل بكل خلجاته ، فعبر في حديثه الشريف بلفظ العموم : (حاجته كلها) ورغم تأكيد الحاجة بهذا اللفظ المحيط عقبه بالكناية المقررة لإرادة العموم ودفع التجوز في أي احتمال .

هذه الكناية هي « حتى يسأله شئع نعله إذا انقطع » .

وشئع النعل وقبأها حاجزٌ صغيرٌ منها كالعروة ، يكون بين الأصبع الوسطى والتي تليها (١) لتحرزها من مفارقة القدم عند المشي .

ولفظ (حتى) يدل على الغاية زيادة ونقصاً بحسب ما يفيد السياق ، وشئع النعل هذا هو أهون ما يسأل العبد ربه ، وليس مقصوداً لذاته وإن جاز قصده ، وإنما يراد منه الدلالة على أتفه الأشياء من حاجة الإنسان ، تلك التي قد يأخذها الحياء في سؤالها ، أو الثقة في القدرة على تحصيلها ، لأن الأمر فوق ذلك وهو ما أسلفنا من أن الدعاء في الحاجة أعلاها وأتفها لا يقطع العبد عن سيده اتكالا على نفسه ، زيادة على ما فيه من لذة المناجاة واستحضار غنى الرب وكماله ، الذي يشير إليه قوله عليه السلام: « اعبد الله كأنك تراه » .

ولا يدل بحال هذا الحديث على سلبية يتصف بها السائل ، يحتج بها على الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، أو يعاب بها الإسلام ، فإنه لم يتعرض لما يصحب السؤال من العمل والأخذ بالأسباب ، إذ أن هذا معلوم بالضرورة من نصوص الشريعة الداعية إلى وسائل العمران ، وليس هناك في الساء شسوع للنعال ، ولا غيرها من المطالب ، ولكن الذي هو مناط الدعاء تيسير الأعمال ، والتوفيق لوصول المسببات بأسباب موجبة ، فكثيراً ما ترى الأسباب قليلاً ما ترى النتائج ، لأنها كفجوات الخط المتعرج الواحد ، كلما دخل في فجوة منها انتهت إلى عودة فاشلة ، لا تنتج رجاء ، ولا تحقق غاية .

٥ - عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة (٢) » .

يضمن الجنة ضامنٌ واثق ، وأمينٌ وقيٌّ صادقٌ ، لا يمكن الشك في قوله ولا التجوز في وعده .

(١) القاموس المحيط مادة (شئع) ٤٤ / ٣ ومادة (قبل) ٣٤ / ٤

(٢) تيسير الوصول : ٢٧١ / ٤ .

(١) (٢) تيسير الوصول ٥٢ / ٢ وما بعدها .

(٣) النمل : ٦٢ .

الجنة . . ما أعظم الجنة . يضمناها ضامنٌ ما أصدق الضامن . لمن يضمناها ؟
وبم يضمناها ؟ . ما أعظم ما تُضمَّن به الجنة ؟ .

عبارة قصيرة فيها أمران هما شرط الضمان .
لا . . بل هما كنيتان . يتضمنان الإيمان ، فيُسلمان إلى الأمان : ضمانٌ ما
بين اللّحيين ، وضمان ما بين الرجلين .

اللحيان جانبا الوجه اللذان هما منبت الشعير من الرجل ، وما ماثلهما من
الأنتى ، فأى شيء بينهما ؟ .

بينها منجاة المرء أو هلاكه : بينهما الفم ، ثلاثة أصابع أو أقل . . . ولكنه
أوسع من الدنيا وأعمق ! .

كم طوى من طعام ، من حلال وحرام ، وكم نشر من كلام ، من حلال
وحرام ! . . .

أليس من فضيلته الذكر بأنواعه ؟ شهادة الإيمان ، وتكبير الرحمن والتسبيح
باسمه ، وتلاوة كتابه ، ونُصْحُ المؤمنين ، ووعظُ الغافلين ، وإصلاح
المتخاصمين ، والصلاة والسلام على النبي الأمين ؟ . . .

أليس مَوْضِعَ الحلال من المطعم والمشرب البانيين لقوة المؤمن على الطاعة
والعمل المشروع ؟ .

ثم أليس مناطُ هذه الكبائر الموبقة : الكذب والنميمة ، وشهادة الزور وكلمة
الكفر ، والتفاخر بالأحساب ، والتناوب بالألقاب ؟ . . .

أليس طريقُ الخمر أمّ الخبائث ، والسُّحْتِ الوسيط إلى النار ، ولذة المضغ
الموقعة في التخمة ، والحاملة على السرقة ؟ .

كل ذلك - والأمثال كثيرة له - كني عنه بالموصول الأول : (ما بين لحييه) ،
حصائد الأطعمة ، وحصائد الألسنة ، يسلم منها المرء ، ضمان أول من ضمان
الجنة .

وضمان الفم : أن يلم بمحرماته تلك ، وهي عظيمات المحرمات هُضمٌ
للنفس ودَحْرٌ للشيطان ، ورمز على سلامة القلب وصحة الروح أن تلم بغيرها من
الكبائر ، ولكن شيئا آخر من المضلات ، ومزلقا ظاهراً من المزالق يستوجب
استقلاله بالضمان ، لأنه حباله الشيطان ينصبها لرجلي الإنسان . . .

كني عنها الرسول عليه السلام بالموصول الثاني (ما بين رجليه) .

أدب النبوة الكريم ينأى بحيائه المعلم عن كشف العورة باللفظ ، تأكيداً
لسترها الواجب .

وضمان هذا المكان أن يلم به فُحْشٌ ، أو يسقط به في الخنا فجور ، عزيزة من
الله ، يصطفى لها الطاهر العف ، وقدرة على النفس ، يسلم بها الدين والشرف ،
وإباء عن الضعة لا يظفر به إلا مُعَانٌ !

جموح شهوته فاجع ، وطاعة ندائه بوار ، والسلام منه المفلحون ، الذين هم
لفروجهم حافظون .

هاتان الكنيتان إذن ما أوجزهما من لفظ ، وما أوسعهما من مدلول ليس له
جزء دون أن يضمّن الصادق لفاعلهما الجنة ، وهكذا يجمع البيان النبوي بكناية
خفيفة من اللفظ ما يملأ الميزان ، ويُدخِلُ المؤمنَ دار الأمان .

انظر معي إلى هذه الكنایات :

١ - عن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم حي
كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً^(١) » . أي أن يرده خائباً
محروماً ، بدليل فراغ اليدين ، وفيه التعبير بالمصدر مكان الوصف مبالغة ، والأصل
صفرتين لأنه من صفر كفرح^(٢) . وامتلاء اليدين حسي وهو في المجسمات ،
ومعنوي وهو في المعقولات كاستجابة الدعاء .

(١) تيسير الوصول ٥٦ / ١ .
(٢) القاموس المحيط ٧٠ / ٢ .

٢ - عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وقد التقم صاحبُ القرنِ القرنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ واضعاً سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ » (١) .

صاحبُ القرنِ كنايةٌ عن موصوفٍ ، هو إسرائيليٌّ عليه السلام ، الملكُ المكلفُ بالنفخ ، والتقامُ القرن ، وما وراءه كنايةٌ عن صفة التأهب والاهتمام لقُرب الموعد ، وهي صورة تخيلية تصوّر الأمر الشديد الذي نحن في عمى عنه ، على هذا الوجه الذي تنخلع له النفس فرّقا ، ولذلك صدّره عليه الصلاة والسلام بالاستفهام الدالّ على النفي ، وبُعِد حصول المستفهم عنه ياسا من كونه - ارسم بهذه الألفاظ صورةَ الملك في قلبك ، وصورة النبي المعصوم ناظراً إليه ، واجف القلب حرساً عليك ورحمةً بك ، ثم انظر ماذا ترى ! .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل » .

تعبير بالكناية عما يوجب الغسل من اتصال الجنسين ، ما أسماه عفاقةً لفظٍ ، وما أكرمه أدب لسانٍ ! .

٤ - عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أرسل إلى رجل من الأنصار ، فجاء ورأسه يقطر ، فقال رسول الله ﷺ : « لعلنا أعجلناك ؟ » فقال : نعم يا رسول الله . قال : فإذا أعجلت أو قحطت فلا غسل عليك وعليك الوضوء (لفظ الشيخين وزاد مسلم) إنما الماء من الماء » (٢) .

(لعل) تستعمل للإشفاق أو التحقيق ، وهما محتملان في سؤال الرسول الذي يرمز به إلى ما يكون الاغتسال منه . والرسول إنما سأله ليقرر أمراً يتخذ من تطوره تشريعاً للمسلمين ، وإلا لما أخرج به بالسؤال . والإعجال والإقحاط كنايةتان عن عدم نزول الماء الموجب للغسل ، وقد كنى بالماء الأول عن الاغتسال الواجب ،

وبالثاني عن النبي الموجب ، وشتان ما بين التصريح والتلميح . هذا ، وللفقهاء كلام حول هذا الحكم يرجع إليه في مصادرهم .

٥ - ومن دعائه ﷺ إذا وُضِعَ رجله في العُزْر يريد السفر : « باسم الله ، اللهم أنت صاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم أرو لنا الأرض ، وهون علينا السفر . » (١) .

وزيُّ الأرض أو زويُّها كنايةٌ عن القرب المعنوي لالتقاء مكان البدء بمكان النهاية للمسافر ، وهذا إنما يكون بتيسير الأسباب المسرعة بالوصول ، من لين الطريق ، وانقياد المركب ، وزوال العقبات ، واعتدال الجو ، وغير ذلك مما تلمح إليه هذه الكناية اللطيفة .

٦ - عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مشت أمتي المطيِّطاء ، وخدمتها أبناء الملوك فارس والروم ، سلط شرارها على خيارها » (٢) .

والحديث كناية عن فساد الزمان وانتكاس القيم ، وارتكاب ما حرّم الإسلام من الكبرياء التي هي رداء الله ، يعذب الله من نازعه إياه ، والمطيِّطاء كناية عن التكبر والعجب ، لأنها لازمة : مشية فيها تبختر ، ومد لليدين ومط للصدر والعنق صلفاً ، وتسليط الشرار على غيرهم ، كناية عن غلبة الشر على الخير في هذا الزمان ، أعاذنا الله منه .

٧ - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت الآخرة هممه جعل الله غناه في قلبه ، وجمّع عليه شمله . وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا هممه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ، ولم يأتها من الدنيا إلا ما قُدّر له ، فلا يسمي إلا فقيراً ، ولا يصبح إلا فقيراً ، وما أقبل عبد على الله

(١) تيسير الوصول ٧٣ / ٢ .

(٢) تيسير الوصول ١٩ / ٤ .

(١) تيسير الوصول ٩٢ / ٤ .

(٢) تيسير الوصول ٨٩ / ٢ .

بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع^(١) .

(من كانت الآخرة همهم) كناية عن التمسك بدين الله ، واجتناب ما حرم ، والتزام ما أمر .

(جعل الله غناه في قلبه) كناية عن القناعة بالمقسوم من الرزق .

(جمع عليه شمله) كناية عن قرار النفس وعدم تفرقها شعاعاً على أسنة المطامع .

قال عليه السلام لرجل من وفد مُجِيبَ : « إني لأرجو أن تموت جميعاً » فسأله متعجباً عن الرجل يموت غير جميع ، فقال له : « تشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا ، فلعل أجله يدركه في بعض ذلك فلا يبالي الله في أيها هلك » .

(وأتته الدنيا وهي راغمة) إيماء إلى التقدير قبل الخلق ، وجفاف القلم بما هو كائن .

(من كانت الدنيا همهم) كناية عن شدة الحرص على الفاني ولا يجتمع مع الحرص على الباقي الخالد ، ففيه الاستهانة بالدين ، وترك سبيل المؤمنين .

(جعل الله فقره بين عينيه) كناية عن تصويره الشديد له ليظل فزعاً منه معاقباً بتصوره له ، جاهداً في دفعه عنه .

(فرق عليه شمله) كناية عن تشعب قلبه بالمطامع ، وإبعاد مشقته بمطارح الأمانى (لم يأت من الدنيا إلا ما قدر له) تصريح بما سبق إليه التلميح مؤكداً له وإقبال العبد على الله بالقلب كناية عن إخلاص العبادة ، والتخلص من العوائق بتمام الانقياد للأمر والنهي ، الذي يتم بسببه الجزاء المماثل ، من تطويع القلوب المؤمنة ، وانقيادها لصاحبه بكل ود ورحمة ومن نجدة الله العاجلة في كل أمر بكل خير .

٨ - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد أُخِفتُ في الله ما لم يخف أحد ، وأوذيتُ في الله ما لم يُؤذَ أحد . ولقد أتى عليّ ثلاثون ما بين يوم وليلة ، ومالي ولا لبلال من الطعام إلا شيء يواريه إبط بلال »^(١) .

(شيء يواريه إبط بلال) كناية عن القلة القليلة بالنسبة إلى ما يحتاجان إليه في الزمن الطويل .

٩ - وقال عليه الصلاة والسلام : « بُعثتُ في نَسَمِ الساعة . إن كادت لتسبقني » كناية عن شدة القرب لأنه عليه السلام كنى عن ابتداء الساعة بالنسم ، والنسم والنسيم لا ابتداء الريح ، وهي ضعيفة قبل شدتها . وقد روى هذا الخبر على وجه آخر ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « بعثت في نفس الساعة » جعل للساعة نفساً كنفس الإنسان ، وقال : بعثت في وقت أحس فيه بنفسها وقربها ، كما يحس الإنسان إذا قرب من شخصه ، وسمع مجرى نفسه^(٢) وهذا تلخيص لقول الرضي في المجازات النبوية يلتقي مع قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ .

١٠ - وقال وقد خرج ذات يوم محتضناً أحدَ ابنيه : الحسن أو الحسين عليهما السلام : « إنكم لتبخلون وتجننون وتجهلون ، وإنكم لمن ربحان الجنة »^(٣) وذلك كناية عن شدة الحب والإيثار للأولاد ، حتى يقدم الرجل حاجتهم إلى المال فيبخل ، وإلى حياته ورعايته فيجبن ، ولا يتحمل أن يرى دموعهم الشاكية ، فيندفع بالعاطفة إلى نصرهم فيجهل ، إذ كثيراً ما يكونون هم المعتدين ، ولا يظن القارئ أن هذه صفاتٌ يخبر بها الرسول عليه الصلاة والسلام على الإطلاق حتى يندرج تحتها حُبّه ، فليس حذفُ المفعول للتعميم ، فكم قرأنا قصص الإيثار والشجاعة والحلم مع الأبوة في تاريخ الإسلام ، وإنما حذفه لتنزيل الفعل منزلة

(١) تيسير الوصول ١٢٠ / ٢ .

(٢) تيسير الوصول ٤٨ / ١ و ٥٦ المجازات النبوية .

(٣) المجازات النبوية ٣٦ .

اللازم لعدم القصد إلى المفعول بمعنى : إنكم لتوجدون البخل والجبن والجهل في النفس .
١١ - وقال ﷺ : « خصاء أمي الصيام^(١) » كناية عن شدة تأثيره على النفس حتى تشغل عن الشهوة ، وتقل فيها الرغبة .

هذا إلى غيره ، توجيهه إلى دقة النظر في محاسن البيان النبوي ، التي يذخر بها أسلوب الكناية ، ولا يغني المثال من يريد الوقوف على ذوات الأحوال .

المجاز العقلي

والمجاز العقلي يختص بتحويل الإسناد عن حقيقته ، عرفوه بأنه إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ملابس له غير ما هو له في الواقع ، ويراه بعض البيانيين نوسا غير مستقل عن الاستعارة لانطباق تعريفه على مثالها ، والخطب سهل ، والذي يهنا أنه مسلك أسلوب من مسالك التصوير الجميلة ، التي تلتطف ويدق لطفها حتى تعمل في النفس عمل السحر ، ولالتقائه بالاستعارة أو مطلق المجاز اللغوي نكتفي ببعض الأمثلة من روائع البيان النبوي :

قال ﷺ : « خير المال عين ساهرة لعين نائمة^(٢) » ، والعين الساهرة عين الماء الثرة تفيض به في الليل كالنهار ، فأشبهت الإنسان الساهر وإنما الذي نريد بقية الحديث ، لإسناده ما في معنى الفعل وهو الوصف بالنوم إلى العين ، وإنما الذي يستحق الوصف هو صاحبها على الحقيقة ، إذ ليس النوم انطباق الجفنين ، بل هو أمر يختص بالجهاز العصبي وقوة الإدراك ، والمجاز وإن يكن قريباً لاشتهاره اكتسب من الطباق جمالا يعلو به عن المتعارف ، كما اكتسب من المجاز المرسل - في إطلاق العين وإرادة صاحب وهو الكل - توجيهها آخر يجعله من الصور الروائع أية ذهب .

(١) المجازات النبوية ٧١ .

(٢) المجازات النبوية ٧٩ .

وقال عليه الصلاة والسلام : « كلُّ هوى شاطِنٍ في النار » وتخريج الرضي يؤذِنُ بالمجاز في الإسناد إذ يقول : وهذا مجاز ، لأنه وصف الهوى بالشاطون وهو البعد ، وأراد به تباعد صاحبه عن الرشد ، وتراميه إلى الغي ، وفي هذا الخبر أيضاً مجاز آخر ، وهو أنه عليه الصلاة والسلام جعل الهوى الشاطن في النار ، ومراده صاحبُ الهوى الشاطن ، وهو الذي يمتد به هواه فيقذفه في المضال ، ويحملة على المزال^(١) .

فالوصف مسند إلى ضمير الهوى ، إسناداً إلى ملابس له غير ما هو له . لأنه لصاحب الهوى ، وملابسة الوصف للصاحب على جهة الحصول منه ، وملابسته لغير الهوى على جهة اشتمال الصاحب عليه ، وهي العلاقة التي صححت الإسناد .

وقال ﷺ : « كيف بكم وبزمان يُعَرَّبَلُ الناس فيه ، ويبقى حُثَالَةٌ من الناس قد مَرَجَتْ عهودُهم وأماناتهم » وذلك من إسناد الفعل إلى العهود والأمانات التي لا يصح الإسناد إليها على الحقيقة ، لأن المَرَجَ وهو مصدر مَرَجَ بوزن فَرَحَ : القلقُ والاختلاط والاضطراب ، وهي أوصاف الناس الذين يستحقون الإسناد إليهم ؛ فهم الذين مرجوا فهان عليهم الوفاء وأشربوا الطمع والغدر .

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لأسامة بن زيد وقد كساه قبضية فكساها امرأته : « أخاف أن تصِفَ حَجَمَ عظامها » فإن فيه إسناد فعل الوصف إلى ضمير الثوب لأنه يلبسه ملابسة السبب ، وإنما الذي يستحق الإسناد إليه هو الإنسان ، الذي تنتقل إلى ذهنه هذه الصفات المرئية ، بسبب التصاق الثوب بالجسم لخفته ورقته ؛ وكأنه عليه السلام يقول أخاف أن يصف الواصف عظامها بلبس القبطية ؛ وقد زاد هذا البيان روعةً إطلاقاً العظام وإرادة الجسم على المجاز المرسل ؛ ووجه اختصاص هذا الجزء بخوف وَصْفِهِ أنه مدارٌ غيره من المواد التي يتركبُ البدن

(١) المجازات النبوية ٧٩ .

التقرير بالفصل والوصل

الفصل والوصل من الوسائل الأسلوبية لتقرير المعاني ووضوحها ، ويتجلى ذلك في الأسباب الموجبة لكل منهما ، فالفصل يكون لكمال الاتصال بين الجملتين التي تقع فيهما الثانية من الأولى موقع التوكيد اللفظي أو المعنوي ، ويكون الأول باتحادهما مفهوما واختلافهما لفظا ، ويكون الثاني باتحادهما في تقرير المعنى المراد مع اختلاف المفهوم .

كما يكون إذ تقع ثانية الجملتين موقع البدل ، بأن تكون أوفى دلالة على المراد من الأولى ، أو بأن تقع موقع عطف البيان ، لما في السابقة من خفاء .

وكما يقع الفصل بكمال الاتصال بين الجملتين يقع بشبهه ، وذلك إذا كانت الجملة الثانية في تقدير الجواب عن السؤال تقتضيه الأولى ، فالثانية توفير للوسائل أن يسأل ، ودفع للاستشراف النفسي أن يطول ، وتقرير للمعنى بدفع الشك عنه .

وللفصل موضع ثالث ، هو كمال الانقطاع بين الجملتين للتباين بينهما من جهة المعنى على الأخص في الخبرية والإنشائية ، بشرط وضوح المقصد للمتكلم عند الفصل . وهو يحدث حركة ذهنية إلى كل من الجملتين زائدة عن أصل مفهومها ، لتبين سر الفصل بينهما ، شبيهة بالحركة الناشئة عن الالتفات ومثل هذه الحركة جدير بتقرير المعنى والتنبيه إليه .

أما الوصل بين الجملتين فيكون عند التوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع ، بأن تتفق الجملتان في النوع خبراً وإنشاء ، من جهة المعنى على الأخص ، ثم لا يكون من الوصل عند السامع تعكير على المعنى ، لاحتمال الوصل إذ ذاك وجهها لا يصح .

منها ، فبه يظهر الطول والقصر ، وانبساط الصدر وسعة العجيزة ، وغير ذلك مما تتعلق به الأبصار ، وتزيغ الأفكار من فاقد الاستبصار .

وقال عليه السلام : « عليكم هدياً قاصداً ؛ فإنه مَنْ يُشَادَ هذا الدين يغلبه » قال في القاموس : القصد استقامة الطريق^(١) . وذكر في مجاز القصد صاحب الأساس (طريقٌ قَصْدٌ وقاصدةٌ خلافٌ قولهم طريقٌ جَوْرٌ جائرةٌ . وسيرٌ قاصدٌ وبيننا ليلة قاصدةٌ وليالٍ قواصدٌ)^(٢) .

ونرى الوصف بصيغة الفاعل مسنداً للضمير الهدي المراد به الطريق الذي يسير به المؤمن في دينه ، إسناد ما للفاعل إلى المفعول ، فالطريق مقصود لا قاصد ، وقصد الطريق كناية عن أمنه ويسره وقصره على السالك ، والمجاز يصوره على المبالغة تصويراً لا يتأتى بالحقيقة ، حتى يجعله لكثرة القصد إليه صاحب القصد والمختص به .

وهكذا رأينا طائفةً من ألوان البيان يقرر بها الرسول معاني الدين ومحاسن الشريعة ، ويؤكد أمرها في النفوس تأكيداً يجبها إليها . لأنه يخاطبها مخاطبة الحبيب والرفيق ، خطاباً يجوس سحره في خفاياها ، ويجول سره في طواياها ، فلا تنفر منه هاربة ، ولا تتقبله كارهة ، تقبلها لقانون وضعه الإنسان للإنسان ، يخاطبه جافاً غليظاً ، خطاب الحاكم للمجرم ، لا حانياً ناصحاً ، خطاب الواعظ للمخطيء ، وفي كل بيانه الحكيم عليه السلام نلمس القدرة المعصومة من الزلل ، والجمال الصادف عن النقد والحكم بالكمال الفني لا يستدرك عليه بالاستثناء ، إلا تأكيداً مدحه وتوثيقاً لتأثيره .

(١) القاموس المحيط ٣٢٧ / ١ .

(٢) أساس البلاغة : ٧٦٩ كتاب الشعب .

والتوسط بين الكمالين يتم بوجود الربط الكامل بين أجزاء الجملة الأولى وأجزاء الثانية : بين المسندين وبين المسند إليهما ، وبين المكملات باجتماع كل أخوين تحت صلة وثيقة من العقل أو الخيال ، كالاتحاد والتماثل والتضائيف في الأول ، وكشبه التماثل والتضاد وشبهه ، وعلما المعاني يسمون هذه الثلاثة بالجامع الوهمي ، وقد أُرْجَتْ تحت الخيال مع ما يلي لاتحاد الوهم بالخيال عند علماء النفس المحدثين ، وكالاتقان الاستدعائي في التخيل ، بحيث تستدعي كل صورة ما يناسبها ، والشيء بالشيء يذكر .

ولا شك أن هذه الصلاة المحكّمة بين الجملتين مع دفع الإيهام عن المعنى توثيقٌ لعرى الكلام ، وشد لأزرٍ مضمونه ، وإمساكٍ بعضه بحجز بعض .

ولهم في الوصل موضع آخر عند ما يختلف نوع الجملتين في الإنشاء والإخبار ، ويكون في ترك الوصل تركُ الذوق والحكمة ، إذ يقتضي الفصلُ إيهامَ العكس ، أو معنىً غير مقصود ، ولا يخفى ماله من مغزى الإيضاح والتقرير ودفع الشك .

هذا ، والبيان المحمديّ الشريف يذخر بهذا التقرير الناشيء عن الفصل والوصل ، ويتميز بكمال الدقة وتمام العصمة ، حتى لا تستطيع أن تبدل بين جملتين من أحد النوعين بالآخر ، إلا إذا أَحَلَّت المعنى عن وجهه ولو تبين لك أنك على الحق ، إذ دقائق الفروق أحيانا تخفى على الناقد ، ولو أعطاها الأناة من فكره لأعطته وجهها الناصع ، ونادته أن ليس في الأماكن أبدع مما كان .

هذه مقدمة قصيرة نبني عليها النظر التطبيقي فيما يلي من النصوص :

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك » (١) .

اتصلت جملة النهي بجملة الأمر على مقتضى قواعد الوصل من اتفاقهما إنشاء

لفظا ومعنى ، ووجود الجهة الجامعة باتحاد المسند إليه فيهما - وهو ضمير المخاطب - والتلازم بين المسندين : أداء الأمانة وعدم الخيانة ، وشبه التضاد بين المكملين : من ائتمنك ومن خانك ، لأن من ائتمن الناس فقد قاسهم على صفته ، كل ذلك حيث لا إشكال بالوصل ، ولا لبس في المعنى وقد سبق الكلام في بلاغة هذا الحديث .

٢ - عن صفوان بن سلم عن عدة من أبناء الصحابة عن آبائهم رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : « من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجُه يوم القيامة » (١) .

وصلت جملة الشرط في هذا الحديث بجملة ثلاث ، تبين أنواعا من عموم ما دلت عليه ، فهي أشبه بذكر الخاص بعد العام ، لبيان أن أحد أنواع الظلم يترتب عليه نفس الجزاء ، وهذا مدلول الرابط بين الجمل ، وهو (أو) وقد جمع عليه السلام تحت العام ما هو من جهة النقص من الحيف ، وما هو من جهة الزيادة ، ولما كان انتقاص الحق ليس صريحا في الأخذ ؛ والمقام لتقرير واجب المعاهد ، وتنزيه الإسلام بتمام العدالة واحترام العهود - جاءت الجملة الثالثة مصرحة بما يفهم باللزوم من الجملة الأولى ، فضلا عن وقوعها بالنظر المتعلق موقع الاحتراس عن عد الشيء المأخوذ من الظلم الموجب للمجازاة إذا كان من طيب نفس المعاهد ، ولما كانت الجملة الثلاث لا يتجاوزها ظلم المؤمن للمعاهد كانت كذكره مفصلا ، فهو في حكم المكرر للتأكيد .

وتنكير المفعول به في جملة الشرط (من ظلم معاهداً) في قوة عموم اسم الشرط ، لاطراد الحكم على أفراد كل منها بحيث يشمل أي ظالم لأي معاهد ، وتنكيره في الجملة الثالثة من التوابع لإفادة التقليل أو التحقير في مقام التحذير والترهيب ، فأخذ شيء ما بهذه الصفة مهما قل أو حقر يستوجب العقوبة المبينة .

(١) تيسير الوصول ٢٣٤ / ٣ .

(١) تيسير الوصول ٢١ / ١ .

وقد جاء جواب الشرط جملة اسمية ، لتأكيد مدلوله بأنه أمر ثابت دائم وزادت تأكيده صيغة المبالغة ، وتم تقريره بذكر ظرف المجازاة يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله (يوم القيامة) .

وفضلا عن أنهم لم يتعرضوا لغير الوصل بالواو ، ولم يتحدثوا عن حاجة ما وصل بغيرها إلى الجهة الجامعة ، فإننا نلاحظ قوة الربط المعنوي بين أجزاء الجمل في اتحاد المسند إليه ، وهو الضمير العائد على اسم الشرط ، وفي التماثل بين المسندات ؛ لاشتراكها في جنس الغدر ، وهو الوصف المستحق للمجازاة ، وفي اتحاد المفعول وما هو في حكمه ، لأنه المعاهد في جملة الشرط والضمير العائد عليه في الجمل الثلاث ، وهذا صنيع يقيم التعبير على شدة التماسك التي تدل على اقتناع المتكلم بالفكرة ، وكمال وضوحها عنده ، ويليه كالتنتيجة اقتناع السامع بالفكرة ، وكمال وضوحها عنده ، لأن الأول سبب الثاني ما استقامت الفِطْرُ وصحت الطباع .

٣- من حديث الحياء عن ابن مسعود عن النبي ﷺ : « . . . ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى^(١) » .

الوصل هذه المرة بين جواب الشرط والتالي له ، والجملة الثانية مقررة لمعنى المتبوعة لأدائها المقصود منها بوجه أخص ، فالأولى تُركٌ مطلقٌ لزينة الدنيا ، والتابعة بيان لوجه الترك ، وأنه ترك إيثار ، والإيثار تفضيلٌ مقصودٌ مبني على التدبر والمقارنة ، وللمغايرة في الجملة بينهما مع وجود المناسبة في اتحاد المسند إليه - وهو الضمير العائد على (من) - والمقابلة بين ترك الدنيا وأخذ الآخرة ، لهذين ، ولعدم المانع كانت وجهة الوصل بالواو .

ووضع المظهر وهو (الآخرة) في الجملة التابعة موضع المضمير لسبق مرجعه أوقع ، وأجمل في مقام الترجيح ، وأكمل في المقابلة للدلالة بالنص على المتقابلات ،

(١) تيسير الوصول ٢٢ / ٢ .

وليس كذلك الضمير ، ثم فيه تكرار لفظ المطلوب بحروفه ليزيد تقررا وتمثلا لدى السامع ، لأنه العاقبة والمصير الذي تهون مع تقرره المشاق السابقة ، في الخطوة المسماة باسمين هنا : (الدنيا والأولى) لدونها وللدلالة على أنها ابتداء غير مقصود لذاته ، ومنتقل منه لأنه أول العدد في الترتيب ، وذلك نفسه سر العدول عن ضمير الدنيا إلى لفظ (الأولى) في الجملة ذاتها ، ودنو الدنيا يستلزم علو الآخرة ، وكان مقتضى تسميتها الأولى لإطلاق لفظ الثانية على الآخرة ، لكن لفظ الثانية يدل كما دل لفظ الأولى على المنزلة التالية لها في الترتيب العددي فينتظر السامع ثالثا ، وإذا لا يوجد الثالث تعين التعبير بما يدفع الوهم والانتظار ، فلفظ الآخرة يدل على النهاية والثانية معا في هذا المقام .

كان مقتضى الظاهر أن يقال : ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا وآثرها عليها ، ولا يخفى الفرق بين العبارتين على ما أسلفنا ، فضعفها أمام ذوقك واستخرج من اللطائف في الحديث ما لم يسعني به الحجم المراد للكتاب .

٤- عن أبي ذر رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أظت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجدا ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولما تلذذتم بالنساء على الفراش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى ، لوددت أني شجرة تعضد^(١) » .

هذا الحديث الدقيق الجليل يمسك بعضه بحجز بعض ، في تأكيد جملة بجملة ، أو غرض جزئي بغرض .

الجملتان الأوليان متصلتان بمصادر الإدراك ، فالرسول عليه السلام يدرك ما لا ندرك ، لاختلاف آلات إدراكه في التعلق بالمدركات عن آلات إدراكنا ، إذ يكشف الحجاب بينه وبينها خصيصة له ، وذلك يثبت بالجملة الأولى المؤكدة بالأداة (إني

(١) تيسير الوصول ٢٥ / ٢ .

أرى ما لا ترون) ولكن ذلك الإثبات يتأكد ويعم إذا كان عن طريق أخرى سوى الرؤية ، فجاءت الثانية موصولة بالأولى : « وأسمع ما لا تسمعون » لتقرير هذا المراد على وجه الشمول .

والجمل الأربع الواقعة جواباً للشرط بعد القسم يؤكد بعضها بعضاً ويقرر بعضها مفهوم بعض ، إذ كل منها لازمٌ للسبب المبني على العلم ، وهو الفزع لصوت السماء من جلال ما فيها وروعيته ، فقلة الضحك تستلزم همَّ الناصب ، وكثرة البكاء أكد في استلزامه ، وعدم التلذذ بالنساء وهن أشد فتنة على فرشهن ، وقد زين للناس حب الشهوات منهن لا يقل استلزاماً للسبب ، والفرار من كل ملكٍ ومتاع إلى الصعادات للضجيج بالاسترحام والتضرع أشد من كل ذلك وأعظم ، فالنسق كله تصعيدٌ لتأكيد المهابة وبُعْثِ الخوف والرهبة .

هذا من جانب الوصل ، أما الفصلُ بين الجمل المفصولة وما قبلها فهو قائم على حدود المنطق الأبلغ ، الذي لا يقتضي النسق غيره ، ولا يرتضي سواه ، فجملة « أظت السماء » وما رُتّب عليها كاشفةٌ للمرئي والمسموع في صدر الحديث واقعةٌ موقعَ البيان على أي اعتبار : قُدِّرَتْ جواب سؤال منشؤه ما سبق ، وتقديره : ماذا ترى وتسمع يا رسول الله ؟ أو قُدِّرَتْ بيانا أو غيرهما ، وأطيئ السماء يقرر السمع ، وسجود الملائكة في كل موضع يؤكد الرؤية ، والبدء بالمجمل مُشَوِّقٌ إلى البيان ، ووقوع البيان على التفصيل أوقع في النفس ، ومباشرته له إغناءً للسائل عن السؤال ، أعود بالفائدة وأحكم للربط وأعون على التماسك ، لعدم تخلل كلام الغير أجزاء كلام المتكلم .

وكذلك نرى جملة : « ما فيها موضعٌ » قد انفصلت عن سابقتها انفصالَ البيان عن المبين ، فتقررت بها الأولى وتؤكد مضمونها .

أما جملة القسم الداخلة على الشرط الفرضي فهي إنشائية بعد الأخبار السابقة ، تؤكد المراد منها واللازم عليها تأكيداً يصل إلى الذروة في الجمل المتلاحقة الموصولة المنذرة بالخطر ، والحاملة أشد الإنفعال ، تهويلاً لما رأى عليه السلام وما

سمع ، حتى ختم حديثه بعبارة التمني المنفصلة عما قبلها بسكتة ينتقل بها موقفُ الشائر الخطيب إلى موقف الرائي المشفق ، ولا يخفى أنها مبدوءة كذلك بالقسم المدلول عليه باللام تأكيداً لهذه الودادة ، ولا أعلى من هذه العبارة في تقرير الهول المخوف ، لأن التمني في قمة البشرية المصطفاة ، والتمني سبق التقدير بجعله شجرة تُعَصَّد ، إذ لا ترى الشجرة ما يرى ولا تسمع ما يسمع ، ولا تألم كما يألم ، وإذا قُطِعَتْ كان آخراً عهداً بالحياة ، فلا بعث للقاء العدل الإلهي بالحساب ، والعقاب ! إن أقرب الخلق إلى الله أخوفهم لجلاله وعلى قدر القرب يكون الخوف . هل تمنى أحدنا خوفاً أن يكون شجرة تُعَصَّد ؟

٥ - عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون . قالوا : يا رسول الله ما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبرون (١) » .

يقرر الخبر الأول منزلة حُسن الخلق في الإسلام ، لأنه مناط الرسالة النبوية فإنما بُعث عليه الصلاة والسلام ليتمم مكارم الأخلاق ، وبين ﷺ مكان أحاسن الناس أخلاقاً يوم المجازاة ، وهو يوم الفصل الأكبر ، وأنه أقرب الأماكن منه ، لأن أصحابه كانوا أحب الناس إليه في الدنيا : دار التكليف والاتباع ، ودرجة الحب تكون على مقدار القرب في السلوك ، وانطباع قلب المأموم بطابع إمامه ، وقد نعته الله تعالى بقوله : ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ وفَسَّرَتْ أم المؤمنين عائشة هذا الخلق العظيم بالقرآن « كان خلقه القرآن » ويرجح هذا التفسير قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ وكماله كمال الأخلاق الدينية في السلوك الرشيد ، فبانتهاء العمر الديني للرسول عليه السلام تمت مكارم الأخلاق ، وكمل الدين منهجاً وقانوناً ، من التزمه حريصاً على تنفيذه كان هو الأحسن أخلاقاً ، وكان أحب الخلق إلى إمامه وقودته ، وأقربهم منه منزلة يوم القيامة ، والخبر مؤكد بأداة التوكيد (إن)

(١) تيسير الوصول ٢٣ / ٢ .

الجملة الأولى قانون عام ، يُحرّم الهجرانَ والقطيعةَ بين المؤمن والمؤمن ، ببدء بنفي الحل لا بإثبات الحرمة ، مطابقة للشأن القائم بالنفس من الهاجر إذ يرى الهجر حلالاً فيهِجُر ، لعدم ظهور حرمة بادية النظر ، والتعبير عنه بالمضارع واليا النفي يشير إلى اطراد الحكم مع اطراد الحياة ، فكلما جد هجر جد معه حكم حرمة ، كأنه نازل في الحال من السماء ، وهذا ادعى لتدبير الهاجر ، والتقيد بالمسلم تعريض بنفي الإسلام عن المتصف بتلك الصفة المحرمة على أهله ، ومجيء لفظ « مسلم » نكرةً بعد النفي تعميمٌ لجميع أفرادهِ ؛ لأن استغراق المفرد أعم أنواع الاستغراق ، وقد جاء المسند إليه مُصدراً مؤولاً من الحرف المصدرى والفعل المنصوب به ، وكان من الممكن أن يكون مكانه المصدر الصريح فيقال : (هجر أخيه) وإنما جاء كذلك لأن صيغة المضارع باقية مع التأويل بالمصدر ، دالة في ذاتها على التجدد والحدوث ، دالة على استحضر الصورة في الحال ، ومعنى هذا أن يتصور المسلم كل فرد من الهجران يتجدد أمراً لا يحل ، وقد جاء المفعول بلفظ مُشع ، يُضيء حوالك النفس وقت الخصومة ، ويكشف ظلام القلب ساعة الغضب (أخاه) والمقصود الأخوة في الصفة السابقة ، صفة الإسلام التي تفضل في الرحمة والإشفاق أخوة الأصلاب ، لأنها تجعل المؤمنين أعضاء جسد يسهر ويحُم جميعه بواحد منها ، وجعل الليالي الثلاث مجالاً لتفصي الغضب ، ولعودة النفس اللوامة ، وتدبر معاني السلوك الديني ، وقهر الشيطان بالقيم العالية من آداب الإسلام ، وقد صور الهاجر بعد هذا الحد متعالياً متكبراً تأخذه العزة بالإثم ، وذلك وحي الظرف (فوق) الذي اختارته العبارة دون لفظ (أكثر من) وما شابهه .

ولما كان الهجر فوق ثلاث واسع المدلول لا تندرج أفرادهِ جميعاً تحت هذا الحكم - جاءت الجملة الثانية كالبديل من الأولى ، وافيةً بإيضاح المراد من الهجر ، دالة على اشتراك الهاجر والمهجور في الحرمة ، لأن كلا منهما أخ للآخر ، دلالة بالمطابقة المفهومة من المساواة بينهما عند الالتقاء في الإعراض والأمر الباعث ، وإعراض هذا يمينا وهذا شمالاً نوعاً من التدابر والتنافر المحرّم بين المؤمنين .

وبزيادة حرف الجر (من) وليس هذا الحرف للتبعيض ولا لغيره ، لأن الأحاسن أخلاقاً هم وحدهم الأحب والأقرب جزاء تفضيل بتفضيل ، وبدليل عدم زيادتها في الخبر المقابل : « وإن أبغضكم » ، فإذا لوحظ تقديم المسند على المسند إليه في العبارة زادت طاقة التأكيد بأي حال من الحالين : عدّه للاهتمام بالمقدم ، أو كونه للتخصيص ، واشترأت الأعناق وانتفضت الروح اشتياقاً إلى المحكوم له بهذا الشرف وبتلك السعادة ، التي يزيد بها عظمة متعلق أفعال التفضيل : « إليّ - مني » .

فإذا انتهينا من ذلك انتقلنا إلى خبر آخر متصل بالخبر الأول اتصال شأن بشأن ، معطوف بالواو على السابق ، يحكم فيه السلام حكماً جازماً بسبب المؤكّدات السابقة إلا زيادة حرف الجر أن الطرف المقابل من الناس وهم الأساوى أخلاقاً على الطرف المقابل للأحب والأقرب ، واختص طوائف من هذا الصنف جعلها قمته ومثله ، وهنا يمكن أن نتساءل : أليس التصريح بالطائفة الأولى يُغني عن الثانية ؟ . وأين باقي الناس ؟ .

ومقام المعلم وهو مقام التقرير والإيضاح وتأكيد القيم يرد على السؤال الأول ، فقد اقتضى مع كل هذه المؤكّدات الجزئية تأكيداً معنوياً ، يفهم من أن معنى الخبر الأول هو لازم الثاني ، وبأن معنى الخبر الثاني هو لازم الأول ، والتصريح بهما معا كذكر المعنى مرتين : إحداهما لفظاً والأخرى لزوماً ، لزيادة الترغيب والترهيب .

ألا تلمس التفكك ونزول التعبير درجات إذا سقطت الواو الواصلة بين الخبرين المتقابلين ؟ .

٦ - عن أبي أيوب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال . يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا . وخيرهما الذي يبدأ بالسلام (١) » .

(١) تيسير الوصول ٣٤ / ٣ .

وقد صَوَّرَتِ الجُمْلَةُ المتقاطعين صورةَ المُشَاهِدِ في المجلس والمحسِّ بحس
البصر ، بواسطة اختيار المسند إليه إسم إشارة ، فضلا عن كون المسند مضارعا
وهو صيغةٌ يُسْتَحْضَرُ بها مدلولها في خيال السامع كالواقع في الحال .

أما الجملة الثالثة فقد نزلت منزلةً حالٍ منسية أو مجهولة هي الأولى بالنظر عند
التعقل ، وكأنه قيل : فيعرض هذا ويعرض هذا ناسيين أفضليةً البادئ منها
بالسلام ، ولذلك ارتبطت الجملة الأخيرة بالواو ، توثيقا للصلة بينها وبين عاملها
وصاحبها .

هذه الجملة مقررة في المعنى الجملة الحُكْمُ السابقة ، لأن مفهومها لازم الوقوف
على الحكم فطرة أو تلقيا ، فوجوده يؤكد وجود سببه وملزومه ، لأن استيقان عدم
الحل يتأكد ببدء الأخ أخاه بالسلام ، ومن استيقن فأتبع العقيدة بمقتضاها كان هو
خَيْرَهما ، وإنما كانت صيغة التفضيل التي تدل على أن في الآخر خيرا وإن لم يكن
الأفضل - لأن من شأنه أن يستجيب فيرد السلام ، يدل على هذا الشأن قوله ﷺ :
« الذي يبدأ » لأن البدء يستلزم الاستتباع ، وإنما فات الثاني قوة العزيمة في قهر
النفس على إرادة الثواب وتطويعها للصفح الجميل والعفو الواصل .

هذا تصوير قريب لما بين الجمل من تماسك شديد ، أحكمه الوصل حينما
والفصل آخر ، ومن تقرير المضمون بهذه الوسائل البارعة ، مع ظهور الكلام
كالخالي من تلك الخصائص .

٧ - من حديث بريدة رضي الله عنه يذكر وصاة النبي ﷺ لأمر المؤمنين أو
للسرية : « اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله » .

« اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا ، فإذا لقيت عدوك
من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال : ادعهم إلى الإسلام . فإن أجابوك فاقبل
منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم
أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله تعالى الذي يجري على

المؤمنين ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفِيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ،
وإن هم أبوا فسلهم الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا
فاستعن بالله تعالى عليهم وقاتلهم^(١) » .

الجمل الثلاث صدر الوصاة طلبية ، يؤكد مفهوم كل منها مفهوم الآخرين ،
قد حذف من الثالثة ما صار معلوما لتستعيض عنه بما سيعطف عليها من جمل النهي
التي تُحَدِّدُ أدبَ الغازي ، وتُقَيِّدُ سلوكه ، فالأمر بالغزو باسم الله في سبيل الله
يؤيده ويؤكد الأمر بقتال مَنْ كَفَرَ بالله ، والنسق عجيب منفرد : فالجملة الأولى
ابتداء أمرٍ عظيم هو الغزو ، وكل عمل لا يبدأ فيه بإسم الله فهو أبت ، ولذلك
اقتربت بالتسمية ليعلمه من أول الأمر مشروعية هذا الغزو ، وليصحبه
الاحتساب ، وبذل النفس عن رضا لاكتساب النصر أو الشهادة ، وقد تأكد هذا
المفهوم بالمتعلق الثاني : « في سبيل الله » أما تقديم الفعل على التسمية فهو على
غرار قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ من جهة بيان الاهتمام بالفعل الذي هو
مَحْضُ الطاعة والتضحية ، فتقديمه على الأصل فيه لا يقدح في النسق ، وإنما يُعَابُ
فِعْلُ العبد لذاته إذا قدمه على التسمية ، كأكله وشربه ولبسه ومشيه لا فعله لله وفي
سبيله .

أما الجملة الثانية فقد وليت الاستفتاح محمولةً عليه لتقريره ، فلم يذكر فيها
(باسم الله) ولكنها حملت لفظ القتال الذي هو أَصْرَحُ من الغزو ، وسبب القتال
الصريح في جملة الصلة المتصل بها مفعوله تفسيراً لكونه (في سبيل الله) ثم جاءت
الثالثة مكثفية بركنيها كالتمهيد بها لذكر سلوك الغزاة .

وبعد الاتصال الكامل الذي أدى إلى هذا الفصل اللفظي بترك العاطف ،
نرى تلاحق الواو مع الجمل الأربع التالية وصلاً بينها ، لاتحاد المسند إليه فيها ، ولما
بين المسندات من الاقتران المعتاد عند الغزو ، حتى اقترنت في التصور ، وكلها بما

(١) تيسير الوصول ٢٤٤ / ١ .

حَدَّرَ الإسلامُ منه ، لأنه دينُ السمو فوق الأحقاد ، ثم تتردد الجملُ بين الرُبطِ بقاء الترتيب ، ويقع بين الأحوال المنتقل منها والأحوال المنتقل إليها ، أي على الجمل الشرطية الكبرى - والربط بالفاء الرابطة بين طرفي هذه الجمل الشرطية ، لم يخرج عن هذا النسق إلا فيما لا يستحق أن يرتب ، لأنه لا يستحق أن يقع بعدها التدرج من الأعلى إليه وهو إباؤهم أن يكونوا كأعراب المسلمين في التعامل ، فلما كان ذلك شذوذاً منهم جاءت الواو على خلاف النسق للتنبيه إليه ، فليس بَعْدَهُ إلا قبول الجزية عن يَدِ وهم صاغرون .

وقد نرى الواو مرات أخرى في هذه العبارات المرتب بعضها على بعض ، وذلك حين اقتضاء الثانية أن توصل بالأولى للتوسط بين الكمالين مثل :

« فأقبل منهم وكف عنهم - ادعهم إلى التحول . . وأخبرهم - لهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم - يجري عليهم . . ولا يكون لهم - فأقبل منهم وكف عنهم - استعن بالله . . وقتلهم » وظاهر جد الظهور ما بين الجمل من جهة جامعة تصحح الوصل مع انتفاء مانعه .

ونحن نرى الوصل بثم مرة واحدة بين الدعوة إلى الإسلام والدعوة إلى التحول عن الدار ، ولذلك العطف السر في هذه النقلة الكبيرة والتراخي العظيم ، فالإسلام هو القمة التي لا تجاورها دعوة أخرى من المذكور في النسق وهو السبب الأول في العصمة من الغزو والقتال ، ومن تَرَكِهِ بالدوام على الكفر كان الأمرُ بهما ، وكل درجة في التدي من الإسلام إلى ما بعدها تقرير لعزته وقوته ، ولذلك الكفر وانحطاطه - متى كان المسلمون بالألقاب مسلمين بالقلوب تتفجر هذه المعاني الدافقة من إيمانهم غازية مقاتلة واثقة في النصر ، لأن إيمانهم الطاهر العميق في قلوبهم ليس بينه وبين الله القاهر حجاب .

متى أيها الغازي تملي الشروط وتخبر الأعداء ؟ .

هذه بعض الصور الدقيقة المحكمة في الربط بين الجمل لتأكد تماسكها لفظاً

وتقرها معنى ، رأينا بها أصدق اللفات الساحرة في أسلوب الوصل والفصل ، ما كان عليه السلام يجبرها تحبير عبيد القول ، وإنما هي فطرته وإعداد الله إياه لبيان كتابه وتبليغه ، فاللهم ألهمنا به رشدنا ، ولا تجعلنا طعمة المشككين في حديثه وستة .

المطابقة والمقابلة من أساليب التقرير

الطباق مفرداً ومكرراً على سبيل المقابلة يؤكد المعاني ويقرها عند المخاطب ، لأن الضد يُظهِرُ حُسْنَ الضد ، وبضدها تتبين الأشياء ، وهو في الحديث الشريف يستعمل لاستيعاب الحكم للمتقابلات ، وذلك ظاهر الشأن في التقرير ، أو يستعمل لتقابل الحكمين إظهاراً وإيضاحاً لكل من المقامين ترغيباً بأحدهما ، وترهيباً بالآخر ، وشريةُ الشرِّ تؤكد خيرية الخير بالمفهوم ، فضلاً عن اقترانها بها في الذكر ، فليس الطباق مجرد تحسين للكلام في حديثه ﷺ ، ولا هُوَ من هو الفارغين ، وإنما هو يؤدي أغراضاً أصيلة لا تؤدى دونه ، فالتحسينُ به حُسْنٌ طبيعي غير مقصود لذاته ، فلنفهم على هذه الفقرة الصغيرة سر الجمال في تلك النوابع :

١ - من دعائه عليه السلام : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت (١) »

٢ - كان ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع : « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد (٢) » .

٣ - وسأله رجل عليه السلام : أي الأعمال أحب إلى الله تعالى . ؟ قال :

(١) تيسير الوصول : ٦٧ / ٢ .

(٢) تيسير الوصول : ٦٦ / ٢ .

« الحالُّ المرتحلُّ » قال : وما الحالُّ المرتحلُّ ؟ قال : « الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل (١) » .

٤ - وروى جابر عنه رضي الله عنه قوله : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى (٢) » .

٥ - عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : إن الله تعالى لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، ويخفض القسط ويرفعه ، ويرفع عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه (٣) .

من الجلي أن الطباقي أو المقابلة في هذه الأمثلة الكريمة تُستَرُّ في الأقسام تحت المقسم الذي يناط به الحكم تقريراً لشموله على سبيل التفصيل ، إرضاء لطمأنينة النفس ، أو تبرئة من نقص البيان ، أو غير ذلك مما يمكن أن يقال .

فالحديث الأول يطلب فيه الرسول عليه السلام مغفرة ربه لكل ما يستحق المغفرة من قول وعمل ، وهذا الكل معبر عنه بالمقابلات : ما قدم وما أخر وما أَسَرَّ وما أعلن ، ولا شك أن دلالة الألفاظ المذكورة غير دلالة الكل ، وإن كانت في المآل تساويه لأن ذَكَرَ ما قدم تصحبه نظرة النفس إلى الماضي في حساب وندم يبعث على الضراعة خوفاً من عقابه ، وذكر ما أخر إشفاقاً على النفس وتَوَجُّسٌ من المقبل المغيب ، يحمل على الحذر وطلب المعونة والستر ، وتلك معانٍ في الرجاء يقرر بعضها بعضاً ، ومثل ذلك ما أسررت وما أعلنت ، فذكر الإسرار يقتضي الخجل من المطلاع على السرائر ، وذكر الإعلان ، يقتضي شدة الخجل على المجابهة والمجاهرة ، فكل الناس مُعَافٍ إلا المجاهرين ، وليس شيء من ذلك ملحوظاً إذا

استغنى عن التقابل بذكر (الكل) وقد ناسب هذا التفصيل أن يناجي الله بالاسمين الجليلين على جهة التقابل بين لازمهما : أنت المقدم وأنت المؤخر ، مالك أمورنا ، الماضي فينا حكمه بهذا أو ذاك ، ويغني عن ذكر الإسمين بلاغاً أن يقال مثلاً : أنت الله مع الجزم بصدق اللفظ الجليل على جميع الكمالات وإنما خصهما بالذكر لأن في الإسمين دلالتين تفصيليتين تأتت بهما في العبارة صورة البراءة من حَوْلِ المتكلم وقوته تقدماً أو تأخيراً تسليماً للقضاء ، وإيماناً بالفقر ، يؤكد الخوف والرجاء الداعيين إلى الضراعة .

على هذا الغرار يمكن أن نسير في بقية النصوص التي تمثل المقابلات فيها صورة الكل على سبيل التفصيل .

فلنتقل إذا إلى طائفة أخرى .

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخيركم من شركم ؟ ثلاث مرات قالوا : بلى . قال : خيركم من يُرَجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شُرُّهُ ، وشركم من لا يُرَجَى خَيْرُهُ ولا يُؤْمَنُ شُرُّهُ » (١) .

٢ - عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنها قال : قال لي رسول الله ﷺ : « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله تعالى شاكراً صابراً ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله لا شاكراً ولا صابراً : من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به ، ومن نظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله تعالى على ما فضله به عليه - كتبه الله شاكراً صابراً . ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ونظر في دنياه إلى من هو فوقه ، فأسبغ على ما فاته منه - لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً » (٢) .

٣ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله

(١) تيسير الوصول ٨٥ / ١ .

(٢) تيسير الوصول ٥٣ / ١ .

(٣) تيسير الوصول ٤٤ / ٢ .

(١) تيسير الوصول ٢٦٨ / ٤ .

(٢) تيسير الوصول ٢٦٩ / ٤ .

بالأمير خيراً جعل له وزير صدقٍ إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوءٍ إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه^(١) .

هذه الأحاديث وأمثالها ذُكرت فيها المتقابلات لتمييز بعضها ببعض ، ولتأكيد حُكم الضدِّ بضعده الحكم ، فإذا انكشف للعقل هذان المتقابلان وجدَّ طريقه إلى المقارنة فلا ينخدع ولا يسوف .

فالحديث الأول يجعل خير المخاطبين مقابل شرهم ، ويجعل صفات هؤلاء مقابل صفات الآخرين ، ليقيس كل امرئ نفسه بمقياس جلي ، فيحكم على مصيره ، أو يبادر بعلاج نفسه لينتقل عن فتنه .

والحديث الثاني يجعل من وجدَّ فيه الخصلتان في جهة ، ويحكم له بحكم حسنٍ أن يجعله الله شاكراً صابراً فله عظيم الثواب لأن الله خير الشاكرين ، ثم يجعل في مقابلته فاقد الخصلتين ويحكم له بحكم سيئٍ ألا يكتبه الله شاكراً ولا صابراً ، فله شديد العقاب لأن الله خير الماكرين . لينظر كل امرئ ما يرى .

ويجعل خصلتي الشاكر الصابر المثوب ، النظر في الدين إلى من هو فوقه ليقتردي فيضعده في درج الطاعة ، والنظر في دنياه إلى من هو دونه ، فتكبر عنده نعم الله ، ويعظم لديه فضله ، فيكون نظره الثاني مؤكداً لنظره الأول وموثقاً ، يسيران به معاً في طريق السعادة ، كما يجعل خصلتي الجاحد المعاقب هما العكس : النظر في الدين إلى من هو دونه ، فيغتر ويأمن ويترك المجاهدة ويدل على الله ، والنظر في دنياه إلى من هو فوقه ، فيسخط ويحقد ، ويستكثر طاعته على رزقه مُزديراً نعمة الله ، والنظر الثاني تقرير للأول وامتداد له في السير بعيداً عن الخير .

هذه المتقابلات - وإذا ثبت أحدها في محل لزم أن ينتفي عنه الآخر - يؤكد ثبوت كلٍّ منها في جانبه ثبوت مقابله في جانبه ، ويقرر النفي اللازم للمقابل عن

(١) تيسير الوصول ٣٨ / ٢ .

نفسِ المحل نفي اللازم المقابل في الجانب الآخر ، فلا يكون أوضح من ذلك تمييز الحقيقتين ، لينظر ذو عقل فيرجح ويختار .
وعلى هذا الضوء يمكن السير في الأمثال والنظائر .

تقرير الحجة بالمنطق الفطري :

من الوسائل التي يتقرر بها الحكم إقامة الحجة ووضوح الدليل ، والبيان النبوي حافل بهذا النوع من التقرير ، يأخذ أدلته من النقل أو المنطق الفطري والوجداني ، الذي يملك النفس من قريب ، وهذه أمثلة منه تستجلى فيها هذه الطريقة الناصعة من البيان ، لإلزام المخاطب وإقناعه حتى لا يجد سبيلاً لإطالة اللجاج .

١ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾^(١) .

٢ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقِّهِ لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى : « إِن الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكَلِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٢) .

في كل من الحديثين نراه عليه الصلاة والسلام يستند إلى دليل الحكم من القرآن الكريم حتى يتقرر في نفوس المؤمنين ، وهم مصدقوه دون توثيقه بالدليل ، ولكنه ﷺ ، يفتح لهم باب النظر في الكتاب ، ويعرفهم كيف ينتفعون بالدليل ، ليحكموا القرآن في سلوكهم ، ويجعلوه القياس لكل أعمالهم .

(١) تيسير الوصول ٢٩٢ / ٣ .

(٢) تيسير الوصول ١١٠ / ٢ .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، ثم يقول : اقرأوا : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ فابواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ، حتى تكونوا أنتم تُجَدِّعونها ، قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت من يموت صغيراً ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين » (١) .

في هذا الحديث يأخذ البيان دليل قضيته من الكتاب ، ثم يعرج عليه بتأكيد آخر من قياس التمثيل ، يُشخِّصُ به المعنى لعين السامع تشخيصاً يشهده فيما يعالجه هو بنفسه ويصنعه بيده : « حتى تكونوا أنتم تجدعونها » .

فالمولود يُخلق سليم الفطرة ساذجاً مُهيأ لما يلقن من خير أو شر ، فينقله أبواه إلى دينها بما يثان في قلبه من ألوان العقيدة والسلوك ، مثله في ذلك مثل البهيمة التي تولد مستجمعة الخلق ، سليمة القرن كاملة الأعضاء ، فيتناولها بالجدع أو الوسم صاحبها ، فيغير وينقص ويشوه ما كان بريئاً من العيب .

والتمثيل وإن يكن لحمل المعنوي على الحسي قصداً لتقريره ، يشير إلى الفساد الحاصل بفعل الإنسان في الشيء الذي أحسن الله خلقه ، حتى يحذر كل امرئ مصير عدوانه على الفطرة ، فلا يُقدِّم عليها جباراً متعسفاً ، بل متتداً حكيماً .

وقد وقع الاستفهام التقريري موقعه في جملة التمثيل ، حتى يفتش المخاطب إحساسه فيجيب بالنفي ، فيكون جوابه تصديقاً من جهته ، وإذعاناً ملزماً بالاعتناع !

٤ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه من خطبة للنبي عليه السلام : « ألا وإن الغضب جمره في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض » (٢) .

(١) تيسير الوصول ١١٠ / ٢ .

(٢) تيسير الوصول : ٢٦١ ٤ وهذا الجزء من الآية آخر النص فيه .

يصدر الرسول عليه السلام في هذا الحديث حكمه مؤكداً بأداة التنبيه (ألا) وبأداة التأكيد (إن) وذلك الحكم هو تشبيه الغضب بالجمرة ، وقد تأكد التشبيه في صيغته بحذف الأداة والوجه مبالغة في دعوى الاتحاد ، ثم رُشِّح بلطفة من سر الصياغة النبوية وهي إيلاء الظرف (في قلب ابن آدم) للجمرة المشبه بها دون الغضب ، وكان من الممكن أن يقال : وإن الغضب في قلب ابن آدم كالجمرة ، ولكنه لو قيل هذا لطمست القيمة الفنية للتعبير ، إذ أن ذلك القيد الواصف للغضب يكون في حكم التطويل أولاً ، وخلو مكانه في الحديث يفقد الجمرة موضعها الصريح ، في مقام يقتضي النص عليه تحويفاً وتحذيراً ، إن القلب هو الملك الحاكم ، وهو مركز الحس ، فلا يبلغ ألم في العين - وما أشد ألمها - ألماً قليلاً يصيبه ، فكيف بها جمره ملتهبة تسكنه ؟ .

ولما كانت هذه المقررات للسامع الذي يعي سر البيان أشبه بالمجازف فيه أحوجت إلى دليل من المنطق الحسي ، وبرهان من القريب المشاهد ، فاتخذ عليه السلام من المظاهر البيولوجية الناشئة عن الغضب ذلك الدليل على حكمه .

وهنا ينبغي أن ننظر في إكبارِ بالغ المدى إلى فلسفة التعبير وحكمته ، فالجمرة نار ، والقلب وعاء الدم ، يصل بدورته إلى كل عضو في الجسم حتى الشعر ، فإذا غلى الدم على نار الغضب فارفي العروق ، وظهر في الأعضاء حتى تنتفخ الأوداج وتظهر في العين جمرته .

وتشبيه الغضب بالجمرة تشبيه واقع من جهات : فحرارة الجسم ترتفع عند الغضب نتيجة لتزاحم الانفعال النفسي وتلاحق النبضات ، حتى يهيم الدم كله أن يجتمع في مراكز الغضب كالجيش الحاشد للهجوم .

والنار تحدث التورم في الجسم ، والجمرة في مكان المس من الجلد ، والغضب تنتفخ به العروق ، وتحممر معه العين ، حتى جعل احمرار العين كناية عنه فيقال : أراه العين الحمراء .

والأعظم لطفاً في البيان الكريم ، أنه عليه السلام أحال المخاطب عن طريق

الاستفهام إلى اكتناه الحقيقة بفكره هو ، ليؤمن عن دليل ، ويُقَرَّ عن رؤية ، فإذا حصل له التصديق بالمشاهدة وقبح في عينه المنظر بالتجربة وآمن بالخطر الناشيء عن الغضب - حاول الهرب بالعلاج الناجع الذي لم يتركه الطبيب الحكيم دون بيانه .

عندما نراه سيغلبننا الغضب ، لنلصق بالأرض نفثاً حرةً عن قلوبنا ، وأراه تعبيراً رمزياً يذكرنا بأصل الإنسان ومصيره يشير إلى قوله تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾ وإلى قوله عليه السلام : « كلكم لآدم وآدم من تراب » ليحدث لنا من ذلك العبرة ، فلا يستخفنا الشيطان لتحطيم أنفسنا وهدم علاقاتنا بفتنة منه في نزوة طائشة .

ونظرة أخرى نلمس فيها حكمة هذا العلاج ، وهي تدور حول الصورة ذاتها فالنار تشتد اشتعالا في الهواء وتوقدا ، والجمر يوضع في الرماد فيخمد ، وكذلك الغاضب كلما كان منتصباً زاد للشر تحفزاً ، فإذا أسلم إلى الأرض انتفاضته ، تسربت عنه ثورته ، وقل للهجوم عزمه ، وثاب إلى الرشد قلبه

ذلك كله إذا لم يكن غضبه لله ، إحقاقاً للحق ، أو دمغاً للباطل ، فإنه الغضب الواجب والجهاد المشروع بشروطه المقررة .

٥ - عن أبي رزين العقيلي قال : قلت : يا رسول الله كيف يعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك ؟ قال : « أما مررت بوادي قومك جدبا ، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قلت : نعم ، قال : فتللك آية الله في خلقه ، كذلك يحيي الله الموتى (١) » .

٦ - من حديث أبي ذر رضي الله عنه في بيان الصدقات : « وفي بضع أحدكم صدقة قالوا : يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعتها في حرام أكان عليه وزر ؟ قالوا نعم قال : كذلك إذا وضعتها في الحلال كان له أجر » .

(١) تيسير الوصول ٩٣ / ٤ أخرجه رزين .

٧ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً فقال : لا يُعْدي شَيْءٌ شيئاً . فقال أعرابي : يا رسول الله ما بال الإبل يأتيها البعير الأجرُب الحشفة بِذَنْبِهِ فَيُجْرِبُهَا كلها ؟ فقال ﷺ : فَمَنْ أَجْرَبَ الأول ؟ لا عَدْوَى ولا صفر ، إن الله خَلَقَ كُلَّ نَفْسٍ وَكَتَبَ حَيَاتِهَا وَمَوْتَهَا وَرَزَقَهَا وَمَصَائِبَهَا (١) » .

في الحديث الخامس يسأل الصحابيُّ رسول الله ﷺ عن أمر غيبي : عن كيفية إعادة الله الخلق بعد الفناء ، وعن الدليل المثبت لعقيدة المعاد ، والسؤال دقيق غاية الدقة ، وبالتفكير فيه كفر من كفر ، وما يزال يكفر من يكفر ، ولكن الرسول عليه السلام يتخذ القياس القريب جواباً مُقْنِعاً ، ويسوقه على طريق السؤال ليُرشد الحائر ، يسأله عن أمر يتكرر أمام بصره من حين لآخر ، هو صورة للبعث لا تختلف إلا بجنس المبعوث ، وكأنه ﷺ يقول : إجداب الأرض من الناس بموتهم ، كإجداب الأرض من النبات بهلاكه ، فإذا كان بعث النبات هينا ومشاهدًا متكرراً فبعث الناس هين كبعث نظيره .

وهذا القياس النبوي مستمد من المنطق القرآني ، الذي كثيراً ما يحيل النظر إلى هذه المعاني ويُسمِّي اهتزاز الأرض بالنبات حياةً ، يضربها مثلاً من الحاضر المحسَّ المشاهد للغائب المتعقل الموعود .

﴿ أو لم يَرَوْا أَنَا نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الأَرْضِ الجَرِزِ فنُخْرِجُ به زرعاً تَأْكُلُ منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ * ويقولون متى الوعد إن كنتم صادقين ﴿ (٢) .

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحيها لمحيم الموت إنه على كل شيء قدير ﴾ (٣) .

﴿ وأنزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جناتٍ وحبَّ الحصيد * والنخل

(١) تيسير الوصول ٣٦ / ٤ .

(٢) السجدة ٢٧ و ٢٨ .

(٣) فصلت ٢٩ .

باسقاتٍ لها طلعٌ نضيدٌ * رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴿١﴾ .

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ﴾ (٢) .

﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . . . إِنْ ذَلِكَ لَمُحِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) .

ومن اللطائف أن يشير الجواب في الحديث الشريف إلى قصةٍ أخرى فيها دليلُ البعثِ بالحجة الدامغة ، فالعبرة التشبيهية (كذلك يحيى الله الموتى) نهاية قصة البقرة التي أمر بنو إسرائيل بأن يضربوا القتل ببعضها ليعث حيا بإذن الله : ﴿وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فقلنا أضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ (٤) .

وكأنه عليه السلام يحيل السائل على هذا الدليل السمعي مع الدليل البصري في المشاهد المحس ، تأييداً لحجة بحجة ، من باب التلميح الذكي .

أما الحديث السادس فالصحابي السائل يستشكل أن يكون لإتيان المرء شهوته مع اللذة الجنسية أجرٌ أخروي ، فسؤاله يحمل لونا من عجبه ، ونيه عليه السلام يزل هذا العجب بمنطقه المبني على قياس المفارقة ، فيقرن بين الضدين ، ليبين حكم الضد بضد الحكم :

« لو وضعها في حرام أكون عليه وزر » والحلال ضد الحرام ، إذن وضعها في الحلال يكون له ضد الحكم ، وهو أن يكون له أجر .

واستنبط الحكم بطريق الحوار إقناع وترشيع وتأكيد .

(١) ق ٩ ، ١٠ ، ١١ .

(٢) الروم ٩ .

(٣) ن .

(٤) البقرة ٧٢ ، ٧٣ .

أما الحديث الأخير ففيه يستشكل الصحابيُّ السائلُ نفيَ العَدْوَى مع مشاهدة أثرها في الإبل ، ولم يُدرِك المغزى البعيدَ من البيان الكريم ، الذي يهدف إلى أن العَدْوَى ذاتها قَدَرٌ سَبَقَ كما في نهاية الحديث فإذا لم تكن مقدورا فُقِدَ أثرها مع وجود المقتضى لوجود المانع الأقوى ، ونرى الجواب على البديهة ينتظم قياساً قريباً مقنعا وكأنه يقول :

بما أن الجمل الثاني مرض بما مرض به الأول ، والأول مَرَضَ بنفس المرض دون عدوى ، إذن فالجمل الثاني نظيره .

أو : لو كان الجربُ لا يَحْدُثُ بدون عَدْوَى لكان الجملُ الأوَّلُ مَرَضَ بالعدوى ، لكنَّ الأوَّلُ لم يَمْرَضُ بالعدوى فيكون الثاني مثله .

وهذا المنطق السريعُ الملزمُ أنجعُ في إقناع الخصم وفي كَشْفِ شبهته لأنه يساوي الأنفعال السريعُ المصوَّرَ في اعتراضه ، وما أكثر ما كان عليه السلام يستعمل ذلك في خطابه ليقرِّرَ الأحكام ويزيل الشبهات .

٨ - أتى فتى من قريش فقال : يا رسول الله ائذن لي في الزنا ، فأقبل القوم وزجروه فقالوا : مه ! مه ! فقال عليه السلام : ادنه ، فدنا منه قريبا ، فقال : « أتجبه لأمك ؟ قال : لا والله جعلني الله فداك . قال : ولا الناسُ يحبونه لأمهاتهم ، قال : أفتجبه لأبتك ؟ قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك . قال : ولا الناسُ يحبونه لبناتهم ، ثم ذكر له رسول الله ﷺ أخته وعمته وخالته وفي ذلك يقول الفتى مقالته : « لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك . » قال : فوضع يده عليه وقال : اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه وحصن فرجه (١) .

وقياسُ التمثيل هنا منطوق أعنف في رفقهِ ولينه من زجر الأصحاب وعنقهم بالفتى ، لأنه يلمسُ كرامةَ العربيِّ في أزكى وَتَرٍ ، وأنفَتَهُ وكبرياءه في أعلى ما

(١) مجمع الزوائد ١٢٩ / عن أبي أمامة .

يصان ، وترديده على هذا الوجه من الاستفهام التقريري هذم لنزوة الفتى واستئصال لجسسه بالاشتھاء .

وعبارة الفتى في رده المهذب تنضح بالخجل ، وتسفر عن الندم ، وفعل الرسول ودعاؤه مكافأة له وجبر ، وحكمة وسداد .

وهكذا لا نراه عليه السلام يلتزم المنطق الجاف ، والقياس الخشن ، وإنما يلمس حبة القلب ، ويحرك كامن الوجدان ، ويثير الحاكم العاطفي من الحاكم العقلي ، بل يقيم الحاكم الوجداني للفصل وحده في قضايا الحل والحرمة عندما تُشكّل ، تقديساً لما هو من جنس الفطرة ، لأن الله خلق الخلق حنفاء كلهم ثم أتتهم الشياطين فاجتالتهنم عن دينهم .

عن النّوأس بن سمعان رضي الله عنه قال : « سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » (١) .

وعن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقال : « جئت تسأل عن البر؟ قلت : نعم قال : استفت قلبك ! البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » (٢) .

فالحديثان يمجدان الحاكم الوجداني ، ويرفعان حكمه فوق فتاوى المفتين مهما جهدوا ما دام ينطلق من قلب صحيح البنية ، والمشاهد أنه نوع من الإلهام يوجد في الحيوان فضلاً عن الإنسان ، فتراه خائفاً يترقب ، أو آمناً وادعاً في حالين من السلوك مختلفين ، يحس من باطنه بعاقبة كل منهما ، فإذا كان في الإنسان نما بنموه ،

(١) تيسير الوصول : ٢ / ٢٤ .

(٢) الجواهر اللؤلؤية : ٢١ .

وعلا بثقافته ، واقرن بالتعليل والنظر ، ليكتسب الصرامة في المضي ، والظهور على الوسوسة والتذرع بالحيلة في المقاومة .

ولعل الفارق الذي بين التربية الإلهية والقوانين الشرعية ، وبين ما يقابلها من صنع البشر هو الهيمنة على النفس من تلك الجهة حتى نرى من يقترف الإثم في الخفاء - حيث لا شاهد من الناس ولا مُطالِبَ بالحق - يقدم نفسه للحد أو القصاص على ما فيها ، لِيَسْلَمَ بغذاب الدنيا من عذاب الآخرة ، وقد تبينا في هذه اللافتة قيام المنطق النبويّ وِحجَجَهُ على هذه القاعدة الهادفة ، فلا غرّو أن يفلج عليه السلام بالحجة ، وأن يملك بالدليل .

تَصْعِيدُ الْمَعَانِي

كما يتصل بالمنطق الوجداني والثروة النفسية - وهي رصيد التعبير البليغ - ما أُطْلِقُ عليه تَصْعِيدُ الْمَعَانِي ، وهو طَرْدُ الكلام حثيثاً في مقدمات يُسَلِّمُ بَعْضُهَا إِلَى بعض كَأَقْسَى المنطق ، توصل في سرعة وسلامة إلى النتيجة ، بحيث لا يَشْعُرُ المخاطَبُ من سرعة التتابع والانقياد للمسلمات بجهد دون غايته .

وتلك خصيسته في البيان الكريم تكسبه قوة الاستيلاء ، وشدة الهيمنة على قلوب السامعين ، لأنها منطوق النفس إلى النفس .
ومن لطائف هذا الأسلوب :

١ - عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحيأ سنة من سنتي أميتت فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي »^(١) .

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »^(٢) .

فأنت تلمس النتيجة بقلبك من الحديث الأول ، هل تراها شيئاً غير (من أحيأ سنة من سنتي أميتت كان معي) ؟

(١) تيسير الوصول : ٣ / ١٥٢ .

(٢) تيسير الوصول : ٣ / ٢١ .

ألا ترى معي في الحديث الثاني أن هذه المقدمات تنتج تعليق دخول الجنة على إفشاء السلام بين المؤمنين لأنه مفتاح التحاب ؟ .

إنه انتقال من مرحلة مسلمة إلى مرحلة أخرى مسلمة ، لا يكون بعدهما إلا التسليم والإذعان .

ألا نستطيع حل هذا الكلام هكذا في هيئة قياسين ؟

لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا (لا تدخلوا الجنة حتى تحابوا) .

لا تدخلوا الجنة حتى تحابوا ، ولا تحابوا حتى تفشوا السلام بينكم (لا تدخلوا الجنة حتى تفشوا السلام بينكم) .

فضلا على ما أحاط ذلك من تقرير بالقسم ، وتشويق بالعرض ، وهذا الأسلوب البارع يصور لنا القيمة العظمى لأمر هو من أسهل الأمور على المؤمنين إذ لا مشقة فيه ، ومن أيسرها في نظره خطراً حتى يهمله الكثير من الناس إهمالاً قطع العلاقات بين أفراد المجتمع في المنزل الواحد ، بله الجهة الواحدة أو الشارع الواحد .

إن هذا المنطق التصعيدي اللمعاني يستحق اسماً بلاغياً يرجع إلى النسيج الغني ، لا إلى الطاقة الدافقة هو (ترديد الحبك) إلا أن ترديد الحبك يخصه علماء البديع بالشعر دون النثر .

٣ - عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملاحمة ، والملاحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال ثم ضرب بيده على فخذ الذي حدثه ، ثم قال : إن هذا لحق كما أنك قاعد ها هنا - يعني معاذ بن جبل رضي الله عنه » .

هذه أيضا مقدمات يسلم بعضها إلى بعض في سير حثيث إلى الغاية يصعد معه شعور المخاطب إلى القمة من درجة في السلم إلى أخرى دون جهد .

٤ - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله الأرض جعلت تميدو تتكفأ ، فأرساها بالجبال فاستقرت ، فتعجب الملائكة من شدة الجبال فقالت : يا ربنا هل خلقت أشد من الجبال ؟ قال : نعم . الحديد قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الحديد ؟ قال : نعم . النار . قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من النار ؟ قال : نعم الماء . قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الماء ؟ قال : نعم . الريح . قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الريح ؟ قال : نعم . ابن آدم إذا تصدق بصدقة يمينه فأخفاها من شماله » (١) .

يا الله للروعة الرائعة والعجب العجيب ، إنه يوصلنا إلى قمة تتألق فوقها العظمة لصدقة السرا التي تجعل صاحبها أقوى من جميع قوى الطبيعة .

إنه يستطيع أن يقهرها جميعاً ، لأنه قهر الشيطان وقهر نفسه المجبولة على الشح ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ .

أليس هذا من الفلاح المبين ؟ .

أي تشويق كهذا التشويق ، ينقل الشعور في سرعة من مقدمة إلى أخرى يستنتج ويطوي حتى يصل في هذه السرعة إلى هذه الغاية ؟ .

إن هذه المقابلة ضرب بديعي من الأضرب التي ينوه بشأنها رجال البلاغة ! والرسول الكريم ﷺ يستخدم هذا الأسلوب في تعليم أصحابه ، خطة السير بالدعوة إلى الذين ينهجون المنهج الطبيعي لسنة النفس وفضرة الحياة .

٥ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ معاذاً إلى اليمن فقال : إنك تقدم على قوم أهل كتاب . فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى ، فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من

(١) تيسير الوصول : ٣ / ٥ .

أغنيائهم وترد على فقرائهم ، فإذا هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» (١) .

يصعد البيان واجب الداعي من أولى خطواته ، متدرجاً في الصعود إلى الغاية ، فإنه من عرف الله فعبدته استطاع أن يعرف ما أوجب ، فإذا عرف ما أوجب هان عليه إعطاء ما أوجب .

وقد يكون التصعيد بطريق الحوار ، فيبدأ عليه السلام بأمر غريب يستوجب سؤالاً ، ثم يجيب عنه بما يثير سؤالاً ، حتى ينتهي إلى ما يريد غرسه في الصدور من حب شيء وإجلاله ، أو المهابة من شيء والنفور منه .

٦ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : تعوذوا بالله من جب الحزن ، فقالوا : يا رسول الله وما جب الحزن ؟ قال : واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة . قيل : يا رسول الله ومن يدخله ؟ قال : القراء المرءون بأعمالهم » (٢) .

وقد تتلاحق القضايا دراكاً ، تنقل كل منها أنفاس السامعين من حالة إلى أعلى منها تردداً في صدره ، حتى تصل إلى النتيجة المتبغاة .

٧ - عن أبي وائل قال : سمعت أسامة رضي الله عنه يقول : قال النبي ﷺ : « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان . ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول : بلى . كنت أمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية » (٣) .

فهذه الصور التمثيلية البشعة تبدأ بمقدمة عامة ، ثم تتخصص بالإلقاء في

النار ، ثم تصعد في الإثارة والهول باندلاق الأقتاب من البطن ، ثم تزداد ارتفاعاً في القبح والشناعة بالدوران بها دوران الحمار بالرحى ، فإذا تناهت الصورة إلى هذا الحد الملفت - حتى لأهل النار مع ما هم فيه من هم شاعل ناصب - نظروا إلى صاحبها فإذا هو إنسان عرفوه في الدنيا من الأميين بالمعروف والناهين عن المنكر ، فيزداد عجبهم لما ناله من المنظر القبيح ، والمثلة الشنيعة فيسألونه سر ذلك فيكشف لهم إذ ذاك ما ستر عنهم في الدنيا ، من مخالفة أقواله أعماله رياء وسمعة .

ومن ذلك في الترغيب :

٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه ، خرج من كل خبيثة نظر إليها بعينه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - وإذا غسل يديه خرج من يديه كل خبيثة بطشتها يداه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - فإذا غسل رجليه خرجت كل خبيثة مشتتها رجلاه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - حتى يخرج نقياً من الذنوب » (١) .

فهذه أعمال يسلم بعضها إلى بعض ، يكثر بعضها بعضاً في التآزر على إخراج المؤمن بأعمال الوضوء من خطاياها ، حتى تنتصر في آخر لحظة على مانيط بها من تطهيره وخلاصه ، ولا أروع من هذا تصويراً لقيمة الوضوء وبلوغ أثره تحفيزاً لهم المؤمنين على إسباغها وإدامتها .

ومما يتصل بالوضوء من هذا الضرب أيضاً :

٩ - عن أبي وائل قال : دخلنا على عروة بن محمد السعدي فكلمه رجل فأغضبه ، فقام فتوضأ فقال : حدثني أبي عن جدي عطية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ . » (٢) ونرى في نص البيان اتصال

(١) تيسير الوصول ١١٣ / ٢ .

(٢) تيسير الوصول ١١١ / ٢ .

(٣) تيسير الوصول : ١١٢ / ٢ .

(١) تيسير الوصول ٦٢ / ٣ .

(٢) تيسير الوصول ٢١٥ / ٣ .

المقدمة الأولى بالمقدمة الأخيرة وأخذهما معا في النتيجة عن طريق التدرج في السلم الصاعد .

١٠ - عن أبي موسى رضي الله عنه قال : صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ فقلنا : لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء ، فجلسنا ، فخرج علينا فقال : « ما زلت ما هنا ؟ قلنا نعم . قال : أحسستم . ثم رفع رأسه إلى السماء وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء - فقال : النجوم أمانة للسماء فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمانة لأصحابي ، فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمانة لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون » (١) .

وهنا ينقل البيان عقول المخاطبين من المشاهد الحسي إلى القيمة المعنوية التي تشبه ارتفاعا واتساعا وخطورة شأن ، يتبينها كل مؤمن عرف قدر وجوده عليه السلام بين صحبه . ألم يفزعوا لوفاته حتى نُزلوا منزلة من ينكر أنه بشر يموت ، حتى ذكروهم بأخوهم بقوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . . ﴾ . ألم يكن ذلك موقفاً عمر حتى استنقذه أبو بكر من دهشته هول الخبر ؟ كيف يُعبر عن الأمن بأكثر من قول الله تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنتم فيهم ﴾ .

ثم يلي هذا درجّة صاعدة في سلم التاريخ ، تقيس حياة أصحابه بين التابعين على حياته هو عليه السلام بين أصحابه في كونهم أمانة لهم ما داموا فيهم . وقد صدق رسول الله ﷺ ، فما ترك مكانه إلى الرفيق الأعلى حتى كان ما كان من أمر الصحابة ، وظلوا بخير يفتح الله لهم وعليهم مع ما لحقهم حتى أفضوا إلى الله ، ففرقت الأمة شيعاً ، وتشتت مذاهب في السياسة والدين حتى طمع فيهم من لا هم له في أن يطمع .

١١ - ومن هذا التدرج الصاعد في سلم الوجدان قوله ﷺ : « من خاف

أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله هي الجنة » .

ونحن إذا سيرنا مع هذا المنطق الوجداني في توليد المعاني من المعاني وترتيب العناصر على العناصر ، وإثارة الكوامن بتربية المهابة أو الشوق في القلوب - وجدنا ذلك أمراً غالباً على البيان النبوي الكريم ، جعل من الصحابة ناساً غير من كانوا إياهم قبل أن يؤمنوا ، إذ وجدوا أنفسهم كل يوم في جديد أسرٍ من كتاب الله عز وجل ، وبيان قاسر من صاحبهم رسول الله ﷺ ، وهم قوم تسحرهم العبارة ، وتدهشهم الإشارة ، فكيف بها إذا حملت مع الافتنان العجيب في اللفظ القيمة النفسية الفائقة في المعنى ؟ .

لقد كان عليه السلام حبيبا إلى أرواحهم ، لأن منها منافذ نظراته ، وحبيبا إلى قلوبهم ، لأن فيها معازف كلماته ، ولقد ظل بيانه حبيبا قريبا إلى نفوسنا مع بعدنا الكبير عن زمنه لأن بيانه لم يكن لزمنه ، وإنما كان لقلب الإنسان وروحه ما دام الإنسان بقلب إنسان وروح إنسان ، نؤخذ به لخصائص كامنة فيه ، يعرفها بأثرها إن لم يعرفها بذاتها كل من مس الإصبع مفتاح الضوء ، تملأ قلبه بهجة ونوراً وسعادة ، ثم لا عليه أن يكون من علماء الطبيعة ينشغل عن المتعة بالضيء بالكشف عن سر التوصيل واختبار الموصل .

(١) تيسير الوصول : ٢٢٧ / ٣ .

الثروة النفسية في البيان الكريم

الرسول الكريم ﷺ بشر من البشر ، له قلبه ووجدانه ، يجب كما يجب البشر ، ويكره كما يكره البشر ، ولكن حبه وبغضه مرتبط بالله ، فحبه له ، وبغضه له ، وكان عليه السلام يَرْضَى فيتحدث في الرضا ، ويغضب فيتحدث في الغضب ، ولسانه في كلا الأمرين منوط بالحق ، وهذه الأحوال أمهات لما ينشأ حولها من صفات نفسية هي سر الحياة في بيانه المبين ، لأنها الثروة التي إذا انطلقت فيه غلا وعلا ، وهز وأثر ، ووجودها في النص هو مقياس صدقه الفني ، وهو روح الصورة البيانية ، والدافع لقوى التغيير أن تتسابق في إبداع أسرارها .

لا عجب إذن أن نجد أنفسنا مع بيانه عليه السلام مأخوذين بمعانيه مشدودين إلى أهدافه ، متمثلين صورته في قلوبنا وهو يُحَدِّث ، لأنه يخاطب منا القلوب قبل الأسماع ، لصدور الكلام عن قلبه الرؤف ، الحافل بشتى العواطف والأحاسيس ، التي تربط بينه وبين أمته ، يهبجه مخالفة المخالف وعصيان العاصي ، ويحزنه كَرْبُ فييكي فَقْدَ عزيز حبيب ، ولكن لا يقول ما يغضب ، ويتوجَّسُ الهزيمة ، ويرجو النصر ، ويتغير لتغيير الطبيعة خوفَ العذاب بما عُدِّبَ به السابقون ، ويظهر البشرُ على وجهه ، والابتسامُ على شفتيه إذا استشعر ما يُفْرِحُ ، لأنه النبيُّ الإنسانُ الذي كلما تأكَّدتْ إنسانيته تأكَّدتْ نبوته ومعجزته .

ولد عليه السلام مولدًا اليتامى . . ونشأ منشأ الغرباء . . وأحسَّ لذعة الفراق . . وتدرجَ ينمو ويتسع بنموه واتساع عمره ما لا يصبر عليه إلا أولو العزم من الرسل . . . !

عاش حياة لا تقاسُ بها حياةٌ بَطَلٍ مغامر ، وبدأ فُضِّلَ رسالته من تلك الحياة

الحافلة بالتجربة أن اتصل بخارق غير مرتقب هزّه هذا ، هو نزول الملك عليه في الغار بأول الوحي ، فكان بدءاً لحياة رسالته ، لحقه منه الفراق والرعدة التي تشبه الحمى ، حتى شكا إلى خديجة زوجها ما لحقه ، يسألها أن تنزله في لهجة المشفق ، وتكرار المتعجل ، فشددت من أزره ، وقوت من عزمه ، فعّل الزوج الحكيمه المسعفة زوجها عند الشدائد ! .

وقد يُردُّ على الواهم الحالم المتهم عزم النبي وبطولته أولاً - أن يترك لخياله استكمال أركان الصورة في الصفة والزمان والمكان ، وثانياً أن يسمع في حصافة قوله عليه السلام : « فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت لست بقارئ ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ خلق الإنسان من علق . ﴿

تقول عائشة رضي الله عنها : « فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة فقال : زملوني زملوني ! فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر ، وقال : خشيت على نفسي . . . » .

وهكذا يبدأ فصل النبوة بحادث يشغل النفس ، ويبعث الكوامن ويمدها مداً تتفرق الحياة كلها فيه ، بل تموج حياة ما بعد الحياة هي أيضاً في رحابه ، ويضع (ورقة) الراهب المتبتل في قصة البدء ، لافتة ملونة تنعكس ألوانها على النفس الزكية ومضة غيب ، تكشف عهداً ينذر بشر ، وغداً يسفر عن خطر ، وأمرأً يحوج إلى نظر ، وانظر معي قول (ورقة) يخبر بالغد : « ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك . ! » وقوله عليه السلام مشفقاً : « أو تُخْرِجِيَّ هم . ؟ وتأمل مدلول الرد من (ورقة) وما يتسع وراء لفظة القصير من دوائر متلاحقة في بحر الفكر إلى ما شاءت الحكمة : « نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي . ! » .

لا غرو أن تكون حياة جديدة هذا استهلالها ، حياة نفسية معبأة بما لا يمكن وصفه أو الإحاطة به من ألوان الأحاسيس والوجدانات ، التي تعبر عنها البلاغة

تعبيرها ، فتكون بلاغة محمد ﷺ ، التي هي طبقة بعد الوحي وحدها ، وهنا نذكر ضروباً من الأحوال النفسية الشريفة ، كما تقررها الأحاديث ، يتأكد بها سر العظمة البيانية عنده عليه السلام ، فما كان فناً يقصد السحر بالفن ، ويستجلب الإبداع بالأناة ، ويستر القول بالصنعة ، بل كان الفن يسحر منه ويروق فطرة مصطفاه ، والإبداع يظهر في حديثه فيبهراً طبعاً مجتبي ، والصنعة تدق على الناظر ، وتجل بسر غير مكتسب ، وكل ذلك صورة قلبه النابض ، في كل نبضة منه قذفة نور تضيء ، وقذفة نار تحرق ، ولولا هذا التدفق بالنور والنار ما بقيت رسالته وعمت - رعاها الله ومدها مد عرشه .

صورة النبي في الخطابة

عن جابر رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم . ويقول : بُعثت أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى » (١) .

ولا يحتاج هذا إلى زيادة بيان عن تصوير الحال النفسية للنبي ﷺ في مواقف خطابته ، ومن دلائل اهتمامه عليه السلام خطابته واقفاً فقد كان يخطب الخطبتين قائماً ، ويفصل بينهما بجلوس خفيف (٢) حتى أوخذ من يخطب الناس جالسا لمخالفة ما عرف من سنته ، وما أثبتته القرآن من صفة قيامه .

عن كعب بن عجرة أنه دخل المسجد وعبد الرحمن بن أم الحكم يخطب قاعداً فقال : انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعداً ، والله تعالى يقول : ﴿ وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾ (٣) .

وقد سبقت الإشارة إلى ما يدل على شدة تأثيره بتجربته النفسية التي يريد بثها في قلوب أمته عند الحديث في فصل الاستفهام عن التشويق ، والسكتات التي

(١) تيسير الوصول ٢٦٣ / ٢ .

(٢) (٣٠٢) تيسير الوصول ٢٦٢ / ٢ .

تخللت خطبته في حجة الوداع ، حتى ظن أصحابه أنه سيسمي الشهرَ والبلدَ واليومَ أسماءً أخرى من شدة ما لحقهم من الإشفاق تأثراً بطريقة أدائه .

صورته عند الوحي

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : سألت النبي ﷺ : هل تحس بالوحي ؟ فقال : « أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يُوحى إليّ إلا ظننتُ أن نفسي تقبض » . قال الخطابي ، والمراد أنه صوتٌ متداركٌ يسمعه ولا يتشبته أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد^(١) ، وأخرج ابن سعدٍ عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغط في رأسه ، ويتربّد وجهه ، ويجد برداً في ثناياه ، ويعرق حتى يتحدر منه مثل الجمان^(٢) » .

في مواقف أخرى من غضبه ورضاه

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى كأنما نقيء في وجهه حب الرمان من حمرة الغضب ، فقال : « أهبذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما أهلك من كان قبلكم كثرة التنازع في أمر دينهم واختلافهم على أنبيائهم^(٣) » .

٢ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته ، إنما كان يتسم .

وكان إذا رأى غيبا عرف في وجهه ، فقلت : يا رسول الله . الناس إذا رأوا

الغيوم فرحوا رجاء أن يكون منه المطر ، وأراك إذا رأيت غيبا عرف في وجهك الكراهة ؟ فقال : « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذّب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارضٌ ممطرنا !^(١) .

وكيف لا تكون هذه شدة خشيته ﷺ وهو يرى ما لا نرى ، ويسمع ما لا نسمع ، ثم هو أتم الناس وعيا لمدلول صفات القهر والقوة والانتقام وأمهاها من صفات الجليل الجبار ، أليس يقول : « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون : أظت السماء وحق لها أن تظط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجدا ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى ! . وددت لو أتي شجرة تعضد !^(٢) .

إلى أي ذروة بلغ وجدانه هذا ، وإلى أي حد فاضت اندفاعاته ، ومن أي نبع جاء استبطانه وتأمله ؟ بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! .

٣ - وعند الدعاء والرجاء يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لما كان يوم بدر ، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل القبلة ، ثم مد يده فجعل يهتف بربه : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ! . اللهم آتني ما وعدتني ! . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض ! » . فما زال يهتف بربه مادا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله . كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله تعالى : ﴿ إذ

(١) الإتيان ٤٤ / ١ .

(٢) الإتيان ٤٥ / ١ .

(٣) تيسير الوصول ٢٤٨ / ٢ .

(١) تيسير الوصول ٢٤ / ٢ .

(٢) تيسير الوصول : ٣٥ / ٢ .

تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴿ فأمده الله تعالى بالملائكة ﴾ (١) .

وحسبك به سفيراً عن ربه يحارب في داره ، ويؤذى في نفسه وأهله وأصحابه ، ويخرج من وطنه ، ويقاوم بظلام الباطل وظلمه نور دَعْوَتِهِ وعدله ثلاثاً وعشرين سنة ، داعياً لا يصمت ، منافحاً لا ييأس ، معلماً لا يمل ، يحس حس أمته ، ويجد وجدان جماعته ، لارتباط قلوبهم بقلبه ، وشعورهم بوجدانه .

١ - عن عمرو بن العاص رضي الله عنها قال : خرج رسول الله ﷺ يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه ، فلما انتهى إليها قال : « اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم حفاة فاحملهم ! . اللهم إنهم عراة فاكسهم ! . ففتح الله له يوم بدر ، فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا » (٢) .

٢ - وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نعى زيدا وجعفرأ وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : « أخذ الراية زيداً فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب - وإن عيني رسول الله ﷺ لتذرفان - ثم أخذها سيفٌ من سيوف الله : خالدُ بن الوليد من غير إمرة ، ففتح الله تعالى له (٣) » .

ومن هذا التجاوب الوجداني والمشاركة العاطفية ، تجرته الكريمة أن امتداد النفس وإفاضة الدمع مما يستنفد طاقة الحزن ، ويعالج القلب حتى يظهر أثر هذا في تعليمه الشريف لأصحابه .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « مات ميت من آل رسول الله ﷺ فاجتمع النساء يبكين عليه ، فقام عمر رضي الله عنه ينههن ويطردهن ، فقال

رسول الله ﷺ : « دعهن يا عمر ، فإن العين دامة ، والقلب مصاب ، والعهد قريب » (١) .

وهذه أخرى من امتحان القدر عاطفة الأب يزكيها فقد ريجانته إبراهيم لا يملك أن يمنع عينيه أن تذرفا الدموع ، وأن يحول بين قلبه والحزن عليه ! ترى من يكون أحنى على الولد وأرحم ممن أرسله الله هدى ورحمة للخلق أجمعين ؟ .

عن أنس رضي الله عنه قال : « دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين ، وكان ظئراً لإبراهيم بن رسول الله ﷺ فأخذ رسول الله ﷺ ابنه فضمه وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان ، فقال عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ فقال : يا ابن عوف إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى فقال : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » (٢) .

كان عليه الصلاة والسلام أول الناس شعوراً بالكرامة ، وأصدق الناس حساً بالعرف ، لا أنفة فارغة بالحمق ، ولا حمية جاهلية بالضلال ، بل إباء لله الحق ، وحفاظاً على حدوده وحماءه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال سعد بن عباد رضي الله عنه : يا رسول الله . لو وجدت مع أهلي رجلاً أمهله حتى آتي بأربعة شهداء ؟ فقال ﷺ : نعم . فقال : كلاً ، والذي بعثك بالحق إن كنت لأعجله بالسيف قبل ذلك ، فقال ﷺ : « اسمعوا إلى ما يقول سيدكم : إنه لغيور وأنا أغير منه ، والله تعالى أغير مني (٣) » .

وكم رأينا . وكم نرى أثر المثير النفسي يصحب تعبيره الكريم ، في حركة أو

(١) تيسير الوصول : ١٧٤ / ٤ .

(٢) تيسير الوصول ٢٧٥ / ٤ .

(٣) تيسير الوصول : ٢١٤ / ٣ .

(٢٠١) تيسير الوصول ١٧٤ / ٣ .

(٣) تيسير الوصول ٢٠١ / ٣ .

علاج النفس

يرتبط تماما بهذه الحياة النفسية اهتمامه ﷺ بعلاج النفوس ، والطب النبوي في ذلك ناجح بالتجريب ، وناجح بالتحليل والتعليل ، وقوة القوى في هذا العلاج هي الإيمان في قلب المؤمن ، الذي كلما قوي واشتد تلاشت دون طاقته الوسواس ، وهوت الهواجس واطمأن القلب ، وسكنت النفس ، وتبدلت بالرجاء اليأس ، فأقبل المرء على الحياة صحيحا معافي ، وأقبلت الحياة على المرء باسمه زاهية .

والعلاج الحكيم للنفوس يتخذ ألوانا كلها نابع من هذا المصدر الأوحد ، وتلك النصوص الكريمة صور من تلك الوسائل :

١ - عن بريدة رضي الله عنه قال : « شكنا خالد بن الوليد المخزومي رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ما أنام من الأرق ! فقال له النبي ﷺ : « إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت ، كن لي جارا من شر خلقك كلهم جميعا ، أن يفرط عليّ أحد ، أو أن يبغني عليّ ، عز جارك وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، لا إله إلا أنت (١) » .

٢ - عن الخدري رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة ، فقال : « يا أبا أمامة ، ما لي أراك جالسا في المسجد في غير وقت صلاة ؟ قال : همومٌ لزمته وديونٌ يا رسول الله . فقال ﷺ : « ألا أعلمك كلمات إذا قلتها أذهب الله عنك همك ، وقضى دينك ؟

فعل . أو إشارة أو انتفاضة ، أو غيرها مما يملأ نفوس السامعين إشفاقا وحذراً ، والقرآن يواسيه ويشجعه في هذا الاشتغال الوجداني والشفقة المرهقة مرة بعد مرة ، فيقول :

﴿ لعلك باحع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ .

﴿ ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يكرهون ﴾ .

﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا . ﴾ .

﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

﴿ فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ .

﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ .

﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ .

﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ .

﴿ فإن عرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ ﴾ .

اختار الله له قلبا ملاءة رحمة ، وربط بين هذه الرحمة وكلُّ كبد رطبة ، فهو يحس ما يصيب الحيوان من كلال ، وينكشف بها له ما يناله من لذع الجوع والظمأ ، فيحكى قصة امرأة دخلت النار في هرة حبستها ، وقصة بغية تدخل الجنة في لحظة من عطف ، أزالها عن كلب غلة الصدى ، ويقول حيناً : « لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر » ويستفهم حيناً منكراً على أخذ فرخ الحمرة : « من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها » ، ويبين أثر الرحمة المطلقة لأصحابه فيقول : « في كل كبد رطبة أجر (١) » .

(١) تيسير الوصول ٧٢ : ٢ .

(١) تيسير الوصول ١٠٧ / ٢ .

قال : قلت بلى يا رسول الله قال : قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إني أعوذُ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ، فقلت ذلك ، فأذهب الله عني غمي ، وقضى ديني^(١) .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « جاءت فاطمة رضي الله عنها إلى النبي ﷺ تسأله خادما ، فقال لها : « قولي : اللهم رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، مُنَزَّلُ التوراة والإنجيل والفرقان ، فالحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين وأغنني من الفقر^(٢) » .

٤ - عن أغر مزينة رضي الله عنه قال : قال رسول الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم مائة مرة^(٣) » .

٥ - عن صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي ﷺ قالت :

« قال رسول الله ﷺ : « من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما^(٤) » .

٦ - عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنت أبيت مع النبي ﷺ فأتته بوضوئه وبحاجته ، فقال لي : سلني . قلت : فإني أسألك مرافقتك في الجنة ، فقال : أو غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك ، قال : فأعني على نفسك بكثرة السجود^(٥)

٧ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير أحرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ؛ ولكن قل : قدر الله ، وما شاء الله فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان^(١) » .

٨ - عن عروة بن عامر القرشي رضي الله عنه قال : « ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : « أحسنها الفأل ، ولا تردوا مسلما ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك^(٢) » .

٩ - عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه^(٣) » .

١٠ - عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يكن أحدكم إمعة يقول : أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم^(٤) » .

١١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين^(٥) » .

إن مئات من الأحاديث يظهر في سطحها البساطة ، وهي في عمقها أدق وأحذق تركيب يعالج النفس ، وأمراض النفس ، حزن على ماض ، أو خوف من

(١) تيسير الوصول ٣٦ / ٤ .

(٢) أبو داود .

(٣) تيسير الوصول ٣٣ / ٤ .

(٤) تيسير الوصول ٢٦٨ / ٤ .

(٥) تيسير الوصول ٢٦٩ / ٤ .

(١) تيسير الوصول ٧٥ / ٢ .

(٢) تيسير الوصول ٧٥ / ٣ .

(٣) تيسير الوصول ٨٥ / ٢ .

(٤) تيسير الوصول ١٥٨ / ٢ .

(٥) تيسير الوصول ١٧٦ / ٢ .

آت ، أو حرص على نعمة يزيد عن المألوف ، فيصير قلقاً وانزعاجاً أو انطواءً على المحنة ، وعكوف على الفتنة ، واستسلام للنازلة ، يشل النشاط ويعوق العمل ويعطل القوى ، أو اجترأ على الحق ، أو افتراء عليه ، أو زهو بعارية لا تدوم ، وغفلة عن قضاء محتوم .

هذه النصوص وأمثالها تجرح وتأسو : تجرح لتسلب أمراض النفس الخبيثة وتطهر الجرح من الأثر ، وتأسو بأن تبذر في القواعد أسس الصحة والرجاء والبشر والأمان . !

فما أرق خالداً إلا خيالاً سابح يعلم الله أين كانت مسابحه ، ولا يرد خياله عليه ليسكن فينام إلا تحوّل نفسي إلى رباط وثيق ، وعروة متينة لا يفلت منها ، هي هذه الدعوات المباركات تصله بمن هو فوق الخلق ، ومن في يده القدرة سخاء الغني الحكيم .

وأبو أمامة لزم المسجد في غير وقت صلاة هارباً بالهم والدين من ميدان الجهاد ، والهربُ ضَعْفٌ نفسي لا يُسَدُّ به دين ، ولا يُنال به رجاء ، فعلاجه أن يعلم في رفق رفيق هذه المضار الكبيرة في حياة المرء ، يجلبها الهم والحزن والعجز والكسل ، ليخرج إلى السوق مُعافئاً منها ، يعمل في جد ، ويسعى في نشاط ، ليسد الدين ويخرج من الهم .

ونفس فاطمة رضي الله عنها تحن إلى ترف ، وتنزع إلى راحة ، وفي تعبها رفع الأجر ، وفي خدمة بيتها كمال الثواب ، فَرَدُّها عما نزعَت إليه إلى أفضل عند الله منه - وهي غرة بيت النبوة - علاجٌ من حرصها وشفاء من نزوعها .

غفلة المرء عن الله نزوح إلى حقل عدوه ، سرعان ما يمكنه من ضرب الحجب على النفس فتروح في مخالِبِ الباغي ؛ وعلاج النفس من هذه الغفلة أن تمسك دائماً بالحلقة ، فيأس منها الشيطان ، ولا حلقة أقوى من استغفار .

والجري وراء الشعوذة والعرافة تمسك بالأباطيل ، نتيجة الجهل وعلامة البعد ،

وعلاج ذلك تشديد النكير ، وقوة التحذير ، من استهواء المشعوذين وكذب العرافين .

وهكذا يمكن النظر إلى أمثال هذه النصوص ، لنندرك قيمة الفرار من الحزن على ما فات ، وأنه من قوة الإيمان وموجبات اليقين ، وأن الاسترسال في تمني الماضي والاندفاع وراء (لو) دخول بالنفس في هوة الردي ، وإن خيراً من ذلك الحرص على ما ينفع ، والنظر إلى ما يرفع ، والإيمان بالقدر الحكيم والقضاء العادل .

وتقويم الشخصية ، والوقوف عند الرأي ، وعدم المشايعة الطائشة علاج للانهار السريع ، والمتابعة البغيضة ، والذوبان المخزي في محيط الرذيلة وتسليم النفس للأذى بعد أن نعرف الأذى فسولة وخمول ، لا يرضى الإيمان أن يصحب مريضاً بهما ، والعلاجُ من شرهما تحذيرٌ جازم ونصيحة قاصدة ، تنفي عن المرء إيمانه إذا صحب الغفلة وجانب الحذر ، وركن إلى الضعف واستساع الخمول ، حتى يلدغ من عدو مرتين .

وهكذا يمكن أن يوضع هذا الطراز من الحديث بعناوين مختلفة هادفة : كيف تنتصر على الضعف ؟ كيف تهزم عدوك ؟ لثلا تطرح في اليم ؟ انقذ حياتك ! استكمل صحتك !

الوزن النفسي والوزن الصوتي

العلاقة كاملة بين الأصوات المعبرة والمعاني الثائرة في النفس ، لأنها صورتها تعلقو وتَنصَّبُ ، وتلين وتشتد ، وتطول أو تقصر ، وكلما كانت الصحة النفسية أكمل كان الوزن الصوتي أنسب ، وليس معنى الصحة النفسية الخلو من الهزات الحادثة بالمشيرات ، فهذا التبلد مرض لا صحة ، ولكن معناها عَدَمُ مجاوزة الهزات درجةً المثير على تدريج النفس ، فجهاز القياس فاسد إن قاس الشيء بغير قيمته ، وعندها تفقد الثقة من نتائجه ، وكلما اشتدت دقة الحس فيه بالقيم المقيسة مهما لطفت علت قيمته ، وتأكد الوثوق منه ، ونفوس القادة هي تلك الموازين في حياة الشعوب ، والرسول من القادة هم أدق وألطف ما وهبت المقادير للبشر ، ولهذا فهم أصح الناس أنفسا ، وأسلمهم منطقاً لأن الله اصطفى نفوسهم لوحيه ، ومنطقهم لشرعه ، وعلمه المحيط وحكمته البالغة وقدرته الكاملة لا تسمح كلها بمثال يفسد عليه القياس .

البيان النبوي كالقرآن المجيد في الهداية والغاية ، لكنه النطق المباشر لنفس الرسول ﷺ يصورها في الرضا والغضب ، واليسر والعسر ، والحرب والسلام ، وجميع الأحوال ، فالقيم الصوتية فيه قيم شعورية تملئها المواقف ، وهي عند البلاغيين تقاس بالبديع ، وقد تعلقو فتقاس بأركان الوزن الشعري ، ولهذا في القرآن وفي بيان النبي عليه السلام اهتموه بالشعر ، كما صحب الوزن السمعي من أثر وجداني يحسون في الشعر قريباً منها ، ونحن في هذا الفصل مع محاولة الإيضاح لتلك الخصيصة الصوتية في الحديث ، وسنجد أنه على جانب من التنعيم النافذ إلى

الروح ، ندرکه دائماً في حسن جرسه ، وتعانق معانيه وتتابع موجاته ، يدفع بعضها بعضاً في نشاط وتشابه .

ولنبداً بظاهرة المشاكلة في الألفاظ لوزن الشعر .

الاقْتِباس

كثير من ألفاظ البيان النبوي يجري على الوزن ، ولم يكن ذلك بالطبع مقصوداً منه ﷺ ، كما أنه لم يسر على منهج ، ولهذا نرى ما يضمه الشعراء أشعارهم من كلامه الشريف إما باقتباس النص ذاته ، وإما بشيء من التغيير الطفيف له ، ومنه ما يحمد للمحافظة على الأهداف الشريفة ، ومنه ما لا يحمد لاستعماله على عادة الشعراء ، إلا أنه كاف على أي وضع في إثبات الخصيصة التي من أجلها سبق .

وتلك أمثلة نسردها لهذا النمط :

- ١ - قال لي الخاطب ماذا تبتغي فوق هذا الحسن في هذا الزمن؟ قلت : قد حذرنا خير الوري
- ٢ - تربت يداك اظفر بذا ما المال والحسن وما الجاه
- ٣ - أزيلوا الحقد يَصِفُ الجوبيينكم فإن فساد ذاتِ البين حالقة
- ٤ - حذار حذار من نظراتِ سوءِ فلا والله ما فتنن تواليت
- ٥ - من التمس رضا الله ومَنْ يَرْجُ رضا الناس فكُنْ في جانب الله
- ٦ - «أمسك عليك لسانك» إن اللسان لعقربا كم من حصائدُ لسانها تنالُ العطا

- ٧ - دعوتك للود الذي كان بينا فليج بك الشيطان يُفْسِدُ ما صفا
- ٨ - إن شر الناس طرا والذي «يَجِدُ عبده»
- ٩ - قلت للقاسي على الناس مقالا قلبك القاسي إذا ظل جحوداً
- ١٠ - احمَلْ على النفس التقى من غير مَنْ واستمع
- ١١ - اتقوا الظلم فإن «الظلم» واتقوا الشح فإن الشح أهلك الماضين حرصاً
- ١٢ - «لا يدخل الجنة من لا هديئة» «لا تحقرن جارة»
- ١٣ - «فِرْتُنْ شاة» للرضا
- ١٤ - مِنْ سنة الإسلام أن «تطعم الطعام» على جميع الناس فتربِّح القبولاً
- ١٥ - «أنزلوا الناس منازلهم»
- ١٦ - «أنصر أخاك ظالماً» كم بات منا نادماً مَنْ صانه في شره
- ١٧ - «أفشوا السلام بينكم» تواءموا
- ١٨ - «مثل المجلس الصالح» يُجْذِيكَ أو تبتاع منه

- ورُحْتُ على قلبي الذي لام لائها «كفى بك إثماً لا تزالُ مخاصماً»
- «الذي يأكل وحده» والذي يَمْنَعُ رفده
- قاله خيرُ الوري سار مثالا أبعدُ الناس من الله تعالى وابذلُ سخياً ما يجبُ
- «لا يدخل الجنة خب» لم يوم الدين ظلمة ح بين الناس غمه فاستباحوا كل حرمة
- يأمن الجار أذاه هديئة لجارة والحب خير شارة
- بل منه في السنام وتقرىء السلاما تُلين قلب القاسي وتببوع الرسولا
- يعرف الناس منازلكم «تحجزه عن ظلمه» من لم يجد في قومه ورده عن إثمه
- «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا» «كحامل المسك» الأرج شفاء هم ينفرج

١٩ - بالله ما أحقُّه أعطوا الطريق حقُّه
 وحقُّه قد عده في خمسة وحده
 كف الأذى غصُّ البصر ردُّ سلام مَنْ عَبَّرُ
 أمرٌ معروف وجب ومنع منكر أدب

هذا الضرب وأمثاله حفوظ فيه على المعنى الوارد .

ومما حوله الشعر عن وجهه :

٢٠ - ومنكر قتل شهيد الهوى ووجهه ينبىء عن حاله
 اللون لون الدم من خده والريح ريح المسك من خاله
 ٢١ - قال لي : إن رقيبى سيء الخلق فداره
 قلت : دعني وجهك الجنة حفت بالكاره

وبغير حاجة إلى الدليل أن يكون النسق النبوي أزكى جرسا ، وأسمى نبرا ،
 وأوقع أثرا من شعر يتضمن شيئا منه - وإن حوِّظ على النص المقتبس - لأنه الصوت
 الأول للتجربة الشعورية ، والصادق كل الصدق في الدلالة على الوجدان ،
 والمنبعث في الصورة الكاملة للنص على مقياس أبعادها .

صورة من الوزن البديعي

من فن البديع ضروب تحافظ على الأبعاد في تنظيم النطق ، أو تقيمه على
 التكرار في الوحدات ، أو تقابل المعاني والعلاقات ، بشكل يجعل المسموع
 كالمرسوم ، وذلك يعطي النصوص قيسا تتبع الطبع والصنعة في بلوغ الأثر ، وقد
 عني ببديع القرآن علماء البلاغة ، فخصص ابن أبي الإصبع بهذا العنوان كتابا له ،
 وأما بديع الحديث فلم يرد منه إلا أمثلة لأنواع البديعية عند الدراسة ، وهنا نخرج
 على بعض الألوان الواردة في النصوص الكريمة فطرةً دون قصد ، وطبعاً دون
 صنعة .

١ - السجع وتوافق الفواصل :

« مثل ابن الأثير للسجع من البيان النبوي بحديث ابن مسعود رضي الله
 عنه : « استحيوا من الله حق الحياء . قلنا : إنا لنستحي من الله يا رسول الله .
 قال : ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن
 وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا » .

ثم مثل بحديث عبد الله بن سلام : « أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا
 الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » (١) .

وهذا من السجع الذي لم تغير الفاصلة فيه شيئا من الحروف ، كما مثل للنوع
 الثاني بقوله ﷺ لابن ابنته عليهما السلام : « أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين
 لامة » (٢) ، والرواية في سر الفصاحة عن ابن عباس : « أعيذكما بكلمات الله التامة ،
 من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » (٣) .

ومن ذلك الحديث : « ارجعن مأزوراتٍ غير مأجورات » وقد تأثر لفظ
 الفاصلة الأولى بهمز واو مؤزورات لأنه من الوزر حتى يتم التوازن والسجع ، ولا
 يعني ذلك القصْد إليه ، فإن جهازاً خفياً في القوى الباطنة من الإنسان يفعل
 الأعاجيب .

ومما مثل به لذلك ابنُ سنانٍ قوله عليه السلام : « خير المال سكة مأبورة ومهرة
 مأمورة » قال : فقال (مأمورة) لأجل المناسبة ، والمستعمل مؤمرة أي كثيرة النتاج
 كما قرىء : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ﴾ أي كثرنا (٤) وهو يعني
 بالمناسبة الاتفاق في الوزن الصوتي للفواصلتين .

(١) المثل السائر : ٧٤ .

(٢) المثل السائر : ٧٥ .

(٣) سر الفصاحة : ١٦٩ .

(٤) سر الفصاحة : ١٦٩ .

(١) المثل السائر : ٧٤ .

(٢) المثل السائر : ٧٥ .

(٣) سر الفصاحة : ١٦٩ .

(٤) سر الفصاحة : ١٦٩ .

ومن الفواصل التي تهيأت لها المناسبة التامة فاجتمع الوزن والتقفية والمناسبة الناقصة بالوزن دون التقفية قوله الكريم : ما يصيب المؤمن من وصبٍ ولا نَصَبٍ ، ولا سَقِيمٍ ، ولا حَزَنٍ حتى الهمُّ يهيمه إلا كفر الله به من سيئاته^(١) » ويزيد في الحديث ترديد الحرف (لا) ، فالمناسبة تامة بين (وصب ونصب) لمكان التجنيس منها ، وهي ناقصة بين (سقم وحزن) لوجود الوزن وحده .

ومن أمثلة المناسبة الناقصة من حديث الحور العين : « نحن الناعمات فلا نياس ، ونحن الراضيات فلا نسخط^(٢) » والتوازن فيه ظاهر بين المتقابلات مع التردد للضمير المبتدأ ورعاية النظر .

وعلى المناسبة التامة : « المؤمن غر كريم ، والفاجر خب لثيم » ومنها مع التجنيس ورعاية النظر : « شرُّ ما في الرجل شح هالع ، وجبن خالع^(٣) » وقوله الكريم « إن الله تعالى كره لكم ثلاثا : قيل وقال ، وإضاعة المال وكثرة السؤال^(٤) » فيه المناسبة التامة بين الفواصل الثلاث .

وإليك تلك الأمثلة :

« ألا أنبئكم بشراكم ؟ : الذي يأكل وحده ، ويجلد عبده ، ويمنع رفته^(٥) » ولا يخفى ما في الجمل من التفويف لتفنن الجمع في صفات الذم مع تساوي الألفاظ .

توفي رجل فقال آخر : « أبشر بالجنة » والرسول يسمع فقال : « وما يدريك ؟ لعله تكلم بما لا يعنيه ، أو بخل بما لا يغنيه^(٦) » . وتجنيس التصحيف ظاهر مع المناسبة التامة والترديد ورعاية النظر .

- (١) تيسير الوصول : ٣ / ٣٠٠ .
- (٢) تيسير الوصول ١٠٩ / ٤ .
- (٣) الجامع الصغير : ٢ / ٣٣ .
- (٤) الجامع الصغير : ٤ / ٢٧٤ .
- (٥) الجامع الصغير : ٤ / ٢٧٥ .
- (٦) تيسير الوصول : ٤ / ٢٧٦ .

« أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالاحساب ، والظعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة^(١) » فالجملتان الأوليان يتميزان بالموازنة الكاملة - خشوا وفاصلة - مع ما بين الفاصلتين من تجنيس ، وقد بنى الحديث على الجمع والتفريق ، وبين هذه الأربع رعاية النظر .

« ويل للعرب من شر قد اقترب ، أفلح من كف يده » ومع السجع الملاحظ التزام ما لا يلزم في الفاصلتين بحرف الراء .

« بادروا بالأعمال سبعا : هل تنتظرون إلا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر^(٢) » .

ويدرك المتأمل المناسبة التامة بين (منسيا ومطغيا) و (مفسدا ومفندا) ومعها هنا التجنيس . وبين (ينتظر وأمر) مناسبة ناقصة بانفراد السجع وفي جملة الكلام نجد ألوانا منها : الطباق بين الفقر والغنى ، ورعاية النظر بين المرض والهرم والموت مع تبعية الصفات ، وبين الدجال والساعة ، كما نرى الاقتباس في (الساعة أدهى وأمر) والانسجام ، وائتلاف اللفظ مع المعنى وترديد (أو) العاطفة في تفريق الجمع .

« أحب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هونا ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما^(٣) » .

وترى المناسبة التامة بين (هونا ما ويوما ما) لموافقة الوزن والتقفية وفي عكس الوضع مرة ثانية ، وقد اكتسب النسج من العكس المطلق فيه ومن جناس الاشتقاق ومن الطباق وغيرها من الألوان الزاهية - ما تلاحت به أطرافه ، واستوثقت معانيه ، ورد بعضه إلى بعض متماسكا .

- (١) تيسير الوصول : ٤ / ٢٧٨ .
- (٢) تيسير الوصول : ٤ / ١٦٢ .
- (٣) تيسير الوصول ٢٢ / ٣ .

« الأرواح جنود مجنّدة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »
والمناسبة تامة بين الفاصلتين لمكان الجنس منهنّما ، وبين (تعارف وتناكر) مناسبة
ناقصة للوزن فيهنّما ، وبين الجملتين التقابل ، وهما أقرب إلى التصدير فالتعارف
يدل على الائتلاف ، والتناكر يشير إلى الاختلاف .

« إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق
ابن إبراهيم » ، والكلام يقوم مقام الجملتين ، لطوله بالصفات ، وفيه سجع لم
تظاهره المناسبة ، لعدم اتفاق الفاصلتين في الوزن ، ولكن عوض عنها بالاطراد .

« ما تصدق أحد بصدقة من طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها
الرحمن بيمينه » .

وترى المناسبة بين الفاصلتين الأوليين مع تمكين التقفية والاحتراس والترديد .

« ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما :
اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » .

ونرى المناسبة التامة في الفاصلتين مع الجنس ، كما نرى الترديد للفظ المكرر ،
والمقابلة بين مفعولي العطاء في الجملة الدعائية الأولى والجملة النظرية ويبدو كذلك
التسهيّم وهو دلالة المتقدم على المتأخر ، والمتأخر على المتقدم من الجملتين
المتقابلتين ، ومع ذلك التفويق لاتفاق الجملتين وزنا ، واختلافهما مدحا وذما .

« يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت أو
لبست فأبليت . أو تصدقت فأبقيت ؟ » .

بين الفواصل الثلاث الأخيرة المناسبة التامة ، لوجود الوزن والتقفية مع صحة
الأقسام ورعاية النظير .

« ما كان الرفق في شيء - إلا زانه ، ولا الخرق في شيء - إلا شانه (١) » أو « ما
كان الفحش في شيء - إلا شانه ، وما كان الحياء في شيء - إلا زانه (٢) » .

والمناسبة تامة بين الفاصلتين ، لمحل الجنس فيهنّما ، مع حسن المقابلة يقول
ابن أبي الأصعب : فقابل عليه السلام الرفق بالخرق ، والزين بالشين بأحسن ترتيب
وأتم مناسبة بين الرفق والخرق ، ولفظتي شانه وزانه (٣) .

« اللهم اغفر لي ذنبي كله ، دقه وجله . أوله وآخره ، سره وعلايته » .
والمناسبة تامة بين الفاصلتين الأوليين للاتفاق الصوتي في الوزن والتقفية بوجود
الجناس ، مع المقابلة في المفصل إلى نهاية النص .

وينظر التسهيّم مع المناسبة التامة في هذه الفواصل :
« يسروا ، ولا تعسروا ، وبشروا ، ولا تنفروا » .

ثم انظر وقارن :

« اللهم أنت عضدي ونصيري ، بك أحول وبك أصول ، وبك أقاتل » .

« اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج ، باسم الله ولجنا ، وباسم الله
خرجنا ، وعلى ربنا توكلنا » .

« اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا
تشبع ، ومن علم لا ينفع . أعوذ بك من هؤلاء الأربع » .

« تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة
الأعداء » .

« اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » .

(١) تحوير التحير : ١٨١ .

(٢) تيسير الوصول ٢٣ / ٢ .

(٣) تحوير التحير : ١٨١ .

« كلمتان ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده ؛ سبحان الله العظيم » .

هذه أمثلة من السجع والازدواج مع بعض الألوان البديعية تمثل في البيان الكريم جانبا من الإيقاع الصوتي ، وانطباع الملكة الشريفة بالذوق الفني الموهوب يزيد الكلام روعة ، ويملاً القلوب تأثرا لعذوبة جرسه ، وشجورينيه وطيب نغمه ، حيث يدخل على الأذان مشتاقا ، وعلى القلب وامقا ، فيكون أداة مما به يتقرر المعنى ويسهل الحفظ .

ونستطيع أن نجد مع صوت الفاصلة في ذاته أمورا أخرى من جرس العبارة تزيدها أسرا ، وتعزدها خلاصة ، كأن تعتمد الفاصلة على أحرف سهلة المخارج : كحروف المد واللين والرنين والهمس ، فقولته عليه السلام : « كلمتان ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » نجد فيه الفواصل قد بنيت على النون والنون موجودة في لفظ الغناء ، ومذكورة في كل من الرنين والحنين والأنين والطنين وغيرها من أسماء الأصوات ، ومن العجب أنها في كل من ذلك مكررة ، وقد أدرك الأوائل والأواخر مقامها من الصوت وتشجيته ، فسموها حرف الغنة ، تسمية بأظهر ما فيها من الخصائص في النطق ، وقد تسمى حرف الترجم أخذاً من قول سيبيويه : إنهم إذا ترغموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت^(١) ، ومن أصالتها في التنغيم يلحقون بها أواخر النكرات المعربة تجميلا للنطق ، وقد يزيدونها لمجرد المتعة الصوتية في أواخر الكلمات فتسمى (تنوين الترجم) فإذا لوحظ أن السجع يتأق بتوافق فقرتين في حرف التقفية ، وجدنا التوافق ها هنا بين كلمات سبع ، فلم تقتصر الملكة في موكب الطرب بمقام الذكر على أواخر الفواصل ، بل سجعت الحشوم مع الفواصل جريا مع صوت الوجدان .

وحرف النون والألف الممدودة قد تكررا في تسعة مواطن من الحديث فإذا

تركناها إلى أصوات الحروف الأخرى لم نجد نشازاً في حرف ، إذ نجد (الميم) التي هي أقرب إلى النون جرساً ، حتى أنها ترتد إليها إذا تلتها ساكنة فتتحد بها في الميم المضعفة تنغيماً للنطق ، والنون والميم معاً من الحروف المشتركة بين الرخاوة والشدة والذلاقة ، هذا الحرف أيضاً تكرر في الحديث خمس مرات ، منها كلمة البدء وكلمة الختام للتعاقل ، والثلاث الباقية في الحشو ، كما نجد حرف التاء - وهو حرف شديد هامس - تكرر أربع مرات ، وقد وضعت الياء في أوسط الصفات الثلاث للخبر حفظاً لقيمتها الصوتية ، وتحقيقاً للتوازن بينها ، وإن تكن في الحشو (خفيفتان - ثقيلتان - حبيبتان) .

وهكذا نحن أمام الأحرف الأخرى قادرين على بيان التجاوب الصوتي بينها وبين أخواتها ، ولعلنا إذا تركنا هذا الجانب إلى خاتمة الحديث نجده قد تم بما يشبه (القفلة) في الموشح ، فأق بتقفية مخالفة وهي (الياء والميم) في مقابلة (الألف والنون) ويمكن تصويرها هكذا .

حيث تتحد قافية الأربع الأولى ، وتخالف الخامسة ، أو يشبه التسميط في البيت الواحد من الشعر .

ولعل من عجب الحديث في الاتزان الصوتي أن هذه (القفلة) المخالفة قد حصلت على طاقة أعلى بتكرار صيغة التنزيه مضافة للفظ الجلالة ، وفيهما أسباب متلاحقة قد تساوي شطراً من (المتدارك) انكسر ميزانه بتفعيلة من (الكامل) وسطا هي (بحمده) وبأخرى مقصورة من (الرمل) هي (العظيم) وقد سبق إلى ما عرفنا أنه عليه السلام كان يغير في وزن الشعر حين يتمثل به فكيف يكون حين موافقة الخاطر ؟

وقد يحسن أن نشير إلى ما سبق الحديث عنه من أن تقديم المسند هنا على المسند إليه مشفوعاً بهذه النعوت ، وبحسن الإيقاع ، وبإبهام هذا المسند المثنى المنكر قصداً لتعظيمه - كل ذلك تهييج يزيد التلهف على علمه ، وفي تلك الصفات

تدعيم للسجع برعاية النظر في أجناس المرغبات ، مع وجود الطباق بين الخفة والثقل لإيهام التناقض ، وجمع المتناقضات تحت الحكم أخلب للعقل من جمع النظائر .

وإذا كان أهل النظر في البلاغة يفضلون الفقر القصيرة في السجع ، فإن الناظر إلى هذا الحديث على قصره يجد تلك الخصيصة قد تمثلت فيه بشكل يدعو إلى الإعجاب ، فالفقرات الثلاث بين المسند الموصوف وبين المسند إليه المؤخر كل منها ثلاثة ألفاظ ، الثاني منها على الترتيب حرف التعليق ، ولو وضعت وضعا رأسياً هكذا لما ملح فرق كبير في الصوت :

خفيفتان على اللسان
ثقيلتان في الميزان
حبيبتان إلى الرحمن

ويشبه هذا في النثر ما يسميه علماء البديع في الشعر بالتجزئة ، وهي تجزيء الجمل في البيت أجزاء عروضية تسجع كلها على رويين مختلفين يلتزمان في كل البيت .

أما الفقرة الخاتمة للحديث ، فقد جاء طولها على ما أجازوه من طول الفقرة الثالثة على ما قبلها ، إذ يقدرون ما قبلها بالنسبة إليها كفقرة واحدة ما دامت الزيادة في الثالثة ليست أكثر من مثل ما سبقها ، بل إنهم يقولون : لا بد من زيادة الثالثة عن الثانية في عدد الكلمات .

على أننا إذا كنا نصنع هذا الصنع العلمي الذي يصل إلى التكلف في نظر القارئ - نقرأ الحديث ذاته ، فلا تحس الأذن إلا سلامة جرس ، وطيب نغم ، وسلامة نطق ، دليل الملكة والطبع ، وائتلاف اللفظ مع المعنى ، والمعنى مع التقفية ، فالرسول عليه السلام لا يؤثر السجع ، وإلا لما أعياه أن يلتزمه في جمل الحديث - وإن طال - لكنه قد يسجع بعض الكلام ، ويرسل غيره وإن قصر ، ونظير هذا كثير فيما أسلفت ، ولنأخذ هذا الحديث للتمثيل .

« أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والظعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة » .

حيث نجد القريتين : (الفخر بالأحساب ، والظعن في الأنساب) مشتركتين بالتجنيس في آخرهما (والجناس أكمل في الازدواج ، لأنه يحقق بين اللفظين أضرباً أربعة من البديع : السجع والمناسبة الصوتية في الوزن والجناس والإدماج ، فضلاً عن تناسب الوزني في المنطوق كله ، فكل قرينة منهما تمثل (مستفعلن مفعول) ورغم ذلك الاتحاد الوزني والعددي للكلمات نجد القريتين وسط كلام لم يزدوج معهما ولا مع شيء آخر ، ولكنه مع عدم الازدواج قد اعتمد على حروف متجاوبة الصوت ، متعادلة النغم ، فالياء - مثلاً - نراها في (في - أمتي - الجاهلية - يتركونهن) ، والميم في كلمات متجاورة ثلاث (أمتي - من - أمر) والنون في خمس (تنوين أربع - من - يتركونهن) واللام ثلاث مرات (الجاهلية - لا) ثم ألا نجد (أربع في أمتي) على شطر من مجزوء الرمل (فاعلاتن فاعلن) ؟

فالسجع في البيان النبوي مجلوب بطبيعة البيان نفسه ، وهو صدى الوزن الداخلي وصوته المعبر عنه ، وإنا واجدوه في كثير من المكملات وأجزاء الجمل ، فضلاً عن وجوده في الجمل ، ووقوعه بين المفردات :

« تعوذوا بالله من جهد البلاء : ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » والجرس الهاتف منها يعلن عن ذاته ، حتى يمكن أن يحول إلى الشعر أكثر ما في الحديث :

أعوذ بربي لجهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء !
أليس بيتاً من بحر (المتقارب) ؟ ثم أليس ما بقي منها داخلاً بالنص في هذا الوزن ؟

« وشماتة الأعداء » أذع للفتى من ضره ؟ يا كاشف الضراء

بك أستجير فنجني يا خالقي من محنتي « وشماتة الأعداء »

ومن المفردات المتوالية على منوال التقفية ما لو تمثل شعرا كان :

« آبيون تائبون عابدون ساجدون » .

إنها تحكي بيتاً من (الرمل) المجزوء ، ويصلح لحنا شجياً ، يصور أفراح النفس بالعودة الظافرة بالفلاح ، ويسمى مثل ذلك البديعيون (المماثلة) ولولم تقف الكلمات قافية واحدة لمجرد حصولها على الوزن المتماثل .

بل إن جزء جملة ينطق به ﷺ مجيباً سائله قد جاء هكذا :

السؤال : ما أفضل الحج ؟

والجواب : « العج والنج » .

وما يزال البلاغيون والنقاد يلهجون ببراعة السجع بين السؤال والجواب - لحفته - حينما سئل بعضهم : ما أحسن السجع ؟ فأجيب : ما خف على السمع ، فسئل : مثلُ ماذا ؟ فأجيب : مثل هذا ، وإنما كان مُبدعاً أصليه أفصحُ العرب عليه السلام .

وانظر إلى الطرب الذي يأخذ نفسك إلى أقصى أبعادها ، وتمثل حال أهل الجنة وأنت تنشئ وتكرر قوله ﷺ :

« أهل الجنة جُرْدُ مُردٍ » « أهل الجنة جُرْدُ مردٍ » .

ومن الخصائص الفارعة للسجع في بيانه - أنه دائماً مههد له بمهاد معنوي أو لفظي ، يمكن السجعة في مكانها ، ويجعلها أكمل ارتباطاً بحملة كلامها ، ومن هذا التصدير قوله ﷺ « إذا ولج الرجل إلى بيته فليقل : اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج ، باسم الله ولجنا ، وباسم الله خرجنا ، وعلى ربنا توكلنا » .

إن فعل الشرط يدل على الشيء المسؤول الذي هو نهاية القرينة الأولى ، للاشتقاق من مصدر واحد (ولج - المولج) وتلك القرينة ترشد إلى مقابلتها في

السياق (خير المخرج) والتسمية باسم الله - بمعونة المقام - وسابق الكلام - تدل على ما يعقبها من الفعل (ولجنا - خرجنا) وقد زاد تمكن التقفية في القرينتين الأخيرتين باتحاد الضمير اللاحق لحرفها .

هذا إلى ما وسعه النص من ترديد ، ومقابلة ، وإظهار مكان الإضمار والتفات من الخطاب إلى الغيبة ، واكتفاء بحال الولوج عن ذكر العكس إذ ما يجب هنا يجب هناك ، وكأنه يعني : (وإذا خرج فليقل : اللهم إني أسألك خير المخرج وخير المولج باسم الله خرجنا ، وباسم الله ولجنا ، وعلى ربنا توكلنا) .

وانظر إلى قوله الكريم : « إذا بعْتَ فِكْلٌ ، وإذا ابتعْتَ فَاكْتَلٌ » تر المعنى يوجب لفظ القرينة ، والسابق عليه يمهد لتمكنه في موضعه ، فالبيع وهو فعل الشرط يستحق التقدير لا الجزاف حذراً من الإخسار في قوله تعالى : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ وعطف الابتاع على البيع يوجب حق النفس في مقابل حق الغير ، فالجملة الشرطية الأولى مهاد مهده للثانية ، حتى يمكن للسامع قبل ذكر القرينة الثانية أن يعرف ما هي .

ومن الفواصل النبوية ما يحدث بتكرار لفظ بذاته ، لا يختلف معناه وذلك حينما يكون لذكر هذا اللفظ مزية لا يفيدها ضميره على نفس الوجه تربية للمهابة ، أو حملاً على الامثال ، أو تذكيراً بالمنة أو غيرها ، ومنه : « أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله » و « الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ، ومن قطعني قطعته الله . » و « ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيص الله له من يكرمه عند سنه . » و « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » و « من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله تعالى ، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله تعالى ، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله تعالى » إلى أمثال لهذا كثيرة ، لا يخفى على المتأمل سر التكرار فيها وقد سبقت إشارات كثيرة إلى لطائفه وحكمته .

تصوير المعنى بجرس اللفظ

إن من فضيلة الجرس في البيان النبوي أن نرى لفظاً في الحديث واحداً يرسم صورة المعنى الكامل ، أو يساعد في أكبر حيز من الإطار على تصويره أو تأكيد معالته في جوانب الصورة .

١ - دخل عليه السلام على أم السائب وهي مريضة بالحمى فقال لها : « مالك تترفين فقالت : الحمى ! لا بارك الله فيها ! فقال : لا تسي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديث »^(١) .

(تترفين . . . !) .
هذا الفعل وحده يرسم لنا صورة فكي أم السائب رضي الله عنها ووجهها في حركة سريعة قسرية تدل على نوع المرض الذي هي عرضة ، وقد يصحب ذلك صوت غير مقصود تساوي ذبذبته الحركة نفسها ، ومُضَعَّفُ الرباعي يصحبه التكرار المتلاحق في الحدث الذي يدل عليه ، والرسول عليه السلام يعرف من الأعراض مرض أم السائب ، ولكنه تلطف سائلاً ليؤنسها بحديثه أولاً ، وليستدرجها إلى راحة نفسية يبث الشكوى ، ثم ليعطيها ثانياً طاقة من الأمل في جزاء الصبر على قضاء الله بما يصيب المؤمن من المرض ، وهي طريقة المعلم الحكيم المعصوم ، يتمكن بها من قلوب التلاميذ .

(١) تيسير الوصول ٣٠٠ / ٣ . من نسخة (بيت الحكمة) ١٣٢٩ هـ / ١٩١٥ م .

٢ - « الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتبع فيه وهو عليه شاق له أجران(١) » .

هل نجد لتصوير ثقل النطق وعي اللسان ، ومحاولة القراءة مع عدم الإجابة أبرع من هذه الأداة الكاشفة ، كلمة واحدة أعطت صورة اللسان ، يحاول أن ينهض بحمله من جانب فيثقل من آخر ، فيكرر العمل ويكرره ، لما نيظ به من الأجر . ! (يتتبع) فعل نشأ من مكرر (تع) وأحد الحرفين شديد هامس - وهو التاء - والآخر وسط بين الشديد والرخو ، إلا أنه يمثل بالمقطع المكرر في الماضي المجرد (تع تع) معاناة الناطق حتى ينطق بالجزء من اللفظ أكثر من مرة ، لشدته على اللسان ، كمن يهز الجسم في مكانه مرة ومرة يحاول نقله . .

وصوت المقطع القصير يدل على قصر المهمة عن الاندفاع ، إذ أنه ما تنطلق فيه الحركة حتى يلحقها السكون ، وذلك التصوير كافٍ لبيان جهد الفاعل إذا (تتع) الجسم ، ولكننا نرى اللفظ في النص قد زاد إيضاحاً لجهد القارئ ، وما يصاحب عضلات النطق وملكات الاهتمام بزيادة المضارعة والمطاوعة فليس الثقل في (يتتبع) عيا عن اختيار لفظ سهل يؤدي المعنى - وحاشا للرسول أفصح العرب أن يكون هذا شأنه - وإنما هو من أذكى وأسمى ما به ثبت فصاحته عليه السلام .

٣ - « لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري » .

« ألا أخبركم بأهل النار؟ . . . كل عتل جواظ مستكبر » (٢)

الجواظ : الغليظ اللفظ ، وقيل : السمين المختال في مشيته ، وقيل : القصير البطين ، والجعظري اللفظ الغليظ .

أي غلظة أو فظاظة لا يتصورها السامع عند سماع هاتين الكلمتين ولو لم

يفسرهما المفسرون ، أحسب أن لو نودي بإحداهما إنسان من أهل الأرض لغته أي لغة لثار الغضب في وجهه لما يتصوره وراء اللفظ من قبح بالغ مبهم .

لقد ناسب عليه السلام بين المعاني والكلمات مناسبة كاملة :

فالثقل والطول في اللفظ يصور الثقل وامتداد الثقل في الموصوف ، وقد جاء (جواظ) على صيغة المبالغة مضعف العين ممتد المطي مختوما بالطاء التي ينتهي لديها إفراط الغلظ .

أما (الجعظري) فناهيك بما يجري به لسانك تصويراً لدلوها ، فدع لسانك يرسم في مخيلتك هذا (الكاريكاتير) واعلم أنه صُنِفَ من أهل النار .

إن لطيفة من دقة البيان النبوي تفرغ المكان لتفطيع الصفتين ، فقد حَلَّ في الحديث محل الموصوف ، فدل كل منهما على الذات والصفة ، حتى ترى الذات قد ذابت في الصفة كما وكيف .

٤ - ثم الذين يتعمقون الكلام ، ويتفاصحون في المنطق ، فيملأون أشداقهم بالكلمة ، ويتكلفون الأداء بالمبالغة في امتلاء المخارج بالحروف يصورهم البيان النبوي بهذه الألفاظ ، فدعها أمام فكرك وارسم لها صورة في خيالك ، وانظر كيف تكون ؟

« هلك المتنطعون - قالها ثلاثاً - (١) والتنطع : التعمق والتفاحص .

« إن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني أساؤكم أخلاقاً : الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون(٢) » .

٥ - وكم يصور (العج والشج) في أعمال الحج من متابعة الصوت بالتلبية ومتابعة الحركة في السعي والطواف وأداء المناسك ؟

(١) تيسير الوصول ٢٧٧ / ٤ .

(٢) البيهقي في شعب الإيمان عن مجموعة الحديث النجدية : ٢٣٩ .

(١) تيسير الوصول ٨٦ / ١ .

(٢) تيسير الوصول ١١٥ / ٤ .

ضرب آخر للتوازن الصوتي

يشكل العكس في وضع الألفاظ من الجمل توازناً صوتياً وتوازياً هندسياً يشبه الزخرف ، ونرى هذا في البيان النبوي على أرفع وجهه من الحسن لشعور القلب به سليماً من الكلفة ، نابعا من الفطرة ، إذ لو حوّل الكلام عن وجهه لفقد الجمال والأسر .

وآية الآيات في هذا قوله عليه السلام : « جار الدار أحق بدار الجار »^(١) .

ومع أن الحديث يعطي مادة من قانون الفقه في الشفاعة لا تجد أروع منه في الفن ليخلط الفقه بالجمال ، ويمزج العلم بالفن ، فيظل يعمل في النفس ويحوك في القلب بعيداً عن الجفاف .

ولا ينتهي العجب من هذه الفصاحة فيبين الجار والدار - وهما وحدة الزخرف - حسن الجناس ، ثم صنع بهذه الوحدة أن كررت منعكسة فكانت كالشجرة وظلها في الماء ؛ أو كجناحي طائرٍ يحلق بالحكم في سماء الشعور !

ومن لطف التوازن النفسي وأثره في التوازن اللفظي أن ما كان نكرة (في ذاته) مضافاً في المعكوس جاء معرفاً في العكس مضافاً إليه ، وما كان معرفاً مضافاً إليه في المعكوس أتى منكرأ (في ذاته) مضافاً في المعكوس ، فخصص الجار المحكوم له بالدار ، وخصصت الدار المحدث عنها بالجار ، فالدار تحت اللفظين واحدة والجار مختلف ، وتكرار الجوار المشترك بين الأثنين تأكيد لعلة الحكم وتقرير ، وقد وقع لفظ الدار بين الجارين وسطاً في النطق مسايرة ومطابقة ، لوقوعه بينها محل

(١) تيسير الوصول ٧٥ / ٤ .

٦ - وكم يصور لفظ (الحطمة) بتلاحق حركاته من شقوة الرعية بقسوة الراعي في قوله عليه السلام (إن شر الرعاء الحطمة)^(١) .

٧ - وكم يصور « ولا تحسسوا ولا تجسسوا » من صورة تتبع الحس والجس تلصصاً وتطلباً لخفايا الناس ؟ .

٨ - وما أهول ما يصور (التقم) صورة الملك النافخ في الصور في هذا الحديث : « كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحيي جبهته واضعا سمعه ، ينتظر أن يؤمر فينفخ »^(٢) ، إنه لا أعجب ولا أروع تصويراً لأخذ الأبهة والتهيؤ للأمر من هذه الصورة في كمالها ، ثم إن هذا الفعل من الصورة في مكان دقيق موح ، مخيل لقيامه على التشبيه ، وكم نبصر في (حيي جبهته) من ترقب ويقظة للأمر القاهر ؟

٩ - وانظر إلى الفعل (يتخوضون) وتصور فيه معنى الجرأة والمبالغة وعدم المبالاة . . يقول عليه السلام « إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة »^(٣) .

١٠ - وتأمل ما يرسمه الفعل (يتجلجل) من جمع الصوت إلى حركة الغوص في قوله الكريم « بينما رجل يمشي في حلة ، تعجبه نفسه ، مُرَجَّل رأسه ، يختال في مشيته - إذ خسف به في الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »^(٤) .

هذه وجازة تفتح الباب لمن شاء أن يطيل البحث ، لينصف المقام ، ويحور الكلام في القيم التصويرية المكتسبة بحروف اللفظ أو حركاته ، وترى كلها راسمة لما في النفس ، تمثل المعاني مختلطة بالوجدان .

(١) تيسير الوصول : ٣٥ / ٤ .

(٢) تيسير الوصول ٩٢ / ١ .

(٣) تيسير الوصول ١٢١ / ٤ .

(٤) تيسير الوصول : ١٣٤ / ٤ .

النزاع في الواقع ، ووقوعه كذلك كوقوع الحد المكرر بين المقدمة والنتيجة في القياس ، فعلى فرض طيه يكون التقدير : جار الجار أحق ، كما يمكن حمل العكس على قصد الفردين في الدار ، فدار خالد أحق بها جاره ماجد ، ودار ماجد أحق بها جاره خالد ، للمساواة بينهما في علة الحكم وهي الجوار ، وهذا من افتنان العبارة ودقة التركيب .

وعلى غرار هذا العكس ما في نهاية هذا النص الكريم : « ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، وإن لكل منها أهلاً ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل^(١) » .

كم هو من أَلطف التعبير ذلك العكس الذي يوجه المعنى ، وتقتضيه طبيعة الصورة ، ظرفان متقابلان في كل منهما ثبوت ونفي ، فهما فيهما متوافقان ، ولكن الثبوت في الثاني مكان النفي في الأول ، والثبوت في الأول مكان النفي في الثاني ، وإذن فهما متخالفان ، وبهذا التخالف تم التقابل ، والنسق اللفظي يجري على النسق النفسي بل والطبيعي ، فالتقدم في الكلام أسبق الظرفين في الوجود بما يقع فيه ، والإخبار عن الظرف بالمصدر في مقام الحث آية في قسر الانتباه . تحملنا على طلب المطابقة بين دقائق الوقت ودقائق العمل واحدة بواحدة ، فعَلَّ الحريص على توفير أكبر الأجر بأكبر العمل ، فقد ارتفع وانتفى الحسابُ لثلا يضيع الوقت في المحاسبة ؛ وليكون المدخِرُ في نشاطٍ يكافئ شكر المحاسبِ الكريم ، ومضاعفته صالح الأجر .

وكما أن اليوم قد استوعبه العمل وحده ، فالغد ظرف أخبر عنه بالمصدر دلالة على استيعابه بالحساب ، ولا عجب يدعو إلى تأويله ، فألوان الحساب متجددة في الجنة والنار ، هؤلاء ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا الذي رزقنا من

(١) تيسير الوصول ١٠٤ / ٤ .

قبل ﴿وهؤلاء﴾ ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب﴾ وكلما ظرف لعموم الأحوال ، واطرادها بدوام الدارين فعُدَّ كله حساباً : تجدد في النعم وتجدد في النقم ، وهذا الظرف أختص بنفي العمل ، فأصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ، لا في عمل كادحون ، لا يمسه نصب جزاء بما كانوا يعلمون ، وأصحاب الشمال : ما أصحاب الشمال ، في سموم وحميم ، تلفح وجوههم النار جزاء بما كانوا يكسبون ، فلا عمل غداً مما جعله المكافئ في مقابل المكافأة ، لفوات الإمكان بفوات ظرفه . . إلهاب وتهيج ، وإعذار بالإلذار ، وتصوير لما سيكون ، يمثله للعيون ، لعله أن يتذكر من يخشى . !

أرأيت محل التأكيد من الجملة ؟ أرأيت الإيجاز بحذف خبر المنفي ؟ أرأيت أن التركيب كله عقب فاء التعليل لما سبق صدر الحديث ، وقد روعي فيه التطابق مع الفريقين ؟ هذه بعض محاسنه .

لننظر كذلك قوله الكريم : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه^(١) » .

ما أصابه لم يكن ليخطئه

ما أخطأه لم يكن ليصيبه

أرأيت إلى هذا العكس في تجنيس الاشتقاق والترديد وصحة المقابلة أقصى الصحة . ؟ ما أجمل مقابلة الماضي بالماضي والمستقبل بالمستقبل . ! وما أجمل أن تقع الإصابة والإخطاء الحاصلان حقيقة أو توقعاً بصيغة الماضي ! إنها زيادة في تأكيد وجوب العلم الجالب لراحة النفس وهدوء الخاطر ، وما أجمل وأجمل أن يقع الإخطاء والإصابة المنفيان بصيغة المضارع ، حتى ينتفي وجود فرد يتجدد منها أو يحدث على أي حال .

إن معناه عدم إمكان حدوث الإخطاء أزلاً لما قدر أن يصيب ، وعدم إمكان

(١) تيسير الوصول : ٧٣ / ٤ .

حدوث الإصابة أزلاً لما قدر أن يخطيء ، فعدم الإمكان في الأزل تقدير ، والإصابة والإخطاء قدر ، فمن علم التقدير اطمأن للقدر ، ثم ينبغي أن يعلم أن الإخطاء المقابل للإصابة هو المجاوزة المطلقة ، واختيار هذا اللفظ إنما كان لما جرى على ألسن الناس من تخطيء القدر جهلاً من عند أنفسهم ، والمرء تخايل له الأوهام وتصور له البعيد قريباً ، والمستحيل ممكناً ، ولهذا يتصور إمكان إخطاء المصيب وإمكان إصابة المخطيء ، فوافق المضارع صورة نفسه العالقة بخيال التجدد والحدوث ، ثم أكد له أن هذا المتصور موعغل في المحال ، لأنه مقيد بالنفي الماضي ، إشارة إلى سبق كينونته على ما هو عليه ، وزاد هذا تقررأً بدخول لام الجحود على كل من الفعلين .

وهذا العكس ليس ترفاً بديعياً ، ولا تأكيداً بعد التأسيس ، لأن القسمة محتومة بين الأمرين : أمر نجبه ويخطئنا ، وأمر لا نجبه ويصيننا ، وذلك أخص وجود الأمرين جلباً لبلبلة النفس ، فإذا حصل العلم بأن ما أصاب لم يكن ليخطيء بقيت النفس غارقة في تخيل النظر ، فالنص عليه جذب لها من عالم الخيال ، وتركيزاً للعلم في جانب الحقيقة .

وتفريع هذا العلم على الإيمان بالقدر خيره وشره ، يوجب أن نفهم بلاغة الإيجاز بالتلميح إلى ما اعتمد عليه ، فمقتضاه أن يكون هكذا : (حتى يعلم أن ما أصابه من الخير لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه من الخير لم يكن ليصيبه وما أصابه من الشر لم يكن ليخطئه . وما أخطأه من الشر لم يكن ليصيبه) أو أن يكون قريباً منه ، وإنما حتم ذلك التقدير ما أتبع به القدر أول الحديث من ذكر خيره وشره .

ثم إن وصل جملة العلم بجملة الإيمان بالقدر كوضع العقل في الرأس ، وخاصة بحرف الجمع ومطلق التشريك ، فالشرط هو الإيمان البصير المبني على ذلك العلم ، وليس مطلق الإيمان .

وبعد هذا . أليست العبارة من قصر اتصاف العبد بالإيمان المطلق على تحصيله هذا الإيمان المقيد وهذا العلم المقرر ؟ .

هذه التأكيدات كلها ، وما قد نراه غيرها ، ليس مبالغة في البيان ، فإن القدر أمر أسكن الأمم قرار الجحيم ، ولن يزال القدر مزلقاً لمن سبق عليه القدر ، فهو أحق بأن يؤكد الإيمان به إيماناً جازماً ، يريح من الهواجس ويشفي من المرء .

بقي أن نشير إلى أن نفي الإيمان في أول الحديث على حقيقته ، فمن لم يؤمن بالقدر لا إيمان له ، وإن صام وصلى ، ولا ينبغي تقدير المصدر الموصوف بالكمال (لا يؤمن عبد إيماناً كاملاً) لأن ذلك لو أريد لنص عليه ، فالمقام للبيان بالذكر ، وتنكير المسند إليه (عبد) لإفادة العموم في سياق النفي ، أما اختصاص لفظ (عبد) دون إنسان أو رجل أو امرئ . . . فإنه غاية التوفيق وغرابة الاختيار ، لأنه براعة مطلع تشعر بسلب المرء حرته أمام المالك الحكيم ، (ما كان لهم الخيرة) وأي موقف يظهر العبودية العاجزة والقهر المطلق غير موقف القدر ؟ .

وأما تعريف القدر فللإشارة إلى المعهود من الشريعة ، والموصوف بالعدل والموسوم بالحكمة ، وإبدال النوعين منه إبدال جار على مقتضى عرف الناس ، في تسمية ما يروونه ببصرهم المحجوب خيراً أو شراً ، فهو تسليم بمعلوم المخاطب ، إيناساً واستدراجاً ، لرده إلى الحكمة ، أما الذين انكشف غيم بصائرهم فلا يرون القضاء إلا خيراً ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ وما يتذكر إلا أولو الألباب ﴿ .

ألوان من البديع

وإذ جَرْنَا الإيقاعُ إلى ذكر المحسنات - أراني بحاجة إلى إنارة أثارة من علمها في البيان الكريم ، لا لتكون حَصراً ، فادعاء ذلك جهل ، بل لتكون أمثلة أمام الدارس ، تتجدد وتزداد كلما نظر في خصائص بلاغته ، وقد أكون في هذا الفصل كلاً على السلف ، إشادةً بفضلهم ، وتقديراً لغوصهم وقد أحفظ أو أخرج على نصهم .

أولاً : عند ابن أبي الإصبع ت ٦٥٤ هـ :

هو أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد المصري ، المعروف بابن أبي الإصبع العدواني ، عاش معظم حياته في ظل الدولة الأيوبية ، وشَطَر من دولة المماليك البحرية - عالماً ، شاعراً ، أديباً مؤلفاً ، ذا ذوق رفيع ، وفهم مُوفِّقٍ ، وملكة مواتية - وقد اختص البلاغة بكتابين جليلين هما (بديع القرآن) و (تحرير التحبير)^(١) وقد اخترته دون غيره لتأخر عصره ، وبلوغ دراسة السابقين إليه ، وانتفاعه بها ، ثم لتمييزه بدقة الفهم ومساعدة الملكة ، ولأنه أوسع أمثلةً في بديع الحديث من كل الذين كتبوا في البديع ، حتى إن شراح البديعيات من بعده قابسون من دراسته ومستضيئون بضوئه .

مثل ابن أبي الإصبع للأشياء الآتية بالحديث النبوي في كتابه (تحرير التحبير) وتلك أمثلتها منه :

(١) الكتابان مطبوعان ومحققان بقلم الدكتور حفي شرف مع المقدمات الواسعة - جزاء الله أحسن الجزاء .

١ - الاستعارة :

« ضُمُّوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء ، فاستعار ﷺ للعشاء الفحمة لقصد حسن البيان ، لأن الفحمة هاهنا أظهر للحس من الظلمة فإن الظلمة تدرك بحاسة البصر فقط ، والفحمة تدرك بحاستي البصر واللمس لأنها جسم والظلمة عرض ، فكان ذكرها - أعني الفحمة - أحسن بيانا من ذكر الظلمة^(١) .

٢ - التجنيس :

من (المطلق) : « عَصِيَّةٌ عَصَتْ اللهُ وَرَسُولَهُ ، وَغَفَّارٌ غَفَرَ اللهُ لَهَا ، وَأَسْلَمٌ سَأَلَهَا اللهُ »^(٢) .

من (الأشتقاق) : « الظلم ظلمات » و « أسلم تسلم »^(٣) .

من (التصحيف) : « لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويتحلى بما لا يغنيه »^(٤) .

من (التحريف) : « الظلم ظلمات » .

من (التصريف) : « الخيل معقود بنواصيها الخير »^(٥) .

٣ - الطباق :

من طباق الإيجاب : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع »^(٦) .

٤ - التصدير :

« أبا مسعودٍ اللهُ عليك أقدَرُ منك عليه » قاله النبي ﷺ لأبي مسعود البديري وقد رآه يضرب عبداً له^(٧) .

٥ - التمام :

« ما من عبد مسلم يصلي الله كل يوم اثنتي عشرة ركعةً من غير الفريضة إلا بنى الله له بيتا في الجنة » وقع التتميم في أربعة مواضع من هذا الحديث هي :
« مسلم - لله - كل يوم - من غير الفريضة^(١) » .

٦ - الكناية :

قال : وفي السنة النبوية من الكناية ما لا يكاد يحصى كقوله ﷺ : « لا يضع العصا عن كتفه » كناية عن كثرة الضرب وكثرة السفر^(٢) .

٧ - المبالغة :

قال : وقد جاء منها في سنة رسول الله ﷺ ما لا يحصى كثرة ، ولا يلحق بلاغة ، كقوله عليه السلام مخبرا عن ربه أنه قال سبحانه : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به » وقوله في بقية هذا الحديث : « والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » ففي هذا الحديث مبالغتان : إحداهما كون الحق سبحانه أضاف الصيام إلى نفسه دون سائر الأعمال ، لقصد المبالغة في تعظيمه وتشريفه ، وأخبر أنه عز وجل يتولى مجازاة الصائم بنفسه ، مبالغةً في تعظيم الجزاء وشرفه ، ونحن نعلم أن الأعمال كلها لله سبحانه ولعبداه باعتبارين ، أما كونها للعبد فلأنه يثاب عليها ، وأما كونها لله تعالى فلأنها عُمِلَتْ لوجهه الكريم ومن أجله ، فتخصيص الصيام من بينها بالإضافة إلى الرب سبحانه ، وتخصيص ثوابه بما خصصته به إنما كان للمبالغة في تعظيمه والحض عليه .

(١) تحرير التحرير : ١ / ٩٩ .

(٢) تحرير التحرير : ١ / ٩٩ .

(٣) نفس المرجع : ١ / ١٠٥ .

(٤) نفس المرجع : ١ / ١٠٦ .

(٥) نفس المرجع : ١ / ١٠٧ .

(٦) تحرير التحرير : ١ / ١١٢ .

(٧) تحرير التحرير : ١ / ١١٨ .

(١) تحرير التحرير : ١ / ١٢٨ .

(٢) تحرير التحرير : ١ / ١٤٤ .

والمبالغة الثانية في إخبار الرسول ﷺ بعد تقديم القسم لتأكيد الخبر بأن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، ففُضِّلَ تغييرُ فم الصائم بالإمساك عن الطعام والشراب على ريح المسك الذي هو أطيب الطيب ، على مقتضى ما يُفهم من ريح المسك وريح تغير فم الصائم ، وأتى بالمعنى بصيغة أفعال للمبالغة ، فجمع هذا الكلام بين قسمي المبالغة المجازي والحقيقي (١) .

٨ - صحة التقسيم :

قال : وفي السنة من صحة الأقسام قول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفئيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت » ، ولا رابع لهذه الأقسام (٢) .

٩ - الإشارة :

أنشد العباس بن مرداس رسول الله ﷺ :

أتجعل نهبي ونهب العبيد

فقال : « يا علي اقطع لسانه عني » فأخذه عليّ بيده فأخرجه ، فقال : أقطع لساني يا أبا الحسن ؟
فقال : إني لمضٍ فيك ما أمر (٣) .

١٠ - الإرداف والتبعية :

وقد جاء في السنة من أمثلة هذا الباب قول النبي ﷺ : - حكاية عن بعض النسوة - في حديث أم زرع حيث قالت : « زوجي رفيع العماد ، عظيم الرماد ، قريب البيت من الناد » فإنها أرادت مدح زوجها بتمام الخلق ، والتقدم على قومه ،

(١) تحرير التحبير : ١٥٣ / ١ .

(٢) تحرير التحبير : ١٧٦ / ١ .

(٣) تحرير التحبير : ٢٠٦ (وسيرد مرة أخرى على وجه أوسع في المواربة) .

ونهاية الكرم ، ولو عبرت عن هذه المعاني بألفاظها لاحتاجت بإزاء كل معنى لفظا يخصه ، فتكثر الألفاظ ، ولا يدل كل لفظ إلا على معناه فقط ، وألفاظ الإرداف كل لفظ منها يدل على جميع ما أرادت من صفات المدح على انفراد ، لأن قولها : « رفيع العماد » يدل على تمام الخلق ، إذ بناء البيوت على مقادير أجسام الداخلين لها غالبا ويدل على عظم قدر صاحبه ، إذ لا يقدر على أن يرفع بيته على البيوت إلا من قدره مرتفع على الأقدار ، ويدل على الكرم أيضا ، لأن الوفود والضيوفان يعمدون إلى قصد البيوت المرتفعة دون بيوت القوم ، وكذلك عظم الرماد يدل على عظم القدر وعظم الكرم وكثرة الثروة ومثله قولها : « قريب البيت من الناد » ليسبق إلى الضيف : لأن الضيف يقصد النادي وهو موضع مجمع رجال الحي للحديث ، فإذا كان البيب قريبا منه كان صاحبه إلى الضيف أسبق ، ولا تحصل هذه المعاني إلا من لفظ الإرداف (١) .

١١ - التمثيل :

ومن شواهد في السنة قول الرسول ﷺ حكاية عن بعض النسوة في حديث أم زرع : « زوجي ليل تهامة ، لاجر ولا برد ولا وخامة ولا سامة فعدلت عن لفظ المعنى الموضوع له إلى لفظ التمثيل لما فيه من الزيادة ، وذلك تمثيلها الممدوح باعتدال المزاج المستلزم حسن الخلق ، وكمال العقل ، اللذين ينتجان لين الجانب ، وطيب المعاشرة ، وخصت الليل بالذكر لما في الليل من راحة الحيوان ، وخصوصا الإنسان ، لأنه يستريح فيه من الكد والفكر . . . لا سيما وقد جعلته ليلا معتدلا بين الحر والبرد ، والطول والقصر ، وهذه صفة ليل تهامة ، لأن الليل يبرد فيه الجو بالنسبة إلى النهار مطلقا لغيبه الشمس ، وخلوص الهواء من اكتساب الحر . . . فقالت : زوجي مثل ليل تهامة ، وحذفت أداة التشبيه ،

(١) تحرير التحبير : ٢٠٧ .

ليقرب المشبه من المشبه به ، وهذا مما يبين لك أن لفظ التمثيل في كونه لا يجيء إلا مقدرًا بمثل - غالبًا - ولا كذلك لفظ الإرداف^(١) .

قال : « ويلتحق بهذا الباب ما يخرج المتكلم مخرج المثل السائر . وما جاء في ذلك من السنة قوله ﷺ : « الحلال بين والحرام بين » وقوله عليه السلام : « لا ضرر ولا ضرار » وقوله عليه السلام : « خير الأمور أوسطها » وكقوله عليه السلام : « المؤمنون متكافؤ دماءهم »^(٢) .

١٢ - الاحتراس :

ومثال الاحتراس من السنة قول رسول الله ﷺ على لسان إحدى النسوة من حديث أم زرع ، حيث وصفت زوجها فقالت : « المسُّ مسُّ أرنب ، والريح ريح زرنب ، وأغلبه والناس يغلب ، فقولها « والناس يغلب » احتراس لأنها لو سكتت على قولها : « وأغلبه » لقليل لها إن رجلاً تغلبه امرأة لمغلب ضعيف ، فاحترست من ذلك فقالت : « والناس يغلب » فناسبت بين قرائنها بجملة تتضمن معنى الاحتراس مما يتوجه على معنى المدح من الدخول الذي ينتقص به المعنى ، فحصل في الكلام احتراس مُدمج في موضع إيغال^(٣) .

١٣ - المواربة :

قال بعد الحديث عن نوعين منها فيما يقع بالتحريف مما يحتمل أن يكون الدخول وقع فيه في وقت العمل للشاعر ، أو يحتمل عدم وقوعه له : وقد تكون المواربة من غير هذين النطقين كقوله عليه السلام للعباس بن مرداس حين أنشد رسول الله ﷺ :

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِيدِ بَيْنَ عَيْنِيَةِ وَالْأَفْرِعِ

(١) تحرير التحرير : ٢١٤ / ١ .

(٢) تحرير التحرير : ٢١٦ / ١ .

(٣) تحرير التحرير : ٢٤٧ / ٢ .

وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع
وما أنا دون امرئٍ منهما ومن تَضَعُ اليومَ لا يُرْفَعُ

فقال رسول الله ﷺ : يا عليُّ اقطع لسانه عني ، فقبض عليُّ عليه السلام على يده وخرج به ، فقال : أقطع أنت لساني يا أبا الحسن ؟ فقال : إني لمض فيك ما أمر . فهذه أحسن مواردٍ سمعتها في كلام العرب ثم مضى به إلى إبل الصدقة فقال : خذ ما أحببت أو كما قال^(١) .

١٤ - المغايرة :

مثل لها بالحديث : « المسلمون متكافؤ دماءهم » فهو يغاير قول الآخر :

فَيُقْتَلُ خَيْرٌ بامرئٍ لم يكن له وفاءً ولكن لا تكايل بالدم^(٢)

حيث ساوى الإسلام بين دماء المسلمين ، مغايرةً ومخالفةً لمذهب الجاهلية القائم على تفضيل دم على دم حمقا وعصبية .

واعجب بموافقة النابغة للحديث : « لا هامة ولا طيرة ولا صفر » حيث غاير ما عرف في الجاهلية ، وأبيات النابغة هذه :

تَعَلَّمُ أَنَّهُ لَا طَيْرَ إِلَّا عَلَى مَتَطِيرٍ وَهُوَ الْبِثْوَرُ
بَلِ شَيْءٍ يُوَافِقُ بَعْضَ شَيْءٍ أَحَايِينَا وَبَاطِلُهُ كَثِيرٌ
وَمَنْ يُنْزَحُ بِهِ لَا بَدَ يَوْمًا يَجِيءُ بِهِ نَعِيٌّ أَوْ بَشِيرٌ^(٣)

١٥ - التعليل :

مثل له بقوله ﷺ : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة^(٤) » .

(١) تحرير التحرير : ٢٥٠ / ٢ .

(٢) تحرير التحرير : ٢٨٠ / ٢ .

(٣) تحرير التحرير : ٢٨٠ / ٢ .

(٤) تحرير التحرير : ٣٠٩ / ٣ .

١٦ - التوسيع :

رحمة تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلم بها شعثي ، وتصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها الفتى ، وتعصمني بها من كل سوء ، اللهم إني أسألك الفوز في القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، فناسب ﷺ بين (قلبي وأمري) و (غائبي وشاهدي) مناسبة غير تامة ، بالزنة دون التقفية ، ثم ناسب بين (القضاء والشهداء والسعداء والأعداء) مناسبة تامة بالزنة والتقفية^(١) .

ثم يَبِّنُ فضلَ التعبيرِ النبوي على ما جاء في هذا الضرب من أمثلة قال : كل جملة منه يلي بعضها بعضاً ، ومفردات الألفاظ تسير إلى معاني شتى وإلا فانظر إلى قوله ﷺ : « تهدي بها قلبي » وما يحصل بها من منافع الدنيا والآخرة ، ويتوقى من مضار الدنيا والآخرة بهداية القلب ، وإلى قوله : « وتجمع بها أمري » وما يكون من اجتماع الأمر من عدم التذبذب في كل شيء ، وحصول الثبوت ، وإلى قوله ﷺ : « وتصلح بها غائبي » وما تشير هذه الجملة إليه من إصلاح الباطن ، وما يكون في ذلك من الإخلاص .

إلى أن قال : فالحظُّ بدقيق النظر ما اشتملت عليه الألفاظ من المعاني تجدها لا تدخل تحت الإحصاء ، إلى سلاسة هذا النظم ، وعذوبة هذا اللفظ وعلوه مع كونه مستعملاً معروفاً ، وفصاحته على كونه متداولاً مألوفاً ، ووضوح معانيه ، وحسن البيان فيه ، بحيث لا يفتقر أحد إلى السؤال عن لفظ فيه قد استوى في فهمه الذكي والبليد ، والقريب من العلم والبعيد ، وما فيه من الماء والديباجة التي لا توفي العبارة بها ، ولا يقدر البليغ على أن يصفها ، وهذا أمر يدركه كل ذي ذوق سليم ، وذهن مستقيم . والله أعلم^(٢) .

(١) تحرير التحبير : ٣ / ٣٦٧ .

(٢) تحرير التحبير : ٣ / ٣٧ .

قال : وقد جاء من ذلك في السنة ما لا يلحق بلاغة وهو قوله عليه السلام : « يشيب ابن آدم وتشبُّ فيه خصلتان : الحرص وطول الأمل^(١) » .

١٧ - التلخيص :

سئل عليه السلام عن البحر فقال : « هو الطهور مأؤه الحل ميتته » ففحوى الحديث السؤال عن مائه : هل يصلح للطهارة ؟ فلف مع معنى الجواب معنى آخر .

١٨ - المناسبة التامة :

قال : ومن شواهد التامة في السنة قولُ الرسول ﷺ مما كان يرقى به الحسين عليهما السلام : « أعيدكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » فقال النبي ﷺ : « لامة » ولم يقل : (ملمة) وهي القياس لمكان المناسبة اللفظية التامة .

ومثله قوله عليه السلام : « ارجعن مازوراتٍ غير مأجورات » والمستعمل موزورات لأنه من الوزر غير مهموز ، فلفظ به النبي ﷺ مهموزاً لمكان المناسبة اللفظية التامة وهذا من الفصاحة العجيبة .

وأما ما جاء من السنة من أمثلة المناسبة الناقصة فكقوله ﷺ :

« إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً » فناسب ﷺ بين (أخلاق وأكناف) مناسبة اتزان دون تقفية .

وما جمع بين المناسبتين قوله عليه السلام في بعض دعائه : « اللهم إني أسألك

(١) تحرير التحبير : ٣ / ٣٤٣ .

وقد جاء في السنة من هذا الباب قوله ﷺ : « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، وَإِنْ عَمَلَهَا كَتَبَتْ لَهُ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تَكْتُبْ عَلَيْهِ ، فَإِنْ عَمَلَهَا كَتَبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ » فقوله ﷺ : « وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ » تذييل في غاية الحسن ، خرج الكلام فيه مخرج المثل (١) .

٢٠ - الانسجام :

ومن الانسجام في السنة قول رسول الله ﷺ في وصف القرآن : « إِنْ اللَّهُ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ أَمْرًا وَزَجْرًا ، وَسَنَةً خَالِيَةً ، وَمَثَلًا مَضْرُوبًا ، فِيهِ نَبُؤُكُمْ ، وَخَبْرُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَنَبَأُ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ ، لَا يَخْلُقُهُ طَوْلُ الْمُدَدِ ، وَلَا يَنْقُضِيهِ عَجَائِبُهُ ، وَهُوَ الْحَقُّ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ حَكَّمَ بِهِ عَدَلَ ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ فَلَجَ ، وَمَنْ قَسَمَ بِهِ أَقْسَطَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجَرَ ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ حَكَّمَ بِغَيْرِهِ قَصَمَهُ اللَّهُ ، هُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَجِبِلُّ اللَّهِ الْمُتِينَ ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ عَصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ اتَّبَعَهُ ، لَا يَعْجُجُ فَيَقُومُ ، وَلَا يَرْبِغُ فَيَسْتَعْتَبُ » .

قال : فانظر إلى انسجام هذه العبارة ، وما جاء فيها من البديع غير مقصود تشهد الخواطر السليمة أنه كلام مسترسل ، غير مروء ولا مفكر ، فصلوات الله وسلامه على من بعث بجوامع الكلم ، وأوتي هذه الفصاحة الرائعة وعلى آله وصحبه وسلم (٢) .

٢١ - سلامة الاختراع من الاتباع :

وتحت هذا النوع أمثلة اختارها من البيان الكريم هي : « حَمِي الْوَطَيْسِ - مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ - لَا يَلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جَحْرٍ مَرَّتَيْنِ - السَّعِيدُ مِنْ وَعْظٍ بَغِيرِهِ » في أشياء كثيرة مما اخترعه النبي ﷺ ولم يتبع فيه إلى الآن .

٢٢ - حسن الاتباع :

وقد جاء من ذلك في السنة النبوية قول رسول الله ﷺ : « نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رَحْمِي ، وَلِيَدْخُلَنَّ هَذَا الدِّينَ عَلَى مَا دَخَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ » (١) .

٢٣ - الالتزام :

وقد جاء في السنة من ذلك قول الرسول ﷺ في حديث أم زرع حكاية عن الأولى من النسوة قولها : « لَا سَهْلَ فِيرَتَقِي ، وَلَا سَمِينٌ فَيَتَقَى » وقول أم زرع في صفة حالها مع أبي زرع : « فَعِنْدَهُ أَنْامٌ فَاتَّصِحَّ وَأَقُولُ فَلَا أَقْبِحُ » وقولها في صفة الخادم : « لَا تَقْشُ طَعَامَنَا تَقْشِيشًا ، وَلَا تَمَلَأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا ، وَلَا تَبْثُ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا ، وَلَا تَنْفُثُ مِيرَتَنَا تَنْفِيثًا » هذه رواية وليست من أمثلة هذا الباب ، والرواية الأخرى التي من أمثلة الباب تنتم القرائن الشينية ، وهي قولها : « وَلَا تَخْرُجْ حَدِيثَنَا تَعْشِيشًا ، قَوْلُهَا - أَعْنِي أُمُّ زَرْعٍ - « فَتَزُوجُتْ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا رَكِبَ فَرَسًا شَرِيًّا ، وَأَرَاخَ عَلَيَّ نَعْمًا ثَرِيًّا » وكقول السادسة منهن « إِنْ أَكَلْتُ لَفًّا ، وَإِنْ شَرِبْتُ اشْتَفَّ ، وَإِنْ رَقَدْتُ نَفَسْتُ » وكقول الثامنة : « الْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ ، وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْبٍ » (٢) .

٢٤ - البسط :

ومما جاء من ذلك في السنة النبوية قوله ﷺ : « إِنْ الدِّينَ النَّصِيحَةَ . قَالُوا :

(١) تحرير التحرير ٤٨٧ / ٣

(٢) تحرير التحرير ٥١٨ / ٣ - وسيفرد فصل الحديث أم زرع وتفسير مفرداته

(١) تحرير التحرير ٣٨٨ / ٣

(٢) تحرير التحرير ٤٣٢ / ٣

لمن يا رسول الله؟ قال: الله، -ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم» وحاصل هذا الكلام إذا ورد من طريق الاختصار أن يقول بعد تخصيص الله تعالى بالذكر وكتابه ونبيه - أن يقول: وللمسلمين. فإنها لفظة جامعة للأئمة وللعمامة، فبسط هذه اللفظة ليفرد الأئمة بالذكر من جملة المسلمين، ولم يمكن الاختصار على الأئمة فيكون المعنى ناقصاً، إذ تمامه لا يكون إلا بذكر عمارة المسلمين، فأتى بذلك البسط، ليفيد تتميم المعنى، بعد تخصيص من يجب تخصيصه بالذكر^(١).

٢٥ - التهكم :

ومن السنة قول الرسول ﷺ : بَشُرْ مال البخيل بحادث أو وارث^(٢).

٢٦ - الفرائد :

« وقد ورد في السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام مواضع شريفة منها قوله عليه السلام : « استذكروا القرآن فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم من عقلها » .
فالح لفظتي « استذكروا وتفصيلاً » لترى ما يذهل عقل السامع فصاحة وروعها جزالة وحلاوة .

وكذلك قوله عليه السلام : « إذا ذكِرَ الصالحون فحىّ هلا بعمر » فإن لفظه « حي هلا » من الفرائد العجيبة ، وفيها من الفصاحة ما يعجز عن مثله كل فصيح^(٣).

٢٧ - السلب والإيجاب :

ومن هذا الباب ما يقع في التشبيه والإخبار وغيرهما ، بحيث يكون للمشبه أو

المخبر عنه صفات ، فينفي بعضها ليثبت بعضها ، وينفي واحدة ليجب أختها ، أو يسلبها ويوجب غيرها ، كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي عليه السلام : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » ؟ فسلب النبوة ليجب بقية المنازل التي كانت لهارون من موسى عليه السلام^(١).

هذه الإمامة مثلاً ابن أبي الاصبع في كتابه (تحرير التحبير) من ألوان البديع ، التي بلغت عنده خمسة وعشرين فناً ومائة فن ، وليس معنى هذا أن ما لم يمثل له بحديث نبوي من الفنون الباقية مفقود المثال في السنة ، ولكن الظاهر من صنع ابن أبي الاصبع أنه لم يتتبع البيان النبوي كمصدر أصيل لأمثله ، فألم في كتابه بطائفة من أمثلة سابقه ، ثم بما تبادر إلى ذهنه ؛ وقرب من فكره ؛ على أن طائفة من أضرب البديع مختصة بالشعر ؛ ينبغي ألا تطلب في النثر ، كالترصيع والتصريح والتشطير ، واثتلاف المعنى مع الوزن ، واثتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت ، وإن أمكن التنظير لذلك بشيء من المنثور ، كما أن بعض الأنواع لا يتناسب ومقام الرسول عليه السلام كالهجاء في معرض المدح ، والإسجال بعد المغالطة . وقد يلمح القاريء فيما سبق من الدراسة أمثلة من الحديث لأضرب لم يتناولها صاحب (التحرير والتحبير) ؛ ولا يعتاص على طالب اللون البديعي وجوده في أكثر من مثال من السنة الشريفة .

ثانياً : ابن حجة الحموي :

على أن ابن حجة وإن كانت بديعته التي شرحها في (خزنة الأدب) مدحة لصاحب الحديث عليه السلام لم يمثل - من البيان النبوي في الأنواع التي بلغت أربعين ومائة في كتابه ، واستوعبت سبعين وخمسمائة صفحة - إلا لزهاء العشرين من أنواع البديع ، فقد نقص عشرة أنواع مما مثل به ابن أبي الاصبع مع إعجابه به ، ونقل أمثله ، مما يدل على عدم القصد إلى الحديث ليكون شاهداً أو مثالا

(١) تحرير التحبير ٣/٥٤٨ .

(٢) تحرير التحبير ٣/٥٦٩ .

(٣) تحرير التحبير ٣/٥٧٧ .

(١) تحرير التحبير ٣/٥٩٤ .

(التكرير - الإطناب - المبادي والافتتاحات - الاستدراجات الامتحان والاقتصاد - الإحصاء - التلخيص - الاقتضاب) .

وللعلوي ذوق لطيف في شرح الأمثلة وتخرجيها على الوجوه المحتملة .

هذه إحالات على بعض الكتب والدراسات المعنية بعلم البديع نصصتُ على ما جاء في بعضها ، وهو (التحرير والتجوير) لأنه أجمعها لما نريد وبينتُ أماكن الأمثلة بذكر الموضوع فيما بقي ، ولن يعدم الدارس لشروح الحديث إفاضة الشارحين في كثير من الأماكن ، كما لا يعدم المطلع على كتب البلاغة الأخرى أمثلة لم ترد فيما أسلفت ، وهيئات أن يجتمع لواحد ما عند كل الناس .

لدراسته ، غير أنه زاد بعض الأمثلة في بعض الأنواع والممثل له بالحديث النبوي في (خزانة الأدب) هو :

(الجناس - الاستعارة - المقابلة - المطابقة - إرسال المثل - التهكم - التذييل - التتميم - التمثيل - المذهب الكلامي - المناسبة - التوشيح - المبالغة - التورية - المشاكلة - الكناية - الجمع - التقسيم - التعليل - البسط - السجع) .

ثالثا : العلوي :

وقد يعذر مؤلف كالعُلوي إذا حدثنا عن خمسة وثلاثين نوعا من البديع لم يمثل بالحديث إلا لأحد عشر منها ، وعلى هذا قياس باقي كتابه ، لأنه اعتذر بضيق مراجعه في البلاغة ، التي لم يطلع إلا على أربعة من كتبها هي : (المثل السائر لابن الأثير ، والتبيان للشيخ عبد الواحد بن عبد الكريم ، والنهية لابن الخطيب الرازي ، والمصباح لابن سراج المكي ، ثم الكشاف للزمخشري المؤسس على قواعد علم البلاغة^(١)) .

والعلوي موافق للسابقين في الأنواع الممثل لها بالسنة ، وفي أكثر الأمثلة ، ففي الجزء الثاني من الطراز - ويشغل البديع خمسين صفحة من آخره - أمثلة من الحديث لهذه الأنواع :

(التجنيس - التطبيق - لزوم ما لا يلزم - اللف والنشر) .

وفي الجزء الثالث الذي أتم فيه بقية الأنواع مثل لما يلي بالسنة :

(التخيل - الاستطراد - التسجيع - الموازنة - التوشيح - التلميح - الاختتام) .

كما أن أمثلة من البيان النبوي قد أوردها العلوي في أضرب أخرى من تقسيماته مثل :

(١) الطراز ١/٥ المقدمة .

الحديث وكتب مجاز القرآن وإعجازه

كثيراً ما نرى شيوخنا في الكتب الدائرة حول بلاغة الكتاب المجيد يمثلون أو ينظرون بالبيان الكريم ، وهو - وإن لم يكن مقصوداً لذاته - يدل على ماله من قيمة تلحقه بالكتاب المعجز في اتجاهه الأسلوبى . ومن هذه الكتب :

الإشارة إلى المجاز في بعض أنواع الإيجاز

وهو لسultan العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام - أكرم الله مثواه - وهنا نشير إلى أماكن من إشاراته التي قرنها بأمثلة من الحديث الشريف ، واعيا محققا ، محيطا بدقائق البلاغة ، تتمه للنفع ، وتقديراً للسلف ، وحشا على الانتفاع بما خلّف ، والله الولى .

١ - الإيجاز بحذف المضاف :

« لا تحل الصدقة لمحمد ولا لآل محمد » .

« لا تحل الصدقة لغني » .

تقديره فيهما : لا يحل أخذ الصدقة ، أو تناول الصدقة^(١) .

« إن هذين حرام على ذكور أمي حل لإناثها » .

(١) الإشارة : ٢ .

تقديره : إن استعمال هذين ، أو إن لبس هذين حرام (أي الحرير والذهب) .
« اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة » .

معناه : اللهم إن إبراهيم حرم صيد مكة ، وإني حرمت صيد المدينة ، وكذلك تحريم الدماء والأموال والأعراض تحريم لما يتعلق بها من الأفعال فقوله صلى الله عليه وسلم : « فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » تقديره ، فإن سَفَك دمائكم ، وغَضَبَ أموالكم ، وثَلَبَ أعراضكم عليكم حرام ، وكذلك نهى صلى الله عليه وسلم عن الدباء والخنتم والمزفت والنقير نهى عن الانتباز فيها^(١) .

ومنه « أُمِرْتُ بقرية تأكل القرى » أي أمرت بإتيان قرية يأكل أهلها أموال أهل القرى ، أو خراج أهل القرى ، وكقوله صلى الله عليه وسلم : « الماء من الماء » تقديره وجوب استعمال الماء من خروج الماء ، أو : استعمال الماء واجب من خروج الماء ، وكقوله صلى الله عليه وسلم في « وأنهاكم عن الدباء والخنتم والمزفت والنقير » تقديره : وأنهاكم عن شرب نبيذ الدباء والخنتم والمزفت والنقير . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « شاهدك أو يمينه ليس لك إلا ذلك » تقديره إقامة شاهدك أو طلب يمينه ، ليس لك إلا ذلك الذي ذكرته ، وهو أحد الأمرين^(٢) .

ومثل لما دل العقلُ على حذفه والشرعُ على تعيينه بقوله صلى الله عليه وسلم : « فإن دماءكم وأموالكم .. » قال : للتقدير في (أموالكم) وغَضَبَ أموالكم وهو أولى من تقدير وأخذ أموالكم أو وسلب أموالكم لانقسام السلب والأخذ إلى مباح وغير مباح^(٣) .

ومثل لما لا يستقيم الكلام إلا بتقديره بقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه عز وجل : « من ابتليته بحبيتيه فصبر فله الجنة » أي من ابتليته بفقد حبيتيه ، ويحتمل بأخذ حبيتيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه سبحانه وتعالى : « أي المتحابون بجلالي ؟ » أي أين المتحابون بمعرفة جلالي أي بسبب معرفة جلالي ، وكذلك قوله : « لأن يلح أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله من أن يؤدي كفارة » أي لأن يلح أحدكم بيمينه أو بحفظ يمينه في حرمان أهله أو في مضارة أهله ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إياك والخلوب » أي إياك وذبح الخلوب ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا . . . » تقديره : لا حسد إلا في خصلتين اثنتين : خصلة رجل آتاه الله مالا . أو لا حسد إلا في طريقتين اثنتين : طريقة رجل آتاه الله مالا ، والأول أظهر لابتناده إلى الأفهام ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « من منع فضل الماء ليمنع به الكلب » تقديره ليمنع بمنعه فضل الماء رعى الكلب^(١) .

قال : وأما قوله عليه السلام حكاية عن ربه : « مرضت فلم تعدني ، واستطعمتك فلم تطعمني ، واستسقيتك فلم تسقني » فيحمل على حذف المضاف تقديره : مرض عبدي فلم تعده ، واستطعمك عبدي فلم تطعمه ، واستسقاك عبدي فلم تسقه ، فلما حذف المضاف الذي هو العبد انقلب الضمير الذي هو الباء المجرورة تاء مرفوعة بالفاعلية التي كان يستحقها العبد ، ويدل على هذا أن الموم لما قيل له : استطعمتك فلم تطعمني قال - استبعادا لذلك وتعجبا منه لما لم يتفطن لحذف المضاف وإرادة الرب - : كيف أطعمك وأنت رب العالمين - حملا للكلام على

(١) الإشارة : ٣

(٢) الإشارة : ٥

(٣) الإشارة : ٦

(١) الإشارة : ٧

ظاهره - فأظهر الرب سبحانه وتعالى مراده من تأويل كلامه فقال : مرض عبدي فلم تعده ، واستطعمك عبدي فلم تطعمه ، واستسقاك عبدي فلم تسقه .

وأما قوله في تمام الحديث : « ولو عَدْتُهُ لوجدتني عنده » فمعناه لوجدتني حاضراً عنده من جملة عائديه ، وهذا حث على عيادة المؤمنين ، لأن من عاده الله عز وجل جدير بأن يعود العائدون ، وهذا من مجاز التشبيه ومعناه : إني أعامله معاملة العائد^(١) .

٢ - التجوز بالمصدر عن المفعول :

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم » أي : إذا أمرتكم بأمور فأتوا من ذلك المأمور ما استطعتم ، ويجوز أن يكون هذا من مجاز التعبير بالمتعلق عن المتعلق به ، لأن الأمر قول متعلق بالمأمور به^(٢) .

٣ - التجوز بحرف الاستفهام عن النفي :

قوله عليه الصلاة والسلام : « هل أنت إلا إصبع دميت ؟ »^(٣) .

٤ - التجوز بحرف الجر (عن) الترك المعنوي :

قوله صلى الله عليه وسلم : « وتجاوز عما تعلم »^(٤) .

٥ - التجوز بلفظ الخبر عن الدعاء :

منه قوله عليه الصلاة والسلام : « رحم الله أخي لوطا » معناه : اللهم ارحم أخي لوطا ، وقوله صلى الله عليه وسلم في تسميت العاطس : « يرحمك الله » وفي

(١) الإشارة : ٧ .

(٢) الإشارة : ١٢ .

(٣) الإشارة : ٢٠ .

(٤) الإشارة : ٢٤ .

إجابته : « يهديكم الله ويصلح بالكم » المعنى : اللهم ارحمه . اللهم اهدهم وأصلح بهم^(١) .

٦ - التجوز بلفظ النهي عما لا يراد به :

ومن التجوز بلفظ النهي عن أشياء ليست مرادة بالنهي وإنما المراد بها ما يقاربها أو يلازمها أو تكون مسببة عنه ، نهي صلى الله عليه وسلم عن البيع على بيع الأخ ، ليس النهي عن نفس البيع ، لأنه مستجمع لشرائط الصحة ، وإنما النهي عن أذية الأخ المقترنة ، ومثله النهي عن أن يبيع حاضر لباد ، فالنهي عما يلزمه من الإضرار بالناس لا عن نفس البيع ، ومثله النهي عن الخطبة على خطبة الأخ ، ليس النهي عنها نفسها ، وإنما النهي عما يلازمها من تأذي الخاطب الأول^(٢) .

لم يذكر الشيخ نصوص هذه الأمثلة ، وهي على الترتيب :

« لا يبيع الرجل على بيع أخيه حتى يبتاع أو يذر »^(٣) .

« لا تلقوا الركبان ، ولا يبيع حاضر لباد »^(٤) .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له »^(٥) .

٧ - التجوز بالمراد عن الإرادة :

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « صلى بي جبريل الظهر حين زالت الشمس (أي شرع في الصلاة وأخذ فيها) وصلى بي الظهر في اليوم الثاني حين صار ظل كل شيء مثله (أراد بذلك آخر أجزاء الصلاة وهو السلام) وهذا من مجاز التعبير بلفظ

(١) الإشارة : ٢٨ .

(٢) الإشارة : ٢٨ .

(٣) ، ٤ ، تيسير الوصول : ٦٦ ، ٦٧ / ١ .

(٤) تيسير الوصول : ٤ / ٢٦٧ .

(٥) ، ٦٧ / ١ .

(٦) ، ٦٧ / ١ .

(٧) ، ٦٧ / ١ .

الكل عن الجزء^(١) ومنه : « من أتى منكم الجمعة فليغتسل » معناه : من أراد منكم إتيان الجمعة فليغتسل .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « من أسلف فليسلف في كيل معلوم ، ووزن معلوم » معناه : من أراد الإسلاف فليسلف في كيل معلوم ، ووزن معلوم .

وقوله عليه السلام : « فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح » معناه : فإذا أردتم القتل فأحسنوا القتلة وإذا أردتم الذبح فأحسنوا الذبح .

وقوله عليه السلام : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » قال : ويصحح هذا النوع ما بين الإرادة والمراد من النسبة والتعليق ويجوز أن المصحح كون المراد سبباً عن الإرادة ، فيكون تجوزاً باسم المسبب عن السبب^(٢) .

٨ - التجوز بلفظ الاسم عن المسمى :

منه قوله صلى الله عليه وسلم : « باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء » معناه : باسم الله الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم باسمك أحيأ ، وباسمك أموت » معناه : اللهم بك أحيأ وبك أموت ، أي بقدرتك أحيأ وبقدرتك أموت^(٣) .

٩ - التجوز بلفظ اليمين عن المحلوف عليه :

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها

فليكفر عن يمينه ، وليأت الذي هو خير » معناه : من حلف على شيء فرأى غيره خيراً منه فليكفر عن يمينه ، وليأت الذي هو خير^(١) .

١٠ - التجوز بلفظ القضاء عن المقضي به :

في قوله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بك من سوء القضاء » أي من سوء ما قضيت به ، إذ لا يصح الاستعاذة من قضاء الله ، لأنه صفة قديمة له ، لا يمكن تبديلها ولا تغييرها^(٢) .

١١ - التجوز بلفظ السبب عن المسبب :

ومنه قوله عليه السلام : « خذوا من العمل ما تطيقون ، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا » وجاء : « لا يحل حتى تملوا » السامة والملل المضافان إلينا حقيقيان تجوز بهما عن قطع المزيد من ثواب الله ، فهو مجاز من وجهين : أحدهما ما ذكرناه ، والثاني أن يكون من مجاز التشبيه ، شبه قطع المزيد من الأجر والثواب بقطع المأل ما مل منه^(٣) .

١٢ - ومن التجوز بلفظ السبب عن المسبب :

قوله صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق » جعل القول وإمطة الأذى عن الطريق إيماناً لأنها سببان عن إيمان الجنان .

وقوله عليه السلام لوفد عبد القيس : « هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تؤدوا خمساً من المغنم » جعل

(١) الإشارة : ٣١ .

(٢) الإشارة : ٣٢ .

(٣) الإشارة : ٣٤ .

(١) الإشارة : ٣٥ .

(٢) الإشارة : ٣٥ .

(٣) الإشارة : ٣٧ .

الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وضوم رمضان وأداء الخُمس من المغنم -
إيماناً : لأنها مسببة عن إيمان الجنان ، فتجوز باسمه عنها^(١) .

١٣ - ومن التجوز بلفظ المسبب عن السبب :

قوله صلى الله عليه وسلم : « إن من أكبر الكبائر شتم الرجل والديه قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه »^(٢) .

١٤ - من نسبة الفعل إلى سببه :

قوله صلى الله عليه وسلم : « كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها »
نسب الإعتاق والإيباق إليه لتسببه فيهما ، والمعتق والموبق على الحقيقة هو الله عز وجل ، بدليل قوله : « أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار » والإعتاق ههنا مجازي ، قيامه حقيقة في قطع الرق ، واستعمل ههنا في قطع العذاب .

وقوله عليه السلام : « اجتنبوا السبع الموبقات » الموبق على الحقيقة هو الله عز وجل ، ونسبة الإيباق إلى هذه الذنوب من مجاز نسبة الفعل إلى سببه^(٣) .

١٥ - ومن نسبة الفعل إلى الأمر به :

قوله عليه السلام : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها »^(٤) .

١٦ - ومن مجاز نسبة فعل البعض إلى الجماعة :

قوله عليه السلام : « بم أنتم يا خزاعة قد قتلتم هذا القتيل من هذيل ؟ »^(١) .

١٧ - من تسمية الشيء بما يؤول إليه :

قوله عليه السلام : « من قتل قتيلاً فله سلبه »^(٢) فإن القتيل لا يقتل ، بل سمي ذلك بما شارفه ويؤول إليه .

١٨ - ومن الكنايات :

ما جاء في قول إحدى النسوة في حديث أم زرع « زوجي رفيع العماد ، طويل النجاد ، عظيم الرماد ، قريب البيت من الناد » كُنت برفعة عماده عن شرفه ومنزله ، لأن رفع العماد يلازم الشرف غالباً ، وكنت عن طول قامته بطول نجاد سيفه ، لأن من طالت قامته طال نجاد سيفه ، وكنت بعظيم رماده عن كثرة ضيافته ، وإطعامه ، لأن الرماد لا يعظم إلا عن كثرة الطبخ والإحراق للحطب الكثير ، وكنت بقرب بيته من المجلس عن كرمه ، لأن البخلاء كانوا يبعدون بيوتهم عن المجلس كيلا يستتبعوا الأضياف منه ، وكانوا ينزلون في المواضع المنخفضة لثلا براهم الضيفان فيأتوهم ، ولذلك قال طرفه :

ولست بحلال التلاع مخافةً ولكن متى تسترفد القوم أرفد

والتلاع جمع تلعة وهي من الأضداد تطلق على الارتفاع والانخفاض^(٣) .

(١) الإشارة : ٣٩ .

(٢) الإشارة : ٤٢ .

(٣) الإشارة : ٤٣ والحديث « اجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، واكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »
الجامع الصغير ١ / ٨ .

(٤) الإشارة : ٤٦ .

(١) الإشارة : ٤٨ .

(٢) الإشارة : ٥٢ .

(٣) الإشارة : ٦٢ .

قوله عليه السلام للمغيرة : « يا بني ما ينصبك منه » أي الدجال^(١) معناه يا نظير بني .

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أنت ومالك لأبيك » وفي هذا الحديث مجاز من وجهين : أحدهما تشبيهها بما يملكه الأب ، والثاني أنه أمر بلفظ الخبر ، ومعناه : نزل نفسك ومالك من أبيك منزلة المملوك من المالك .

قال : وهذا كله يسمى (التشبيه البليغ) لأنك قد تشبه شيئاً بشيء لا اشتراكهما في وصف واحد ، فإذا أردت المشابهة في جميع الوجوه والصفات أسقطت أداة التشبيه ، حتى كأنه هو غير فرق بينهما^(٢) .

أما الآخرون فيطلقون (التشبيه البليغ) في الأكثر على التشبيه المحذوف الأداة والوجه ثم على البعيد الغريب ، ويطلقون اسم (التشابه) على ما تساوى طرفاه الموجودان في الكلام في جميع الأوصاف المقصودة لعقد التشبيه والاستعارة بما ذكره أولى .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « أليس في الخمس ما يغنيكم عن أوساخ الناس ؟ » جعل الزكاة المطهرة للذنوب وسخا^(٣) .

ومن تشبيه المعاني بالأجرام قوله عليه السلام في دعوى الجاهلية : « دعوها فإنها منتنة » وذلك للتفجير منها^(٤) .

قال في البيان الكريم : « الولد للفراش » ويحتمل أن يكون تجوزاً للمشابهة

التي بينها وبين الفراش ، وفي الحديث حذف لا بد منه وتقديره : الولد لصاحب الفراش أو لذي الفراش^(١) .

ومن هذا الباب « خَلَّفْتُ فيكم الثقلين : كتاب الله وأهل بيتي » تجوز بثقلها عن عظم قدرهما . ومثال استعمال الدقِّ والجُلِّ في المعاني قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اغفر لي ذنبي كله : دَقَّهُ وجُلَّهُ » أراد بالدق صغير الصغائر وبالجل كبير الصغائر ، إذ لا كبيرة للأنبياء حتى يحمل الجل عليها^(٢) .

وفي حكاية عن الله عز وجل أنه قال للرحم : ﴿ أما تَرْضَيْنَ أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ ﴾ فقول الله لها مجاز تشبيهي^(٣) .

ومنه استعمال لفظ اللين على المجاز في قوله عليه السلام : « جاءكم أهل اليمن ، هم ألين قلوباً وأرق أفئدة » وقوله : « المؤمنون هينون لينون » شبه التآني وسرعة الانقياد إلى الحق والصواب بتآني الشيء إلى ما يراد منه وبدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن كالجمل الأنف إن قيد انقاد ، وإن أنيخ على صخرة استناخ » شبه المؤمن في سرعة انقياده إلى الحق وإن شق عليه بالجمل يناخ على الصخرة المؤذية فيستنيخ عليها^(٤) .

ومن الباب التجوز بلفظ الحياة عن الظهور في قوله عليه السلام : « اللهم إني أول من أحيا أمرك بعد إذ أماتوه » أي أظهر أمرك بعد ما أخفوه وأخملوه ؛ قال الشاعر :

فأحييت ذكري بعد ما كان خاملاً

أي فأظهرت ذكري بعدما كان خفياً^(٥) .

(١) الإشارة : ٦٨ .

(٢) الإشارة : ٦٩ .

(٣) الإشارة : ٧٣ .

(٤) الإشارة : ٧٥ .

(١) الإشارة : ٦٤ .

(٢) الإشارة : ٦٤ .

(٣) الإشارة : ٦٦ .

(٤) الإشارة : ٦٧ .

كما أن منه التجوز بقبض الشيء عن إخلاء المكان منه ، ومثاله قوله عليه السلام : « إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء » أي بقبض أرواح العلماء ، وقبضه للعلم مجاز عن إخلاء القلوب منه^(١) .

وفي ظلال المعنى قوله الكريم : « قلب المؤمن - أو قلوب بني آدم - بين إصبعين من أصابع الرحمن » تجوز بذلك عن استبلائه واقتداره على تقليب القلوب من حال إلى حال ، تشبيهاً لذلك بالكون بين الإصبعين والمعنيُّ بالإصبعين اللتين وقع بهما التشبيه المسبحة والإبهام لأن التقليل في الغالب بهما .

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « حتى يضع رب العزة - أو الجبار أو رب العالمين - قدمه - أو رجله - فيها - أو عليها » شبه استهانته بأهلها بشيء وضع تحت القدمين أو الرجلين استهانته به وتحقيراً له قال صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن كل مائة من مآثر الجاهلية تحت قدمي هاتين » تجوز بذلك عن الاستهانة بمآثرهم وعدم الاكتراث بها ، ولم يرد إلا ذلك ، إذ لا يصح في تلك المآثر أن تكون موضوعة تحت قدميه .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « رأيت ربي في أحسن صورة ، فوضع يده بين كتفي فحسست ببرد أنامله بين ثديي » عبر بحسن الصورة عن رضاه عنه وإقباله عليه ، وتجاوز بوضع اليدين بين كتفيه عن إكرامه وتقريبه وتجاوز ببرد أنامله عما وجده من لذة إكرامه ، ولا يراد به البرد الحقيقي كما لا يراد به في قوله عليه السلام : « اللهم أذقني برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك » وفي قوله عليه السلام : « اللهم اغسل خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد » لم يرد بذلك عين الثلج والبرد

(١) الإشارة : ٧٩ .

والماء البارد ، وإنما أراد بذلك إذاقته لذة عفوه لذنوبه ، كما يلذ الظمان بالثلج والبرد والماء البارد^(١) .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون » وقوله : « إن الله خلق آدم على صورته » أي على صفته في الحياة والعلم والسمع والبصر والإرادة والكلام^(٢) .

ومن استعمال الإعراض في مجازة قوله عليه السلام يصف المنصرف عن المجلس : « وأما الثالث فأعرض ، فأعرض الله عنه ، فإن إعراض الثالث محمول على حقيقته ، لأنه انصرف على الحقيقة ، وأما إعراض الرب سبحانه وتعالى عن العبد فمجاز عن ترك توفيقه وإكرامه ، ويكون من مجاز تسمية العقوبة باسم الذنب ، ومثله في الوجهين قوله : « فإن الله لا يميل حتى تمثلوا ولا يسأم حتى تسأموا »^(٣) .

ومن الباب استعمال التعس للهلاك ، كقوله عليه السلام : « تعس وانتكس »^(٤) ومنه مع ذلك جعل الهوى لها ومثاله : « تعس عبد الدينار والدرهم وعبد الخميصة والخميصة »^(٥) .

ومن مجاز النهي قوله عليه السلام : « من لم تنه صلته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً » والصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر هي الصلاة الكاملة بخضوعها وخشوعها . فإن الخضوع والخشوع إذا تحققا كانا سبباً في الكف عن العصيان ، وسبباً في الحث على الطاعة ، إذ ليس كل صلاة تتقاضى ذلك فكأنه قال : إن الصلاة الكاملة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

(١) ، ٢) الإشارة : ٧٩ وما بعدها .

(٣) الإشارة : ٨٣ .

(٤) الإشارة : ٨٤ وتتمة الحديث « تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » .

(٥) الإشارة : ٨٤ .

ووجه ذلك أن تجديد العهد بالله في الصلاة يتقاضى الانكفاف عن المعصية كما يتقاضاه النهي ، ويتقاضى الطاعة كما يتقاضاها الأمر^(١) .

ومن الباب حكاية قول إحدى النسوة في حديث أم زرع : « زوجي لحم جبل غث على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل » شبهت خسة معروفه بلحم جبل مهزول ، وشبهت عسر الوصول إلى اللحم بما على رأس الجبل الوعر ، وبالغت في عسر الوصول إلى ذلك بقولها لا سهل فيرتقى وبالغت في غثائه بقولها : « ولا سمين فينتقل » أي فينتقله الناس إلى رحالهم بل يزهدون فيه ويتركونه في مكانه لغثائه وخساسته .

وأما قول الأخرى منهن : « إن أذكره أذكر عجره وبجره » فإنها شبهت نقصه وعيوبه بالعجر والبجر ، وهي عروق تنعقد في بطن الإنسان^(٢) .

ومنه وصف المعاني بصفات الأجرام كقوله صلى الله عليه وسلم : « جاء الموت بما فيه » وكقوله عليه السلام : « لا يتصدق أحد بثمره من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه » فهذا أخذ مضاف إلى الأعيان ، تجوز به عن القبول ، شبه قبول الصدقات بقبول مَنْ أُهْدِيَ إليه شيء فأخذه بيده قابلاً له وقوله : « إلا أخذها الرحمن بيمينه » أبلغ في القبول لإشعاره بالتكريم والاحترام ، فإنَّ أَخَذَ الشيء باليمين احترام له^(٣) .

ومنه قوله عليه السلام : « يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل » وقوله : « ترفع الأعمال كل ليلة اثنين وخميس ، فأجِبُّ أَلَا يُرْفَعُ عملي إلا وأنا صائم » لما كانت الأعمال والأقوال تقع في الأرض ثم تصعد الملائكة بصحائفها إلى السماء ، شبهت بأجرام رفعت من مكان سافل إلى مكان عال ، كما فعل ذلك في الإنزال ، ويحتمل أن يكون ذلك كله من حذف المضاف ،

وتقديره ترفع إليه صحائف عمل الليل قبل صحائف عمل النهار ، وصحائف عمل النهار قبل صحائف عمل الليل ، وكذلك ترفع صحائف الأعمال كل ليلة اثنين وخميس ، والأول أظهر^(١) .

ومنه دخول بعض المعاني في بعض كقوله عليه السلام : « دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة » وهو من مجاز التشبيه ، لما كان الجرم إذا دخل في جرم ستره عن الإدراك ، شبه سقوط أفعال العمرة بجرم دخل في جرم فاستتر بحيث لا يشاهد ولا يرى^(٢) .

ومن الباب قوله عليه السلام : « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية »^(٣) وهو من خروج الجرم من المعنى ، ومن عكسه قوله صلى الله عليه وسلم : « لن يتقرب إلى الله بأفضل مما خرج منه وهو القرآن^(٤) » .

ومن الإدخال المجازي قوله صلى الله عليه وسلم : « من أدخل في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد »^(٥) .

ومن مجاز الملء قوله عليه السلام : « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد » تجوز بذلك عن كثرة تنزهه وعمومه وأنه بالغ إلى حد لا يحصيه مُحْصٍ ، ولا يعده عَادٌ ، أو أنه مستحق على عباده أن يحمده على الدوام حمداً كثيراً ، مشبهاً في الكثرة بما يملأ السموات والأرض وما بينهما ، وما تعلقت به مشيئة الرب^(٦) .

هذا ، وقد أورد شيخ العلماء - عدا هذه الطائفة الكبيرة - من أمثلة الحديث

(١) الإشارة : ٩٦ .

(٢) الإشارة : ٩٩ .

(٣) الإشارة : ٩٩ .

(٤) الإشارة : ١٠٠ .

(٥) الإشارة : ١٠٠ .

(٦) الإشارة : ١٠٣ .

(١) الإشارة : ٨٥ .

(٢) الإشارة : ٩١ .

(٣) الإشارة : ٩٣ .

الشريف لضروب البلاغة مجموعةً أخرى في باب (تعدد مصححات التجوز في محل واحد)^(١) وهي مما جاء في صفات الحق جل وعلا ، مما لا يتصف سبحانه بحقيقته ، لاستحالتها بحسب مدلوها اللغوي كالرحمة والمحبة والود والشكر والإقبال والإعراض والمجيء وغيرها .

كما أورد طائفة غيرها من الأحاديث في فضل الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظة واحدة^(٢) عند من يصححه على طريق التمثيل أو التدليل ، عدا أمثله المتفرقة في النصف الباقي من الكتاب ، آية اهتمامه بالسنة ، ودرايته بسر البلاغة فيها ، أحسن الله جزاءه ، وأكرم في الجنة مثواه .

ابن عبد السلام

هو الإمام العلامة الشهير بسُلطان شيخ الإسلام أبو محمد عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام رضي الله عنه - المصري ، الشافعي ، الدمشقي ، شهرته تغني عن الإطناب في مدحه ، إمام عصره بلا مدافع ، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه ، والمطلع على حقائق الشريعة وغوامضها ، العارف بمقاصدها ، لم يَرَّ مثل نفسه ، ولا رأى من رآه مثله علما وورعا ، وقياماً في الحق ، وشجاعة وقوة جنان ، وسلاطة لسان ، ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسائة ، وتفقه على الشيخ فخر الدين بن عساكر ، وقرأ الأصول على سيف الدين الأمدي ، وتلقى على غيرهما ، وله مصنفات منها : تفسيره المختصر ، وتفسيره الكبير ، والقواعد الكبرى والصغرى ، ومجاز القرآن ، وشجرة المعارف ، وشرح الأسماء الحسنى ، ومختصر النهاية ، وكانت وفاته رحمه الله سنة ستين وستمائة^(٣) .

(١) الإشارة : ١٠٣ وما بعدها .

(٢) الإشارة : ١١٢ وما بعدها .

(٣) ملخص المنشور أول الكتاب نقلا عن كتب التراجم ، وينبغي أن نشير هنا إلى أن بعض هذه النصوص المثل بها لا وجود له في دواوين السنة الصحيحة وهو قليل .

٢ - أمثلة أخرى :

ومن الكتب التي تعرضت للنص النبوي في هذا الاتجاه ، تنمة للتمثيل أو كمالا للتعليل ، « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ أورد فيه أربعة وثلاثين مثالا متفرقة على موضوعات درسه ، أكثرها مما تناوله الشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ هـ في كتابه (المجازات النبوية) فضلا عن تخصيص ابن قتيبة كتابه (تأويل مشكل الحديث) للدراسة الشاملة المدافعة عن السنة ورجالها ، ومنه جانب كبير في تجلية النص من الوجهة البلاغية بما يدفع الوهم عنه .

إعجاز القرآن للباقلاني

ومن هذه الكتب (إعجاز القرآن) للباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ إلا أنه أقل من النصوص النبوية تمثيلا أو استشهاداً ، فلم يورد في كتابه غير ستة عشر مثالا ، كلها مما تناوله السابق أو المعاصر ، وهي على ترتيب وجودها في التأليف :

١ - « أسجاعة كسجاعة الكهان » قاله عليه السلام لمن كلموه في شأن الجنين : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس دمه قد يطل ؟^(١) قال : ويذكرون من البديع قول النبي صلى الله عليه وسلم :

٢ - « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها »^(٢) .

٣ - وقوله : « ربنا تقبل توبتي ، واغسل حوبتي »^(٣) .

٤ - وقوله : « غلب عليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، وهي حالقة الدين لا حالقة الشعر »^(٤) .

(١) إعجاز القرآن : ٨٨ .

(٢) إعجاز القرآن : ١٠٢ .

(٣) إعجاز القرآن : ١٠٣ .

(٤) إعجاز القرآن : ٨٨ .

(٥) إعجاز القرآن : ٨٨ .

(٦) إعجاز القرآن : ٨٨ .

(٧) إعجاز القرآن : ٨٨ .

(٨) إعجاز القرآن : ٨٨ .

(٩) إعجاز القرآن : ٨٨ .

- ٥ - وقوله : « الناس كإبل مائة ، لا تجد فيها راحلة » (١) .
- ٦ - وقوله : « وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصاد الستهيم » (٢) .
- ٧ - وقوله : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم » (٣) .
- ٨ - ومن نصوصه : « غَيْرُوا الشَّيْبَ وَلَا تَشْبِهُوا بِالْيَهُودِ » (٤) .
- ٩ - ومن نصوصه : « نصرت بالرعب وجعل رزقي تحت ظل رمحي وليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل » (٥) .
- وقد أوردته في الحديث عن حسن الاستعارة .
- ١٠ - ومنه ما جاء في المطابقة من قوله عليه الصلاة والسلام : « إنكم لتكثرون عند الفرع ، وتقلون عن الطمع » (٦) .
- ١١ - ومن أمثلة التجنيس قوله صلى الله عليه وسلم : « أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، وعصية عصت الله ورسوله ، وتحيب أجابت الله ورسوله » (٧) .
- ١٢ - ومنها قوله عليه السلام : « الظلم ظلمات يوم القيامة » (٨) .
- ١٣ - وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يكون ذو الوجهين وجيها عند الله » (٩) .
- ١٤ - وأورد هذا الحديث في وصف القرآن المخرج من الفتن من تمسك به :
- عن أبي البختريّ الطائي عن الحارث الأعور عن علي رضي الله عنه قال :

« قيل : يا رسول الله إن أمتك ستفتتن من بعدك ، قال أوئسل : ما المخرج من ذلك ؟ فقال : « بكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، من ابتغى العلم في غيره أضله الله ، ومن ولي هذا من جبار فحكم بغيره قصمه الله ، وهو الذكر الحكيم ، والنور المبين والصراف المستقيم ، فيه خير من قبلكم ، وتبيان من بعدكم ، وهو فصل ليس بالهزل : وهو الذي لما سمعته الجن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنّا به ﴾ لا يخلق على طول الرد ، ولا تنفضي عبره ، ولا تنفي عجائبه » (١) .

١٥ - ومن النصوص النبوية التي ذكرها في فضل القرآن على ما سواه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » (٢) .

١٦ - وفي صدر بيان المفارقات بين الكلام النبوي والقرآن الكريم أورد قوله عليه الصلاة والسلام : « أنا أفصح العرب » (٣) .

وبهذا لا نجد في كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني ثروة تثري موضوع البحث كذلك التي رأينا في كتاب (الإشارة) ، ولكنها أشارة من حرص تغري بتتبع هذه المظان ، وتفتح الباب لمن يريد النظر الأشمل ليسد الفراغ ويكمل النقص ، ومن الله المعونة .

(١) - ١٠٣ : إعجاز القرآن

(٢) - ١٠٤ : إعجاز القرآن

(٣) - ١١٥ : إعجاز القرآن

(٤) - ١٢٣ : إعجاز القرآن

(٥) - ١٢٧ : إعجاز القرآن

(٦) - ١٢٧ : إعجاز القرآن

(٧) - ١٢٧ : إعجاز القرآن

(١) - ٢٨٢ : إعجاز القرآن

(٢) - ٣٧٥ : إعجاز القرآن

(٣) - ٤٤١ : إعجاز القرآن

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

يخرج الكلام عن مقتضى الظاهر الذي ينتظره المخاطب من المتكلم في صور مختلفة لا يكون العدول إليها إلا لوجه من تقرير المراد ، وأول ما يتجه إليه النظر ، وأعمه في تلك الصور - أنها تُحدثُ اهتزازَ النفس من المخاطب لما يفاجأ به من إمالة الكلام عما يقتضيه ظاهرُ الحال ، وذلك يزيد انتباهه لما يلقي إليه ، فيتقرر المعنى ويثبت .

والحديث الشريف يدق فيه هذا الصنيع ويلطف ، وسنرى أنواعا منه في الأمثلة الآتية تدل على ما تمتع به الأسلوبُ النبوي من لطائف الاعتبار لكريم المقاصد .

١ - وضع المضمير موضع المظهر :

١ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبي بعثه الله تعالى في أمته قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره . ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

عرّفت الأساليبُ العربيةُ نوعا من الضمير ، سمته ضميرُ الشأن والقصة وهو من نوع الغائب ، وقد أُلّف أن يسبق هذا الضميرُ مرجعه ، فمرجعه الشأن والقصة التي تذكر بعده ، والأصل في ضمير الغائب أن يعود على مرجع متقدم عليه ، ليساعد هذا الترتيب على المبادرة بفهم مدلوله . أما إذا انعكس الأمر فسبقت الضميرُ

فإن العقل يصطدم به أولاً ، فيحاول رده إلى شيء سابق - إن وجد - فلا يراه مطابقاً ، فيعود لاستئناف النظر فيما بعده ، فيجده المفسّر والمقصود ، وتلك الحركة النفسية التي حَدَّتْ من المخاتلة الفنية تجعل المعنى أعلق بالنفس ، لحصوله بعد المحاولة ، فضلاً على أنه صُوِّرَ بواسطة التكرار ، فذكر مرة على الإبهام في لفظ الضمير ، وأخرى على البيان والشرح في الكلام المفسّر الذي يجرب به عنه ، والبيان بعد الإبهام دعم لما سبق من التوجيه ، فإذا زادت الجملة دخول (إن) المؤكدة - ودخولها على ضمير الشأن أمر أغلبي - حصل التقرير للمعنى بكل هذه الوسائل ، ودل ذلك الصنع على شدة اهتمام المتكلم بالخبر الذي يليق به ، لما له من بالغ الأثر وعظيم النفع في حياة المخاطب .

الحديث الذي سبق يجري على هذا النسق في المكان الذي هو أولى بأن يتقرر كل التقرير في نفوس المؤمنين ، وهو الإخبار بالغيب عما يحدث لأمته عليه السلام من بعده ومن بعد حواربيه وأصحابه من وجود المنافقين والمرائين ، الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لم يؤمروا به ، ثم بيان واجب المجتمع نحو هذا الصنف المنحرف من الناس ، وهو مجاهدتهم على التدي ، من المنع باليد إلى اللسان إلى القلب ، وبيان أن أدنى المنازل في جهادهم إنكار القلب ، الذي ليس أدنى منه إلا الخلو عن شبه حبة الخردل قلة وضالة من جنس الإيمان ، والعلم الذي انتصب كالدليل على هذا الاهتمام هو وضع ضمير الشأن أول الكلام المعبر عن هذه المعاني ، وأول الكلام إنما يكون للاسم الظاهر ، فهو من وضع المضمير موضع المظهر لهذا الاعتبار : « إنها تخلف من بعدهم خلوف . . . » وقد فهم هذا المقصد النبوي الشريف عن طريق اللزوم ، إذ أنه عليه السلام ليس بدعا من الرسل ، وليست أمته بدعا من الأمم ، وصدر الحديث يؤكد شمول الأمر جميع المبعوثين قبله وأممهم ، وقد ورد في ذلك المعنى أحاديث أخرى تؤيد وجه القصد إلى هذا الجنس الخبيث من الناس ، يدعون لأنفسهم الإسلام وهو منهم بريء ، كما ورد في واجب المؤمنين نحو مرتكبي المنكر : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده » .

وذلك يطابق ما في حديث الدرس من التكليف اللازم لحماية المجتمع من هؤلاء الخبيثاء .

٢ - من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له آخر وصاته : « يا كعب بن عجرة : إنه لا يربو لحم نبت من سحتٍ إلا كانت النارُ أولى به » (١) .

الضمير الذي دخل عليه حرف التأكيد سبق مرّجعه ، وهو الشأن المذكور بعده ، فهو من وضع المضمير موضع المظهر ، لتحريك النفس بطلب ما يزيل الإبهام ، حتى يتمكن المعنى فضل تمكن ، لظهوره في صورتى الإبهام أولاً ، والبيان ثانياً ، فإذا لوحظ هذا مع التأكيد أولاً بالأداة ، وثانياً بالقصر الذي أداته النفي والإثبات - تبين مدى اهتمامه عليه السلام بمضمون خبره ، فَحَمَلَ ذلك المخاطب على الحرص الشديد على تمثل النار تلتهم اللحم الراي من السحت عند كل معاملة من بيع أو شراء أو غيرهما مما هو أولى بالخطر منه .

٣ - عن أغر مزينة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم مائة مرة » (٢) .

وضع ضمير الشأن كالسابق في موضع المظهر إبهاماً يعقبه البيان ، فيتمكن من ذهن المخاطب ، وقد دعم تقرير الخبر بهذا الصنع ، وبالحرف الناسخ وباللام الداخلة على الشأن المفسّر للضمير والواقع خبر الناسخ ، وجعلت غاية هذا المضمون المؤكد كل هذا التأكيد حدوث الاستغفار منه عليه السلام مائة مرة في اليوم ، والغاية نفسها بهذا العدد البالغ لون من تقرير الشأن السابق ، وهو الغين على القلب ، والاعتبار اللطيف الداعي إلى كل هذا التأكيد هو تقرير الرسول بشريته في أشد حالات القرب من الله ، حتى يتجدد في كل يوم حدوث هذا الأمر من محاولة إيقاع الصارف من الأفكار على قلبه ، كما يدل عليه المضارع الدال على

(١) تيسير الوصول بلفظ الترمذي : ٢/٣٨ .

(٢) - تيسير الوصول عن مسلم وأبي داود : ٢/٨٥ .

التجدد والحدوث ، وإطلاق اليوم على الواحد الدائر ، وبناء الفعل للمجهول للتنزه عن ذكره ، فإنه لا يمكن أن ينال من المعصوم نيلاً ، وهو يصصره بالاستغفار مائة مرة ، يقظة منه عليه السلام إلى محاولته العابثة ، مصداق قول الحق سبحانه : ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ . وقوله يخاطب رسوله ﷺ : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ كناية عن رعايته وحفظه ، وقوله : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا . . . ﴾ .

أما الوجه الذي سبق له الخبر بهذه الخصائص التقريرية كلها ، فهو حمل المؤمنين الذين بينهم وبين منزلة النبوة البؤن الشاسع ، على أن تسهر أعينهم هدم السدود والحجب ، التي ينيها الشيطان بين قلوبهم وبين الحق ، فإذا استغفر المعصوم في اليوم مائة مرة لما يغان على قلبه من أمرٍ لا يُجَلُّ بالعصمة ، استغفر المحجوب بالذنب عشرات المئات ، لعل الله يعينه على نفث عدوه وكيد ، والله المستعان .

٢ - وضع المظهر موضع المضمير :

١ - عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فقال : « إن الله تعالى خيرٌ عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختر ما عنده » فبكى أبو بكر ، فعجبنا لبكائه أن يخبر صلى الله عليه وسلم عن عبدٍ خيرٍ ، فكان صلى الله عليه وسلم هو المخير ، وكان أبو بكر هو أعلمنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أمنَّ الناس عليَّ في صحبتته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يقينن في المسجد بابٌ إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر » .

نرى في هذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام يتحدث أول الأمر عن نفسه ، والمتحدث عن نفسه يعبر عنها بضمير المتكلم (إن الله تعالى خيرني) ولكنه عليه السلام وضع لفظ (عبد) المظهر مكان هذا الضمير ، ثم أعاد عليه الضمير غائباً في الجملة التالية : « فاختر » وعُدَّوهُ صلى الله عليه وسلم عن ضمير التكلم إلى هذا الاسم المظهر ، له من شرف المعنى ونيل القصد وكمال التواضع ما ليس

للمضمير ، لما للاسم من المعنى الوصفي ، الذي يقرر مقام الرسول العبد من الرب المعبود في آخر مراحل الرسالة ، ومَنْ أولى منه عليه السلام بأن يجعل تواضعه لله جزءاً من جزاء تشریف الله له ، بأن يخيره بين البقاء في صحبه وبين لقاء ما عند الله ؟ عرف الربُّ فضلَ العبد فكرمه بتخييره ، وعرف العبدُ فضلَ الرب وإكرامه ، فتواضع له شكراً واعترف بعبوديته له ، واختار ما عنده .

ولأجل تمام التواضع في مقام الحديث عن النفس أبهم عليه السلام العبد بتكبيره ، حتى عجب الصحابة مع سلامة الفطرة من بكاء أبي بكر ، الذي كان أدراهم حينئذٍ بخصيصة وضع المظهر موضع المضمير . وبالمراد من تنكيهه .

هذا التظليل الذي سبحت تحته أفكار المخاطبين ، فدعا من بكى للبكاء ، وعجَّب من عجب لتلك القرينة المفسرة للمظهر - أحدث هزةً في الجميع على ذلك الوجه ، صعَّدت المعنى إلى بؤرة الوجدان وأكدت ورسخته .

ونمضي بعد ذلك فنرى اسم أبي بكر رضي الله عنه قد ذكر ثلاث مرات وكان ظاهر السياق يقتضي في المرتين الأخيرين أن يكتفى عن هذه الكنية بذكر ضمير الغائب لسبق المرجع ، ولكن خولف هذا لأن في تكرار الاسم المظهر ما ليس في تكرار الضمير من التنويه بشأن أبي بكر رضي الله عنه وتقدير اسمه في الأذهان ، تأكيداً لتعظيمه فيها ، وتعريفاً بقدره في مقام ترشيحه لأول إمارة للمؤمنين وخلافة للمسلمين بعد النبوة .

٢ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سلوا الله تعالى من فضله ، فإن الله يحب أن يسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج (١) » .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) تيسر الوصول : ٢/٥٩ .

« من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني(١) » .

في كل من الحديثين ذكر لفظ الجلالة مرتين ، وكان الظاهر يقتضي في المرة الثانية ذكر الضمير لسبق مرجعه ، غير أنه عدل عن ذلك ، فوضع المظهر موضع المضمير ، لما في المظهر - وهو لفظ الجلالة الأقدس - من استحضار عظمة الحق جل وعلا بمجرد النطق به لأنه عَلِمُ الذات الجليلة لا يحتمل الشركة ، وليس كذلك الضمير ، فإذا عرف العبد الفقير أن الله الغني الذي استحضر عظمته بتكرار اسمه الجليل يجب من الفقير إليه أن يسأله - سارع إلى سؤاله وداوم عليه ، ليكون مشمولاً دائماً بحبه ، وإذا كان في هذا المقام وأدركته سعادة هذا الحس ، نأى بجانبه عن سوء الأدب بارتكاب المبغذات .

ونظّم الجملة فوق ذلك عجيب في التقرير لهذا المعنى ، فقد تأكدت أولاً بحرف التأكيد (إن) وثانياً بتكرار الإسناد ، فإن الفعل (يجب) قد أسند إلى ضمير الجلالة المستتر فيه ، ثم أسند في الجملة إلى اسم الجلالة الظاهر ، وبني فعل السؤال للمجهول لبيان الاهتمام بمدلوله المطلق ، ليعم سؤال المخاطبين وسؤال غيرهم ، لأنه تعالى رب العالمين ، وأقيم بناء الحب على صيغة التجدد ليدل على استمراره لكل جديد من الدعاء على مر العصور ، لأنه المسؤول فيما كان وفيما يكون ، وقد وقعت هذه الجملة من جملة الطلب موقع العلة ، لتأكيد الحث على الامتثال .

ولما كان الإنسان قد خلق من عجل « لو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم » وإنما يؤخر الله لحكمته البالغة إجابة دعائهم ، لعلمه المحيط بما يصلحهم - لما كان ذلك أشار عليه السلام إلى فضيلة الأناة ومعرفة حكمة الله ، حتى لا يتعجل السائل الفرَجَ السريعَ بالإجابة ، وبين أن الصبر مع الرجاء من أفضل العبادات ، لأنه دليل الطمأنينة إلى الله والرضا بمختاره .

(١) تيسير الوصول: ٢/٣٧ .

ذلك في الحديث الثاني . أما الحديث الثالث فقد وضع لفظ الجلالة في المرة التي كان المقتضى معها ذكر الضمير لتقدم مرجعه ، لأجل تربية المهابة ، باستحضار عظمة الله وجلاله في مقام العصيان ، ولا شك أن الضمير وإن عاد على الاسم السابق لا يُشعرُ النفس بما تستشعره من الجلال والرهبة بذكر الاسم الجليل ، حتى ترغب عن المعصية وتسارع إلى الطاعة ، وقد زيد هذا التقرير بما تضمنه الحديث من المقابلة بين جانب الطاعة وجانب المعصية ، التي يتميز فيها كل ضد بالمقابل له .

وقد عضد ذلك كله أمورٌ من تكرار الأفعال كتكرار الأسماء ، ومن التأكيد بوضع المسند إليه اسم شرط للشمول ، طرداً للحكم دون استثناء ، وأعجب الدقة أن يؤكد فعل الطاعة لله بحرف التحقيق ، حتى يزول أدنى شك في اتحاده بفعل الشرط في المعنى ، لتوقفه عليه ، وشدة ربطه به ، ولذلك اقترن بالفاء : وكان من الممكن أن يرتبط الجواب الماضي بالشرط الماضي دونها معا : (من أطاعني أطاع الله) لولا ذلك الغرض .

ولما كان أمير الرسول يبلغ عنه ، فيبلغ عن الله ويحكم بما حكم به فيحكم بحكم الله - انتقل ليثبت النتيجة بطريق القياس لطاعة أميره وعصيانه ، ليقرر في النفوس أن رسالته باقية ما بقيت إمارة الإسلام ، تجب لها الطاعة وتحرم المعصية ، لأنها في آخر الزمن كأوله ، طاعة للرسول أو معصيته ، وطاعة الرسول طاعة لله ، ومعصية الرسول معصية لله .

٤ - من خطبة النبي صلى الله عليه وسلم بكراخ الغميم بعد الحديبية - أنه قرأ قوله تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ فقال رجل : أفتح هو ؟ قال : « نعم والذي نفس محمد بيده إنه لفتح » .

الرسول عليه السلام يُقسم بربه الذي نَفْسُهُ بيده ، فكان ظاهر البيان أن يضيف النفس إلى ضمير المتكلم فيقول : (والذي نفسي بيده) كما في أحاديث أخرى ، ولكنه عدل عن ذلك إلى إضافة النفس للاسم العلم اجتهاداً في القسم

لنزع الشك ، ومساابقة لشدة التأثر بسؤال السائل ، وإشعاراً له بالمخبر الخالف من هو؟ وأنه من لا يجوز التردد في خبره ، حتى يلوم نفسه على سؤاله ، ثم بعد كل هذا ليكون خبره المؤكّد بالقسم المبالغ فيه - وهو خبر عن الفتح المستقبل الذي يراه ولا يرويه - أكد في الدلالة على نبوته ، وليس القسم على هذا الوجه اللافت وحده هو كل التأكيد ، بل نرى عبارة المقسم عليه وقد صدرت بالأداة (إن) ودخلت اللام على خبرها ، فضلاً على اسمية الجملة .

٥ - كان من دعائه عليه السلام بين التكبير والقراءة : « اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد^(١) » .

كان ظاهر السياق يقتضي في الجملة الدعائية الثانية دخول حرف الجر على ضمير الخطايا ، فيقال : (اغسلني منها) لسبب مرجعه ، ولكنّ خولف عن ذلك إلى المظهر ، لأنه يؤكد الإحساس بمعناه ، ويملاً النفس بالخوف منه لخطورته ، والفرار بالدعاء من شره ، في مقام الضراعة والعبادة ، وبيان حال العبد البشر أمام الرب الجليل المعبود ، فإذا رُوِيَ كمال الاتصال بين الجملتين على الاطلاق لاتحاد المعنى بينهما ، وإذا روعيت المتعاطفات الواقعة أداة للفعل في الجملة الثانية ، وبعضها كاف في تحقيقه ، وإذا نظرنا إلى ذكر الخطايا المتبرأ منها بالجمع دون الأفراد - عرفنا أن هذا الأسلوب الدقيق قد تعانقت فيه مقرّرات الحذر النبوي ، جسّمت الخطايا في صورة الدرن الطاريء على ما أصله النقاء والإشراق والجمال ، تقيحاً لها وتنفيراً منها في جانب المؤمنين ، وخشيةً من مواقعتها وتوجّساً من جانبه عليه السلام ، ودرجة الخوف تقترن بدرجة القرب ، وإن لم يوجد أدنى الشك في الحماية الإلهية ، وليس معنى الدعاء الكريم أنه عليه السلام يطلب الخروج من خطايا واقعة كخطايا البشر من لم يعصمهم الله ، وإنما حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد عوتب عتاباً شديداً على تركه الأوّل من الإقبال على الأعمى ، وكان تركه إلى القوم اجتهاداً منه

عليه السلام ، يتألفهم لعلهم يسلمون ، لا ترفعا عن ابن أم مكتوم ، كما عوتب في تحريمه على نفسه ما أحل الله له ابتغاء مرضاة أزواجه ، وتحريم الشيء على النفس يمين ، ولذلك جعل الله له تحلّة منه ، فذنبه عليه السلام من تلك الأنواع التي لا تؤثر في رسالته ، ولا تقدح في شرفه أو كرامته ، فالإجماع قائم على سلامة الرسل من الخطأ ، وعصمتهم من الزلل فيما يبلغون عن الله ، وقد امتدحه الله تعالى بقوله : ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ وفسرت ذلك أم المؤمنين عائشة حينما سئلت عن خلقه فقالت : « كان خلقه القرآن » وحسبنا بذلك عصمة .

٦ - عن أبي عبد الله الجشمي قال : حدثنا جندب رضى الله عنه قال : جاء أعرابي فأناخ راحلته ، ثم عقلها ، ثم دخل المسجد فصرخ فصرخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الأعرابي راحلته فأطلقها ، ثم ركب ، ثم نادى : اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك معنا في رحمتنا أحداً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ترون أضلّ؟ هذا أو بغيره؟ ألم تسمعوا إلى ما قال؟ » قالوا : بلى .

الأعرابي القائل معروف للنبي عليه السلام وللصحابة مسموع قوله ، كان مقتضى العلم به أن يعبر عنه بالضمير فيقال : أهو أو بغيره؟ مطابقة لاسم الاستفهام والضمير المحذوف بعد الفعل (ترون) ولكنّ خولف عن ذلك إلى اسم الإشارة (هذا) لأنه يميز المشار إليه أكمل التمييز بحرف التنبيه والتحقيق بالقرب ، حتى نزل منزلة يُقَارَنُ فيها بالبهيمة ، على وجه يوحي بزيادته عنها في الضلال ، ولو وضع الضمير مكان اسم الإشارة لما أرشد إلى هذه اللطيفة .

والرسول عليه السلام لم يحقر الأعرابي لِدَآتِهِ ، يدل على ما استحق التحقير بسببه الاستفهام التقريري الذي وقع كعلة الحكم عليه بأنه أضل من بغيره : (ألم تسمعوا إلى ما قال؟) فقوله الذي يدل على الأثرة البالغة وتحجير الواسع من رحمة الله ، جهلا بحقيقة الإيمان ، ومنافاة لأخوته - هو السبب فيما اتصف به ، ليحذّر مَنْ تَبَلَّغَهُ قِصَّتُهُ مِنْ مِثْلِ صَنْعِهِ .

(١) تيسير الوصول : ١/٦٤ .

الالتفات

والالتفات من هذه الأنواع التي تحدث في النفس حركة الانتباه قصداً ، ليتقرر فيها ما تلتفت إليه تنشيطاً لداعي التأثير به ، وهو في الكلام كما هو في الأجسام : تحويل وجهه إلى جهة أخرى غير ما ينتظر المخاطب ، وقد خصته البلاغة بالعدول عن مقام من المقامات الثلاثة التي يعبر عنها بالضمير (التكلم والخطاب والغيبة) إلى أحد أخويه الأخرين ، وقد جاء في بيانه الكريم عليه السلام رائعاً محكماً ، مثيراً للنشاط النفسي في أماكن يُطلب فيها التقريرُ واسترعاء الانتباه ، أو في مواضع كان الالتفاتُ فيها أثر الوجدِ النفسي والحال الشعورية ، فهو صورة صادقة للحس النبوي عند التكلم . ومن هذا ما يلي :

١ - عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ركع قال : « اللهم لك ركعتُ ، وبك آمنتُ ، ولك أسلمتُ ، وعليك توكلتُ ، أنت ربي ، خشع سمعي وبصري ولحمي ودمي وعظامي لله رب العالمين » (١) .

٢ - عن علي رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سجد قال : « اللهم لك سجدتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره ، تبارك الله أحسن الخالقين » (٢) .

٣ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أمسى : « أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، رب أسألك خيراً ما في هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها » (٣) .

٤ - عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

إذا خرج من بيته قال : « باسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إنا نعوذ بك من أن نزل أو ننزل ، أو نظلم أو نُظلم ، أو نجهل أو يُجهل علينا » (١) .

٥ - عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا ولج الرجل إلى بيته فليقل : اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج ، باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا ، ثم ليسلم على أهله » (٢) .

٦ - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله » (٣) .

فالحديث الأول يحمل صورةً مناجاة العبد للرب في عبارة تخصص الرب بما صدر من أفعال العبد على طريق الخطاب ، ثم تختم بعبارة تقع موقع العلة لهذا التخصيص (أنت ربي) يضاف فيها اسم الرب إلى ضمير العبد ، نبذا لكل معتقد سواه ، وتقريباً لاستحقاق ما سلف ، وكأنه - عليه السلام - أراد أن يعود ليتحسس ذاته ، مؤكداً مما قرره ، فإذا هي خاشعة خاضعة مسلمة بأخص المقومات ، فأخبر في عجز النص ملتفتاً (لله رب العالمين) واضعاً المظهر من لفظ الجلالة وصفته موضع ضمير الخطاب الذي كان السياق يقتضيه ، لما في اللفظ الجليل من دلالة ذاتية على المعبود الحق جل وعلا ، بينما دلالة الضمير بالواسطة ، وهذه الالتفاتة ترجع بالإيضاح البالغ للفظ (ربي) الذي سبق ، فتدفع عن المضاف كل وهم مهما انحرف ، ثم توحد باجتماع المضاف إليه فيها (العالمين) مع المضاف إليه السابق وهو ضمير النبوة المتكلمة - ذلك المعبود الحق - سبحانه - فهو الاسم المضاف في كل

(١) تيسير الوصول ٢/٧٢ .

(٢) تيسير الوصول : ٢/٧٢ .

(٣) تيسير الوصول : ١/١٩ .

(١-٢) تيسير الوصول : ٢/٦٦ .

(٣) تيسير الوصول : ٢/٧٠ .

منها ، وكأنه عليه السلام يرمز إلى معنى جليل هو أن ما اختص به هو الحق المتميز
الواجب ، وأن ما سواه الباطل المضل الأثم .

والحديث الثاني : لا يبعد جملة عما تقرر في الحديث الأول ، من البدء بالمناجاة
في شرف الحضور ، ثم الرجوع إلى الذات لتحسس المواطأة للخير ، وضمنه
الالتفاتة بالاسم الموصول عن الخطاب لتقرير صفات المستحق للسجود ، وأسند
السجود إلى الوجه هذه المرة ، وهو فيما قبلها مسند إلى ضمير النبوة المتكلمة - زيادة
في التعبير عن الخضوع ، فسجود ما هو أعلى الأعضاء وأشرفها ، وأجمعها لنوافذ
الإدراك من الحس - أدل على الاعتراف بالخلق للحق ، وقد رَمَزَتُ الأفعال التي
وُصِلَ بها الموصولُ إلى الإبداع الإلهي في الوجه البشري عامة ، وفي الوجه النبوي
المبارك خاصة ، الذي هيء ليكون مرآة الله للوجود ، يقيسون عليها قلوبهم ،
ويرون بصدق نورها أنفسهم ، ثم كانت النهاية توحيد المستحق ، فمن صدرت
هذه الأفعال عنه - سبحانه - هو الله أحسن الخالقين .

الحديث الثالث : يبدأ بالحديث على طريق الأسماء الظاهرة التي يعود عليها
ضمير الغائب ، يقرر ملكية الله المطلقة في الوقت الذي تخشع فيه قلوب الملوك ،
وتتوجس في ظلماته وسكونه المعاطب ، دليلاً على مجازية ملكها وضيقة وعجزه
وفقره ، كما يقرر استحقاقه - تعالى - للحمد ، ووجدانيته منزها عن الشريك ،
ويؤكد ما سبق أن قرره من الملكية المطلقة له - عز وجل - بإعادة المعنى في جملة
اسمية (له الملك) تدل على الثبوت والدوام باسميتها ، وعلى الحصر بتقديم
مسندها ، كما يؤكد الحمد له بمثل ذلك ، ترقياً باليقظة إلى المقام الجليل ، الذي
كل شيء تحت قدرته ، وحينئذ تتمثل غاية اليقظة في الالتفات إلى مَنْ هذه
اختصاصاته بعبارة الدعاء والمناجاة ، على حد قوله الكريم عليه السلام : « اعبد
الله كأنك تراه » .

الحديث الرابع : لا يبعد عن سابقه إجمالاً .

الحديث الخامس : يرتب الأمور على نسق الوجود ، فيبدأ بمناجاة الله - تعالى -

بالدعاء ، حتى إذا كان أدنى إلى أهله انتقل خطوة من الخطاب إلى التقرير بالاسم
الظاهر (باسم الله . . .) فإذا وصل إلى الأهل ، انتقل عن ذلك إليهم
بالسلام ، فلا يكون انتقاله عن خطاب الله إلى خطاب أهله دون وصلة من التمهيد
بينهما كالاعتذار اللطيف منه لسيدته .

الحديث السادس : يبدأ بحديث النبي عليه السلام حديث المتكلم عن
النفس ، ثم يلتفت إلى اسمه الظاهر العلم ، ليقرر ما قرر الله في قوله تعالى :
﴿ محمد رسول الله ﴾ وليدفع أدنى الشك عن الاسم الذي وجبت له الشهادة
بالرسالة بعد الشهادة لله الحق بالانفراد بالألوهية ، وإذا تهبأ ذهن السامع بهذه
النقطة إلى تلقي الأسماء بنسق الغيبة نراه عليه السلام فاجأنا بالعودة إلى التكلم
التفاتاً في (عصموا مني) يرشد إلى إحساسه بالتبعية ، وتيقظه لما كلفه من إراقة
الدماء الكافرة ، ومصادرة الأموال الفاجرة ، ما لم تجد من الإسلام شافعاً .

هذه التفاتة قريبة في الحديث ، عن هذا اللون البديعي في كلامه الكريم
- عليه السلام - حاولت أن أعلل فيها - بعض التعليل - للعدول عن أصل النسق ،
فتحا لنافذة البحث والتقصي ، لمن يلهمه الله أن يسهم في ذلك المنهج الواجب ،
والله المستعان .

أسلوب الحكم :

ويسمونه أيضاً (القول بالموجب) ومنه حمل لفظ المخاطب على خلاف مراده ،
تبيينها على أن ما حملة المتكلم عليه هو الأولى ، ومنه في الحديث الكريم :

١ - عن نهيسة الفزاري رضي الله عنها قالت : « استأذن أبي النبي صلى الله
عليه وسلم فدخل بينه وبين قميصه ، فجعل يقبله ويلتزم ، ثم قال : يا رسول الله
حدثنني ما الشيء الذي لا يحل منعه ؟ قال : الماء . ثم قال : ما الشيء الذي يحل

منعه؟ قال: الملح. ثم قال ما قال؟ قال: النار. ثم قال: يا نبي الله ما الشيء الذي لا يجلب منعه؟ قال: أن تفعل الخير خير لك»^(١).

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أكرم عند الله تعالى؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فيوسف نبي الله بن نبي الله بن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»^(٢).

في الحديث الأول يسأل الصحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيء الذي لا يجلب منعه، فيجيبه عليه السلام بأمر من المنافع المشتركة التي يكثر سؤالها، ويعظم نفعها، ويخف على المانح بذلها، ولكنه لم يكتف فيلح بالذوال، فيجيبه النبي جواباً ينبه فيه إلى السؤال الذي كان أولى من سؤاله، وكأنه يقول له ينبغي أن يكون سؤالك: (أي الأفعال خير لي؟) فيكون الجواب (أن تفعل الخير خير لك) ولا شك أن هذا الضرب من البلاغة ألطف في الرد، وأكرم للمخاطب، وأدل على ذوق المجيب، إذ يحمل المخاطب على الرجوع إلى نفسه، ومقارنة السؤال والجواب، واستنباط الحكمة من المفارقة، حتى يوحى إليه التظليل أن السؤال المقدر كان هو الأجدر.

والحديث الثاني: يدل على علم النبي عليه السلام ما أرادوا بالجواب عنه آخر الأمر دون إشارة منهم إليه، ولكنه صلى الله عليه وسلم تلقى السائل بما ينبغي أن يكون مناط السؤال والجواب، إذ أن الإسلام سوى بين البشر، فلم يجعل أكرم الناس إلا أتقاهم، ثم تكرر الطلب من السائل بنفي المطابقة بين السؤال والجواب، وكأنه لم يدرك مراد المجيب من تنبيهه إلى ما هو الأولى فنقله الرسول إلى جواب آخر غير ما طلب، وكأنه يقول له: إذا أبيت هذا العام فليكن ذلك الخاص

لامتداد أصله في النبوة وعراقة عرقه، فلما لم يجد السائل في الجواب مقنعا، ولم يفتن لما وجه إليه فأعاد الطلب - خاطبه الرسول على قدر مراده، فقرره أولاً بمطلوبه من السؤال تسجيلاً عليه، ثم أجابه ثانية عن سؤاله، وصنيع الرسول عليه السلام ذلك توجيه لعامة الصحابة وللمؤمنين إلى ما ينبغي أن يعد مقياساً للكرامة عند الله، كما أخبر الله به في كتابه: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ولو أجاب بمراد السائل من أول الأمر لما دل جوابه على هذا الشأن الذي يجب أن يتقرر، ولقدودوا من وجه آخر ما أراد أن يوضحه في هذه المناسبة من كرامة نبي الله يوسف عليه السلام، فكان من أطف عدوله عن الجواب المقصود أولاً وثانياً إلى ما عدل إليه على وجهي القول بالموجب مع التلفيف الذي سبقت الإشارة إليه في البديع.

استعارة الأفعال باعتبار الزمن

إطلاق زمن الماضي ليشمل الحاضر والمستقبل

يكثر هذا النوع من الاستعمال في الحديث الكريم عقب أداة العموم شرطاً أو غير شرط، إشعاراً بأنه من الأمور التي تتحقق في الوجود كثيراً فكلما وجدت كان حكمها هو المذكور من بعد، ومن هذا ما يلي من المثل:

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها»^(١).

٢- عن عروة بن الزبير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له، وليس لعرق ظالم حق»^(٢).

٣- عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحاط حائطاً في موات فهو له»^(٣).

(١) الجامع الصغير: ١/٣٥.

(٢) الجامع الصغير: ١/٣٦.

(٣) الجامع الصغير: ١/٣٦.

(١) تيسير الوصول من حديث أبي داود: ١/٥٩.

(٢) تيسير الوصول من حديث أبي داود: ١/١٥١.

٤ - عن عائشة من حديث عنه عليه السلام : « من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار »^(١).

٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عليه السلام : « من أقال مسلماً عشرته أقال الله عشرته »^(٢).

٦ - عن عوف بن مالك الأشجعي عنه عليه السلام : « أنا وامرأة سعاء الخدين كهاتين يوم القيامة - وأوماً يزيد بن زرع الراوي بالوسطى والسبابة - امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال ، وحبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا »^(٣).

عن أبي سلمة رضي الله عنه أنه عليه السلام قال : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين »^(٤) وفي رواية : « خسف به يوم القيامة ».

هذه الأفعال التي ذكرت بصيغة الماضي لا يختص الجزاء المذكور بعدها بما وقع منها قبل إخباره عليه السلام بها ، فالحكم منسحب على الحاضر والمستقبل ، ومعنى هذا أن مدلولها الزمني غير مقصود ، فهي مطلقة من المضي مخالفة لظاهر الوضع ، وسر العدول عن التعبير بفعل الحاضر أو المستقبل هو تأكيد حصول الجزاء المترتب على الفعل في مقام الترهيب أو الترغيب ، تصويراً له صورة الواقع ليجتنب أو ليلتزم .

ولذا كانت القرينة على إطلاق الفعل من زمنه الماضي عقليةً مرجعها النصوص الأخرى أو القواعد الأصولية ، فكثيراً ما نرى القرائن قولية كما في هذه النصوص :

١ - عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا »^(١).

فالأفعال الخمسة الأخيرة ماضية ، رتبت على ما زمنه المستقبل بالنسبة إلى النبي ﷺ والصحابة ، وذلك دليل استعمالها على خلاف الظاهر من وضعها .

٢ - عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يخذع في البيوع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من بايعت فقل : لا خلافة ، فكان إذا بايع قال : لا خلافة » .

فعل الشرط ماض - من قوله عليه السلام - وهو مستقبل الزمن وقوعاً ، بقرينة النصح للانتفاع به فيما يجئ من البيوع ، ثم بقرينة التفريع المذكور .

٣ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويل للعرب من شر قد اقترب . أفلح من كف يده »^(٢) .

فالاتقرب قرينة على أنه لم يقع ، والجمله بعده إن كانت خبراً لفظاً ومعنى فزمن فعلها المستقبل لاقتضاء المعنى أن الفلاح حاصل لمن يكف يده عندما يحصل الشر المنتظر ، وإذا كانت دعائية فهي الماضي أيضاً لتحقق الوقوع حثاً على كف اليد عند الفتن .

التعبير عن المستقبل بالمشتق

يجعل العارفون اسم الفاعل واسم المفعول في قوة الماضي ، ويجعلون علة التعبير بأحدهما بدلاً من المستقبل قصداً للدلالة على تحقق الوقوع مبالغة كالدلالة بالماضي ، ومن ذلك في الحديث الشريف :

(١) الجامع الصغير : ١/٤٧ .

(٢) الجامع الصغير : ١/٥٣ .

(٣) الجامع الصغير : ١/٤٨ .

(٤) تيسير الوصول : ٢/٢١٧ .

(١) تيسير الوصول : ٣/١٥٦ .

(٢) الجامع الصغير : ٢/١٨٥ .

١ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له صلى الله عليه وسلم : « أبشر فأنت عتيق الله من النار . قالت : فمن يومئذ سمي عتيقاً^(١) » .

فذلك الوصف باعتبار المستقبل عبر عنه بصيغة فعيل لتأكيد حصوله .

٢ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم منصورون ومصيبون ومفتوح عليكم ، فمن أدرك ذلك منكم فليتق الله تعالى وليأمر بالمعروف ولْيَنْهَ عن المنكر ، ومن كذب عَلَيَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار^(٢) » .

فالأوصاف : (منصورون ومصيبون ومفتوح عليكم) مقصود بها الاستقبال بقرينة الجملة الشرطية المذكورة بعد : (فمن أدرك ذلك منكم . . .) وإنما أُوثر التعبير باسم المفعول لتقرير حصول مدلولاتها وتأكيد وقوعه .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن . اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين^(٣) » .

ومفهوم هذه المشتقات لا يختص بماض ولا حال ؛ فهو منسحب على المستقبل ، بدليل طلبه عليه السلام من الله إرشاد الأئمة ، وليس طلب دوام الحال الموجودين وإلا لحرم بركة الدعاء من يكون بعد النبي ، وهذا ينافي حرصه عليه السلام ورأفته على كل أمته ، فالتعبير عن المستقبل بمعادل الماضي من المشتقات إنما هو للحرص على تأكيد للوقوع .

٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة

الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه^(١) » .

هذه الصفات التي ميزت الطوائف ليست خبراً عن الماضي ، إذ الجزء منسحب على هذه الفئات من الناس ، وفاء بحق الترغيب ، والنسق يقتضي معادلة المشتقات الواصفة بالأفعال الماضية في العبارة ، من جهة الدلالة على تأكيد الحصول بقوة العزم والإرادة .

فالوصفان : (عادل - معلق) يساويان في الجملة الفعلين الماضيين : (عدل - علق) وإن اختلفا في التفصيل من حيث الاستمرار وعدمه .

الطلب بصيغة الماضي

ونرى الطلب في البيان النبوي بصيغة الماضي ، إشعاراً وتفאוؤلاً أو إنذاراً بتحقيق المطلوب كأنه قد وقع ، وأكثر ما يكون ذلك في صيغ الدعاء ترغيباً أو ترهيباً ، للحمل على ما كان الدعاء بسببه من خير أو شر .

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رغم أنفه ! رغم أنفه ! رغم أنفه ! قيل : مَنْ يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة^(٢) » .

فبالرغم من حصول التأكيد بتكرير اللفظ ، وبأن عقوق أحد الوالدين كافٍ في الحرمان - زيد التقريرُ بجعل الدعاء ماضياً ليكون أشد في الإرهاب والتحذير ،

(١) تيسير الوصول : ٣/٢٣٠ .

(٢) تيسير الوصول : ١/٣٣ .

(٣) الجامع الصغير : ١/١٠٣ .

(١) تيسير الوصول : ٣/٢٩٨ .

(٢) تيسير الوصول : ١/٤٥ .

وتستشعر النفس منه أن الرغم قد وقع فعلاً للعاق ، فإن لم يكن فهو يكاد أن يكون ، ومثله .

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لُعِنَ عبد الدينار ، ولُعِنَ عبْدُ الدرهم (١) » .

ومن ذلك في الترغيب :

٣ - عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رَجِمَ اللهُ رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى » (٢) .

٤ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَضَّرَ اللهُ امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه ، فَرَّبَّ مِبلغ أوعى من سامع » (٣) .

فالحدِيثان دعاء بالرحمة في الأول وبالتنْضير في الثاني ، والدعاء ان بصيغة الماضي يشعران بتأكد الوقوع وتحقيق الطلب ، كما لو كان قد حصل كل من المطلوبين عند الدعاء ، وذلك أدعى للسماحة في الأول وحسن التبليغ في الثاني ، وما هو ظاهر أن الحكم ممتد إلى ما يحدث من ذلك مستقبلاً ، ولو كان الفعلان إخباراً لفظاً ومعنى لما كان لهما من الأثر ما لهما على هذا الوجه ، وهما في مقام الحث والتحضيض الذي يناسبه الدعاء .

أما القليل مما تجيء فيه صيغة الماضي بمعنى الطلب فمنه استعمال فعل الرؤية بعد الهمزة مسند إلى ضمير الخطاب ، كقوله عليه السلام في حديث سبق : « رأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه . . . » إذ معناه : أخبروني ، فإن الرؤية سبب الإخبار ، وفي مثله يقول الزمخشري : فيه تجوز لإطلاق الرؤية وإرادة

الإخبار لأن الرؤية سبب الإخبار ، وجعل الاستفهام بمعنى الأمر بجامع الطلب (١) .

استعارة المضارع خَبَرًا وطلباً

المضارع الخالي من علم الاستقبال يعبر به عن الماضي أو المستقبل لاستحضار صورة مدلوله في الحال ، تقريراً له في النفس كالمشاهد ، والبيان النبوي لا ينسى هذا الأسلوب التقريري في تصوير الأحداث .

فمنه استحضاراً للماضي :

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بيننا رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره ، فشكر الله تعالى له فغفر له » (٢) .

٢ - وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بيننا رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً ، فنزل فيها فشرب ثم خرج ، وإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له . . . » (٣) .

فالأفعال المضارعة في السيق كغيرها ماضية الوقوع ، ولكنها صورت صورة الحاضر المشاهد جذبا لانتباه المخاطب إلى القصة . ومن استحضار المستقبل ليقع تحت المشاهدة بالتخييل لتقريره :

٣ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنها قال : قال رسول الله

(١) ينظر عمدة القاري : ٣/١٤٠ والكشاف في تفسير « قل رأيتم ان أخذ الله سمعكم » من سورة الأنعام وأمثالها .

(٢) تيسير الوصول : ١/ ٤٩ .

(٣) تيسير الوصول : ٢/١٠٧ .

(١) تيسير الوصول : ١/٨١ .

(٢) تيسير الوصول : ١/٥٣ .

(٣) تيسير الوصول : ٣/١٥٤ .

صلى الله عليه وسلم : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » (١) .

٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تجدون من شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » (٢) .

٥ - عن أبي وائل قال : سمعت أسامة رضي الله عنه يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان ، ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية » (٣) .

والسبب دال على استقبال هذه الأفعال المضارعة لتصويرها مشاهد أخروية ، ولكنها قد عبر عنها بالمضارع المجرد من أداة الاستقبال لاستحضار صورها في الحال تقريراً لما نقص من تلك المشاهد .

أما استعمال المضارع في الطلب ترفقاً بالمخاطب ، وحملها له من أطف الجوه على الامتثال فمنه هذه الأحاديث :

٦ - عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ؛ فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير ، فقلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ، فقال : « لقد سألت عن عظيم ، وأنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟

قلت : بلى يا رسول الله قال : الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل من جوف الليل شعار الصالحين . . . » (١) .

فالأفعال المضارعة الخمسة : (تعبد - تقيم - تؤتي - تصوم - تحج) في معنى الأمر ، ولعل من أطف اللطف في سر العدول عن صيغة الطلب إلى صيغة الخبر أن كمال ذوقه الشريف عليه السلام ، وحدة فطنته طبقت بهذا الوجه الخبري قول صاحبه : (أخبرني . . .) ولو دله بصيغة الطلب لكان مجيباً عما سأل ، ولكن شتان ما بين الجوابين من الدلالة على الحاسة البيانية المرهفة .

٧ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُرْكَبُ الرهنُ بنفقته ، ويُشْرَبُ لبنُ الدر بنفقته إذا كان مرهوناً وعلى الذي يَشْرَبُ وَيُرْكَبُ النفقة » (٢) .

٨ - عن ابن المسيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يغلق الرهن » (٣) .

فالعلان (يركب ويشرب) أول الحديث يظهر فيها معنى الأمر بالإباحة ، والفعل المنفي في الحديث الأخير يظهر منه معنى النهي عن مدلوله ، والطلب بهذه الصورة أعون على تصور الحكم وأدعى إلى الامتثال ، لإظهار المطلوب في صورة المخبر عنه كأنه قد كان .

(١) تيسير الوصول : ٣/٢٩٢ .

(٢) تيسير الوصول : ٢/١١٠ .

(٣) تيسير الوصول : ٢/١١٠ .

(١) تيسير الوصول : ١/٨٦ .

(٢) تيسير الوصول : ٢/١١٢ .

(٣) تيسير الوصول : ٢/١١٢ .

الاستفهام في البيان الكريم

الاستفهام من الأساليب الإنشائية العجيبة في مرونتها ، يتصرف به القائل البليغ في فنون التعبير المصورة لما يرسم في نفسه من انطباعات ، فتراه أداة لتصوير الإعجاب ، أو التعجب أو السخرية ، أو التشويق أو الإيناس أو غيرها من المعاني الناشئة في النفس بفعل الدواعي ، حتى يمكن للرسم أن يعطي لوجه المستفهم في كل منها صورةً من وحي تعبيره .

والرسول الكريم عليه السلام يتخذ من الاستفهام باباً واسعاً لتقرير المعاني ولزيادة الإيضاح ، فكم جاء استفهامه تشويقاً للسامع وقسراً لانتباهه أو استدراجاً وتقريراً ، ليصل عن طريق الاعتراف إلى الاقتناع بخطأ أو صواب ، أو غير هذا من الجوانب التي سنرى بعضها في هذه الوجزة .

١ - التشويق إلى الخبر :

يكثر هذا النوع في الحديث النبوي ، وأكثر ما جاء قد دخلت فيه همزة الاستفهام على (لا) فاكسب معنى العرض أو معنى الاستفتاح بحسب ما يمليه المقام ، فإذا كان المركب منها استفتاحاً تلتته أداة استفهام أخرى كما يلي :

١ - عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال : « ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ، فبسطنا أيدينا وقلنا : علام نبايعك يا رسول الله ؟ ، قال : على أن تعبدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً ، وتصلوا الصلوات الخمس ، وتسمعوا

وتطيعوا ، وأسر كلمة خفية قال : ولا تسألوا الناس شيئا ، قال : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله «(١) .

٢ - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : « ألا أي شهر تعلمونه أعظم حرمة ؟ قالوا : ألا شهرنا هذا ، قال : ألا أي بلد تعلمونه أعظم حرمة ؟ قالوا : ألا بلدنا هذا ، قال : ألا أي يوم تعلمونه أعظم حرمة ؟ قالوا : ألا يومنا هذا ، قال : فإن الله تعالى حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم إلا بحقها كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ! . ألا هل بلغت ؟ كل ذلك يجيبونه : ألا نعم . قال : ويحكم أو ويلكم : لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض «(٢) .

٣ - عن أبي بكره نفع بن الحارث الثقفي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ، أي شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا بلى . قال : أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : أليس البلد الحرام ؟ قلنا : بلى . قال : فأأي يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى . قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا ليلبع الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له

من بعض من سمعه ، ثم قال : ألا هل بلغت ؟ ألا هل بلغت ؟ ثلاثاً . قلنا : نعم . قال : اللهم فاشهد «(١) .

في الحديث الأول كان عَرَضُ المبايعة من النبي على الصحابة بطريق الاستفهام ، وفيه من اللطف وجلب الامتثال وتحريك كامنة المخاطب ما ليس في صيغة الأمر : (بايعوني) لأنه يشعر المخاطب بشخصيته ، وأنه طرف حر السلوك والاختبار ، خلافاً لظاهر صورة الأمر الذي يوحي بالعلو والإلزام ، وذلك التلطف في الطلب أولى بلباقة الداعي عليه السلام ، لأنه في معدن فصاحته ، وقد كان الإسلام ما يزال في مفترق الطرق .

والحديث الثاني يثير انتباه المخاطبين بأداة الاستفتاح ، وهي حرف مركب من أجزائه الاستفهام ، ثم يسوق السؤال بعد الانتباه تجاهل عارفٍ أو استدراك مخاطب ، ليزيد فسر انتباهه وكامن شوقه لمعرفة سر العدول بالاستفهام عن المعلوم ، ويتكرر هذا النوع مع الشهر والبلد واليوم صعوداً باليقظة إلى قمتها ، ثم يأتي بالخبر الذي يستوجب هذا التصعيد في إحضار كل القوى النفسية المدركة ، وهو تحريم الله ما ذكر في الحديث تحريماً مؤكداً بتشبيهه بما أقرروا على أنفسهم بأنه أعظم حرمة من كل جنسه ، غير أن هنالك ضرباً من العمق في التأكيد لهذه الحرمة ، يلحظه المخاطب الذكي في العبارة البالغة كل الدقة ، وهو دخول اليوم في الشهر في البلد : حرمت ثلاث بعضها فوق بعض هي المشبه به ، ليس واحداً منها على الانفصال ، فإذا نشطنا من الإحساس بهذا التأكيد اجتذبنا آخر في صورة إشهاده على نفسه بالبلاغ براءة من التقصير ، وهي - دون تكريرها ثلاثاً - كافية في ترك المخاطب مشدوهاً فكيف بها معه ؟

وهنا أمر يسترعي انتباهنا لشدة حرصه عليه السلام على أمته ، واستشعاره ما يكون بعده فيهم من الشقاق الداعي إلى سفك الدماء المحرمة كل هذا التحريم ،

(١) تيسير الوصول : ١/٢٠ .
(٢) تيسير الوصول : ١/٢٢ .

(١) تيسير الوصول : ١/٢٢ .

فيختص هذا الأمر بعبارة الإنكار الشديد (ويحكم أو ويلكم) يوقف بها نبض القلوب ، ويعقبها بذكر الخطر الأكبر في صيغة النهي عن رجوعهم بعده كفاراً ، ثم يبين المراد من هذه الانتكاسة الجاحدة بعد عصمة الإيمان ، وهو أن يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأن يسفكوا الدماء بدون حقها ، ليكون آخر دوي في أذان المسلمين حرمة الدماء ووجوب المحبة ، أما عبارة الاستثناء في الحديث (إلا بحقها) فهي احتراس عما يخرج إلى الحل من الدماء والأموال والأعراض ، فإن في الدماء حداً معلوماً بالقصاص المعلوم ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ وإن في الأموال حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، وإن في الأعراض حقاً معلوماً بالعقد المعلوم في أخص الوجوه والصور ، وقد دارت كل هذه البلاغات حول عبارة الاستفهام ، يؤازر بعضها بعضاً في إقامة الصرح .

أما الحديث الثالث فنراه أعظم تصعيداً للشعور ، وإحضاراً للرهبنة بالمقدمة المصورة لما لا يدرك الصحابة من استدارة الزمان كهيئته في تاريخ ما قبل التاريخ ، وذكر أمور بالتحديد كان العرب بخالفونها بالأهواء من تحريم الشهور وتحليلها ، حتى لم يستطع الصحابة أن يردوا على السؤال بما يعلمون ؛ لما دخل على نفوسهم من الشك في معلوماتهم ، في مقام بلغت فيه انفعالات الرسول عليه السلام مسارب عاقَت لسانه الكريم عن ملاحقة القول ، ففصل بسكتات طوال بين أجزائه ، ودار تأمله فيما يشاهد دوراتٍ يبدو في وجهه ونبر صوته وقَعها ، والمخاطب في مثل هذه التجربة يصل إلى أعلى ما لديه من الإشفاق والانتظار والتوجس ؛ حيث يرتبط بكل قواه بالمتكلم المسيطر على حسه .

ولطيفة من دقائق الحديثين توجب التوقف ، يتلبث بها فكري طويلاً كلما قرأتها هي إضافة اليوم والشهر والبلد إلى المخاطبين ، إشعاراً باختصاصهم بها ، يزيد لها لديهم جلالاً ، ويزيدهم لها إجلالاً ، ثم تميز كل منها أكمل التمييز باسم الإشارة الجامع بين حرف التنبيه ومعنى القرب ، وذلك الصنيع مع ما سبقت وما لم تسبق الإشارة إليه تقرير يدفع المساهلة ، ولا يقبل التأويل أو الشك .

ومن استعمال الاستفهام بطريق العرض تشويقاً إلى ما يذكر بعده ليتمكن ويستقر :

٤ - عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إلا انبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً ، قلنا : بلى . قال الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ؛ وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت»^(١) وقد سبق بعض الحديث عن هذا الحديث .

ومن الاستفهام دون عرض تشويقاً واستدراجاً لتقرير الحكم :

٥ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا : يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال : فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر»^(٢) .

والسؤال يضع العقل من المخاطب لسان الميزان ليصل عن طريق النظر في العاقبة إلى اختيار سبيلها ، ولا يخفى ما فيه من التلطف في النصح المرتب على المقارنة ، وهو خير من الأمر المحض ببذل المال في سبيل الخير ، لأن السائل يَحْصُل بالاستفهام على حكم من المخاطب ينجل لو تعدها ، لأنه حكم منه على نفسه .

٦ و٧ - من حديث لأبي ذر رضي الله عنه قال : «إن خليلي أبا القاسم صلى الله عليه وسلم دعاني فأجبتة فقال : أترى أحداً؟ فقلت : أراه . فقال : ما يسرني أن لي مثله ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير»^(٣) .

ويفسر الثلاثة قوله عليه السلام : «يقول ابن آدم : مالي ! مالي ! وهل لك

(١) تيسير الوصول : ٤/١٣٥ .

(٢) تيسير الوصول : ١/٨١ .

(٣) تيسير الوصول : ١/٨ .

يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفئيت ، أو لبست فألبيت ، أو تصدقت فأمضيت؟ (١) .

والسؤال عن رؤية أحد مفاجأة للمسؤول تسترعي انتباهه ؛ وهو سؤال عن معلوم للمتكلم والمخاطب يستدعي أن يكون وراءه سر لازم على التقريرير بالجواب ؛ والسر هو أن يتقرر أمر المرئي ضخامةً واتساعاً في نفس أبي ذر ؛ ليقاس عليه قدره من الذهب الذي لو فرض أن يملكه الرسول عليه السلام ما سره أن يملكه فينفقه ، إلا أن تكون النفقة في وجه مدخر عند الله : درهم سد الرمق ، ودرهم ستر العورة ، ودرهم البذل في سبيل الله ، إذ ليس للمرء من ماله حقاً إلا هذه الثلاثة ، وما زاد فهو مال وارثه إن كنزه ، وعليه عذابه إن لم يؤد حقه ، وهو ذريعة الشيطان إن أنفقه ، وعليه عقاب إنفاقه .

٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : « أوجب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد ثلاث خلفات عظام سمان ؟ قلنا : نعم . قال : فثلاث آيات يقرأ بها أحدكم في صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان » (٢) .

٩ - عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم ونحن في الصفة فقال : « أيكم يجب أن يغدو كل يوم إلى بَطْحَانَ ؛ أو قال إلى العقيق ، فيأتي بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم ؟ قلنا : كلنا يا رسول الله يجب ذلك ، قال : أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم ، أو يقرأ آيتين من كتاب الله تعالى ، فهو خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل » (٣) .

الحديثان يبتدئان باستدراج المخاطب - لقسر انتباهه وزيادة نشاطه - بالسؤال

عن رغبة نفسية من حب الخير للذات ؛ وكل نفس على ذلك حريصة ، حتى إذا كان الجواب بالإيجاب حقق الرسول لكل مخاطب فوق ما أحب من الملك الثمين السار ، ولكن في صورة تبقى وتخلد ، لا يلحقها العطب ، ولا يصيبها الفناء : ثواب التلاوة الخالصة لآية من القرآن المجيد ، واختيار الناقة الكوماء السمينة للملك اختيار للأعلى من أنواع ما يمتلكه المخاطب ، يعرفه من حال بيئته ، وكرائم أموالها ، ولا شك في ارتياح النفس بطريق الاستفهام إلى إدراك فضيلة التلاوة على وجه أوكد ، ما كان يتحقق في هذا اللطف اللطيف بالتعبير المجرد .

وما أدق وأجمل وأعلى تصعيداً لقيمة المشوق إليه - احتراسه عليه السلام في وصف الناقتين الكوماوين بسلامة الملك من سبب يقلق خاطر ، أو يشوه المتعة ، فالامتلاك دون إثم أو قطيعة رحم من تمام الأمن في حياة المالك وكمال النعمة في إمتاع صاحبها ، ولا يحسب أحد أن المرءة الحاصلين بالإثم على الأموال مدركون راحة الأمن ورضا القلب وإن لاح هذا الناظر ، فهم كالجربى يحسون لذة تجريح الجلود ومرارة تجريحها معاً ، يغلبهم دافع الشر غلبة الجرثومة في جلد المريض ما لم يعصم الله .

١٠ - عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل تدرون ما مثل هذه وهذه ؟ ورمى بحصاتين - قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذاك الأمل وهذا الأجل » (١) .

جملة الاستفهام نيطة بعمل حسي مشاهد والسؤال بها عن مجهول مقيس على هذا المتميز المعلوم : حصاتين رمى بإحدهما قريباً وبالأخرى بعيداً .

وسيلة إيضاح حسية جذبت النظر إلى فعله عليه السلام ، تلاها السؤال عن الممثل له المجهول زيادة في التشويق إلى طلبه .

هل ينسى الصحابي الشاهد مكان الحصاتين قريباً وبعداً ، والسامع سؤال

(١) تيسير الوصول : ١/٨١ .

(٢) تيسير الوصول : ١/٨٤ .

(٣) تيسير الوصول : ١/٨٥ .

(١) تيسير الوصول : ١/٤٤ .

النبي في حرص؟ هل ينسى أن المشبه بالحصاة القريبة الأجل في قربه وبالحصاة البعيدة الأمل في بعده؟

إنه يصور لنا سعة خيال الإنسان حتى تضل الحقيقة في متاهته ، وهيامه بالأمال الشاردة والموت أدنى من شراك نعله ، وما أدق البيان الكريم في اختيار لفظي الإشارة مطابقين للبعد المسافي (هذاك) للأمل و(هذا) للأجل ! وأشدُّ من ذلك دقة إحقاق إشارة الأمل بكاف الخطاب لشدة وعي المخاطب له ، وتمثله حاضراً دائماً ، وترك ذلك مع الأجل مطابقة لعدم التنبُّه إليه ، لغياب صورته في زحمة الآمال .

١١ - عن أنس رضي الله عنه قال : « ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل تدرون مم أضحك؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : من محاسبة العبد ربه فيقول : يا رب ألم تُجرني من الظلم؟ فيقول : بلى . فيقول : إني لا أجزر اليوم على نفسي شاهداً إلا مني . فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، والكرام الكاتين عليك شهوداً . قال : فيختم على فيه ويقال لأركانہ انطقي ، فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بُعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل^(١) . »

يشبه هذا الحديث سابقه إلى حد ما ، فقد استعمل عليه السلام وسيلة حسية تسترعي الانتباه وهي الضحك المفاجيء دون أن يعلموا سببه ، والمعروف أن ضحكه عليه السلام كان تبسماً ، وبعد يقظتهم إليه سألمهم عن أمر يجهلونه ، زيادة في التشويق واستحضاراً للقلوب ، وهم أعقل من أن يجيبوا بما لم يعلموا ، إذ هو أمر مرجعه إليه .

إن القصة هي قصتهم ، وهي قصة كل البشر ، وهي مهمة للغاية ، لأنها مصير محتوم لكل حي ، ينبغي الإعداد له قبل المباغثة ، فإيقاظ المخاطب بتلك

الطريق إليها دقة تبلغ المعجزة في طرق التعليم ، وهي فضلاً عن ذلك قصة الغيب المرتقب ، فهي أولى بأن يمهدها هذا التمهيد المؤنس للنفس ، لتنزل منزلة العظة والأناة .

(١) تيسير الوصول : ٤/٩٩ .

موضع الحكم من الاستفهام

وإذا كان الاستفهام في البيان النبوي يسبق الحكم للتشويق إليه ، وبعث النشاط لتلقيه ، فإنه أحياناً يأتي متأخراً عنه لتقريره بإنكاره اهتماماً بالحكم يستدعي تقديمه ، لما تحدث المخالفة في النفس من إثارة ، وقد عرفنا بالبلاغة أن الأدعي للاهتمام به من اجزاء الكلام يقدم على ما سواه .

١ - عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن يبعث من أخيك تمراً فأصابته جائحة فلا يحل لك أن تأخذ منه شيئاً . بِمَ تأخذ مال أخيك بغير حق ؟ » (١) .

ومن الإشارة بالاستفهام إلى خطأ الحكم السابق :

٢ - عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ : ﴿ أهلكم التكاثر ﴾ فقال : « يقول ابن آدم : مالي مالي ! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ » (٢) .

الاستفهام نقي على المبالغة للملكية المالية النافعة البانية إلا في هذه الثلاثة ، وهذا المعنى يقرر خطأ الحرص الشديد من ابن آدم على المال بوجه الإطلاق ، حتى يفكر تفكيراً متئداً في سبيل جمعه وسبيل إنفاقه ، غير متكبر ولا جاحد أو مغتر .

وقد يكون الأمر المنكر الذي عقبه الاستفهام النبوي غير مذكور في كلامه عليه

(١) تيسير الوصول : ١/٧٩ .

(٢) تيسير الوصول : ١/٨١ .

(١) تيسير الوصول : ٧٤/٢٧ .

(٢) تيسير الوصول : ٩٢/١٣٧ .

السلام ، بأن يكون واقع حال رآه أو بلغه ، فشارت له نفسه الكريمة على وجه يناسب الحال ، كما نرى درجات التفاوت في تلك النصوص التي يُعدّل بها المفاهيم ويحدد القيم :

١ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : توفي صبي فقال : طوبى له ! عصفور من عصافير الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أولاً تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلاً وهذه أهلاً ؟ » (١) .

٢ - عن أنس رضي الله عنه قال : « توفي رجل فقال رجل آخر له ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع : أبشر بالجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك ؟ لعله تكلم بما لا يعنيه ، أو بخل بما لا يغنيه » (٢) .

٣ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت خصوم بالباب عالية أصواتهم ، وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء وهو يقول : والله لا أفعل ، فخرج عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيكم المتألي على الله أن لا يفعل المعروف ؟ فقال : أنا يا رسول الله ، فله أيُّ ذلك أحب (٣) » .

٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه : أخذ الحسين بن علي رضي الله عنهما تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كخ كخ ، إرم بها ، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة ؟ أو أنا لا نحل لنا الصدقة (٤) » .

٥ - عن أبي أمامة بن ثعلبة الأنصاري رضي الله عنه قال : ذكروا عند النبي

صلى الله عليه وسلم الدنيا فقال : « ألا تسمعون ؟ ألا تسمعون ؟ إن البذاذة من الإيمان إن البذاذة من الإيمان (١) » يقصد التواضع .

٦ - من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قوله عليه الصلاة والسلام : « أما بعد فياني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولاي الله عز وجل فيأتي فيقول : هذا لكم وهذا أهدي إلي ، أفلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً ؟ » (٢) .

٧ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى كأنما فقيء في وجهه حب الرمان من حمرة الغضب فقال : أهبذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما أهلك من كان قبلكم كثرة التنازع في أمر دينهم واختلافهم على أنبيائهم » (٣) .

في الحديثين الأول والثاني كان استفهام الرسول عليه السلام إنكاراً للشهادة على غيب يستأثر الله بعلمه ، هو معاملته سبحانه لمن يفارق الحياة بما قضى مما اقتضت حكمته ، ولو ذكرت أم المؤمنين أو الصحابي رضي الله عنهما لفظاً يدل على الظن أو الرجاء لما حصل الإنكار والله أعلم ، وإنما كان الإنكار لأن ظاهر العبارة يشعر بالاعتقاد الجازم أن الميت حسن الثواب في كلتا الحالتين ، ولم يبلغ انفعاله عليه السلام درجة قصوى ، لأن المثير مجرد الخطأ اليسير في الفهم ، وهو مترتب على الظاهر للمتكلم ، غير أن المعلم المعصوم يريد المؤمن وقافاً حذراً عند صدور أحكامه ، وبخاصة ما يتعلق منها بغيب .

والحديث الثالث يرتفع درجة في الإنكار على إنسان يرى من حقه عدم التسامح بالخط من الدّين حرصاً على ماله ، فهو معذور ، ولكنه أخذ على ما صحب ذلك من مقابلة استعطاف أخيه المؤمن بتوثيق العزم باليمين بالله على عدم المعونة وفعل

(١) تيسير الوصول : ٤/٣٧ .

(٢) تيسير الوصول : ٤/٢٧٦ .

(٣) تيسير الوصول : ٢/٩٧ .

(٤) تيسير الوصول : ٢/١٢٥ .

(١) تيسير الوصول : ٢/١٣٠ .

(٢) تيسير الوصول : ٢/١٢٤ .

(٣) تيسير الوصول : ١/٢٤٨ .

الخير ، فلما أدرك الخطأ الذي أنكره عليه إمامه أقرُّ به وكفر عن خطيئته بتحكيم صاحبه يختار ما أحب .

والحديث الرابع تأديب لأحب الناس إليه ، يثيره منه أن يُقَرَّبَ من فمه تمرّة من تمر الصدقة والصدقات أوساخُ الناس تخرج من أموالهم فطهرها ، وقد سبق الاستفهامُ الإنكاريُّ بعبارة الزجر المكررة ، فوَقعت عبارة اللوم الاستفهامية تعليلاً لصيغة الزجر ، حتى يرتبط ما بينها فيتقرر في ذهن المخاطب رضي الله عنه ، فلا يغفل قياس الآتي على منواله

وفي الحديث الخامس يرى الرسول عليه السلام بعضَ الصحابة يخوضون في ذكر الدنيا مكبرين شأنها وهم يعلمون أن نبيهم صلى الله عليه وسلم أثر عليها آخرته - مع التمكن الكامل منها لو أراد - وعرضَ عليه أن يكون نبيا ملكا إذا شاء فلم يشأ - يرى منهم هذا فينكر أن يسمع مثله ، ليقبلوا على ما هو خير وأزكى ، من زهد يصحبه التواضعُ لله وللمؤمنين ، لأن الدنيا إذا أقبلت خيف على المؤمن أن ينزلق بزينتها ، وأن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم ، وإعطاء الرسول النصح بالعبارة المؤكدة بالأداة وبالتكرار - بعد تأكيد الإنكار نفسه بإعادة لفظه - أمرٌ يدل على بالغ الاهتمام بتقرير المعنى وتثبيتته في نفوس المؤمنين .

وفي الحديث السادس : تعلق درجة الإثارة إلى حد بالغ ، لأن ما يتعلق به الإنكار ليس حادثاً يرتبط بفرد ، وإنما يتعلق بمبدأ عام يحفظ سلوك ولاة الأمور في الرعية ، ويحفظ مال المسلمين من غلول الخائنين ، ولهذا جَمَعَ الصحابة وخطبهم ، فلم يحدث فرداً معيناً ، بل تحدث عن فرد شائع ، ليعم الحكم كلَّ مَنْ ولي عملاً للأمة .

وحدة الإنفعال تظهر في عبارة الاستفهام التي تعيد المخطيء إلى تدبر حاله إذا اعتزل الولاية فجلس في بيت أبيه أو بيت أمه . أكان يُهدى إليه ما يدّعي ؟ فإذا أجاب نفسه بالنفي - وهو لا شك مجيبها بالنفي - استيقن أن ما احتبسه باسم

الهدية هو مال المسلمين ، حصوله في يده بسبب ولايتهم وسلطانه بينهم فيستيقظ ضميره من خديعة استجراه الشيطان بها إلى حتفه .

والجملة الشرطية المعقب بها الاستفهام تقرر كذب الغالين أموال الدولة باسم الهدية ، والمفتين بحلّها لهم من العلماء المضلين .

أما الحديث السابع فدرجة الإثارة فيه أشد من كل ما سبق ، لأن الأمر أعظم خطراً من الغلول : إنه أمر العقيدة وأصل الإيمان . والمحنة فيها بفتنة القدر والخلاف فيه تعاجل المؤمنين والرسول عليه السلام حي يوحى إليه فكيف تكون حالهم بعده ؟ .

وأبو هريرة رضي الله عنه - وكان من المتنازعين في القدر، والذين أنكر عليهم تنازعهم فيه - يبين لنا مظاهر غضبه صلى الله عليه وسلم فيصور احمرار وجهه الشريف من انطلاق الدم إليه ، صورة توضح الشدة ، فيشبه ما علا الوجه الكريم بما يسيل من حب الرمان الأحمر القاني إذا فقيء .

لهذا كانت عبارة الاستفهام المكررة تنفي أن يكون ما هم عليه شيئاً مما أمرهم به ، أو مما أرسل به إليهم ، فيعلموا باللزوم أنهم خرجوا عن السنن الحق إلى طريق الهالكين ، التي لم يتركها في حديثه دون بيان ، تنمة للتقرير وكمالاً في التحذير .

اللطيف في الإنكار

والرسول الكريم عليه السلام يشرع لأمته أرقى أنواع الأدب في الخطاب حتى حال الإنكار ، فيهم في أحوال كثيرة المنكّر عليه ضمن العموم سترًا وتنبهاً إلى عدم الاختصاص بالحكم ، وقد سبق من ذلك قريباً حديث أبي حميد الساعدي : « أما بعد . فإني أستعمل الرجل منكم . . . » وفي هذا تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل شيء لم

يقول : ما بال فلان ، ولكن يقول : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا » (١) .

ومن تطبيق ذلك فضلاً على ما سبق :

١ - عن بريدة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه خاتم من حديد فقال : « مالي أرى على أحدكم حلية أهل النار » فطرحه (٢) .

٢ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في يد رجل خاتماً من ذهب فنزعه وطرحه وقال : يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده ، فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ خاتمك انتفع به فقال : لا والله لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣) .

التقرير ترغيباً أو ترهيباً أو سواهما

ونرى الاستفهام التقريري في البيان الكريم وسيلة ناجحة في الترغيب أو الترهيب هي أجدى على إملاء الحكم من الأمر أو النهي الصريحين . وعن ذلك في الترغيب :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أرايتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ما تقولون : يبقى ذلك من درنه شيئاً ؟ قالوا : لا يبقى ذلك من درنه شيئاً . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يحو الله بها الخطايا » (٤) .

وهذا الحديث قد سبق الكلام فيه ، أما الترهيب فمثاله :

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم ومعها ابنة لها وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب ، فقال لها أتعتين زكاة هذا . قالت : لا . قال : أيسرك أن يسورك الله تعالى بها يوم القيامة سوارين من نار ؟ قال : فخلعتهما فألقتهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت : هما لله ولرسوله » (١) .

ومن استعمال الاستفهام التقريري لإلزام المخاطب الحرج ، وإيقاعه في أضيق أموره إن كان خصماً إصغاراً لشأنه ، أو توبيخاً على جرمه كما في هذه الأمثلة :

لما فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاةٌ فِيهَا سَمٌ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اجمعوا لي مَنْ ههنا من اليهود ، فجمعوا له فقال لهم : هل أنتم صادقِّي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم . فقال لهم : مَنْ أبوكم ؟ قالوا : فلان . قال : كذبتُم بل أبوكم فلان ، قالوا : صدقت . قال : هل أنتم صادقِّي كما قال أو لا ؟ قالوا : نعم ، وإن كذبتك عرَفْتَه كما عرَفْتَه في أبينا ، قال : مَنْ أهل النار ؟ قالوا : نكون فيها يسيراً ثم نَخْلُفُونَا فِيهَا ، قال : اخسؤا ، والله لا نخلفكم فيها أبداً . ثم قال : هل أنتم صادقِّي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا نعم : قال : هل جعلتم في هذه الشاة سماً ؟ قالوا : نعم ، قال : فما حملكم على ذلك ؟ قالوا : أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك ، وإن كنت صادقاً لم يضرك » (٢) .

ومن التقرير لإحراج المخاطب تصويراً وحكاية :

عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بالعبء يوم القيامة فيقول الله تعالى له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ، ومالا ، وولداً ؟ وسخرت لك الأنعام والحراث ، وتركتك ترأساً وتربعاً ؟

(١) تيسير الوصول : ٢/١١٨ .

(٢) تيسير الوصول : ٤/٢١٢ .

(١) تيسير الوصول : ٤/٢٧٨ .

(٢) تيسير الوصول : ٢/١٣٣ .

(٣) تيسير الوصول : ٢/١٣٣ .

(٤) تيسير الوصول : ٢/١٧٤ .

أكنت تظن أنك كنت ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني^(١).

ومن هذا النوع لإكبار الذنب وإعظام المنة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما، وسأله رجل ماذا سمعت في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يدنو المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: أعرف رب! مرتين، فيقول: سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم^(٢)».

وقد يقترن التقرير بالشيء المرغوب بمقابله - على سبيل المقارنة - ليتضح حسنُ الحسنِ بقبح القبيح زيادة في تأكده:

عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: أتى رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم نائر الرأس واللحية، فأشار إليه صلى الله عليه وسلم كأنه يأمره بإصلاح شعره، ففعل ثم رجع، فقال صلى الله عليه وسلم: «أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم نائر الرأس كأنه شيطان؟^(٣)».

كما يجيء على طريق تجاهل العارف، تلطفاً في قسر الانتباه وإسداء البشري بمقبِل سيكون، أو النصيحة من خطرٍ قد يذهب.

ومن الأول:

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل لكم من أنماط؟ قلت: وأنى تكون لنا الأنماط؟ قال: إنها ستكون فكانت كما قال: فأنا أقول لها (يعني امرأته) أخري عنا أنماطك فتقول: ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ستكون لكم أنماط؟ فأدعها^(٤)».

وعن علي رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا مصعب بن عمير رضي الله عنه، ما عليه إلا بردة مرقعة بفرو، فلما رآه صلى الله عليه وسلم بكى للذي كان فيه من النعمة، ثم قال: كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى، ووضعت بين يديه صفحة ورفعت أخرى، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة؟ قالوا: يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم، نُكفَى المؤنة وتتفرغ لعبادة الله، فقال: بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ^(١)».

ومن الثاني:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا ذر قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: كيف أنت إذا أصاب الناس موتٌ يكون البيت فيه بالوصيف^(٢)؟ قلت ما خار لي الله ورسوله، قال: عليك بالصبر أو قال: تصبر، ثم قال لي: يا أبا ذر، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم؟ قلت: ما خار لي الله ورسوله، قال: عليك بمن أنت منه، قلت: أفلا آخذ سيفي أضعه على عاتقي؟ قال: شاركت القوم إذن. قلت: فما تأمرني؟ قال تلزم بيتك قلت: فإن دخل علي؟ قال: إن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق ثوبك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه^(٣)».

كما يستدرج الرسول صاحبه بالاستفهام التقريري، ليستخرج ما عنده من حكم أو مفهوم يراد تصحيحه، وتلك سبيل تعليمية من أقوم السبل في تصحيح المفاهيم، وتقرير النافع السليم من القواعد، سواء أجاب المسؤول بما يعرف أو التزم الأدب والحذر.

(١) تيسير الوصول: ٢/١٢٩.

(٢) الوصيف العبد؛ والمعنى كثرة الموتى بالفتنة حتى تضيق المدافن فيشتري مكان دفن الميت بعيد، أو

ينشغل المسلمون بكثرة الموتى فلا يجد صاحب الميت دافناً إلا أن يعطى عبداً أو قيمته.

(٣) تيسير الوصول: ٤/١٢.

(٤) تيسير الوصول: ٥/٢١٢.

(١) تيسير الوصول: ٤/٩٦.

(٢) تيسير الوصول: ٤/٩٩.

(٣) تيسير الوصول: ٢/١٢٨.

(٤) تيسير الوصول: ٤/٢١١.

تحديد المفاهيم

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذكروا أحديكم أخاه بما يكره ، فقال رجل : أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتُهُ ، وإن لم يكن فيه فقد بهته^(١) » .

٢ - وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تعدون الشهيد فيكم ؟ قالوا : يا رسول الله من قتل في سبيل الله فهو شهيد . قال : إن شهداء أمتي إذا لقليل ، قالوا : فمن هم يا رسول الله قال : من قتل في سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات في الطاعون فهو شهيد ، ومن مات في البطن فهو شهيد ، والغريق شهيد^(٢) » .

٣ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تعدون الصُّرَعَةَ فيكم ؟ قالوا : الذي لا تَصْرَعُهُ الرجال قال : لا ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب^(٣) » .

٤ - عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجل عنده : « ما رأيك في هذا ؟ فقال : رجل من أشرف الناس ، هذا والله حَرِيٌّ إن خَطَبَ أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم مر رجل آخر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما رأيك في هذا ؟ فقال : يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا والله

حري إن خطب لا ينكح ، وإن شفع لا يشفع ، وإن قال لا يسمع لقوله . فقال صلى الله عليه وسلم : هذا خير من ملء الأرض من هذا^(١) » .

هذه أمثلة كان الاستفهام فيها استدراجاً للمخاطب يوقفه على خطأ فهمه أو نقصه ، وأنه حري أن يراجع نفسه فيه ليحدّد المفهوم على ضوء الإيمان الذي هَدَمَ كثيراً من المؤلفين المحايد للحق .

التلطف والإيناس

وأسلوب الاستفهام في البيان الكريم كثيراً ما يكون إيناساً للمخاطب وتلطفاً معه ، تسكيناً لنفسه وإراحة لصدره في مقام يحوج إلى المواساة :

١ - عن أنس رضي الله عنه قال : « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على شاب وهو في الموت فقال : كيف تجدك ؟ فقال : أرجو الله تعالى يا رسول الله ، وأخاف ذنبي ، فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتمعاً في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو ، وأمنه مما يخاف^(٢) » .

٢ - عن جابر رضي الله عنه قال : « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم السائب رضي الله عنها فقال : ما لك ترفزين ؟ فقالت : الحمى لا بارك الله فيها ! فقال : لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد^(٣) » .

ونرى كل سؤال من هذا الجنس جَزَّ جواباً بَنَى عليه الرسول حكماً دينياً يجب أن يقرر ، شارك في علاج السائل ، وواساه بالطمأنينة إلى روح الله ورحمته ، وبشره أجر المؤمن بالصبر والثبات .

(١) تيسير الوصول ٢/١٢٧ .

(٢) تيسير الوصول : ٢/٢٤ .

(٣) تيسير الوصول : ٣/٣٠٠ .

(١) تيسير الوصول : ٣/٢١٧ .

(٢) تيسير الوصول : ١/٢٤٠ .

(٣) تيسير الوصول : ٣/٢١٥ .

ومن التلطف والإيناس أن يسأل عليه السلام ليجعل من جواب مخاطبه هداية له من حيرته وظمئه :

٣ - عن زيد الخير رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله لتخبرني ما علامة الله فيمن يريده ، وما علامته فيمن لا يريده ؟ فقال : « كيف أصبحت يا زيد ؟ قلت : أحب الخير وأهله ، وإن قدرت عليه بادرت إليه ، وإن فاتني حزنت عليه وحننت إليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : فتلك علامة الله فيمن يريده ، ولو ارادك لغيرها لهيأك لها » (٣) .

الاستبعاد

ومن المعاني التي يأتي من أجلها الاستفهام في البيان النبوي تصويرٌ بُعد المستفهم عنه أن تصل إليه القدرة ، وإخراجه هذا الإخراج أتم تقريراً للبعد من مجرد الخبر ، لأن مجازات الصيغ تعبيرٌ يصاحب انفعال النفس ويصوره :

١ - عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحننا جبهته ، واضعنا سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ ؟ فكان ذلك ثقل على أصحابه رضي الله عنهم فقالوا : كيف نفعنا أو كيف نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، توكلنا على الله ، وربما قال : على الله توكلنا (١) .

٢ - عن أبي ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك تعالى ؟ قال : « نوراً أرى أراه » ؟ (٢) .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يده إلى السماء : يا رب . يا رب . ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك ؟ » (١) .

هذه ألوان من استعمال الاستفهام في البيان النبوي الكريم يجد أضعافها الدارس ، ويقف على جمال موقعها الناظر ، لا يغني عن تتبعها ذلك التنبه إليها والله المستعان .

(١) تيسير الوصول : ٤/١٢١ .

(١) تيسير الوصول : ٤/٢٦٦ .

(٢) تيسير الوصول : ٤/٩٢ .

(٣) تيسير الوصول : ٤/١٢٠ .

المقدم في الحديث

عن عبد الله بن عمرو بن العاص عنه صلى الله عليه وسلم : « أنا محمد النبي الأمي - قال ذلك ثلاث مرات - ولا نبي بعدي ، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه^(١) » .

لصدر الحديث في البيان النبوي صفة غالبية من صفات الإثارة والتشويق وهي أفانين لا ينتهي العجب منها ، سبق لنا من ضرورها أشياء ، كبدء الحديث بأداة الاستفتاح أو العرّض أو الاستفهام ، أو المفاجأة بإبهام يعقبه البيان أو غير ذلك ، وهنا نسوق ألواناً أخرى تساند ما سبق ، ومن هذه اللطائف :

أولاً : بدء الحديث باللفظ الدال على العجب ، ولا شك أنه لفظ يثير الشوق ويحرك النفس إلى معرفة المتعجب منه ، ومن أمثلته :

١ - عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير - وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن - إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له^(٢) » .

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « عَجِبَ ربنا لقوم يقادون إلى الجنة في السلاسل^(٣) » .

٣ - وعنه رضي الله عنه أن رجلاً نزل ضيفاً برجل من الأنصار فقال لامرأته :

(١) جامع العلوم والحكم : ١/٤ .
(٢) تيسير الوصول : ١١٢ .
(٣) الجامع الصغير : ١/١٤٩ .

تعالى حتى نظوي الليلة لضيفنا ، فإذا وضعت الطعام بين يديه فاطفي المصباح حتى يأكل وحده ، قال : ففعلت ذلك وغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « لقد عجب الله من صنعكما البارحة فأنزل الله عز وجل فيها : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١) .

٤ - عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يَعْجَبُ رَبُّكَ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَطِيئَةِ الْجَبَلِ يُؤْذِنُ بِالصَّلَاةِ وَيُصَلِّيُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : انظروا إلى عبدي هذا ، يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني ، قد غفرت لعملي وأدخلته الجنة » (٢) .

والعجب تعبير عن روعة تأخذ القلب لمنير يَعْظُمُ وَيُخْفَى سَبَبُهُ ، إلا أنه كذلك في الغالب إذا نُسِبَ إلى البشر ، ويخرج عن ذلك أحيانا إذا قصد به إثارة الاهتمام بالخبر مع علم المتكلم بالسبب الذي يبطل عنده العجب ، كما يخرج عن هذا الأصل مطلقا إذا أسند إلى الله تعالى لاستحالته على حقيقته ، ويكون القصد منه دائما مع هذه النسبة بَعَثَ النشاط لدى المخاطب ، وإثارة الانتباه إلى ما يكون العجب منه ، حملا للسامع على الاهتمام ، ويكون معناه لازم العجب وهو الرضا والقبول ، وفي ذلك تنويه بشأن المرضي عنه وتعظيم لعمله ، فلما أراد النبي صلى الله عليه وسلم تعظيم أقدار هذه الأفعال في القلوب أخبر عنها باللفظ الذي يقتضي التعظيم ، حثا على فعلها ، وترغيبا في المبادرة إليها » (٣) .

٥ - عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم : « سبحان الله ؟ ماذا أنزل الليلة من الفتن ، وماذا فُتِحَ من الخزائن . أيقظوا صواحبَ الحجر فرب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة » (٤) .

٦ - وعن التنوخي عنه عليه السلام : « سبحان الله ! أين الليل إذا جاء النهار » (١) ولفظ (سبحان) إذا تَقَدَّمَ الخَبْرُ استلزم معنى استعظام ما يُذَكَّرُ بعده استلزاما بلاغيا ، وقد جاء ذلك في الكتاب الكريم على وجه التعجب في قوله تعالى - أمراً للرسول عليه السلام بالتعجب إنكارا لاقتراحات المشركين - : ﴿ سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ يقول صاحب الكشاف : وسبحان ربي تعجب من اقتراحاتهم (٢) واقتراها بالاستفهام في الآية على معنى تقرير البشرية العاجزة عن المقترح بواسطة نفي شيء غيرها كادعاء الألوهية القادرة - مؤكداً لمعنى التعجب بهذا التنزيه ، وقد تطلق (سبحان) من الإضافة فتقيد بالجار والمجرور لتفيد التعجب أيضا : قال في القاموس : وسبحان من كذا تعجب منه (٣) .

ثانيا - تقديم الخبر العجيب عند السامع لعدم جريه على المألوف العام من القواعد والعادات ، فتشرب إليه القلوب متمثلة في الأسماع والأنظار لتدرك ما وراءه ، طلبا منه عليه السلام لتقرر المعنى ، ومن ذلك :

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سبق درهم مائة ألف درهم . قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : كان لرجل درهمان فتصدق بأحدهما وانطلق آخر إلى عرض ماله ، فأخرج منه مائة ألف درهم فتصدق بها » (٤) .

٢ - عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تكون إبلى للشياطين وبيوت للشياطين ، فأما إبلى الشياطين فقد رأيتها : يخرج أحدكم بنجيات معه قد أسمنها فلا يعلو بغيراً منها ، ويمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله ، وأما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التي تستر الناس بالديباج .

(١) مجمع الزوائد : ١٢/١٢٠ .

(٢) مجمع الزوائد : ١٢/١٢٠ .

(٣) مجمع الزوائد : ١٢/١٢٠ .

(٤) مجمع الزوائد : ١٢/١٢٠ .

(١) الجامع الصغير : ١/٢٥ .

(٢) السكشاف : ٢/٣٧٥ .

(٣) القاموس المحيط : ١/٢٢٦ .

(٤) تيسير الوصول : ٣/٣ .

(١) مشكل الحديث لابن فورك : ١/٥٥ .

(٢) تيسير الوصول : ٢/١٢٥ .

(٣) مشكل الحديث : ١/٥٥ .

(٤) الجامع الصغير : ١/٢٥ .

٣- عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أكبر الكبائر أن يشتم الرجل والديه . قالوا : وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه ^(١) » .

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يغار ، وإن المؤمن يغار ، وإن غيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله تعالى عليه ^(٢) » .

وفي هذه الأحاديث وأمثال لها كثيرة قَدَّمَ الرسول صلى الله عليه وسلم أمراً يستشير السؤال ، ولذلك سئل من الصحابة في بعضها ، ووالى التكلم بالجواب توفيراً للسائل أن يسأل في بعضها الآخر ، ولا شك أن سَبَقَ درهم مائة ألف أمرٌ عجيب ، ومثل ذلك أن تكون إبِل للشياطين وبيوت للشياطين ، وأن يشتم الرجل والديه ، وأن يغار الله سبحانه ، وأن يذل المؤمن نفسه كما في الحديث الآتي :

٥- « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه . قالوا : وكيف يذل نفسه ! قال : يتعرض من البلاء لما لا يطيق ^(٣) » .

ثالثاً - تقديم الوعيد الشديد بالعقاب ، أو الوعد الأكيد بالثواب لتقدر النفس قيمة الفعل ، فتفر منه هرباً ، أو تندفع إليه طلباً .

فمن التواعد :

١- عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويل للذي يُحَدِّثُ بالحديث ليضحك منه القوم فيكذب ، ويل له ويل له ^(٤) » .

٢- عن أبي بكر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة سيء الملكة ^(١) » .

٣- عن أبي ذر رضي الله عنه قال : انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رأيته قال : « هم الأخسرون ورب الكعبة ، قلت : يا رسول الله فذاك أبي وأمي من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا - ثلاث مرات من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله - وقليل ما هم ^(٢) » .

٤- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه ^(٣) » .

٥- وعنه رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تجدون من شر الناس عند الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ^(٤) » .

ومن الترغيب بالوعد :

١- عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طوبى لمن هُدِيَ للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع ^(٥) » .

٢- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نَصَرَ الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه ، فَرُبَّ مَبْلَغٍ أَوْعَى من سامع ^(٦) » .

٣- عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

(١) تيسير الوصول : ٣/١٦٠ .

(٢) تيسير الوصول : ١/٨٠ .

(٣) تيسير الوصول : ٣/٣٣ .

(٤) تيسير الوصول : ٢/١١٢ .

(٥) تيسير الوصول : ٤/٣٩ .

(٦) تيسير الوصول : ٣/١٥٤ .

(١) تيسير الوصول : ٤/١٣٥ .

(٢) تيسير الوصول : ٣/٢١٤ .

(٣) تيسير الوصول : ٤/٢٦٩ .

(٤) تيسير الوصول : ٤/١٣٠ .

وسلم : « ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلِقَ حسن ، وإن الله تعالى ليغض الفاحش البذيء »^(١) .

٤ - عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون ، قالوا : يا رسول الله ما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون »^(٢) .

رابعا - تقديم لافتة قصيرة تعجل بالحكم مثل (لا يحل - رُفِعَ القلم - رحم الله) إلى أمثال لذلك كثيرة ومنها :

١ - « لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً » ليس منا مَنْ لم يرحم صغيرنا ويؤفر كبيرنا » .

٢ - « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنها » .

٣ - « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم » .

٤ - « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

٥ - « رحم الله ابن أبي رواحة كان أينما أدركته الصلاة أناخ » .

٦ - « رحم الله امرءاً صلى قبل العصر أربعاً » .

٧ - « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى . وأيقظ امرأته فصلت ، فإن أبت نَضَحَ في وجهها الماء ، رحم الله امرأةً قامت من الليل فصلت ، وأيقظت زوجها فصلى ، فإن أبي نَضَحَتْ في وجهه الماء » .

(١) تيسير الوصول : ٣/٢٣ .

(٢) تيسير الوصول : ٢/٢٣ .

٨ - « رحم الله عبداً سمحا إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحاً إذا قضى سمحا إذا اقتضى » .

خامسا - تقديم لفظ غريب المفهوم عند المخاطب حتى يلفت ذهنه ويثير اهتمامه بالشأن ، أو تضمين الخبر جزءاً غريباً على السامع يشده إلى التأمل أو الاستيضاح :

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعوذوا بالله من جب الحزن . فقالوا : يا رسول الله وما جب الحزن ؟ قال : وإد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة . قيل : يا رسول الله ومن يدخله ؟ قال : القراء المراءون بأعمالهم »^(١) .

٢ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رجل : يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله قال : « الحال المرتحل قال : وما الحال المرتحل ؟ قال : الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل »^(٢) .

٣ - عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يكن أحدكم إمعة يقول : أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم »^(٣) .

وفي رواية (الفائق) للزمخشري : « قالوا : وما الإمعة ! قال الذي يقول أنا مع الناس » وروى صاحب الفائق عن ابن مسعود : كنا نعد الإمعة في الجاهلية الذي يتبع الناس إلى الطعام من غير أن يُدعى ، وإن الإمعة فيكم اليوم المحقب الناسي دينه^(٤) .

(١) تيسير الوصول : ٢/١١١ .

(٢) تيسير الوصول : ١/٨٥ .

(٣) تيسير الوصول : ٤/٢٦٨ .

(٤) الفائق : ١/٢٨ .

٤ - سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي العمل شر؟ قال : « التجديف » قيل : وما التجديف؟ قال : أن يقول الرجل : ليس لي وليس عندي ، لأن جحود النعمة من كفرانها^(١) .

٥ - روي أنه عليه السلام قال : سبق المفردون . قالوا : وما المفردون؟ قال : الذين أهتمروا في ذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافا^(٢) وروي : « طوبى للمفردين » .

٦ - ومن حديثه عليه السلام : « إذا أراد الله بعبد خيراً غسله ، قيل : وما غسله؟ قال : يفتح الله له عملاً صالحاً بين يدي موته حتى يرضى عنه من حوله »^(٣) .

وقد تكون غرابة المفهوم راجعة إلى غرابة الإضافة أو إلى التشبيه أو الإسناد في تحذير أو إغراء ، ومن ذلك :
١ - « إياكم وخضراء الدمن »^(٤) .

فالخضراء مضافة إلى الدمن إنما يحذر منها على معنى غير معروف ، ولذلك نشأ السؤال عنها ، فأجاب النبي عليه الصلاة والسلام بعد قسر الانتباه ، بأنه إنما أرادها مجازاً عن المرأة الحسناء في منبت السوء ، حثاً على التخير للنظف وتحذيراً من التعلق بالجمال المجرد وإن فتن .

٢ - لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان يفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة^(٥) والتشبيه المنهى عنه لقبحة يثير النفس بإطلاقه أولاً فشتاق البيان الذي ذُكر ثانياً ، تقريراً لمقام القرآن من البيوت ، ولزوم تلاوته فيها ، وإضاءتها بنوره .

٣ - « دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء وهي الحالقة . أما إنني لا أقول : تحلق الشعر ولكن تحلق الدين^(١) » .

فتصدير الحديث بنسبة الدبيب إلى داء الأمم السابقة ساعياً إليهم فيه من الغرابة ما فيه مع إبهام داء الأمم ، حتى حرك الشوق إلى البيان الذي قرره وفسره .
سادساً - وقد يكون المقدم لفظ الذم أو المدح المفاجيء لرد المخاطب عن خطئه ، أو لإغرائه بملازمة عمله :

١ - عن عدي بن حاتم رضي الله عنه : « خطب رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : مَنْ يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصها فقد غوى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « بش الخطيب أنت . قل : ومن يعص الله ورسوله^(٢) » .

وهذه نقدة عجيبة منه عليه السلام لا يكاد يتنبه إليها سواه ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يرى في ضمير التثنية تسوية قد يسوء أثرها في عقيدة المؤمن ، وإن يكن من المعلوم أنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن يعص الرسول فقد عصى الله ، فقياس جانب المعصية على جانب الطاعة في كلام الرجل أولى موافقة للفظ ، وأدق مطابقة للمعنى ، وجعل الطاعة لله ورسوله طاعتين والمعصية معصيتين أوفق لكتاب الله ، لما فيه من تمييز العبد من الرب أكمل تمييز ، فما أكثر ما تكرر في الكتاب الكريم ذكرهما متعاطفين جمعا تحت الطاعة على المفعولية ، أو تفريقاً مع الطاعة ومثلها المعصية ومن ذلك : ﴿ تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم * ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾^(٣) .
﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾^(٤) .

(١) الفائق : ١/٩٢ .

(٢) الفائق : ٢/١٢٧ .

(٣) الفائق : ٢/٧٤ .

(٤) تيسير الوصول : ١/٩٠ .

(٥) تيسير الوصول : ١/٩٠ .

(١) تيسير الوصول : ٢/٢١ .

(٢) تيسير الوصول : ٤/٢٧٨ .

(٣) النساء : ١٣ ، ١٤ .

(٤) النساء : ٥٩ .

﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ (١).

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ * ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقته فأولئك هم الفائزون ﴾ (٢).

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ (٣)

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ (٤).

﴿ قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ﴾ (٥).

٢ - « بشئنا لأحدكم أن يقول نسيب آية كيت وكيت بل هو نسيي (٦) » .

٣ - وعن جابر رضي الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أهله الأدم فقالوا : ما عندنا إلا الخُلُّ فدعا به فجعل يأكل ويقول : نعم الإدام الخُلُّ نعم الإدام الخُلُّ ، نعم الإدام الخُلُّ » (٧).

سابعاً - ومن أضرب ما يقدم تشويقاً وإثارةً لاهتمام المخاطب قَصْداً للتقرير، الألفاظ الدالة على العدد يُنسَبُ إليها حكمٌ يثير السامعَ إغراءً به أو تحذيراً منه ، ثم يعقبه البيان والتفصيل ، ويأتي الكلامُ على هذا الوجه تشبيهاً أو دون تشبيه ، وبلفظ العدد ، أو الاكتفاء عنه بلفظ المعدود خاصة في التثنية كهذه الأمثلة :

(١) النور : ٥٤ .

(٢) النور : ٥١ ، ٥٢ .

(٣) محمد : ٣٣ .

(٤) الأحزاب : ٣٦ .

(٥) الجن : ٢٢ .

(٦) الجامع الصغير : ١٠٦ / ١ عن ابن مسعود في الصحيح .

(٧) تيسير الوصول : ٣ / ١٢٣ .

مما جاء على التشبيه

١ - عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ذئبان جائعان أُرْسِلَا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه (١) » ولم يكتف عليه السلام بذكر المثني وهو نوع من الوحش ، معروف جرأته وافتراسه وشدة انقضاضه ، فزاد الأمر تهويلاً بالوصفين المؤكدين للخطورة من وجود الدافع الفطري من الميل للافتراس بأصل الخلقة ، والدافع الغريزي باحتياج النفس بألم الجوع ، وعدم المانع بتيسير أمتع المأكَل ، بل بأخذ الذئبين الجائعين وإرسالهما في القطيع إرسالاً ، ثم الإخبار بنفي الأفسدية عنهما تعجيباً للنفس آخر يدفعها إلى التطلع السريع لما من شأنه أن يكون أشد منها فساداً وأكثر ، فإذا بالنفس تجرد الأشرى خطراً من هذين الذئبين الجائعين المطلقين في الغنم : حرصها على المال والشرف تطلقه دون قيدٍ في أمور دينها يحطم ما يحطم غير مبالٍ إلا بزيادة المال أو تمكين الجاه والأنفة والتهيه والصلف .

ودون التشبيه

٢ - عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خصلتان أو خلتان لا يحصيها رجل إلا دخل الجنة ، وهما يسير ومن يعمل بهما قليل : يسبح الله دبر كل صلاة عشراً ويمحده عشراً ويكبره عشراً (٢) » .
وذكر الخلتين المنكرتين مع التعقيب بالأجر العظيم ، والاستثناء بيان يُسرهما مع عظيم أجرهما ، ثم التعجب مع هذا من قلة العامل بهما - كل ذلك مهيج للشوق إلى الوقوف عليهما فكيف لا يستقران في الأنفس بالبيان بعد هذا الإيقاظ ؟

(١) تيسير الوصول : ٢ / ٢٢ .

(٢) تيسير الوصول : ٢ / ٨٣ .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم (١) » .

والبدء بالنكرة المثناة تحمير يدير ذهن السامع ، يخف شيئاً فشيئاً بتلك المخصصات المتتالية من الصفات المغرية ، ولكنه كلما تخصصت النكرة بوصف منها زادت ثورة الشوق في النفس لمعرفة هاتين الكلمتين ، أي العبارات هما ؟

وعلى هذا النسق الحكيم جاءت هذه النصوص :

« منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » .

« ساعتان تفتح فيها أبواب السماء ، وَقَلَّ دَاع تَرُدُّ عَلَيْهِ دَعْوَتُهُ : حضرة النداء للصلاة ، والصف في سبيل الله » .

« تركتُ فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم » .

« نعمتان مغبون فيها كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

« إن فيك خصلتين يجبهما الله ورسوله : الحلم والأناة » قاله عليه السلام لأشج عبد القيس .

ومن لفظ العدد

١ - عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثنتان لا تُردان : الدعاء عند النداء ، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً (٢) » .

(١) تيسير الوصول : ٢/٨٦ .

(٢) تيسير الوصول : ٢/٥٤ .

٢ - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بئرم ابن آدم ويشب فيه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر (١) » .

٣ - « اثنتان يكرههما ابن آدم : يكره الموت والموت خير له من الفتنة ، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب (٢) » .

٤ - « اثنتان يعجلهما الله في الدنيا : البغي وعقوق الوالدين (٣) » .

٥ - عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثنتان موجبتان . فقال رجل : يا رسول الله ما الموجبتان ؟ قال : من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار ، ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة (٤) » .

والمطلع على النصوص الكريمة الواردة يجد كثيراً من هذا الاستعمال في غير الثنية ، وإليك نماذج على سبيل المثال :

الثلاث

١ - عن عبد الله بن معاوية الناضري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان : من عبد الله وحده ، وعلم أنه لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه ، رافدة عليه كل عام ، ولم يعط الهرمة ، ولا الدرنة ولا المريضة ولا الشرط اللثيمة ولكن من وسط أموالكم ، فإن الله تعالى لم يسألكم خيره ، ولم يأمركم بشره (٥) » .

٢ - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما

(١) تيسير الوصول : ٢/٢١ .

(٢) الجامع الصغير : ١/٨ عن محمود بن لبيد .

(٣) الجامع الصغير : ١/٨ عن أبي بكر .

(٤) تيسير الوصول : ١/١١ .

(٥) تيسير الوصول : ١/١٦ .

سواهما ، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يَجِبُهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ (١) .

٣ - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة من أصل الإيمان : الكف عن من قال لا إله إلا الله ، ولا تكفره بذنب ولا تخرجه عن الإسلام بعمل ، والجهاد ماض منذ بعثني الله تعالى إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال ، لا يبطله جور جائر ، ولا عدل عادل ، والإيمان بالأقدار » (٢) .

٤ - عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : قاهنا ثلاثا . قلت : خابوا وخسروا يا رسول الله من هم ؟ قال : المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » (٣) .

ويرى المتأمل أثر هذا التشويق في كل من هذه الأحاديث ، وبخاصة في الأخير لما صحبه من التكرار المقرر للإنذار ، كما بدا لي أن أكثر عدد ذكراً في النصوص الكريمة هو هذا العدد الذي مثلت له تلك الأمثلة القليلة .

الأربع

١ - عن أبي أيوب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع من سنن المرسلين : الحياء ، والتعطر ، والنكاح ، والسواك » (٤) .

٢ - عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركوهن : الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة » (٥) .

(١) تيسير الوصول : ١/١٧ .

(٢) تيسير الوصول : ١/١٨ .

(٣) تيسير الوصول : ٤/ ٢٧٠ .

(٤) تيسير الوصول : ٤/ ٢٦٦ .

(٥) تيسير الوصول : ٤/ ٢٧٨ .

٣ - عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (١) .

٤ - عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن عبداً حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالموت ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر » (٢) .

ومن الامثلة إجمالاً للتشويق بالعدد :

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه : « من يأخذ هذه الكلمات فيعمل بهن ، أو يعلم من يعمل بهن قلت : أنا يا رسول الله فأخذ بيدي فعد خمسا : قال : اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » (٣) .

والعدد مبهم في الكلمات المشار إليها أولاً ، مفسر في خبر الصحابي (عد خمسا) وقد انضمت الوسيلة الحسية الفعلية إلى الأسلوب في الإثارة والتشويق جلباً للاهتمام ، وأشير إلى الكلمات التي لم ترد بعد إشارة المحس المشاهد ، لتتميز أكمل التمييز في ذهن السامع ، إنها كلمات لها وزنٌ في العمل ولها وزن في تعليمها من يعمل ، فما أعظم أجر من يعمل ويعلم غيره .

(١) تيسير الوصول : ٤/ ٢٤٩ .

(٢) تيسير الوصول : ١/ ١٦ .

(٣) تيسير الوصول : ٤/ ٢٦٥ .

٢ - من حديث عياض رضي الله عنه : « وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له ، الذين هم فيكم تبعاً لا يتبعون أهلاً ولا مالاً ، والخائن الذي لا يخفي له طمع وإن دق إلا خانته ، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك ، وذَكَرَ البخل والكذب والشنظير الفحَّاش ، وإن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ولا يبغي أحدٌ على أحد(٤) » .

٣ - عن عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ستة لعنتهم لعنهم الله وكل نبي مجاب : الزائد في كتاب الله ، والمكذب بقدر الله تعالى ، والمتسلط بالجبروت ، فيعز بذلك من أذل الله ، ويذل من أعز الله ، والمستحل لحرم الله ، والمستحل من عترتي ما حرم الله ، والتارك لسنتي(١) » .

٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأه ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه(٢) » .

٥ - وسأله صلى الله عليه وسلم رجل عن الكبائر فقال : « هن تسع : الشرك والسحر وقتل النفس وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات ، وعقوق الوالدين ، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياءً وأمواتاً(٣) » .

٦ - عن عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ثاب على سنتي

عشرة ركعة من السنة بنى الله له بيتاً في الجنة : أربع ركعات قبل الظهر وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل الفجر(١) » .

٧ - وعن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق مواعودها إلا أدخله الله تعالى بها الجنة » .

قال بعض الرواة : فعددنا ما دون منيحة العنز من رد السلام وتشميت العاطس وإماطة الأذى عن الطريق فما استطعنا أن نصل إلى خمس عشرة خصلة(٢) .

مفهوم العدد

كثيراً ما يقرأ الدارس هذه الجملة (والعدد لا مفهوم له) وهي عبارة موهمة عند مَنْ لا يعرف أنها اصطلاح أصولي ، فليس المفهوم في الجملة المعنى اللغوي الذي هو مرتبة العدد ، وإلا لسقطت دلالة الأعداد ، وإنما المقصود أن الحكم المتعلق بعدد لا يدل بمجردة على حكم الزائد والناقص عنه ، لا نفيًا ولا إثباتاً فلا يعطي الزائد أو الناقص نقيض هذا الحكم بمقتضى مفهوم المخالفة دليل الخطاب ، ومعناه أن المخصوص بالذكر حكمه مقصورٌ عليه ، ولا دلالة فيه على أن حكم ما عداه بخلافه .

غير أن هذه القضية وهي أن العدد لا مفهوم له ، ليست محل اتفاق الأئمة من علماء الأصول ، قال الشيخ أبو بكر الرازي : وقد كنت أسمع كثيراً من شيوخنا يقولون في المخصوص بعدد يدل على أن ما عداه فحكمه بخلافه ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « خمس يقتلن المحرم في الحل والحرم » إنه دليل على أنه لا يقتل ما

(١) تيسير الوصول : ٤/٢٨١ .

(٢) الجامع الصغير : ٢/٢٦ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) تيسير الوصول : ٤/١٣٥ .

(١) تيسير الوصول : ٢/٢٧٢ .

(٢) تيسير الوصول : ٤/١٣٥ .

(٣) شرح الاسنوي على منهاج البيضاوي هامش التقرير والتحرير ١/٢٤٥ .

عداهن ، وكقوله صلى الله عليه وسلم : « أحلت لي ميتتان ودمان » يدل على أن غيرهما من الميتة والدم غير مباح ، وأحسب محمد بن شعاع قد احتج بمثل هذا ، ولست أعرف جواب المتقدمين في ذلك^(١) .

وهذا الكلام يثبت أن (العدد له مفهوم) وبعد كثير من النقاش حول النص والكلام في هذه القضية يقول ابن أمير الحاج : قد ظهر عدم اتفاق مشايخنا على اعتبار مفهوم العدد ، وقد أنكره أيضا جماعة ممن قال بمفهوم المخالفة في الجملة كالقاضي أبي بكر وإمام الحرمين والبيضاوي ، فلا تتم حكاية الاتفاق من أصحابنا ومن الشافعية على اعتباره ، والله سبحانه أعلم^(٢) . « . »

قال صاحب المحصول : وقد يدل عليه^(٣) لدليل منفصل كما إذا كان العدد علة لعدم أمر ، فإنه يدل على امتناع ذلك الأمر في الزائد أيضا لوجود العلة ، وعلى ثبوته في الناقص لانتفائها ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا » .

وكذلك إن لم يكن علة ولكن أحد العددين إما الزائد أو الناقص داخل في العدد المذكور على كل حال : كما إذا كان الحكم حَظراً أو كراهة ، فإنه يدل على ثبوته في الزائد ، فإن تحريم جَلْدِ المائة مثلا أو كراهته يدل على ذلك في المائتين ولا يدل على شيء في الناقص عن المائة ، فإن كان الحكم وجوبا أو ندبا أو إباحة فإنه يدل على ثبوت ذلك الحكم في الناقص ولا يدل في الزائد ، لا على نفيه ولا على إثباته^(٤) ، ولعل من ذلك حديث : « خمس يقتلن المحرم في الحل والحرم . . . » وفي رواية « خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلن جناح : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور^(٥) » .

(١) نقل التقرير والتحجير ١/١٢٠ .

(٢) التحرير والتحجير ١/١٢ .

(٣) أي قد يدل الحكم المتعلق بعدد على حكم الزائد والناقص عنه . وهي دلالة ليست ذاتية كما ترى .

(٤) شرح الاسنوي على منهاج البيضاوي هامش التقرير والتحجير : ١/٢٤٥ .

(٥) تيسير الوصول : ١/٢٦٣ .

فإن إباحة قتل الخمس تدل على ثبوت الحكم في الأقل ، أما حكم الزائد على الخمس فلا دلالة على ثبوته ولا على نفيه من ذات النص ، وإنما يؤخذ من طرق أخرى .

قال ابن أمير الحاج في شرحه : والحق أن نفي الزائد ، أي نفي حل قتل ما سوى هذه الخمس مما هو من جملة الصيد البري ابتداء عندنا إذا قلنا به ، إنما هو بالأصل الذي أفاده السمع من عدم حل ذلك بالتلبس بالإحرام ، حيث قال تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا ﴾ لا بالمفهوم المخالف للعدد المذكور ، فلا يرد حل قتل الذئب لأنه ليس من الصيد في ظاهر الرواية ، ولا حل قتل الحية وسائر الهوام والحشرات ، لأنها مبقاة على الحل الأصلي لعدم النهي عن قتلها للمُحْرَم ، وازداد حل قتل بعضها تأكيدا بالنص عليه بخصوصه ، وهو الذئب والحية ، وليس الشأن إلا في الزيادة على ما استثنى حل قتله مما عرض له التحريم بالإحرام^(١) .

هذه عجالة الراكب من هذا الموضوع سُقَّتْها بعد ذكر العدد المقدم للتشويق في الحديث لتحقق رغبة ، أو لتدفع وهما ، أو لتهدئ مشوقا إلى محالها من بحوث العلماء ، ليرجع فيزداد ، ومن حق الكلام عن العدد كذلك أن نلم بكلمة موجزة عن (التوشيع) ولا شك أن اتصاله بالبيان النبوي أكد في هذا البحث الذي ينحو جهة التخصص في علوم البلاغة .

التوشيع

قال ابن أبي الاصبغ : « وهو عند أهل الصناعة عبارة عن أن يأتي المتكلم أو الشاعر باسم مثنى في حشو العجز ثم يأتي تلوه باسمين مفردين هما عين ذلك المثنى يكون الأخير منهما قافية بيته أو سجعته كلامه ، كأنها تفسير ذلك ، وقد جاء من

(١) التقرير والتحجير : ١/١١٩ .

ذلك في السنة ما لا يلحق بلاغة ، وهو قوله عليه السلام : « يشب ابن آدم وتشب فيه خصلتان : الحرص وطول الأمل^(١) » .

أما أنا فلا أسيغ تخصيص العدد بالثني فلم لا يكون من التوشيح مثلا : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني محمد رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر » .

ثم الممثل به من السنة في كلامهم لا يقع المفسر الأخير فيه سجة الكلام لانتهاء الحديث كابتدائه بهذه الجملة .

ثم لا أسيغ تخصيص العدد المفسر بمعدود بحشو الكلام ، لم لا يكون منه مثلا : « ثلاثة من أصل الإيمان : الكف عمن قال لا إله إلا الله ولا تكفره بذنب ، ولا تخرجه عن الإسلام بعمل ، والجهاد ماض » .

بل لم لا يكون منه في المثني : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

هذا التحكم مما لا يساغ لولا أنه اصطلاح ، وهم يقولون : لا مشاحة في الاصطلاح .

عودة إلى نوع المقدم

سابعاً - تقديم صيغة التفضيل دالة على عظم العمل أو الثواب والعقاب ، ليعرف المخاطب أين تكون منزلته من الخبر ، وذلك باب واسع كل السعة في البيان الكريم :

١ - عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أحب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر^(١) » .

فالمبتدأ صدر الحديث تفضيل عام ، يستحضر قوى النفس المؤمنة لترى من هو السعيد تلك السعادة ، فإذا جاء الخبر والنفس متلهفة إلى معرفته استقر عندها وتأكد ، فأخذت تزن نفسها بميزانه لتصل إلى ما تصبو إليه ، والمقابل الشقي صدر كذلك بصيغة التفضيل العامة ، لتثير النفس لمعرفة الخاسر كل الخسران ، فإذا تم الكلام بالخبر بعد التطلع إليه مدت له البصر تقيس أعمالها بمقياسه ، حتى تجانب ما عساها أن تكون قد لابتته من صفته . ومن التشويق بالصيغة التشويق بطول الكلام المتعلق بالمسند إليه قبل مسنده .

٢ - عن عائشة عنه عليه الصلاة والسلام قال : « أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم^(٢) » .

٣ - عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أحب الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها ، ثم بر الوالدين ، ثم الجهاد في سبيل الله^(٣) » .

٤ - عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أحب الصيام إلى الله صيام داود : كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود : كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه^(٤) » .

٥ - عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أدنى أهل النار عذابا ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه^(٥) » .

٦ - عن سعد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس

(١) تيسير الوصول : ٢/٢٥ .

(٢) تيسير الوصول : ١/٢٤٨ .

(٣) الجامع الصغير : ١/٨ .

(٤) الجامع الصغير : ١/٩ .

(٥) الجامع الصغير : ١/١٣ .

(١) التحرير والتحرير : ٢/٣١٦ وخزانة الأدب بنفس النص : ٢١١ .

بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجلُ على حسب دينه فإن كان في دينه صلوا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة^(١) .

٧ - عن الأشعث بن قيس رضي الله عنه عن النبي عليه السلام : « أشكر الناس لله أشكرهم للناس^(٢) » .

٨ - عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أطول الناس أعناقاً يوم القيامة المؤمنون^(٣) » .

٩ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم إليها ممشى فأبعدهم ، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصليها ثم ينام^(٤) » .

١٠ - عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي عليه السلام : « خير البقاع المساجد ، وشر البقاع الأسواق^(٥) » .

١١ - عن زيد بن خالد عنه صلى الله عليه وسلم : « خير الشهادة ما شهد به صاحبها قبل أن يسألها^(٦) » .

١٢ - عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي عليه السلام : « خير الناس من طال عمره وحسن عمله ، وشر الناس من طال عمره وساء عمله^(٧) » .

١٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « خير

بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسَنُ إليه ، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه ، وأنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » .

ويلحق باسم التفضيل المقدم ما ساواه في الدلالة على زيادة المسند إليه المقدم في الصفة مثل ما روى عن معاذ عنه عليه الصلاة والسلام : « رأس هذا الأمر الإسلام ، ومن أسلم سلم : وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد لا يناله إلا أفضلهم^(١) » .

ثامنا - تقديم صيغة التحذير أو صيغة الإغراء ، فإن السامع إذا طرقت سمعه (إياكم أو عليكم) انتفض من شواغله ، وألقى انتباهه ، وبخاصة إذا عرّف في تحذره أو مغريه حرص الناصح الأمين .

١ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والجلوس في الطرقات . قالوا : يا رسول الله ما لنا بُدُّ من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال : إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه . قالوا وما حقه يا رسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر^(٢) » .

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله تعالى^(٣) » .

٣ - عن الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والقسامة . قلنا : وما القسامة ؟ قال : الرجل يكون على الفئام من الناس فيأخذ حظ هذا وحظ هذا » .

(١) الجامع الصغير : ٢/٨ .

(٢) الجامع الصغير : ٢/١٧ .

(٣) تيسير الوصول : ٣/١٩ .

(١) الجامع الصغير : ١/٣٥ .

(٢) الجامع الصغير : ١/٣٥ .

(٣) تيسير الوصول : ١/١٩٦ .

(٤) الجامع الصغير : ١/٣٩ .

(٥) الجامع الصغير : ٢/٧ .

(٦) الجامع الصغير : ٢/٧ .

(٧) الجامع الصغير : ٢/٨ .

والقُسامة بضم القاف : ما يأخذه القُسام جرياً على عادة السماسرة دون الرجوع إلى أجرة المثل^(١) .

٤ - عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إياكم ومحقرات الذنوب وإنما مثلُ محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطنَ وادٍ ، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود ، حتى حملوا ما نضجوا به خبزهم ، وإن محقراتِ الذنوب متى يؤخذ بها صاحبُها تهلكه »^(٢) .

٥ - عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »^(٣) .

٦ - عن أنس رضي الله عنه عن النبي عليه السلام : « عليكم بالدُّبجة فإن الأرض تطوى بالليل^(٤) » .

٧ - عن ثوبان وأبي الدرداء رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة »^(٥) .

٨ - عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « عليكم من الأعمال بما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا »^(٦) .

تاسعا - البدء بتقسيم الجنس تقسيماً مبهما يدفع النفس إلى طلب البيان ، فإذا لحقه البيان زاد في النفس تأكيداً ، وعظم استقراراً .

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : « ذنب يغفر ، وذنب لا يغفر ، وذنب يُجَازَى به : فأما الذنب الذي يغفر فعملك بينك وبين ربك ، وأما الذنب الذي لا يغفر فالشرك بالله ، وأما الذنب الذي يجازى به فظلمك أخاك »^(١) .

فهذه ثلاثة أنواع من جنس الذنب ، عُبر عنها بعطف أفرادها على بعض تفريقاً للجمع المقدّر ، وقد عقب على سبيل النشر المرتب بتفصيلها مبينة بخصائصها الفارقة ، ليُنظر في هذه الصور الثلاث كل أمرٍ ما اكتسب من الإثم .

٢ - وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رغبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهيك ، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك »^(٢) .

وهكذا تتعدّد أنواع الدينار بتعدد المخصّص ، في طول بالمتعاطفات يزيد النفس تطلعاً إلى الغاية ، فتجيء الغاية باسم التفضيل المضاف إلى ضمير الجميع يُقام مبتدأً مميّزاً بالأجر ، مُخبراً عنه بما أنفق منها على الأهل ، لأن الأقربين أولى بالمعروف ، والصدقة عن ظهر غنى ؛ وقد أمرنا أن نبدأ بمن نعول .

عاشرا : البدء بجمل موجزة يشرحها أو يلزمها ما وراءها ، تأكيداً لدلوها وتقويةً لمضمونها لدى المخاطب :

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأرواحُ جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »^(٣) .

(١) تيسير الوصول : ٣/١٨ .

(٢) الجامع الصغير : ١/٩٨ .

(٣) الجامع الصغير : ٢/٥٣ .

(٤) الجامع الصغير : ٢/٥٣ .

(٥) الجامع الصغير : ٢/٥٢ .

(٦) الجامع الصغير : ٢/٥٥ .

(١) الجامع الصغير : ١/١٦ .

(٢) تيسير الوصول : ٣/٤ .

(٣) تيسير الوصول : ٣/٢٣ .

والجمل تتماسك تماسك العلة والمعلول ، وتتعانق تعانق الملزوم واللازم يؤكد بعضها ببدلوله مدلول صاحبه .

٢ - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربةً فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة^(١) » .

وأنت ترى كيف كانت الجملة الواقعة صدرًا مستلزمة كل ما وراءها ، فجميع ما بنى عليها من مستلزمات أخوة المسلم للمسلم ، فإذا وجد بينهما ما هما جديران به من التآزر كان الجزاء ما بينه الحديث من أجر الله .

وأكثر ما يكون من دلالة أول على تال ما بدىء بالشرط ، إذ جملة الشرط كالعلة في حصول الجواب وترتب الجزاء ، فضلا عن إفهامه عموم الحكم وشموله لجميع ما صدق عليه اسم الشرط طرداً :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ نَفَسَ عَنْ مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة^(٢) » .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ذَبَّ عَنْ عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة^(٣) » .

وفي قوة الشرط صور من القصر بالاستثناء من عموم النفي ، يلزم مدخول

النفي فيها مدخول أداة الاستثناء ، لا يَحْصُلُ المقدم إلا حصل التالي ، وهو أبلغ في تأكيد ربط الجزاء بالسبب من الربط بأداة الشرط ، لقصر السبب على المسبب ، فيعظم نشاط المخاطب لفعل المقصور تحصيلاً لجزائه إن كان فضلاً .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أكرم شابُّ شيخاً لسنِّه إلا قibus الله تعالى له من يكرمه عند سنِّه^(٣) » .

وعن البراء رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفِرَ لهما قبل أن يتفرقا^(٤) » .

وعن علي رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من رجل يعود مريضاً إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح^(٥) » .

تلك الإمامة قصيرة ببعض أنواع المقدم في الحديث ، لم أطل معها الوقوف لظهور المراد منها ، ومن يتأمل في النصوص الكريمة يستخرج أضعافها ويستجلي محاسنها ، وإنما هي إشارات وإقامة معالم .

(١) تيسير الوصول : ٣/٢٤ .

(٢) تيسير الوصول : ٣/٢٩ .

(٣) تيسير الوصول : ٣/٣٠ .

(١) تيسير الوصول : ٣/٢٣ .

(٢) تيسير الوصول : ٣/٢٣ .

(٣) تيسير الوصول : ٣/٢٤ .

استعمال الصفات

لوصف في البيان النبوي أعظم القيمة في كشف المعاني وتحديد المفاهيم ، به تكمل الصورة على الوجه الذي يقررهما في النفس تقريراً لا تطلب بعده المزيد ، ومن استعمال الصفة التي هي أولى بالمقام من صفات الجنس هذا المثال :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بادروا بالأعمال سبعاً : هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مَرَضاً مفسداً ، أو هرماً مُفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشرُّ غائبٍ يُنتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر^(١) ؟ » .

نرى النكرات الأربعة الأولى المذكورة في بيان السبع لا تصلح على إطلاق الجنس لمعنى التهديد في الدين ، فقد يكون الفقر أصلح للمرء في دينه ، كما يكون الغنى أعوناً لأناسٍ على استكمال ثوابهم ، ومن المرض ما يجعل المرء لهجاً ببناء مولاة والضراعة إليه ، وإن نوعاً من الشيخوخة يزيد العبد صلةً بربه ، لأنه يرى الموت أدنى من شرك نعله .

وإذن فمجيء الصفات التي اتصفت بها الأجناس ، حددت أنواعها التي يُخاف تهديدها ، ولا يؤمنُ خطرُها على دين المرء ، لأنه أمامها فاقدُ الرشد بالنسيان أو الطغيان ، وفاقدُ القدرة على تصحيح العمل بإفساد المرض أو تفنيد الشيخوخة .

فالوصف في مكانه لا يمكن الاستغناء عنه لتحديد الدلالة وتحرير المراد ، أما الوصف الخامس فلتأكيد الموصوف دفعاً لتوهم المجاز ، وهو لا يقل قيمةً في مكانه

(١) تيسير الوصول : ٤/١٤٣ .

عما سبق ، لأن الموت المجازي هو استشعار النفس انتهاء الأجل ، وربما كان أعون على عمل مُقَرَّبٍ أو توبةٍ منجية ، وربما طال زمنه أو قَصُر ، فالتهديد في الدين إنما يكون بالمفاجيء المُجهز من الموت وهو الحقيقي منه ، وأما وصف « شر غائب » بالجملة بعده فلزيادة التأكيد لطول الفصل بين ذكر الدجال وبين الاستفهام السابقة التي تدل على أن هذه السبع جميعاً تنتظر .

الوصف بالجملة

ومن وصف النكرة بالجملة فوق ما سبق :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً »^(٢) .

والمعلوم من الحديث النهي عن رمي ذوات الأرواح بغير حق لعبا أو تمريضا على الرمي ، رَحْمَةً بها من ألم تجده بلا نفع ، وفي تسليط النهي على الجنس المطلق شمولٌ محيط خصصته الجملة الاسمية التي تدل على الثبوت بنوعٍ خاص من الأشياء ، وهو ما يُجسُّ الألم ويصلح للحكم ، وتقديم الظرفية على الروح في جملة النعت تأكيدٌ لاحترام جسم الحي ، لحلول الروح فيه ، ولا يحقق المعنى المقصود على الوجه الأبلغ أن يقال : لا تتخذوا ما فيه الروح غرضاً ، لأن التمهيد بذكر الجنس النكرة يوحي بالشمول أولاً فيعم أفراد مدلوله ، ثم يكون التخصيص بَعْدُ صارفاً اللفظ إلى المقصود منه ، فهو من لواحق ذكر الخاص بعد العام من جهة التأمل ، فضلاً على ما يُحتمل في هذا التنكير من إفادة معنى التحقير أو التقليل ، إذ يكون المراد : لا تتخذوا شيئاً أي شيء مهما كان في نظركم قليلاً أو حقيراً - غَرَضاً ما دام بسبب من الحياة .

وبالجملة الفعلية أيضاً يكون الوصف :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه ، فَرُبُّ مَبْلُغٍ أَوْعَى من سامع^(١) » .

النكرة الأولى موصوفة بما يحدد النوعَ الجديرَ بدعوة النبي عليه السلام ، والوصف بالجملة الماضية للتناسب أولاً مع لفظ الفعل في الجملة الدعائية ، وليكون حافظاً ثانياً على بعث النشاط في قلوب الذين يسمعون ، ليحققوا التبليغ حتى كأنه واقع ، وقد طالت الصفة بِصِلاتها طويلاً يحدُّ النوعَ ويقرره تحديداً حاملاً على الجد في الاتصاف .

وكما نرى البلاغة في هذا الوصف نرى دقتها في تَرَكُّ النعت حين أطلق الجنس على عمومته في (سَمِعَ منا شيئاً) فإن أي شيء يسمع منه صلى الله عليه وسلم هو من الدين ، وحكمة من الحكمة ، وسنة من السنة ، فهو ما ينطق عن الهوى ، قليل حديثه جوامع الكلم ، ومطنب تعبيره بيان للشريعة .

الوصف بشبه الجملة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا^(٢) » .

نرى في هذا البيان نكرةً مجموعة ، موصوفة لفظاً بالجار والمجرور ، ومعنى بما يفيد التنكير من تهويلٍ بمعونة المقام ، غير أن الجنس في مقام الترهيب والتحذير بحاجة إلى تخصيص يزيده هَوَلاً وشدة ، فجاء الوصف التشبيهي الذي جمعت فيه القطع في مقابل الفتن ، وأضيفت إلى الليل المهيب ، ثم زيدت مهابة بوصف الليل

(١) تيسير الوصول : ٣/١٥٤ .

(٢) تيسير الوصول : ١/١٧ .

(١) تيسير الوصول : ٤/١٥٥ .

بالمظلم ، حتى تبعد عن الخيال مَظَنَّةُ أنسٍ فيه بنور يلوح ، كل ذلك أَدْعَى لتعجيل المبادرة وتأكيدهما قبل المفاجأة المذهلة .

ولما كان الليل ذا طرفين : في أحدهما إصباح وفي الآخر إمساء - رشح التشبيه بحالين متباينين من أحوال الناس على وجه المقابلة ، التي تقرر المعنى وتحمل على الامتثال ، لأنها تؤكد الحذر والإشفاق ، إذ لا يعلم المرء ماذا تكون حاله منها ، فاللهم عصمةً من بئع الدين بعرض من الدنيا ، واللهم سداداً للمبادرة التي أمر بها رسولك يا ولي الصالحين .

ومن الوصف بالمضارعية

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه ، فمن شاء أبقى على وجهه ، ومن شاء تركه ، إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان في أمر لا يجد منه بدا^(١) » .

والكدوح المطلقة تكون في أي جزء من الجسم غير أنها في الوجه تكون أولاً : أشدَّ إجماعاً حساً ، لشدة إحساس الوجه ، لجمعه الكرائم التي هي أدوات الإحساس ومنافذ الإدراك ، ولأنه محلُّ القوى العليا التي تدبر مملكة السلوك - وثانياً : نراها أشدَّ إجماعاً نفسياً ، لانكشاف الوجه عن ساتر يستره يمنع همزات الهامزين وتقرز المشمئززين ، فتخصيص الكدوح بالوجه أعظم تنفيراً من المسائل وأشدَّ ترهيباً ، إذ هي السبب في الإجماع الحسي والنفسى .

واختيار الجملة الفعلية المضارعية نعتاً للكدوح المخبر بها عن المسائل - هو لما تفيده من التجدد والحدوث فكل مسألة تُوجَدُ من الرجل يحدث ويتجدد معها كدح لوجهه ، ومن أَلطف اللطف وأعجب العجب في تصوير المسائل تلك الصورة الشنيعة المنفرة - أن الكدوح المتجددة في الوجه بالمسائل ليست حاصلةً بمصدرٍ خارج

عن ذاته ، بل هو نفسه الذي يصنع قبيح الصنع في وجهه ، لاسناد الفعل في جملة الصفة إليه ، ولما كانت المسائل هي مدار التحذير جُعِلَتْ في الجملة آلة الكدح ، واتصلت بالفعل مقدمةً على فاعله ومفعوله .

هل يرى السائل حين يسأل أن مسائله آلاتٌ حادة ، يستعملها هو بنفسه لتشويه وجهه وتقبيح منظره ؟

إلا أن أموراً تُرغم صاحبها لا يطيق تحملها قد تفجؤه ، ولذلك استثنى عليه الصلاة والسلام تلك الحال بسؤال ذي السلطان ، وحدد الأمر الذي يستوجب السؤال بنعتٍ هو هذه الجملة الفعلية : (لا يجد منه بداً) وفيها دلالة على تجدد محاولة وجود البد^(١) قبل السؤال ، حتى ينتفي الأمل في وجوده ، فيسأل مغفوراً له لعجزه .

وهذه أمثلة أخرى للوصف بالجملة قصداً إلى الإغراء بالامتثال والتحذير من المخالفة :

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا ومعها محرم لها »^(٢) .

لازم الوصف نفيه عن امرأةٍ تسافر هذه المسافة دون محرم لها يصحبها أو اتصافها بالوصف مع اعتسافها حرمتها ، فهي مرددة بين صدر الحديث و(لا يحل) وبين الصفة (تؤمن بالله) ، ونفي فعل الحل - وهو مضارع - يقطع الأمل في تجدد النظر في هذا الحكم ، والوصف بالجملة دون المفرد (مؤمنة) أشد تقريراً للمانع من هذا السفر ، لأن تجدد العزم عليه يمنع منه تجدد النظر إلى الحكم (لا يحل) الذي هو مقتضى الإيمان ، ولأن الجملة أوسع مدلولاً وأصرح في تحمل فعلها ضمير

(١) البد بمعنى المخلص والمهرب والحيلة .

(٢) تيسير الوصول : ٢/١٥١ .

الموصوف لعدم الاكتفاء به ، وخص الإيمان بالله وباليوم الآخر لأنها الغاية في حمل النفس على الخوف من فعل المخوف ، فالله هو الرقيب المحاسب ، واليوم الآخر هو ظرف العجز عن كل حَوْلٍ يخاله حساباً .

وهكذا نرى الصفة هي التي جعلت المرأة محلَّ التكليف بالحكم ، فاقتران الموصوف النكرة بصفته تلك يقسر انتباه كل امرأة تحاول مثل هذا السفر إلى ضخامة التبعة التي تجرُّها من أهلية التكليف ، كما نرى العبارة التي جمعت الصفة والموصوف قد تقدمت على المسند إليه وهو المصدر المؤول ، للاهتمام البالغ بتوجيه النظر إلى الوصف ، لأن الكلام مترتب على وجوده .

كما نرى في الكلام لطيفة تجرُّ بالنظر وهي اختيار فاعل (يحل) مصدراً مؤوَّلاً من (أن والفعل المضارع) فإن هذا الحرف علم استقبال ، وذلك يشير إلى طرد الحكم على ما سيحدث دون ما حدث ، لأن ما سبق عفو يُرجى له السماح من الله .

٢ - عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها ، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » (١) .

التعبير عن القصة بالماضي صدرَ الحديث تأكيداً لحصولها ، لأنها خبر المعصوم ، وهي على هذا الوجه تبين خطرَ السبب الذي قد يحسبه أناس هينا وهو عند الله عظيم ، فدخول المرأة النار إنما هو في (هرة) ولكن ما شأن هرة تُدخل الإنسان النار ؟ .

إن الجمل المتباعدة التي وُصفت بها النكرة هي في الواقع وصف مشترك بين المرأة والهرة ، لاتصال الفعل بضمير المرأة فاعلاً وبضمير الهرة مفعولاً ، فهي لبيان حالها معا : حال امرأة تدخل النار وهرة تكون سبباً في ذلك ، فليست الصفة في

الحديث ترفاً ولا عبثاً ، وإنما هي مناط الحكم ، والمحذور الذي يحذر الشارع خطورته .

ترى ما تكون حال امرئ يجبس أخاه الإنسان حتى يموت صبراً كما ماتت هذه الهرة ؟ ثم ترى ما تكون حال أناسٍ يمتنون الشعوب بالجوع والذل ، ويفرضون عليهم الحصار ؟ .

إن الحديث يعطينا المثل بالأدنى ، ليفهم من هداه الله للفهم مقام الرحمة من الإيمان .

إعطاء الصورة بالصفة

والصفات تملأ إطار الصورة بما يعطيها الشكل والحركة والحياة ، وينطق بالوجدان الداخلي للموصوف ، فلننظر دقة هذا البيان :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن امرأة بغياً رأَتْ كلباً في يوم حارٍّ ، يطيف ببئر ، قد أدلح لسانه من العطش ، فنزعت له موقعها ، فغفر لها به » (١) .

الموصوف مرثي في يوم وصف بالحرارة وقد اتخذ بئراً مطافاً يتجدد حوله طوافه .

كلب وحر وبئر ... ؟

الكلب في الحر يطوف بالبئر . . لم يكف في رسم الصورة المثيرة لقلب البغي ، وإنما كان منظر لسان الكلب وقد دلعه من العطش محركاً وجدانها له ، ومفسراً طوافه حول البئر متملساً الحيلة إلى الماء ، واللفظ المعبر عن مجاوزة اللسان الفكين فعل متعد ، فاعله الكلب المسكين ومفعوله لسانه ، وذلك أكثر دلالة على الحرقة

(١) تيسير الوصول : ٢/١٠٧ .

(١) تيسير الوصول : ٢/١٠٧ .

واللهف من (اندلع لسانه) فضلا عن اختيار هذا الفعل ذاته دون : مَدَّ أو أخرج أو ما ضاهاهما ، لما في اللفظ المختار من تصوير لسهولة في الحركة مع السرعة وغاية الكشف ، إذ المادة هي كذلك في اللغة توصفُ بها ألسنة النار على المجاز ، كما يقال اندلع بطنه : عظم واسترخی ، والسيف من غمده : انسل ، ويقال : امرٌ دالِعٌ ليس دونه شيء^(١) .

هذه الصورة الحية المتحركة النابضة المصورة للهفة الكلب ووجدانه ، رسمتها الصفات في البيان النبوي كما رأتها « امرأةٌ بغي » فحركتها بألم الوجدان لتترع موقها فتملأه ، لترد لهفة الكلب ، وتمهته الحياة من جديد ، فكانت هذه الهبة لقلب دَلَعَ لسانه هبةً الجنة لامرأةٍ فقدت عفافها وباعت شرفها في سوق الرذيلة . !
كما من رجل وامرأة يحملون قلوب البغايا ، ويجولون في إباء الأطهار . ؟
ألا يتخذ هؤلاء من طريق البر والرحمة طريقا إلى الله والجنة . . . ؟

الوصف باللون

١ - عن حذيفة رضي الله عنه في رواية لمسلم : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير على قلبين : قلبٌ أبيض مثل الصفا فلا يضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخرُ أسودٌ مُرْبَادٌ كالكوز مجخيا ، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » .

الحصير : المحصور وسط ما أحاط به ، عودا عودا ، مرةً بعد أخرى ، والمرباد : المختلط اللون بين السواد والغبرة ، والمجخي : المائل عن الاستقامة والاعتدال^(٢) .

(١) القاموس المحيط : ٣/٢٢ .

(٢) تيسير الوصول : ٤/١١٢ .

إن للوصف بالألوان في الحديث أثراً عميقاً في إدخال المعاني أذهان المخاطبين ، وفي تقرير الأغراض المسوق من أجلها الكلام ، وبخاصة إذا تقابلت الألوان ، لأن الضدَّ يظهر حُسْنَهُ الضد كما في الحديث ، والتدبيح في بلاغة المسموع يحل محلَّ اللون المرئي في المنظر المشاهد ، ويكون له في النفس أثره إذ أن السمع والبصر كليهما طريقُ القوة الباطنة من الإنسان ، وبعد نقل الصورة إليها يكون للتخيل عمله ولبقية القوى عملها في الانتفاع بالصورة .

ونحن مع هذا نستطيع أن نتصور بخيالنا صورة القلبين المذكورين فيه قبل عرض الفتن ، ثم عند العرض ، ثم مع تكراره المفاد بفعل الصيرورة وحرف الغاية ، ثم عند ثباتها على حالة التشيع باللون والصفة ، فالصورة المائلة في رؤوسنا منها عن طريق العبارة كاملة في تحريك ألسنتنا بالاستعانة بالله من أحد القلبين ، والضراعة إليه في طلب الآخر .

٢ - عن عوف بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا وامرأة سعفاء الخدين كهاتين يوم القيامة - وأوماً يزيد بن ربيع الراوي بالوسطى والسبابة - امرأة آمت من زوجها ، ذات منصب وجمال ، حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا^(١) » .

السعف داء في أفواه الإبل كالجرب ، يتمعط منه أنف البعير وخرطومه وشعر عينيه^(٢) .

واللون الموصوف به في هذا الحديث لا يقصد منه الواقع على خدي الممدوحة لذاته ، وإنما كان للتعبير بالأبلغ عن جزء كبير من قصتها : يعبر باللزوم عن سبب حدوثه ، من بذلها نفسها لیتاماها ، وزهداها في الزينة ونعمة الحياة ضناً بهم ، حتى تقرح خدها وحال لونها ، فاستحقت معية الرسول في الجنة ، ولهذا نراه وصفاً

(١) تيسير الوصول : ١/٤٨ .

(٢) لسان العرب : ١١/٥٢ .

مادحا مصوراً ، أبعداً أثراً من تخصيص الجنس بالنوع كما يقول النحاة في وصف النكرات .

والصفات العاقبة الأخرى وقعت منه في المعنى موقع العلة ، لأنه عنها نشأ وبها حصل ، والحديث بهذا الوضع دافع قوي للنساء ذوات اليتامى أن يكنَّ هذه المرأة ، ما أمِنَ الفتنة وضمِنَ السلامة في العرض والعفاف .

ومن القيمة التصويرية للوصف في وسط السياق :

عن أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي حق الله تعالى فيها إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وأقعد لها بقاع قرقر تستنُّ عليه بقوائمها وأخفافها ، وتنطحه بقرونها . . . ، ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعاً أقرع يتبعه فاتحاً فاه ، فإذا أتاه فرَّ منه . . . » (١) .

الفعل (أقعد) مبني للمجهول كافٍ بمعونة المقام لتصوير الإكراه والقهر المسلط على مانع حق الله ، وتعلق الجار والمجرور به دال أكبر الدلالة على المقصود منه ، ولكنَّ هذا ليس كل ما يراد تصويره لاقتلاع إثارة المال على جانب الله من قلب المؤمن ، ولذا كان من براعة التصوير للبشاعة الكاملة أن جعلَ ظَرْفَ الانتقام (القاع) ، ليتسع لنشاط المكلف بالانتقام وتوثبه ، وزيدَ أنْ وُصِفَ القاعُ بأنه (قرقر) أملسٌ لا يستطيع المسكينُ أن يجمعَ قدميه فوقه ، أو يسيطر على توازنه ، كلما حاول انزلق .

والكنز أمام صاحبه المانع حقه قد انقلب لصورة هي وحدها كافية للحسرة انتقاماً منه ، ذَهَبُ اللامع البراق والحبيب المؤثر صار ثعباناً مارداً ، ولو كان في أيام دنياه لاجتنبه وفرَّ منه ، يَطْلُبُ غناه في سواه ، ولكنه يوم القيامة حيث لا مهرب ولا مغنى .

(١) تيسير الوصول : ٢/١١٣ .

الرءوف الرحيم يريد انتزاع حب الدنيا وفتنة المال من قلوب المؤمنين ، لهذا يختار مُعْجَمَ بيانه وألوانَ تعبيره ، فلفظ الشجاع أنسبُ بالهول ، وزيادة وصفه (بأقرع) أتم للفرع ، لأن هذا النوع أوفرُ شراً وأشرى ضرراً ، ثم لا يكون بحيث تشد السلامة فيقطع الحديث الأمل فيها بوصف آخر يدل على التجدد بصيغته ، ويدل على اللزوم بمادته ، ثم يزيد ويزيد في تصوير الأقرع وشراسته فيجعله حال اتباعه له فاغراً فاه يريد التهامه .

وأبي عذاب عذابُ الفرع اللاهث الذي لا ينتهي إلى أمن ، ولا ينتهي عدوُّه الغالب إلى كَفِّ . . ؟ .

هذه هي الصفات المقومة لصورة العدو البشع ، ثم لصورة صاحبه أمامه ، حتى يصل بهذه اللقطة الأخروية أبناء الدنيا إلى مرآة يقيسون بها ما يكنزون ولا يظلم ربك أحداً .

وصف المعرفة

ووصف المعرفة في طبيعة الاستعمال العربي أقل من وصف النكرة ، لأن حاجة المعرفة للصفة أقل أولاً ، ولأن وصف النكرة أعم من وصف المعرفة ثانياً ، إذ تختص الثانية بالمفرد وحده ، فالجملة بعد المعرفة حال وكذلك شبهها وإن تكن الحال وصفا لصاحبها في المعنى .

والأوصاف التي نعتت بها المعرفة في بيان النبي عليه السلام لها من الدقة في تحرير المراد وتحديد المضمون ما تنكشف دقته الفائقة للمتأمل ، والكثرة الكاثرة منه في الحديث كانت للمقترن باللام أو المضاف إليه ، وذلك يعلم بالضرورة لمن يدري أن أحكام الشريعة لا يخاطب بها الفرد ، ولا يحكم بها عليه إلا تجوزاً أو ندوراً ، وأن أجناس الأعمال تنسب إليها أحكامها من خير أو شر ، ولذا فإن أكثر ما دخلت عليه (أل) هو الأجناس في الحديث الشريف ، ونعني بالأكثر دخول طائفة من المعارف الموصوفة تخرج فيها (أل) عن الجنسية ، أو يكون تعريفها بطريق آخر

من طرق التعريف وقد نعرف من دراستنا أن المعرف بلام الجنس في حكم النكرة من وجه ولهذا كثر نعته ، كما كثر هو نفسه في البيان النبوي لحاجة الأحكام أن تعمم .

على أن مسألة تفسير (آل) بالجنسية أو غيرها ترجع إلى ما يراه المفسر أقرب إلى الفهم بمعونة القرائن التي يلجأ إليها لظهورها عنده .

وإليك بعض الأمثلة لنعوت المعارف :
المعرف باللام

وصفه بالمشق :

١ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين »^(١) .

٢ - من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قوله عليه الصلاة والسلام : « اليمين الفاجرة منقفة للسلعة محققة للكسب »^(٢) .

٣ - عن أبي موسى رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الخازن المسلم الأمين الذي يعطي ما أمر به كاملاً موفراً طيبةً به نفسه أحد المتصدقين »^(٣) .

٤ - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »^(٤) .

(١) تيسير الوصول : ١/٥٢ .

(٢) تيسير الوصول : ١/١٩ .

(٣) تيسير الوصول : ١/٣١ .

(٤) تيسير الوصول : ٢/٣٧ .

٥ - عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته - وفي رواية : « كما وعدته » - إلا حلت له شفاعتي يوم القيامة »^(١) .

مصحوب (آل) الموصوف في الأحاديث الأربعة الأولى جنس صدر له حكم ، والحكم ليس لعمومه على الإطلاق ، فلزم أن يوصف بالأوصاف المخصصة لمن يستحقه من أنواعه ، فخصص التاجر بالوصفين المشتقين المؤذنين بنوع الجزاء ، أو عليّة الحكم وهما : (الأمين الصدوق) .

وخصص (اليمين) التي لها حكم إنفاق السلعة ومُحَقِّ الكسب بما يؤذن بذلك الجزاء من الوصف المشتق وهو (الفاجرة) ، وخصص (الخازن) الذي يُعدّ أحد المتصدقين بوصفين مشتقين هما (المسلم الأمين) ثم بالموصول الذي هو في قوة المشتق إيدانا بعلية الاستحقاق .

وخصص كذلك (المرء) الذي وجب عليه السمع والطاعة بوصف (المسلم) إيدانا بأن هذه الصفة مناط التكليف .

أما الحديث الخامس فاللام فيه للعهد الحضورى المشار إليه باسم الإشارة لكمال تميزه في مقام التعظيم ، إذ يحضنا البيان الكريم على قول هذه الكلمات حين سماع النداء الذي هو نفس الدعوة إلى الصلاة والفلاح ، فهي في الحين شيء حاضر ، ومثلها الصلاة ، وعلى هذا يكون النعت بالتمام للدعوة تقريراً للعقيدة ، وشهادة بالثناء والتعظيم ، ويكون نعت الصلاة بالقيام مثله .

الوصف بالموصول

وكما يكون الموصول الحرفي وصلته وصفاً لمدخل (آل) يكثر أن يوصف في

(١) تيسير الوصول : ٢/١٩٤ .

الحديث بالوصول الاسمي الذي يتسع به مجال استيعاب الصفة والإفضاء بما في النفس من معاني الموصوف ، إذ يكون الوصول الاسمي وُصلةً إلى ما يستتبع من جملة الصلة ، وهي قد تُعدُّ متعلقاتها بأجزاء تركيبها أو بإتباعها تربية للفائدة ، وتدعيها للمضمون .

وفي الحديث الثالث مما سبق نجد النعت الثالث موصولاً اسماً : (الذي يعطي ما أمر به كاملاً) ونرى الصلة فعلاً ينصب المفعولين ، حُذِفَ مفعوله الأول لتعيينه ببيان الشارع ، ثم حذف فاعل الأمر وبني الفعل للمجهول إيجازاً ، ومع هذا الحذف نرى كثرة الألفاظ الباقية ، لأن المفعول الثاني موصول آخر ، وقد وقع في موقعه من الجملة ذا حالين : (كاملاً موفراً) وارتبطت به حال الفاعل لاتصالها بضميره المجرور بالباء : (طيبةً به نفسه) على حذف المضاف وإيصال الجار إذ الأصل (طيبة بإعطائه) .

ويشير النظر إلى أمور من دقة العبارة :

- ١ - الذوق البلاغي العجيب في تعديل العبارة لطولها بالحذف المذكور .
- ٢ - دقة استعمال الموصولين افتناناً ومطابقة لما هما له من العاقل وغيره .

٣ - دقة استعمال الأحوال للإيغال وللإحتراس ، فذكر الكمال تأسيساً كالعدل ، وذكر الوفور مبالغة في الكمال كالإحسان ، وهذان وصفان للمفعول أجمل وأدل من حال اشتقاقها من الرباعي (مكملاً موفراً) لإشعارهما بالكمال والوفور بديناً . أما حال الفاعل : (طيبة به نفسه) فهي إحتراس من حصول ذلك منه اضطراراً ، فيخلو الإعطاء من القيد فلا يستحق الجزاء .

٤ - دقة التركيب في هذه الحال الأخيرة ، بإسناد الطيب وصفا لازماً إلى النفس دون الشخص ، لأنها هي النزاعة إلى الشح ، الأمانة بالسوء ، فإذا كانت كما في الحديث فهي المطمئنة ، ثم بتوسط العائد المجرور بين متعلقه وبين المسند إليه ، لأن الإعطاء العائد عليه ذلك الضمير هو مناط الاهتمام ، وبه استحقاق الحكم ،

ولذا نرى هذه العبارة أدق دلالة من : (طيب النفس به) لأن المضاف والمضاف إليه كالكلمة الواحدة ، حيث يزول التشويق إلى الفاعل المتأخر ، وتختفي عمدية النفس المدلول عليها بالرفع والتأخر ، وبطرح الضمير العائد على الإعطاء متأخراً لا يشعر بالاهتمام .

إلى غير هذا مما يمكن استجلاؤه بالنظر .

ومن الوصف بالوصول الاسمي :

١ - عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة : ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة : طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة : ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة : طعمها مر ولا ريح لها^(١) » .

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار تقع فيها ، فجعل ينزعهن ويغلبهن فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها^(٢) » .

٣ - عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت^(٣) » .

٤ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ بالآيتين اللتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه^(٤) » .

(١) تيسير الوصول ١/٨٧ .

(٢) تيسير الوصول : ١/٢٥ .

(٣) تيسير الوصول : ٢/٩٩ .

(٤) تيسير الوصول : ١/٩٠ .

٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة (١) » .

وصف (المؤمن) في الحديث الأول بالموصول الاسمي مكن من إجراء الجملة الفعلية عليه ، وهي تفيد التجدد بصيغة الفعل ، وتجدد القراءة هو الذي به يستحق المؤمن الاتصاف بوجه الشبه وهو الكمال فيما يطلب منه ، وعلى غراره بقية الصفات في الحديث .

وينبغي أن يعلم أن الطعم والريح هما أظهر ما يشتهي من المطعوم ، وقد جعل عليه السلام الإيمان من المرء بمنزلة الطعم الطيب ، وجعل قراءة القرآن بمنزلة الريح الطيب وجوداً وعندما ، كما جعل الفجور مقابلاً للإيمان ، ولا يكون للمرء كمال فيما هو به إلا بالإيمان وقراءة القرآن ، كما لا يكون للمطعوم كمال إلا بطعمه الطيب وريحه الطيب .

والإشارة إلى الدواب في الحديث الثاني (بهذه) تستحضر صورتها في خيال المخاطب ، وتميزها أكمل التمييز في مقام جعلها ممثلاً به ، والممثل به ينبغي أن تكون معرفته أتم ، ولذلك وُصِفَتْ بالموصول ذي الصلة الفعلية المبدوءة بالمضارع ، لأنه يصور الماضي والمستقبل صورة الحاضر المائل ، ويدل على التجدد والحدوث ، وهو أمر من شأن تلك الدواب كلما شاهدت ناراً .

ووصف كل من البيتين في الحديث الثالث بالموصول يُكِّنُّ من وصل المضارع بكل منهما لتمييز فرق ما بينهما بتلك المقابلة .

والحديث الرابع كان فيه وصف الآيتين بالموصول تعييناً لأمارات الموصوف المخصصة له والواقعة في الصلة ، إذ هي تتضمن ظرف المكان الذي تقع فيه الآيتان من القرآن كله ومن السورة نفسها ، فأولهما (سورة البقرة) وثانيهما

(١) تيسير الوصول : ١/٩٠ .

(آخرها) حتى يحدث التحديد لما نيظت به الكفاية ، وهي الحكم المرغب فيه ، والمشوق الباعث على القراءة .

الوصف باسم الإشارة

للوصف باسم الإشارة مزية يلمسها الذوق ، لأنه يجسم المعاني المعقولة وينقلها إلى حيز الموضوع تحت البصر والمشار إليه بالبنان ، فإذا كان المشار إليه محسباً زاده تمييزاً وانكشافاً بتوجيه السامع إليه لزيادة اهتمام المتكلم به ، في مقام استدعي ذلك من المدح أو الذم أو سواهما ، ومن هذا الطراز في البيان النبوي :

١ - عن عائشة رضي الله عنها قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد (١) » .

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة في مسجدي هذا أفضل - وفي رواية : خير - من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام (٢) » .

٣ - عن الخدري رضي الله عنه قال : تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى ، فقال رجل : هو مسجد قباء ، وقال رجل : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « هو مسجدي هذا » (٣) .

فالوصف بالإشارة في الحديث الأول لتحقيق الأمر المعنوي : أمر الدين ، وتمييزه أكمل التمييز بتجسيمه وإظهاره في صورة المنظور والمشار إليه ، تعظيماً لشأنه في مقام الإغراء بالتزامه ، والحذر من التبديل أو التحريف أو الخلط فيه بفعل الدواعي والأحداث ، واسم الإشارة الواصف موضوع للقريب وهو أنسب

(١) تيسير الوصول : ١/٢٦ .

(٢) تيسير الوصول : ٣/٢٧٧ .

(٣) تيسير الوصول : ٣/٢٨٣ .

بحضور الدين الذي كان ما يزال يتنزل به الوحي من عرش الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ، فكل أمر يدخله إنسان على هذا الدين المتميز أكمل التمييز مردود عليه ، لأنه محدثة وضلالة .

ولما كان الوصف كالسور للموصوف ، لتمييزه بالإشارة الحسية ، والسور ظرف - دخل حرف الظرفية على الموصوف يعدي فعل الإدخال إليه ، والتعدي بخرق السياج المميز والسور المحدد كبيرة ، وتشويه المعالم والرسوم يخلطها مع غيرها كبيرة ، ولهذا كان الجواب بالجملة الاسمية التي هي أكد في ثبوت الحكم ودوامه : (فهو رد) فإذا لوحظ الإخبار في هذه الجملة بالمصدر ولا يكون هذا إلا للاهتمام والتأكيد والمبالغة ، زاد السامع اهتماما ، فإذا انتقل النظر إلى لفظ (أمرنا) الموصوف بالإشارة وقد أضيف إلى ضمير الجماعة التي يتكلم بهذا الحكم إمامها وقائدها - لحظ المتأمل أن الأمر هو أمر الجماعة المعتصمة بالكتاب والسنة ، فكل فرد فيها مسؤول عن إقامته ، وردّ المحدثات عنه ، ثم بناء الخبر على اسم الشرط المقيد للعموم لا يحترم متعديا على الدين أو ملبسا على الجماعة أيا كان شأنه ، إذ لا استثناء في الحديث فكل فتوى أو اجتهاد يجب على الجماعة مصادرتها إذا كانت إحداث شأن في دينها ليس منه ، والله الولي .

أما الحديثان الثاني والثالث : فالإشارة فيهما تصف مُحسًا وهو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمقام الأول مقام التعظيم في موضع التفضيل بينه وبين سواه من المساجد ، فوصفه بإشارة القريب لتحديده أتم التحديد في نظر السامع ، وترسيخ صورته الكريمة في قلبه ، محكوما له بهذا الفضل على كل ما سواه إلا المسجد الحرام .

أما المقام الثاني فهو مقام الجواب لتمييز المختلف فيه أكمل التمييز ، وتأکید المستحق للحكم أتم التأكيد حسما للنزاع ، تعجيلا للإقناع ، كما تعودنا في دقة المنطق النبوي الحكيم .

ومن النعت بمصحوب (أل) وبالموصول

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه هذه الكلمات التي لقنها جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرد بها عفريت الجن : « أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات اللاتي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء ، وشر ما يُعْرَجُ فيها ، ومن شر ما ذرأ في الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن » (١) .

في الحديث مضافٌ إلى لفظ الجلالة موصوف بما فيه (أل) ومضاف آخر إلى اللفظ الجليل موصوف بوصفين : أولهما مصحوب (أل) وثانيهما الموصول .

والوصف الأول لمعاذ به وصف تعظيم في مقام الضراعة ، لوحظت فيه الجهة إليها فقَرَّ العائذ السائل ، وهي الكرم من المسؤول ، ولهذا اختيرت صفة (الكريم) .

والنعت على هذا الوجه محمول على قراءة : ﴿ ويقيم وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ برفع (ذو) وقد تأول صاحب الكشف الوجه بالذات قال : ﴿ وجه ربك ﴾ ذاته ، والوجه يعبر به عن جملة الذات .

وذو الجلال والإكرام صفة الوجه ، وقرأ عبد الله : « ذي » على صفة ربك (٢) .

أما على الوجه الآخر فالصفة للعلم الأقدس المضاف إليه ، ولا نقص في كمال التعظيم للمستعاذ به سبحانه ، لاتحاد المضاف والمضاف إليه ، في الدلالة على الذات الواحدة الجلية .

(١) الكشف : ٤/٥١ .

(٢) الكشف : ٤/٥١ .

قال الفخر الرازي في (أساس التقديس) : أما قوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ وقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ فالمراد منه الذات ، والمقصود من ذكره التأكيد المبالغة ، فإنه يقال : وجه هذا الأمر كذا وكذا ، ووجه هذا الدليل هو كذا وكذا ، والمراد منه هو نفس ذلك الشيء ونفس ذلك الدليل ، فكذا هذا ، أما قوله تعالى : ﴿ فشم وجه الله ﴾ و﴿ إنما نطمعكم لوجه الله ﴾ و﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ فالمراد من الكل رضا الله تعالى (١) .

غير أن الكناية عن رضا الله بوجهه إجراء للغيب مجرى الشهادة من ظهور أثر الرضا والغضب في الوجه ، وجعل اللازم دالا على الملزوم - لا يبعد أن يكون مقصوداً في حديثنا ، لأنه في مقام الاستعاذة ، وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم واستعاذته :

« اللهم إني أعوذ برضاك من غضبك » .

إذن فحقيقة المضاف ينبغي التوقف عندها عصمة من الزلل ، قالوا في تأويل مثله : وهو ممكن أن يراد ، ولا يجزم بإرادته خصوصاً على قول أصحابنا : إنها من المتشابهات ، وحكم التشابه انقطاع رجاء معرفة المراد منه في هذه الدار (٢) .

إلا أن التأويل بما سبق راجع إلى ما يراه المجتهدون ، حرصاً على التنزيه في عقائد العامة ، الذين يحصل عندهم اللبس ولا يدرون سر العبارة ، وقد نقل الكمال ابن الهمام عن شيخ العلماء ابن عبد السلام ميله إلى التأويل بقوله : طريقة التأويل بشرطها أقربها إلى الحق - ويعني بشرطها : أن يكون على مقتضى لسان العرب ، كما نقل عن (ابن دقيق العيد) قبول التأويل إذا كان المعنى الذي أول به قريباً مفهوماً من تخاطب العرب (٣) .

هذا وقد خرج (ابن فورك) الوجه في كتابه : (مشكل الحديث) على الصفة

وخطأ مذهب المعتزلة المؤولين الوجه بالذات ، وإلا لجاز أن يقال : يا وجه اغفر لنا ، وقد أجمعت الأمة على المنع من ذلك (١) .

وكلامه مضطرب ، فتفسير الجملة في الحديث على ما ذهب إليه وهو : « أعوذ بالله الكريم ذي الوجه » تفسير متهافت ، ولا يقتضي تأويل الوجه بالذات إطلاقاً الوجه مطلقاً على الله سبحانه حتى ينادى به ، كما لا يُنادى بنفس ما أول به وهو الذات : فلم نسمع من لفظ الشريعة يا ذات الله الكريم ، فضلاً على أن نسمع : يا ذات (دون الإضافة) والتأويل لفهم المعنى على الصحة والتنزيه وعلى مألوف لسان العرب لا يلزم بصحة استعمال حقيقة المجاز ، إذ لا يلزم لكل مجاز حقيقة ، فإذا وُجِدَتْ حقيقة المجاز فقد يمجح الذوق التعبير بها عن المعنى ، والله العاصم من الزلل .

أما بعد هذا الاستطراد فالوصفان الآخران بعد لفظ الجلالة هما نعتان لما أضيف لفظ الجلالة إليه « كلمات الله » ووصفها بالتمام إقرار للكمال في مقام الضراعة ، وجمع الصفة في مقابل جمع الموصوف زيادة في تقرير الكمال يؤدي إلى أن كل مفرد من مفردات الموصوف من صفاته التمام ، احتراساً من أن يفهم التمام فيها يجمعها إذا قيل : أعوذ بكلمات الله التامة - وإن لم يكن ذلك النظر على سبيل الجزم .

وأما النعت الثاني للكلمات بالاسم الموصول فللتمكن من تفصيل الصفة واتساعها ، وتعظيم الموصوف بنفي إمكان المجاوزة ممن تتجدد منه المحاولة ، لما يفيد المضارع المنفي الواقع صلة ، وفي اقتران البر بالفاجر على الطباق مسندا إليهما هذا الفعل تأكيداً للنفي المطلق عن أي إمكان حادث ، وتلك الأسرار يتوصل إليها بطريق النعت بالموصول الذي تمامه بالصلة ضاقت أو اتسعت .

وعدم مجاوزة البرِّ إنما هي لمنع البرِّ إياه ، فعاصمه من قلبه وعقيدته ، وعدم

(١) أساس التقديس : ١٢٠ .

(٢) المسامرة : ١/٣٦ .

(٣) المسامرة : ١/٣٧ .

(١) مشكل الحديث : ١/١٣١ .

مجاوزه الفاجر هي لمنع الله وأوليائه زياداً عن كلمات الله ، فالعاصم خارج عن ذاته قاهر له .

ومن نعت العلم بمضاف لمصحوب (أل)

١ - عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ركع قال : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، وعليك توكلت أنت ربي ، خشع سمعي وبصري ولحمي ودمي وعظامي لله رب العالمين » (١) .

٢ - عن علي رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سجد قال : « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » (٢) .

أما العلم فهو لفظ الجلالة في الحديثين ، والصفة في أولهما للتعظيم بتقرير الشمول والإحاطة الدال عليه إضافة الربوبية للعالمين الجمع ومصاحب (أل) الدالة على الاستغراق الحقيقي ، وتعظيمه سبحانه بما هو حقيقة نعتيه في مقام الخشوع كمال في استحضار الجلال الأقدس ، ونظرٌ إلى سابغ آلائه يجانس الحامل على تقديره ، وإسلام العبد كل ما منحه إليه .

أما الصفة في الحديث الثاني فهي للتعظيم ، بالثناء الحسن المناسب لفعل التقديس ، وعرفان الجميل لخالق الإنسان في أحسن تقويم وأعظم تكريم ، ومختص الوجه منه بأجل صورة ، ومودعه كنوز الإبداع ومفاتيح الإدراك ، فما أكذب الذين يضاهاون به ما لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يخلق خلقاً ما ولو كان ذباباً ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ .

(١) تيسير الوصول : ٢/٦٦ .

(٢) تيسير الوصول : ٢/٦٧ .

والملاحظ في هذا النعت (أحسن الخالقين) أنه اسم التفضيل المضاف إلى الجمع ، وظاهره يعطي تفضيل الله في حسن الخلق على سواه ، فيستلزم خالقين غيره تعالى ، فيستلزم مرة أخرى مجازية اللفظ ، إذ لا خالق على الحقيقة إلا الله : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ . ﴿ والله خلقكم وما تعلمون ﴾ ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ .

والمبدعون مهما أوتوا من جودة الفن ودرجة الإلهام ، لا يمكن أن يقاس ما أبدعوا بما خلق الله ، فدرجة ما بين الخلقين من تفاوت درجة ما بين العبد والرب منه ، ولا حاجة بنا إلى الدليل ، فأحدث المخترعات قد أثبت عجزه بالدليل ، ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

أما حقيقة النعت وباطنه فهي إثبات حُسن الخلق في أعلى صفاته لله جل علاه : فالمفضل وجودي متحقق ، والمفضل عليه عديمي مفترض .

والمفسرون قد جروا عند قوله تعالى : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ على تفسير الخلق بالتقدير ليَجْرِي التفضيل على بابه ، كما رددوا التابع في الجملة بين البدل من اسم الجلالة ، والخبر عن مبتدأ مقدر ، والنعت على أن الإضافة ليست لفظية (١) ولكل وجهة ، والله الغفور لمن جانب يرجو الرشاد .

ومن نعت العلم بالكنية

١ - عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعينك يا كعبُ بنَ عجرة من أمراء يكونون بعدي : من غشي أبوابهم ، وصدقهم في كذبهم ، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولا يرد عليّ الحوض ، ومن لم يَغشْ أبوابهم ، ولم يصدقهم في كذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه ، وسيرد عليّ الحوض » .

(١) أبو السعود : ٤/٢٦ والكشاف : ٣/٤٤ والنسفي : ٣/٨٩ .

« يا كعبُ بْنَ عجرة : الصلاة برهان ، والصوم جنة حصينة ، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفىء الماء النار . يا كعبُ بْنَ عجرة : إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به (١) » .

٢ - عن عائشة رضي الله عنها من خطبة له عليه السلام : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (٢) .

٣ - عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » (٣) .

٤ - عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وخير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد - وأشار الراوي إلى السماء والأرض » (٤) .

٥ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كم من اشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك » (٥) .

٦ - عن جابر رضي الله عنه قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اهتز العرش - وفي رواية : عرش الرحمن - لموت سعد بن معاذ رضي الله عنه » (٦) .

٧ - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) تيسير الوصول : ٢/٢٣٨ .

(٢) تيسير الوصول : ٢/١٣ .

(٣) تيسير الوصول : ٣/٢٥٥ .

(٤) تيسير الوصول : ٣/٢٥٧ .

(٥) تيسير الوصول : ٣/٢٥٢ .

(٦) تيسير الوصول : ٣/٢٤٨ .

« لكل أمة أمين ، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بْن الجراح رضي الله عنه » (١) .

هذه بعض الأمثلة لكثير جاء على هذا الطراز من البيان النبوي ، ونحن بتأمله نجد النعوت تؤدي مهمة كبيرة تعود على الغرض المسوق من أجله الكلام ، فمنها ما هو للترقق والحث على الامتثال في مقام النصيحة والتذكير كحديث (كعب بن عجرة) ، وحديث نصحه لأهله : « يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا » ومنها ما هو لتأكيد التكريم في مقام المدح بزيادة التعيين قطعاً لتوهم الشركة المنافية للتشخيص بالعلمية ، كما في أغلب الأمثلة ، إلى غير ذلك مما يعين على فهمه المقام ، ويقربه إلى الذوق سياق الكلام (٢) .

ومن نعت المضاف إلى العلم

١ - عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ .

٢ - عن مالك أنه بلغه أن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني أروّع في منامي . فقال : « قل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » (٣) .

٣ - عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل » (٤) .

(١) تيسير الوصول : ٣/٢٣٩ .

(٢) تيسير الوصول : ١/٢٥١ .

(٣) تيسير الوصول : ١/٧٢ .

(٤) تيسير الوصول : ٢/٧٤ .

وجازة المنطق النبوي

حد ابن سنان الإيجاز المحمود بقوله : هو إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ^(١) ، وبين الأصل في تفضيله فقال : والأصل في مدح الإيجاز والاختصار في الكلام أن الألفاظ غير مقصودة في أنفسها ، وإنما المقصود هو المعاني والأغراض التي احتيج إلى العبارة عنها بالكلام ، فصار اللفظ بمنزلة الطريق إلى المعاني التي هي مقصودة ، وإذا كان طريقان يوصل كل واحد منهما إلى المقصود على سواء في السهولة إلا أن أحدهما أخصر وأقرب من الآخر فلا بد أن يكون المحمود منها هو أخصرها وأقربها سلوكا إلى القصد^(٢) .

ومن باب الإيجاز عند صاحب (الصناعتين) : قيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ فقال : الإيجاز . قيل : وما الإيجاز ؟ قال : حذف الفضول ، وتقريب البعيد وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول لرجل : كفاك الله ما أهمك ، فقال : « هذه البلاغة » وسمع آخر يقول : عصمك الله من المكاره ، فقال : « هذه البلاغة » وقوله صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم »^(٣) .

ولما كان هذا فضل الإيجاز مجمعاً عليه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل البشر ، اختصه الله عز وجل بأفضل البيان ، لتبلغ دعوته من أقرب السبل وأمنها من السأم ، فكان إيجاز الكلام خصيصة لبيانه الكريم ، حتى لا نرى إطناباً استدعاه مقام التقرير لم يمازجه ضرب من ضروب الإيجاز أو أكثر ، وقد لحظ تلك

(١) سر الفصاحة : ٣٠٠ .

(٢) سر الفصاحة : ٢٠٣ .

(٣) الصناعتين لابي هلال : ١٦٧ .

ووصف المضاف بنعتٍ يلحق المضاف إليه أسلوبٌ حكيم ، إذ المضاف وتتمته كالكلمة الواحدة في الإفادة ، فلا يفصل بينهما كما لا يفصل بين أجزاء الكلمة ولو بأشد اللوازم قربا ، ويعمد المتكلم إلى ذلك لسبب بلاغي هو توفير الوجازة والإسراع بإفادة اختصاص المضاف بالمضاف إليه تعظيماً أو غيره ، إذ كان من الممكن أن يقال في الحديث الأول : البيت الحرام الذي هو الله ، فيطول الكلام بوصل الصفة ، وتفقد دلالة الإضافة ، وتتأخر نسبة البيت إلى الله ، وفقد النص اعتباراته اللطيفة التي يختص بها البيان الكريم .

وعلى هذا قياس الأمثلة الواردة مع المفارقات التي لا تنأى عن نظر الدارس ، وهذه العجالة في بيان دقة استعمال الصفات في البيان النبوي قد تفتح بابا واسعا للتحقيق والبحث كغيرها من عجالات الكتاب ، والنسق النبوي جدير بالعكوف على القيم الفنية الدقيقة التي تتجلى لدارسه عند الترفق في النظر ، وإن له لبركة لا يُجرمها الطالب نرجو نفعها في إحياء المعرفة وفتح باب الخير والثواب .

الخصيصة صاحب (الإشارة إلى الإيجاز) فقال أول سطور الكتاب : الحمد لله الذي بعث نبينا صلى الله عليه وسلم بجوامع الكلم ، واختصر له الحديث اختصاراً ؛ ليكون أسرع إلى فهم الفاهمين وضبط الضابطين ، وتناول المتناولين ، فكل كلمة يسيرة ، جمعت معاني كثيرة فهي من جوامع الكلم^(١) .

رأي الرافعي

ومن أثرى ما قيل في الإيجاز النبوي قول الرافعي - رحمه الله - : وأما القصد والإيجاز والاقتصار على ما هو من طبيعة المعنى في ألفاظه ، ومن طبيعة الألفاظ في معانيها ، ومن طبيعة النفس في حظها من الكلام وجهتيه : اللفظية والمعنوية - فذلك مما امتازت به البلاغة النبوية حتى كأن الكلام لا يعدو فيها حركة النفس وكان الجملة تُحَلَّقُ في منطقه صلى الله عليه وسلم خلقا سويا ، أو هي تُتَنَزَع من نفسه انتزاعا ، وهذا عجيب حتى ما يمكن أن يعطيه امرؤ حظه من التأمل إلا أعطاه حظ نفسه من العجب ، وإنما تم في بلاغته صلى الله عليه وسلم بالأمر الثالث^(٢) .

والأمر الأول الذي سبق خصيصة الإيجاز هو تمكنه صلى الله عليه وسلم من اللغة والبيان ، أما الأمر الثالث فهو ما بينه بقوله :

وهو الاستيفاء الذي يخرج به الكلام على حذف فضوله ، وإحكامه ووجازته مبسوط المعنى بأجزائه ، ليس فيها خداج ، ولا إحالة ولا اضطراب حتى كأن تلك الألفاظ القليلة إنما ركبت تركيباً على وجه تقتضيه طبيعة المعنى في نفسه ، وطبيعته في النفس ، فمتى وعامها السامع واستوعبها القاريء تمثل المعنى وأتمه في نفسه على حسب ذلك التركيب ، فوقع إليه تاما مبسوط الأجزاء ، وأصاب هو من الكلام

معنى جموما لا يتقطع به ولا يكبو دون الغاية ، كأنما هذا الكلام قد انقلب في نفسه إحساساً لنظر معنوي ...^(١) .

وقد بين الرافعي سر اختيار الفعل في الحديث أُعْطِيَتْ - أو أُوتِيَتْ - جوامع الكلم « ودلالته على اصطفاء الله ذلك الأسلوب لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وإعطائه إياه نعمة منه عليه ، سلم بها بيانه من العيوب ، ولذلك السبب عينه كثر في البلاغة النبوية هذا النوع من الكلم الجامعة ، التي هي حكمة البلاغة وهو غير ذلك النوع الذي قلنا فيه مما تكون غرابته من تركيب وضعه في البيان ، ثم هو أكثر كلامه - صلى الله عليه وسلم - كقوله :

« إنما الأعمال بالنيات »

« الدين النصيحة » .

« الحلال بين والحرام بين » .

« المضعف أمير الركب » .

وقوله في معنى الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وقوله : « لا تجن يمينك على شمالك » .

« خير المال عين ساهرة لعين نائمة » .

« آفة العلم النسيان ، وإضاعته أن تحدث به غير أهله » .

« المرء مع من أحب » .

« الصبر عند الصدمة الأولى » .

وقوله في التوديع : « أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » إلى ما لا

(١) الإشارة : ٢ .

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٤٤١ .

(١) إعجاز القرآن : ٤٤١ وما بعدها .

يحصيه العد من كلامه صلى الله عليه وسلم ، ولو ذهبنا نشرحه لبينا على كل كلمة مقالة^(١).

ومن مختار أبي هلال من هذا الأسلوب النبوي :
« إياكم وخضراء الدمن » .

« حبك الشيء يعمي ويصم » .

« إن من البيان لسحراً » .

« إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم » .

« الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس » .

« نية المؤمن خير من عمله » .

« ترك الشر صدقة » .

قال : فمعاني هذا الكلام أكثر من ألفاظه ، وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك فحلها وابنها بناء آخر فإنك تجدها في أضعاف هذه الألفاظ .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« إذا أعطاك الله خيراً فليين عليك ، وابدأ بمن تعول ، وارتضخ من الفضل ،

ولا تلم على الكفاف ، ولا تعجز عن نفسك »^(٢) .

أما بناء المقالة على الكلمة الجامعة من كلامه صلى الله عليه وسلم كما يشير إليه

الرافعي فإنه قد كان ، وشرح الحديث ، والوعاظ ، وأضرابهم يتناولون الجملة من

بيانه الكريم بالتحليل والشرح وبيان ما ضمنته من الأسرار في كثير من

الصفحات ، وكم رأينا ونرى من المقالات البارة في (المجلات) المتخصصة ما

(١) إعجاز القرآن : ٤٤٣ .

(٢) الصناعتين : ١٧١ وما بعدها .

أقيم على حديث أو جزء منه ، وإنما يعرف ذلك عن قرب من شغل قلبه بدراسة الحديث ، فقارن بينه وبين ما يقرأ وما يسمع ، ودار مع لفظه الموجز دورته الواسعة في سماء معانيه ، وإذ ذاك يراه ضحياً وافراً أكبر مما تشاهده العين أو يحكم عليه السمع ، وأصغر ما تكون الطائرة في رأي العين أقرب ما تكون إلى السماء قرباً ، فتخالها من الضالة أضيق من أن تسع حمامة ، فضلاً على أن تكون القصر المشيد يسع العشرات من الناس والجليل من المتاع .

كلمة للعقاد

ويقول العقاد : « ... الإبلاغ أقوى الإبلاغ في كلام النبي ، هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار . بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات ، وقد يبسطها الشارحون في مجلدات » .

وقد مثل لقضيته بأمثلة منها :

ومن أمثله علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله : « كما تكونوا يول عليكم » فأى قاعدة من القواعد الأصلية في سياسة الأمم لا تنطوي بين هذه الكلمات ؟

ينطوي فيها أن الأمم مسؤولة عن حكوماتها ، لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالإكراه ، لأن الجهل جهلها الذي تعاقب عليه ، والإكراه ضعفها الذي تلقى جزاءه .

وينطوي فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التي تعلنها الحكومة ، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيد القوانين ، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال .

وينطوي فيها ان الولاية تبع تابع وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، واحرى الا يغير الوالي قوما حتى يتغيروا هم قبل ذلك .
وينطوي فيها أن الأمة (مصدر السلطات) على حد التعبير والحديث .

وينطوي فيها أن الأمة تستحق الحكم الذي تصبر عليه ، ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال .

وذلك هو الإبلاغ الذي ينفذ في وجهاته كل نفاذ^(١) .

فليس معنى الإيجاز والكلمة الجامعة في تفسيره هذا مقصوداً على ضغط الفكرة الجزئية في اللفظ القليل ، بل يتعداه إلى الإشارة بالكلمة إلى مجموعة كبرى من المبادئ التي تنتظم فناً أو علماً بأكملها .

موضوع الإيجاز عند المحدثين

وقد شغل هذا الموضوع أفكار القدامى من المحدثين ، والعلماء المتذوقين بما يتكتنز فيه من روعة وفن ، لم يتكلف لهما ، ولم ينتجها التفكير الطويل قبل الصياغة ، تأتي العبارة خطاباً عابراً في لون من ألوان الخطاب ، فتثري على القلب والعقل ما لا تثريه الصفحات الطوال ، وتردد على الألسن والأسماع حكمة مشرقة تزيد المطالع حسناً كلما زادها نظراً .

لذلك نجدهم - رحمهم الله وأحسن جزاءهم - يقفون شطراً من العمر على جمع طائفة من هذا الضرب البديع من المنطق النبوي ، في كتاب يعطونه كثيراً من الاهتمام ، بشرح مستفيض للكلمة الجامعة الشريفة ، واستنباط دقيق لما تشير إليه من جلائل المعاني ، ولعلنا نجد الكفاية في التمثيل بكتاب للمحدث الكبير (عبد الرحمن بن أحمد الشهير بابن رجب الحنبلي^(٢)) سماه (جامع العلوم والحكم) نقرأ

(١) عبقرية محمد : ١١٧ ط . ٩٦٩ دار الكتاب العربي .

(٢) من علماء القرن الثامن الهجري ومن تلاميذ ابن حجر وابن القيم توفي ٧٩٥ هـ .

في مقدمته أدلة تلك العناية ، إذ نراه يقول بعد رواية الأحاديث التي وردت في شأن بيانه صلى الله عليه وسلم ، وأنه أعطى فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه واختصر له الحديث اختصاراً : وقد جمع العلماء رضي الله عنهم جموعاً من كلماته صلى الله عليه وسلم الجامعة :

فصنف الحافظ أبو بكر بن السني كتاباً سماه « الإيجاز وجوامع الكلم من السنن المأثورة » .

وجمع القاضي أبو عبد الله القضاعي من جوامع الكلم الوجيزة كتاباً سماه : « الشهاب في الحكم والآداب » .

وصنف على منواله قوم آخرون فزادوا على ما ذكره زيادة كثيرة .

وأشار الخطابي في أول كتابه (غريب الحديث) إلى يسير من الأحاديث الجامعة .

وأملى الإمام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح مجلساً سماه (الأحاديث الكلية) جمع فيه الأحاديث الجوامع التي يقال : إن مدار الدين عليها ، وما كان في معناها من الكلمات الجامعة الوجيزة ، فاشتمل مجلسه هذا على ستة وعشرين حديثاً .

ثم إن الفقيه الإمام الزاهد القدوة أبا زكريا يحيى النووي - رحمه الله عليه - أخذ هذه الأحاديث التي أملاها ابن الصلاح وزاد عليها تمام اثنين وأربعين حديثاً وسمى كتابه بالأربعين ، واشتهرت هذه الأربعون التي جمعها وكثر حفظها ، ونفع الله بها ببركة نية جامعها وحسن قصده رحمه الله تعالى .

وبعد هذا البيان الأمين الورع من المؤلف ساق سبب تأليفه لكتابه فقال : وقد تكرر سؤال جماعة من طلبة العلم والدين لتعليق شرح لهذه الأحاديث المشار إليها . فاستخرت الله تعالى في جمع كتاب يتضمن شرح ما يسره الله تعالى من معانيها ، وتقيد ما يفتح به سبحانه من تبين قواعدها ومبانيها . وإياه أسأل العون على ما قصدته ، والتوفيق لصلاح النية والقصد فيما أردته وأعول في أمري كله عليه ، وأبرأ من الحول والقوة إليه .

ثم بين أنه زاد على ما جمعه الإمام النووي ثمانية أحاديث رأى زيادتها أمراً مكملاً لكتابه ، فتم له خمسون حديثاً جعل عددها جزءاً من تسميته « جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم » .

هذه الإمامة عاجلة تشوقك إلى تلك الآثار العظيمة ، لا يكفي عن الإطلاع عليها والتمتع بها نقلُ مثال منها ، وحسبنا أن نرشد إلى أن هذا العالم الفاضل قد سبق العقاد في الإشارة إلى أن الحديث الجامع يلمح إلى علم من العلوم ويتضمن قضاياه .

الشارحون للسنة

ولم يأل شراح الحديث جهداً في بيان ما تدور عليه هذه الأحاديث الجاسسة من المعاني الكبيرة ، وفي حشد النقول من الأسلاف الذين تحدثوا عنها ، وإليك نموذجاً صغيراً نشير به إلى أعمالهم المحموده :

عمدة القاري

عند الكلام على حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده ومن الناس أجمعين » يقول الإمام العيني في (عمدة القاري) : وقال ابن بطال : قال أبو الزناد : هذا من جوامع الكلم الذي أوتي عليه الصلاة والسلام ؛ إذ أقسام المحبة ثلاثة : محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد ، ومحبة رحمة وإشفاق كمحبة الولد ، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة الناس بعضهم بعضاً ، فجمع عليه السلام ذلك كله . . . (١) .

وعند شرح الحديث : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله

(١) عمدة القاري : ١/١٤٤ .

ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » . يقول الإمام العيني : « قال النووي : هذا حديث عظيم ، أصل من أصول الإسلام ، قلت : كيف لا وفيه محبة الله ورسوله التي هي أصل الإيمان بل عينه ، ولا تصح محبة الله ورسوله حقيقة ، ولا حب لغير الله ، ولا كراهة للرجوع في الكفر - إلا لمن قوي الإيمان في نفسه ، وانشرح له صدره ، وخالط دمه ولحمه ، وهذا هو الذي وجد حلاوته ، والحب في الله من ثمرات الحب لله . . . (١) » .

كما جاء في شرح الحديث : « الحلال بين والحرام بين » قوله : أجمع العلماء على عظم موقع هذا الحديث ، وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام . قال جماعة : هو ثلث الإسلام ، وإن الإسلام يدور عليه وعلى حديث « الأعمال بالنيات » وحديث « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » وقال أبو داود : يدور على أربعة أحاديث : هذه الثلاثة وحديث « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » قالوا : سبب عظم موقعه أنه عليه السلام نبه فيه على صلاح المطعم ، والمشرب ، والملبس ، والمنكح ، وغيرها وأنه ينبغي أن يكون حلالاً ، وأرشد إلى معرفة الحلال ، وأنه ينبغي ترك المشبهات فإنه سبب لحماية دينه وعرضه ، وحذر من مواقع الشبهات وأوضح ذلك بضرب المثل بالحِمَى ، ثم بين أهم الأمور وهو مراعاة القلب .

وقال ابن العربي : يمكن أن يُتَزَعَّ من هذا الحديث وحده جميع الأحكام .

وقال القرطبي : لأنه اشتمل على التفصيل بين الحلال والحرام وغيره وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب ، فمن هنا يمكن أن يرد إليه جميع الأحكام (٢) .

(١) عمدة القاري : ١/١٤٨ .

(٢) عمدة القاري : ١ / ٢٩٩ .

ويقول ابن حجر - رحمه الله - في (فتح الباري) وهو يشرح « إنما الأعمال بالنيات » :

تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث ، قال أبو عبد الله ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث ، واتفق عبد الرحمن ابن مهدي والشافعي فيما نقله البويطي عنه وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني وأبو داود والترمذي والدارقطني وحمة الكتاني - على أنه ثلث الإسلام ، ومنهم من قال ربه ، واختلفوا في تعيين الباقي .

وقال ابن مهدي أيضا : يدخل في ثلاثين بابا من العلم .

وقال الشافعي : يدخل في سبعين بابا ، ويحتمل أن يريد بهذا المبالغة .

وقال عبد الرحمن بن مهدي أيضا : ينبغي أن يجعل هذا الحديث رأس كل

باب .

ووجه البيهقي كونه ثلث العلم بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها ؛ لأنها قد تكون عبادة مستقلة وغيرها يحتاج إليها ، ومن ثم ورد : « نية المؤمن خير من عمله » فإذا نظرت إليها كانت خير الأمرين .

وكلام الإمام أحمد يدل على أنه أراد بكونه ثلث العلم ، أنه إحدَى القواعد الثلاث التي ترد إليها جميع الأحكام عنده ، وهي هذا و « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » و « الحلال بين والحرام بين . . . » الحديث ثم إن هذا الحديث متفق على صحته ، أخرجه الأئمة المشهورون إلا الموطأ^(١) .

يقسم البلاغيون الإيجاز إلى إيجاز القصر وإيجاز الحذف ، أما إيجاز القصر فيكون بكثرة المعاني مع قصر الألفاظ من غير حذف ، وهذا يأتي من أن اللفظ لا يقتصر على دلالة واحدة ، بل تتنوع دلالاته إلى دلالة مطابقة ، ودلالة تضمن ، ودلالة التزام ، ودلالة على مستتبعات التراكيب من المعاني الثانوية التي يبحث عنها في البلاغة ، وهو يدل بالتضمن وما بعده على أكثر مما يدل عليه بالمطابقة^(١) أما إيجاز الحذف فيفهم من عنوانه أنه بكثرة المعاني مع قصر الألفاظ بسبب الحذف لبعض أجزاء العبارة ، وقد سبقت أمثلة كثيرة منه ، وهو باب واسع الأضرب بحسب نوع المحذوف وقد يقاس الكلام بكلام آخر دال على نفس معناه فيوصف بالإيجاز أقلهما حروفا مع الوفاء بحق المعنى وذلك إيجاز نسبي ، وسنعرض طائفة من البيان الكريم تفسر بلاغة الإيجاز النبوي وسر لطفه ، نجتزئ منها بالنوع الأدق وهو إيجاز القصر .

إيجاز القصر

١ - كان من ثنائه على ربه وعرفانه لنعمه قوله عليه السلام : « اللهم إني أحمدك على العرق الساكن والليل النائم » .

ظاهر هذا القول سذاجة العبارة وقلة الألفاظ ، فكم تعبرُ على السمع سريعةً سرعةً لفظها دون أن يعلّق الفكرُ بعمق باطنها ، فواء العرق الساكن والليل النائم جلائل النعم الموجبة للحمد .

هل تَرَى العَرَقَ يسكن آمنا والجسْمُ عليلٌ في أي جزء منه ، والجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ؟

(١) البلاغة العالية : ١١٧ .

إنما يسكن العرق عند وفور الصحة واعتدال المزاج ، وهما نتيجة الحياة الطيبة الرخية والسلامة المسعفة .

ثم هل ترى ليلك نائماً وأنت معكّر الصفو ، مكدود الفكر ، مهموم بالمزعجات ؟

إنما ينام ملء الليل من شمله الصفو ، ولفه الأمن ، وغمرته السعادة ، وذلك نتيجة الرضا بالقدر ، والتسليم للقضاء ، والدراية الكاملة بحكمة الله فيما قسم للمرء من دنياه ، ولا أعظم من الإيمان البالغ هذا الحدّ نعمةً .

فالعرق الساكن يوحى بالعافية الشاملة ، والليل النائم يشع بالأمن والهدوء ، والسلام ، وبمتعة الروح ولذاذة الأحلام ، ويرخي سدوله على عالم من الأسباب الداعية ، من عمق الإيمان ، والرضا بالخط ، وفراغ البال بحسن الخلق ، فلا خوف من عدو كاشح ، ولا حقد على جار مشاكس ولا حسد لمسبق منافس . . .

ويزيد المجاز بنسبة وصف النوم لليل دون النائم فيه هذا الإيجاء سحرًا وخلابة ، فالنوم الذي سعدت به العين ، وغمرت نشوته القلب ، كأنما فاض على الليل ذاته فنام ، ومنّ منا سعد ليلته بنوم العافية فأصبح نشيطاً معافياً يجهل هذه النعمة ؟

إن معنى هذا الحديث يشرح قيمته قوله ﷺ : « من بات منكم آمنًا في سره ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

وأى شيء يوجب الحمد أكثر من ذلك ؟

لعلنا رأينا لمعة من سر الإيجاز في هذه الألفاظ القصيرة من بيانه الكريم ﷺ .

لقد كان كذلك يستعيد فيقول : « أعوذ بالله من شر عرق نعار » يقول الرضي : « وهذه استعارة ، والأصل في ذلك رفع الصوت ، يقال . فلان نعار في الفتن : أي صياح فيها ودعاء إليها ، وقال بعض التابعين - وقد صلى خلف مصعب بن الزبير وهو رافع صوته بالتكبير والتهليل : قاتله الله نعاراً بالبدع : أي

صياحها بها ، فشبّه عليه الصلاة والسلام شغور دم العرق وتواتره بصوت الصائح المنوه من وجهين : لارتفاع نداءه ولتكرير دعائه ، فجعل العرق نعاراً للعلة المذكورة على طريق المجاز والاتساع . وقال بعض أهل اللغة : يقال : نعر العرق نعرًا ونعرانا إذا اهتز بالدم ولم يرقأ ، فإن كان الأمر على ما قال فقد خرج الكلام عن باب المجاز إلى حيز الحقيقة^(١)

وعلى المجاز أو الحقيقة يتبين لنا ما تحت لفظ المستعاذ منه من معان توجب الاستعانة ، فإن العرق لا ينعر في جسم سليم معافى ، وكثيراً ما يكون حدوث ذلك منه حاصلًا بكد النفس بالمرهقات من الوسوس والأفكار ، وهجوم الهموم والأخيلة الفاسدة ، الناشئة عن ضعف الإيمان وهلهلة الرضا وسقوط الإرادة .

ألا تكون هذه الكلمة أوجز ما يعبر به عن تلك المعاني مع ما تحمله من الصورة المستحضرة في الذهن بالحروف ، ومن صيغة المبالغة ؟

٢ - خاطب عليه السلام رجلاً من وفد تميم فقال : « إني لأرجو أن تموت جميعاً » فقال : أو ليس الرجل يموت جميعاً يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « تشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا ، ففعل أجله يدركه في بعض ذلك فلا يبالي الله في أيها هلك » .

كلمة جامعة ما أعظم قصرها وأكبر دلالتها ! رائعة مغربة بما يفهم من ظاهر الألفاظ ، وقد تعودنا الكثير من هذه الغرائب المبالغية في البيان الكريم قصداً إلى قسر الانتباه وتحريك نشاط الذهن ، كان رداً لفعلها في نفس المخاطب سؤال المتعجب ؛ لأنها ومضت كالبرق في رأسه تاركة من البهرة ما يحجبه عن المراد ، وكان صورة من صور إيضاحها وبسطها ما بين به الرسول عليه السلام مراده .

والرضي يقول في هذا الحديث : وفي هذا الكلام مجازان : أحدهما قوله عليه

(١) المجازات النبوية : ٩٦ .

الصلاة والسلام : « إني لأرجو أن تموت جميعا » لأن الإنسان لا يموت إلا جميعا ، وإنما أراد : إني لأرجو ألا يدركك الموت وهمومك متقسمة وأهواؤك متشعبة ، فكأنه يكون متفرقا بتفرق أهوائه ، ومتشعبا بتشعب آرائه . والمجاز الآخر : قوله عليه الصلاة والسلام : في أودية الدنيا ، وهذه استعارة عجيبة ، لأنه شبه اختلاف طرائق الدنيا ومذاهبها ، وتباين أحوالها ونوائبها بالأودية المختلفة ، فمنها البعيد والقريب ، والمخصب والجديب والواسع والضيق ، والمنجي والمعطب .

والناظر إلى الحديث يرى أكثر مما ذهب الرضي إليه ، في تجسيم الأهواء والهجوم المتشعبة ، وفي تصوير الأجل بالساعي الحثيث خلف الإنسان ، وفي نسبة عدم المبالاة إلى الله عز وجل ، وأياما كان ، فإن العبارة - لا شك - عاشت حياة الوافد تدور في قلبه ، وتختلط برجائه ، وتمد برفق الحبيب بناتها دون أهوائه ونفسه ، وما تزال تثير فينا كوامن العجب لهذا الابتكار الذي لا يقدر على مثله إلا مثل صاحبه ، وأين ؟ وأين !

٣ - « ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل » .

سبحان الله أي كلمة أجمع لعموم الجهات من هذه الكلمة : « ما دخل عليه الليل » ؟

ثم أي كلمة أجمع لشمول الكائنات منها ؟ إن الليل يدخل على مشارق الأرض ومغاربها ، وعن اليمين منها والشمال ، في البر والبحر ، والسهل والجبل وهيئات أن يقف دونه حصن منيع ، أو سد وثيق ، أو حيلة محتال ، تلبسه الدنيا لباسا غامراً يشعر به كل حي ! .

ثم أي علاقة هي أكمل صدقا ، وأعمق إيماء ، وأسرع إشعاعا ، من العلاقة بين الدخولين : دخول هذا الدين ودخول الليل ؟ .

أليس يقول الله تعالى : ﴿ وجعل الليل سكنا ﴾ فيجعله من أدل آيات القدرة وجليل النعمة ؟ ويقول : ﴿ مَنْ إِلَهَ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ ؟ ﴾ ليؤكد

الوهيته ويقرر بعظيم فضله ؟ ويقول في هذا المعرض : ﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ ويقول : ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا ﴾ و﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه ﴾ إلى كثير من الآيات التي توحى بجليل الآلاء في هذا القسم المبارك من الزمن ، تسكن فيه النفوس وتطمئن ، وتهدأ فيه الخواطر وترتاح ، ويعود فيه النشاط المفقود وترجع به الصحة الغاربة ، ويتجدد وجه الحياة الكالح من عناء الهم والنصب .

هذا كله ما يصنعه الدين بالدنيا من وسائل التجديد والإنقاذ ، وبعث الحياة ثرية هادئة كريمة ، لا لفح فيها للوجوه ، ولا كد للقلوب ، ولا سباق يضني الخلق في حطام يزول .

وجانب آخر من جوانب تلك العلاقة : هو الصفاء الروحي ، وانطلاق التأمل في عمق ، وانبعاث الفكر في استبطان ، واستجماع قوى القلب في التوجه ، حيث لا يشغل الحس مرئي ولا مسموع ، ولهذا يفضل القرآن عبادة الليل فيقول :

﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قبلا ﴾ .

﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً ﴾ .

﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار السجود ﴾ .

﴿ ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ﴾ .

ويمتدح عباد الليل ويكن لهم ما لا يتصوره البشر من كريم الجزاء فيقول فيهم :

﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ .

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ .

ويجعل الليل منجى المؤمنين من أعدائهم الكافرين فيقول: ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾ .

﴿فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون﴾ .

وجعل سبحانه كبار الأحداث في شأن الدين منوطة بليل ومن أعظمها نزول القرآن وحادث الإسراء فقال عز من قائل :

﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر* وما أدراك ما ليلة القدر* ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ .

﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ .

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ .

أما شمول الليل وانبعائه فيؤكد ما سبق عنه قوله تعالى: ﴿والليل إذا يغشى﴾

وقد يفسر ذلك الحذف مفعول الشمس في قوله: ﴿والليل إذا يغشاها﴾ فإذا كانت الشمس آية النهار المبصرة قد غشيها الليل فقد انسلخ النهار وأسلم الكون نفسه لليل بكل أجزائه .

﴿والليل إذا سجي﴾ إذا مد سكونه ليغطي البقاع .

﴿والليل وما وسق﴾ وما جمعه وستره وآوى إليه من المخلوقات .

أرأيت متانة الصلة بين دخول الدين ودخول الليل؟ ألم تنتشر أجنحة الإسلام على العالم كله فيلمس الدفء والسكون والحنان ، ويعرف الراحة والاستجمام والأمن ، إلا من شقي في سجل القدر فعادى بعداوة الإسلام نفسه؟

أنظر إلى هذا الإيجاز في اللفظ مع عظم الدلالة ، ثم ضم إلى ذلك ما يصوره القَسَم باللام الدالة عليه في الفعل الموحى بالتجدد والحدوث واستحضار الصورة ،

أي تأكيد باليمين وبنون التوكيد ، وأي تحسيم للدين وتحديد ، بالإشارة إليه إشارة الحاضر المتميز والقائم المائل؟

أتصور الثقة الواثقة ، والأمل المتوقع ، والرجاء الواسع لا إلى مدى في مستقبل الإسلام الذي نحن الآن دليله وإن أهملنا مدلوله - من تأملك الحروف ووقوفك عندها حرفا حرفا؟ .

هذه بعض المعاني التي توحى بها الكلمات في القولة الكريمة الحكيمة .

٤ - « حجوا قبل ألا تحجوا » .

الله ما أخلب عبارتك يا أفصح العرب . ! والله ما أوجزها وأدناها ! .

جملة كاملة آمرة بأداء ركن من أركان الإسلام ، تتم بحروف أربعة (حجوا) وما أن تلمح للذهن حتى يعقبها تهديد في عبارة أقصر عبارة . !

متسع من الأمن والصحة والرزق يوجب السعي الناجز إلى الحج ، يعوزه الحزم وشجاعة النفس بطرح الوسوس ، وطرد الهواجس ، وإهمال النظر إلى واهن العلل وفساد العوائق ، يحول بها الشيطان بين الناس والعبادة .

ثم ضيق يكرب القلب ويخنق الروح ، تنقطع معه الأسباب ، وتعظم الندامة ويخب الأمل ، عند أمن تحول ، أو صحة تبدلت ، أو رزق انكمش ، أو ممات حل . !

المتسع يوحي به صدر البيان لأنه موجبه (حجوا) والمضيق يعبر عنه عجزه لأنه كناية عنه « قبل ألا تحجوا » والأول يصور الفرصة السانحة يجب أن تقتنص ، والثاني يصور الغصة الباغته يجب أن تحذر .

هذا كله وراء اللفظ الساذج القصير ، الذي لا يحمل زخرفا ولا يذهب معتسفا .

٥ - « اغتربوا لا تزواوا » .

قال الشريف : « وهذه استعارة ، والمراد : انكحوا في الغرائب ولا تنكحوا في القرائب ؛ لأنهم يقولون : الغرائب أنجب ، والضوي : ضئولة الجسم ودقته . ويقال : أضوت المرأة إذا أتت بولد ضاو ، كما يقال : أذكرت إذا أتت بولد ذكر ، وكانوا يعتقدون أن القريبة تضوي كما أن الغريبة تدهي : أي تأتي بالولد داهية .

وقال الشاعر :

فتى لم تلده بنت عم قريبة فتضوي ، وقد يضوي رديد القرائب

وقال الآخر :

وأترك بنت العم وهي قريبة مخافة أن تضوي علي سليلي

وقوله عليه الصلاة والسلام : « اغتربوا » عبارة عن هذا المعنى من أحسن العبارات : لأنه جعل التباعد عن المنكح في العشيرة والبيت والذهاب به إلى غير السنخ والأصل بمنزلة الرجل المغترب الذي يوطن غير وطنه ويسكن غير سكنه^(١) .

والعبارة كما ترى جملتان على أحصر ما يكون من التركيب ، فصل بينهما لكمال الاتصال إذ أن مضمون الثانية منها يؤكد مضمون الأولى ، فإنه إذا تقرر حصول الضوي بالاقتراب فهي عنه كان معناه الأمر بلازمه وهو الأعتراب ، فهو من ذكر المعنى مرتين : أولاً ليتقرر في الأذهان ، وثانياً ليقترن الحكم بما يصح علة له فيكون أدعى للمثال .

والنبي عليه السلام بهذه النصيحة الدقيقة في النطق ، الدالة على هذا المعنى المتسع لم يكن تبعاً للعرب فيما فهموه واعتقدوه دون اقتناع منه ، فكم هدم من عادات وسفه من أحلام ، وكان من الممكن السهل أن يهدم هذا التقليد لو خلا عن الحكمة ، فأمره به يتصل بدراسة نفسية سليمة ، يحسها الإنسان حقيقة أو فرضاً إذا وضع نفسه في مكان النهي ، فإنه عند قوة الحس بالقرابة يتصور الخلية أختاً له ،

(١) المجازات النبوية : ٧٨ .

وينتقل إحساسه إلى تصوير الحالة الجنسية معها صورتها مع الأخت ، فترتعد فرائضه وتذهب ريجه ، فإن قوى عزمه ودفع الأوهام ، ونسي أن بنت العم قطعة من عمه وبنت الخالة قطعة من خالته أتاها على نقص في الرغبة ، وفتور في الشهوة ليس بعيداً أن يكون أثره ضوي النسل ، والمرأة إذا رأت منه ذلك ظنته الكراهية والمقت ، وتحولت طلاقة قلبها إلى انقباض ، ولهذا نرى الصور الكثيرة من النزاع الدائم بين الزوجين المقتربين ، فسليل هذا النوع المهموم لا طمع في قوة بدنه وفراهة عقله .

هذه كلمة قصيرة وتطبيق صغير في باب الوجازة الكريمة بالكلمة الجامعة الحكيمة من كلام المعلم المعصوم عليه السلام ، تقوم دليلاً - لو انفردت - على صدق دعواه التي لم تجد معارضا من أعدائه قبل أتباعه حين قال : « أنا أفصح العرب . . » .
حقاً يا رسول الله إنك والله أفصح العرب . .

القصة في البيان النبوي

القصة من الأنواع الأدبية البارعة ، التي يمكن للقاص بها أن يقرر المبادئ ويمكّن الأهداف ؛ لأن لها أثراً في النفوس يواكب فطرتها في مدارج الحياة ، ولعلم الحق - جل علاه - بما خلق وهو اللطيف الخبير قصص على رسوله - ﷺ - أحسن القصص في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ ليكون لوناً بيانياً ونوعاً أدبياً من ألوانه وأنواعه التي تتعاقب في تقرير الدين ، وتتجاذب لتمكين مبادئه السامية في قلوب البشر .

ولما كان البيان النبوي امتداداً وبياناً للقرآن الكريم ، كان لذلك النوع الأدبي فيه نصيبٌ متميز ، يعمق به النبي عليه السلام طائفةً من المفاهيم والقيم التي تعد من المسائل الكبرى في النماذج الكلية من حياة الإنسان .

والقصة النبوية - ونطلق عليها هذا الاسم مطمئنين متبعين التسمية القرآنية للقصة في القرآن - هي كقصة الأصل لا تنجح إلى الخيال الشارد الجموح . ولا للتعلم المفسلف الغامض ، ولا للسطحية الفارغة الجوفاء المغطاة بقشرة خالية من بديع العبارة ، وليست هي القصة التي وضع الغرب لها عشرات القواعد والشروط ، ولكن هي القصة التي تقوم على سلامة فطرة القاص ، وتكفي كل الكفاية في تقرير الغرض ، وتروع كل الروعة في تسلسل الأحداث ، ولباقة الحوار ، وتصوير الأشخاص ، وتنبع فكرتها من أجناس النفوس الكائنة الحية ، فلا تعالج أنماطاً منها في عالم مجهول ، فإن جنحت إلى عالم غير منظور بنته على تباشير الحاضر الشاهد به ، فربطت بينهما بسببية تمنع الطفرة ، وبألقة تؤنس بالرحلة ، وهي في ذلك كله وفي غيره الوسيلة المشتهة للنفس الطليقة ، والأسلوب الرائع

قصة أصحاب الأندود

النص النبوي

عن صهيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كان فيمن قبلكم ملك وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر . فبعث إليه غلاماً يعلمه . فكان في طريقه إذا سلك راهب . ففقد إليه وسمع كلامه فأعجبه ! فكان أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حسبي أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل : حسبي الساحر : فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها ، ومشى الناس فأتى الراهب فأخبره ، فقال له الراهب : أي أنت اليوم أفضل مني . وقد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل عليّ ، وكان الغلام يبصر الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء ، فسمع به جليس للملك وكان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة ، وقال : ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني . فقال : إني لا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله لك فشفاك ، فأمن فشفاه الله تعالى ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال : من رد عليك بصرك ؟ فقال : ربي ! قال : ولك ربٌ غيري ؟ قال ربي وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجيء بالغلام . فقال له الملك : أي بني قد بلغ من سحرك ما يبصر الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل ، فقال : إني لا

المخدر للوجدان ، تجوس معه حكمة الطيب الرءوف في القلب تقطع وتصل ، ليضحو من صورة حلم ورحمة على حقيقة قلب وصحة اعتقاد .

ثم هي لا تتخذ غمطاً من الأداء ملتزماً ، ولكنها تتلون تلوناً ملحوظاً يليه مقام الفكرة ، من الطول والقصر ، ومن الحوار والقص ، ومن بساطة التعقيد وتركيبه ، ومن مفاجأة الحلول أو التبشير بها . . . إلى غير ذلك مما يُطَرِّف السامع بمتاع مشتهى لا يمل .

وحيث لا يمكن الاستيعاب فإن منهج الاكتفاء الذي سرنا به من أول البحث يلزمنا أن نتناول بعض الأحاديث التي سجلت هذا النوع الطريف من البلاغة المحمدية ، نؤكد به ما عرفناه في هذه المقدمة المبسرة عنه .

أشفي أحداً ، إنما يشفي الله ! فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجيء بالراهب فقيله له : : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضعه على مفرق رأسه فشفه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام ، فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا ، فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فأطرحوه . فذهبوا فصعدوا به الجبل ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به في قرقور وتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقدفوه . فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشي إلى الملك . فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله : ثم قال للملك : إنك لست بقاتي حتى تفعل ما أمرك به . قال : ما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، وتأخذ سهماً من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : باسم الله رب الغلام . ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني . فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : باسم الله رب الغلام ثم رماه فوق السهم في صدغه ، فوضع يده على صدغه في موضع السهم فمات - رحمه الله - فقال الناس : آمنا برب الغلام - ثلاثاً - فأتي الملك . فقيل له : رأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرُك ، قد آمن الناس برب الغلام ، فأمر بالأخدود بأفواه السكك فحُدَّتْ وأضرم فيها النيران . وقال : من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها ، أو قيل له : اقتحم . ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي فتقاعست أن تقع فيها ، فقال الغلام لها : يا أمه اصبري فإنك على حق^(١) .

(١) أخرجه مسلم والترمذي واللفظ لمسلم والنص من تيسير الوصول : ٧٣ / ٢

الأخدود : الشق في الأرض وجمعه أخاديد . الصعيد : وجه الأرض . القرقور : سفينة صغيرة . الكنانة : جعبة السهام .

فكرة القصة

تصوير الصراع بين الحق والباطل ، والخير والشر . . أو الإيمان والكفر ! .
والمآل الحقيقي هو انتصار الحق والخير والإيمان .
استلزام الصراع التضحية والفداء في سبيل المعتقد الراسخ الذي أصبح هو الحياة فلا حياة للقلب دونه .

العرض

يتجلى في لقطات سريعة شائقة مكشوفة التسلسل ، ليس فيها فجوات تتجدد فيها العقد والحلول ، وتنتقل من عجيب إلى أعجب .

أبطال القصة

ملك - ساحر - جليس الملك - راهب - غلام - جمهور - صانعو الأخدود - امرأة وطفل .

الملك : ظاهر مسيطر في بطولة الشر ، يستمر ظاهراً في العرض حتى النهاية ، فيختفي مصيره ويهم ، فلا يدري : انتحر . . مات بالفجعية . . وهو يمثل نفسية الصلف المتكبر المتأله المخدوع الأحمق ، يتصرف تصرف الغادر المغرور .

الساحر : بطل يؤدي دوراً تمهيدياً ثم يختفي ؛ لأن استمرار وجوده غير مقصود ولا مهم ، وهو عنصر مساعد في تقرير بطولة الشر والباطل .

نفس خبيثة تتخذ من الأباطيل وسيلة لاكتساب المجد على حساب الأغبياء ، خداعة تريد بقاءها في امتداد غيرها من تلاميذ الشر والشعوذة .

كبد القوس : وسطها .

السكك : جمع سكة وهي الطريق .

التقاعس : التأخر والمشي إلى وراء .

الراهب : البطل المهد لتصوير فكرة الحق والخير ، ويمثل الفداء المبني على الأعتقاد والاقتناع ، عالماً ثمن التضحية مؤمناً بمصير الدعاة .

الغلام : بطل الأبطال ولد في القصة بعد الملك والساحر صاحبي فكرة الشر ، يظل مسيطراً ظاهراً إلى أن يسلم القصة لأبطال مثله آخرين .

وهو نموذج لحب الاستطلاع ، وللصراع النفسي بين الدواعي التي لم يقدّم دليلها ؛ رغبة للحسم في الموقف الدائر ، وللذكاء اللامع في اكتساب الدليل من أقرب المناسبات ، كما أنه مثال لتدخل الغيب في تأييد الحق والخير عند وجود المخلصين ، وللبذل أقصى البذل عند اليقين بالمعتقد ، وللتوفيق في الاحتيال له حتى يظهر قاهراً مجتاحاً لفكرة الباطل ، رخيصةً من أجله حياةً من شأنها أن تزول .

جليس الملك بطل من أبطال الخير يظهر ثم يختفي بعد الدلالة على الغلام .

نفس مرهقة بالمفاجأة ، جديد عليها ذلك التحول ، لم تقو قوة الغلام على مجابهة ما يصيب الغلام .

جمهور المعذنين للغلام جند مغلوب مسخر لفكرة الشر والباطل - تجارب قصيرة دالة لمن يعتبر - يظهرون ويختفون .

نفوس الرعا ع أتباع كل ناعق ، لا يسندها الفكر ولا يثنيها النظر .

جمهور الشعب في الموقف الحاسم يظهرون نظارة ثم يتحولون أبطالا فدائين لفكرة الخير والحق .

نفسية الحائر المتردد بين غلام عجيب يُقتل ، وعقيدة موروثه تُعتقد ، ثم نفسية الثائر المقسور بالدليل الباغث الباهر .

صانعو الأخدود زبانية النار يظهرون في الفصل النهائي ثم يختفون .

شرطة مغلوبون . . ينفذون ما يؤمرون . . حمقى متهورون . .

الأم وابنها آخر الدراما أو مأساة الخير والشر . . تمثل القمة التي تتسرك الناظر مبهوراً والقلب واجفاً . . وفيها خارقة إلهية هي نطق الغلام .

نفسية الأم المتحيرة بين الإقبال إرضاء لربها والإدبار إشفاقاً على رضيعها . . مع نفسية البراءة المطلقة التي لا تعرف غير ما أُهِمَّت من صوت الله . . !

سير القصة

مقدمة في سطور . . قصيرة شائقة . . مقدمة حكاية من تاريخ قديم ، تبدأ بملك وساحر ، وتصور ما كان الملوك يعتمدون عليه من خرافات وشعوذات وما كان للسحرة من استغلال لهذا الجهل ، ونقله من جيل إلى جيل .

هذه المقدمة القصيرة تصل أول التعقيد عند ضرب الساحر للغلام يتلوها أول الحل بما أشار به الراهب على الغلام ، ثم يعود التعقيد في صورة أدق وأمس بالفكرة . . يتمثل في الصراع النفسي بين الراهب والساحر لدى الغلام ، ويتلوه الحل باختبار الطرفين في مشكلة الدابة الحابسة للناس ، فيعود التعقيد بإخبار الراهب الغلام أنه سيبتلي ، ويخف أثر العقدة بما يظهر على يد الغلام من كرامات إلى أن شفي الله على يده جليس الملك ، فطلب الغلام أن يكافئه بالإيمان بربه فأمن . . وهنا نفاجاً بالعقدة تلوح على شكل أكد في حوار الملك مع جليسه حول شفائه ومن شفاه ، فيمتد إلى الغلام ثم إلى الراهب ويبلغ مشهد الراهب قمة الإثارة في الانتصار على الباطل ، وتتوالى عقد الابتلاء للغلام ، وتتوالى معها الحلول في مناظر شائقة خاطفة ، تؤيد فكرة الحق والخير ، وتقهر فكرة الشر والباطل ، وفي ذلك كله نهاية التعقيد في جانب الملك . . وهنا يظهر جانب الحل الشكلي من جهة الغلام ، فينفذ الملك ما أشار به ، وما تكاد الفرحة بقتل الغلام تسعده حتى تطفر عقدة العقد في قصته فيؤمن الشعب برب الغلام ، ويكون الأخدود هو الحل من جانب الشر والباطل ، ولكن صوت الحق والخير يختم القصة هاتفاً : إنه الحل الزائف والقدرة الحمقى . . وإن حياةً مستعارة لا تساوي الحفاظ عليها رغبة عن

قصة المتكلمين في المهد

النص

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم عليهما السلام ، وصاحب جريج وكان جريج رجلا عابدا ، فاتخذ صومعة فكان فيها ، فأته أمه وهو يصلي فقالت : يا جريج ، فقال : اللهم أمي وصلاتي ! فأقبل على صلاته ، فقالت بعد ثالث يوم في ثالث مرة : اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات ، فتذاكر بنو إسرائيل جريجا وعبادته ، وكانت امرأة بغي يتمثل بها فقالت : إن شئت لأفتننه ، فعرضت له ، فلم يلتفت إليها ، فأته راعيا كان يأوي إلى صومعته ، فأمكنته من نفسها ، فوقع عليها ، فحملت ، فلما ولدت قالت : هو من جريج ، فأتوه فأنزلوه من صومعته وهدموها ، وجعلوا يضربونه ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : زويت بهذه البغي فولدت منك ، فقال : أين الصبي ؟ فجاؤوا به . فقال دعوني حتى أصلي ، فصلى ، فلما انصرف أتى الصبي ، فطعن في بطنه وقال : يا غلام من أبوك ؟ فقال : فلان الراعي . فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به . وقالوا : نبني صومعتك من ذهب . قال : لا . أعيدوها من لبن كما كانت ففعلوا .

وبينا صبي يرضع من أمه مر رجل على دابة فارهة وشارة حسنة ، فقالت المرأة : اللهم اجعل ابني مثل هذا . فترك الثدي وأقبل ينظر إليه وقال : اللهم لا تجعلني مثله . ثم أقبل على ثديه وجعل يرتضع . (قال : فكأنني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه يمصها) .

ومروا بجارية يضربونها ويقولون : زويت . . سرقت . . وهي تقول :

والختام رائع لفصول القصة ، يشير إلى أن النصر كما يكون بالتغلب الحسي يكون بالقهر الأدبي أو المعنوي ، لأن الحياة الدنيا عرض زائل ، والحياة الحققة هي حياة الخالدين . . وآخر نُطقٍ الصغير جملةً إنشائية معللة هي النتيجة المكتسبة من القصة : أمرٌ بالصبر في طريق الحق وإن يكن الابتلاء احتراق الأجسام في جحيم الظالمين .

والحوار في القصة قصير دال ليس فيه اضطراب ولا حشو ، والتنقل السريع في تسلسل الأحداث ، وامتلاء المسرح بالنشاط والحركة والمشاهد يكاد يحيلها إلى تمثيلية رائعة .

وأسلوب القصة واضح قوي دقيق الفصل والوصل بشكل محس ، تتخلله عبارات الإنشاء المصورة للعواطف والانفعالات المختلفة عند اللزوم يتدرج من الأسباب إلى النتائج ، ويساعد على انتقال المشاهد دون نبوة أو فجوة ، ويستعمل الدليل وقت الحاجة إلى الدليل ، والحوار عند الحاجة إلى الحوار .

وعلى الإجمال يمكن أن نظمئن إلى امتلاك القصة أسر السامع والقارئ اليوم مهما كانت ثقافته الغربية أو الشرقية في دراسة القصة . وهذا دليل نجاحها البالغ .

بدأت بأحدهما ليظل الخيال مشدوداً طوال القصة إلى الثاني منها ، فيعيش كل الوقت مع الإعجاب بالراهن ، والاشتياق إلى المنتظر .

أما الفصل الأول فيمثل جريج العابد في تصويرٍ ساذج لكنه محققٌ للجانب المراد إبرازُه من صورته ، وتحيلنا المقدمة إلى عقدة تصوّر تنازع الواجبين قلب جريج : واجب التفرغ لحق الله من كل حق ، وواجب البر بالأم المناذية . ويكون الحل عند البطل إكبار الأول لجلاله ، ويتكرر المشهد ويتكرر الحل - ثلاث مرات في ثلاثة أيام - ولكن الحل تنشأ منه عقدة الأم فتدعو عليه ، ويقع جريج في محنة الدعوة المستجابة ، محنة ينبت فيها الشر من الخير ، ثم يكون المآل إتيان الخير البالغ من الشر ، يؤلب ثناء الناس عليه تلك البغيّ تهمة ، فتنشأ من اتهامها عقدة هي أكبر مما سلف ، تصور الحمق الجماعي الذي تندفع به الجماهير خلف الناعق دون برهان ، انطلقوا يؤذون جريج ويهدمون معبده ، ووسط هذا الضجيج الذي يملأ مسرح القصة ، والحركة الهائجة المضطربة ، والموقف العاصف بالمتهم البريء ، يلهم البطل الحل فما الحل ؟

إنه امتداد ثقة العابد في المعبود . . صلاة ودعاء رجاء انتصار الفضيلة وصون العرض وإجلال الهدي والصلاح .

ثم توجه إلى الحجة الدامغة من استفسار وليد في المهدي ينطق بالبراءة ويفصل في الجريمة .

أي عقل يسكن رؤس الجماهير؟ عادوا إليه يقدسونه ، يودون أن يسمح ببناء معبده من الذهب . . وما لجريج والذهب الفاتن . . وأين كان العقل حين هدموا مسجده . ؟ لا . فليعيدوا صومعته كما كانت من اللبن .

وتبدأ القصة الثانية بعد الاشتياق إليها ، وانتظار العبرة العجيبة فيها . . إنها تصور بطلا نكرة يولد لأول لفظ في السياق كجريج ، ولكن سرعان ما نفاجأ منها بالخارقة تقترن بعقدة رضيع ينطق بالمفارقة العجيبة لدعاء أمه . يترك الثدي ليلاحق بدعائه ما بدر منها خوف الإجابة .

حسبي الله ونعم الوكيل . فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابني مثلها ، فترك الرضاع ونظر إليها ، وقال : اللهم اجعلني مثلها . فهناك تراجعاً الحديث . فقال : مر رجل حسن الهيئة فقلت : اللهم اجعل ابني مثله ، فقلت : اللهم لا تجعلني مثله ، ومروا بهذه الأمة يضربونها ويقولون : زنيت ، سرقت . فقلت : اللهم لا تجعل ابني مثلها ، فقلت : اللهم اجعلني مثلها . فقال : إن ذلك الرجل كان جباراً فقلت : اللهم لا تجعلني مثله ، وإن هذه يقولون لها : زنيت سرقت ولم تزن ولم تسرق فقلت : اللهم اجعلني مثلها»^(١) .

هدف القصة ومعالمها

قصة تمثل البراءات الإلهية في الاتهامات البشرية ، ما نزال معها في تصوير الصراع بين الحق والباطل ، والخير والشر ، وهي تعطينا جوانب من الحكمة مع جوانب من طباع البشرية ، فتشير - عند الاتهام الباطل والاندفاع الأعمى وراء الكواذب - بضرورة التريث في الحكم ، والنظر في الشاهد ، وترشد إلى أن الحق له مَوْلىٌ يرعاه إذا اجتمع الناس على ضده ، فتحدثت من أجله الخوارق تشبهاً للمؤمنين ، وتقريراً للعقائد ، كما تدل بدايتها على منزلة البر بالأباء ودعائهم المستجاب في الأبناء ، ووجوب اتقاء غضبهم عليهم .

قستان في قصة ، يجمعها الموضوع والفكرة ، والمقدمة شائقة لأنها حديث عن خوارق قصيرة لا تتجاوز جملة واحدة : « لم يتكلم في المهدي إلا ثلاثة » وهذا من براعة الافتتاح ، وقد طوت قصة وضعت لها عنواناً على سبيل الإشارة ، وإحالة للسامع إلى معهود في القرآن ، هي قصة عيسى عليه السلام ، أما الآخران فقد

(١) أخرجه الشيخان ، وهذا لفظ مسلم والنقل من تيسير الوصول ٧٥ / ٢ .

المومسات : جمع مومسة وهي الفاجرة والياميس مثله .

البغي : الزانية .

الشارة الحسنة : جمال الظاهر في الهيئة والملبس والمركب . .

الجبار : العاني المتكبر القاهر للناس .

وتتبعها الرادفة في مشهد أثري بالصور ، يمجج بالحركة ، ويربط آخر الحديث بأوله .

اتهم باطل بالزنا والسرقة لجارية . . تعذيب بلا دليل قائم . . وصوت شك إلى الله معتصم به .

وأمر تعود فتدعو للرضيع . . فيترك الرضيع الثدي ويلاحق دعاءها بدعائه المناقض ، تصعيد للعقدة وإثارة للعجب .

أُنِسَتْ الأُمُّ إلى نطقه الخارق فأرادت الحل . . فتراجعا الحديث ، وأخذ الرضيع يصور الحقائق ويكشف الأسباب ، وكأنه الخضر عليه السلام مع نبي الله موسى صلوات الله عليه .

عاطفة الأمومة ورجاء الأمل السعيد للولد ، الأغرار بالظواهر دون تأمل للحقائق . . . التهور في المؤاخذة دون الثبوت بالدليل .

طلب النزاهة عن صفات الجبارين ، طلب التشبيه بالبرءاء الصالحين . . قدرة الله على براءة المظلومين .

هذه جوانب أدلت بها القصة .

ورسم الشخصيات كان بارعا تصحبه الحركات والأفعال في الأداء ، وانظر إلى قول أبي هريرة يحكي فعل النبي وهو يصور لهم رضاع الطفل ليقرر الخارقة : « فكأنني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه باصبعه السبابة في فيه يمصها » .

فصورة الجبار تظهر في شارته الحسنه على حمارة الفاره .

وصورة التهمة المسكينة والجمهور الأحمق المندفع تظهر من جهتها في ضعفها عن المقاومة ، واحتسابها ما تجد عند الله المطلع على سرها ، ومن جهتهم في عذابين شرسين من ضرب وتسجيل كاذب للاتهم .

ورسم الأم في منظر المتمني لطفل يرضع الثدي أن يكون في أحسن شارة وأعظم أبهة ، وأن يسلم من الأذى ومن الوقوع في الرذيلة ، ثم في سحنة الذاهل للمفاجأة والمستغرب للمخالفة .

ورسم الأبن في مشهد المسرع بترك الثدي ، والمستدرك على دعاء الأم ، ثم في صورة الشارح المعلم والكاشف لسر الغرائب .

وهكذا تتداخل الصور وتلتحم المشاهد ، تعمل في قلب السامع وخياله ما يعمل الربيع في غصن الزهر من تنضير وتفويف وتلوين ونشر .

وهكذا تندمج قصته في ظلال أخرى ، تتصل بها في الغاية وتشبهها في السبب ، ولا تزيد القصة المتشابكة الهادفة المتضمنة كل هذا عن صفحة أو تكاد ، مع سلامة النسق ووضوح العبارة وما تضمنت من حوار . . . يلقها ثم يترك للسامع أن يسبح ما شاء ، يبني ويهدم من خلال نفسه ، لينهضها رفيعه القيمة ، سليمة المبدأ ، خارجة جهدها من ربة التقليد والرعونة .

قصة الكفل

النص

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « كان فيمن كان قبلكم رجل يسمى الكفل ، وكان لا ينزع عن شيء ، فأتى امرأة علم بها حاجة فأعطتها ستين دينارا ، فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت ! فقال : ما يبكيك ؟ فقالت : لأن هذا عمَلٌ ما عملته قط ! وما حملني عليه إلا الحاجة ! فقال : أتفعلين أنت هذا من مخافة الله تعالى ؟ فأنا أحرى بذلك . فذهبي ولك ما أعطيتك ! والله لا أعصيه بعدها أبدا . فمات من ليلته . ! فأصبح مكتوبا على بابه : إن الله تعالى قد غَفَرَ للكفل . . ! فعجب الناس من ذلك حتى أوحى الله إلى نبي زمانهم بشأنه (١) . »

التعليق على القصة

هي قصة دَرَسٍ في التوبة . . في سبعة سطور نقرأها . . سمها ما شئت : قصة . . خبرا . . أقصوصة . . إلا أنها تجمع معالم القصة الهادفة وسماتها . . وتدور بين الحكاية والحوار ، وتبني على بطلين فردين ، هما على النقيض : من التهور في الجرأة على الذنب . . ، وشدة التصون من الوقوع في الجريمة . !

الكفل يمثل الأول (كان لا ينزع عن شيء) والمرأة تمثل الثاني : ترتعد وتبكي لأنها ما فعلت فاحشة قط . . أخرجها الفقر لقبول ماله . . مقدمة أسلمت إلى عقدة أي عقدة . !

(١) أخرجه الترمذي والنقل من تيسير الوصول : ٧٧ / ٢ .

قصة الأقرع والأبرص والأعمى

النص

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قدزني الناس ، فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطني لوناً حسناً وجلداً حسناً ، فقال : أي المال أحب إليك ؟ قال الإبل . فأعطاه ناقة عشرةا فقال : بارك الله لك فيها .

ثم أتى الأقرع ، فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عني هذا الذي قدزني الناس ! فمسحه فذهب عنه ، وأعطني شعراً حسناً . قال : فأني المال أحب إليك ؟ قال البقر ، فأعطني بقرة حاملاً وقال : بارك الله لك فيها .

ثم أتى الأعمى ، فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله عليّ بصري فأبصر به الناس ! فمسحه فرد الله عليه بصره . قال : فأني المال أحب إليك ؟ قال : الغنم . فأعطني شاة والدا . فأتتج هذان ، وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل . . ولهذا واد من البقر . . ولهذا واد من الغنم . . ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين . ! قد انقطعت بي الجبال في سفري . فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك . . أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بعبيراً أتبلغ به في سفري . ؟ فقال له : الحقوق كثيرة . فقال له : كما أعرفك . ألم تكن أبرص يقذرک الناس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنما

الحاجة الملحة أسلمتها لقبول الدنانير . . لكن ماذا وراء الدنانير . . ؟ خطوة . . : ولكن كيف نخطو الثانية . . ؟ صراع بين الخير والشر . . بين الطهر والخطيئة . . إما أن أحيى ، وإما أن أموت . ! ما الحل . . ؟ ارتعاد تلقائي وبكاء مفاجيء صدوق . !

ويبدأ التعقيد عند الكفل - حيرة . ! دهشة . ! ويسأل فيجيء الحل . . ولكن لا يتلوه في نفسه الصراع . . إنما يتلوه ثورة حزم . وغضبة عزم . . تتلوه ثورة متعظ . . وإقلاع عاص . . وتلمذة جبار متعسف في درس خشية وخشوع . ورعدة ودموع . ! درس يثمر في ثوان أقدس الثمرات « والله لا أعصيه بعدها أبدا . ! » .

أول صدقة للكفل هي آخر صدقة للكفل . . ستون ديناراً . وآخر وثبة للجريمة هي أول وثبة للجنة . . سجلت على بابه . . يا عجباً . ! بم أدرك الكفل هذه المغفرة . ؟ يا عجباً . . أما كان لا يقلع عن شيء . !

عقدة في نفوس الجماهير . . ينطق آخر سطور القصة بحلها . . نبههم يخبرهم عن الله خاتمة الكفل . . ليعرفوا في دينهم ما عرفه المسلمون من كتابهم : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

إن صوت الحق في قلب المؤمن أعلى من كل صوت . . وإن حاجة الأحرار لا تقنعهم بالسقوط في الأوزار ، ومن حفظ على الله دينه كان الله في النائبات معينه ، ومن عزم وصمم على الاستقامة هياً الله له طريق السلامة . !

هكذا هكذا تكلمت القصة . !

ورثت هذا المال كبراً عن كابر . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت فيه . وأتى الأقرع في صورته ، فقال له مثل ذلك ، ورد عليه مثل ما رد الأول . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت فيه . ثم أتى الأعمى في صورته وهيئته ، فقال له : رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك - شاة أتبلغ بها في سفري ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله على بصري ، وفقيراً فقد أغناني ، فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم لشيء أخذته الله ، فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتكم ، فقد رُضِيَ عنك وسُخِطَ على صاحبيك^(١) .

التعليق

إنها قصة القدر الإلهي السابق ، وقصة النفس البشرية القلقة ، الحائرة بين الشكر والجحود ، المقدمة تبين الهدف وهو ابتلاء الله عباده ، يولد فيها أبطالها الثلاثة لأول النطق ، توجز في أقل من السطر ، يتعادل فيها الإيجاز مع الإطناب ، في إبهام العدد ، والإيضاح بصفات المعداد ، والتشويق بالجملة الجامعة إلى ما يفصلها من أنواع الابتلاء ، إلى غير ذلك مما يعين على براءة المطلع .

والعرض يتردد بين الحكاية والحوار ، أما الحوار فقد أتى موجزاً دالاً مصوراً يمثل العقدة ، وأما الحكاية فكانت تصويراً للتحوّل الخارق السريع ، الذي يمثل المفاجأة في نوع من الحل المؤقت .

والمشاهد الثلاثة للأبطال في الجزء الأول من القصة تتماثل في إحساس كل بطل نقصه البشري الظاهر ، وتلهفه على البرء منه لما في نفسه من عقدة يهوّها خياله ، هي اعتقاده أن الناس يقذرونه ، وذلك أشد ما يمض النفس ويعكر الصفو ، ويهيج الحقد والحسد على الأبرياء ، ويحرك الخاطر لاتهم القضاء . فإذا انضم إلى ذلك الفقر كان الغاية في زيادة العقدة .

ونوع الامتحان بينهم يتماثل في الانتفاضة التي يعقبها الكمال الجسمي والغني المحبوب ، منحة إلهية لا يكافئها ثمن مهما جل .

والمشهد التالي يصور الوديان الثلاثة تعج بالأموال من إبل ترعى ، وبقر يخور ، وغنم يملأ بثغائه سماء الوادي ، وتمام النعم هو بدء التجارب ، ولذلك يشعر القارىء باللهفة إلى ما يعقب من نوع البلاء ، وتمثل له هذه الانتفاضة من العاهة والفقر باتساع الثروة وطول الأمد تعقيداً صاعداً ، هادئاً ، سعيداً تزيده نظراً إلى ما أوحى به المقدمة مما لم يدركه بعد .

أما المشاهد التالية فهي تعكس الصورة الماضية للأبطال الثلاثة أمام أعينهم يعرضها رجل مسكين ، كما كانوا ، ويذكره ما كان يألم له بالأمس من مرض وبؤس ، ليكون ذلك تسجيلاً عليه ، وتنبيهاً له إلى التحوّل الخارق الذي انقلب به معافي سعيداً ، لعله يعرف فضل الله ويشكر نعمته فيرثي لخلقته .

وهنا تتغير الفطر ، ولا تتماثل النتائج ، لعدم اشتراك النفوس في استعدادها لمعاني الخير من الصدق والشكر والوفاء .

بل وهنا يظهر السر الخفي للحكمة العلية « فمَنهم شقي وسعيد » ولا تخلو المشاهد من الحوار الحاد المصور للجحد البالغ من الشقي المحروم ، والصدق البالغ من السعيد الموفق ، وقد كان الجزاء وفاقاً بالمفاجأة المذهلة ترد الأبرص والأقرع إلى ما كانا عليه ، حلاً لعقدة الكذب والجحود ، وتبقي المبصر على ما وهب من نعمة البصر والغنى الواسع ، جزاء لشكره وتدقق قلبه بالصدق والوفاء والبر وغيرها من صفات تدوم بها النعم .

(١) أخرجه الشيخان والنقل من تيسير الوصول : ٧٨ / ٢ .

الناقة العشاء : الحامل . أو التي مر على حملها عشرة أشهر .

الشاة الوالد : التي عرف أنها كثيرة الولد .

فأنتج هذان : صاحباً الأبل والبقر (ولد هذا) صاحب الشاة .

انقطعت بي الحبال : الأسباب الموصلة إلى الغاية .

لا بلاغ : ليس لي ما يبلغني غاييتي .

كابرا عن كابر : جدا عن جد .

لا أجهدك : لا أشق عليك بكلمة أمن بها عليك ، أو أحول بها بينك وما تأخذ .

قصة المقرض ألف دينار

النص

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « ذكر رسول الله ﷺ رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : ائني بالشهداء أشهدهم . قال : كفى بالله شهيدا . قال : فائتني بالكفيل . قال : كفى بالله كفيلا . قال صدقت . فدفعها إليه إلى أجل مسمى . فخرج في البحر فقبض حاجته ، ثم التمس مركبا يقدم عليه في الأجل الذي أجله فلم يجد ، فاتخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زجج موضعها ثم أتى بها إلى البحر . ثم قال : اللهم إنك تعلم إني تسلفت من فلان ألف دينار فسألني شهيدا فقلت : كفى بالله شهيدا ، فرضي بك شهيدا ، وسألني كفيلا فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضي بك كفيلا ، وأني جهدت أن أجد مركبا فلم أجد وإني استودعتكها . فرمي بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطبا . فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بألف دينار . وقال : ما زلت جاهدا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذي أتيت فيه ، قال : هل كنت بعثت إلي بشيء ؟ قال : أخبرك أي لم أجد مركبا قبل الذي جئت فيه . قال : فإن الله تعالى قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة ، فانصرف بالألف دينار راشدا » (١) .

(١) أخرجه البخاري والنقل من تيسير الوصول : ٢ / ٨٠ .
زجج موضعها : مكن إغلاقه حفظا لما أودعه .

وتترك القصة في أنفسنا خيالا ضافيا نسبح فيه خائفين ، نتقلب على الضراعة نسأل الله العافية من البلاء ، والثبات عند الإبتلاء ، وشكر النعمة بصادق الوفاء .

وأبطال القصة

١ - الأبرص والأقرع والأعمى : يمثلون الشعور البشري بالنقص ، والألم الوجداني للنزلة ، واللهفة المكبوتة للنجاة ، ثم يمثل الأبرص والأقرع شعور الجحد والنكران والغرور ، ويمثل الأعمى شعور الصدق والشكران والرحمة - واختيار الأبرص والأقرع لتمثيل هذا الدور أوقع ، لأنها أولى بالصدق والشكر والعظة ، لخطورة المرض ونفرة النفس عنه ، فالجحد منها أشد بلاغا وأخطر أثرا ، وليس كذلك الأعمى فإن عاهته ليست منفرة ، ومرضه ليس متقدرا ، فشدة إحساسه بالنعمة المفاجئة ضاعفت استحقاقه لدوامها ومزيدها .

ثم وقوع الجحد من اثنين هما على الوجه الذي سلف ، ووقوع الشكر من واحد كان أقل منها خطراً - يسائر الفطرة التي عبر عنها قول الحق سبحانه : ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ وقوله : ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾ .

٢ - المَلَكُ ويظهر في مظهرين ، كما ظهر الأبطال الآخرون في مظهرين : أولهما حال السؤال والعرض قبل التحول المفاجيء في القسم الأول من القصة ، وثانيهما حال الظهور أمام كل منهم بصورة ما كان عليه من حاجة وفقير ، وفي حوارهما بما يسجل تلك التجربة .

وهو بذلك يمثل الصورة الحسية للجانب الإلهي في القصة ، نيظت بظهوره ومحاورته هذه الغايات منها ، ودفعت السامع أو القارئ إلى انتظار المفاجآت مع الإشفاق الشديد على أبطالها الآخرين ، والترقب للمفارقة التي تمليها المقدمة : من الذي سيربح المعركة - يا ترى - ومن المخفق في حلبة هذا الرهان ؟ .

التعليق

هي قصة الثقة في الله والكفاية به .

أبطالها : مقترض ، ومقرض ، وشهيد كفيل . !

المقترض يمثل المؤمن المضطر للاستعانة مع التستر حفظاً للكرامة . . والمقرض يمثل المؤمن المحتاط يجب المواصاة مع حفظ الحق حذراً من اللي والنكول .

أما الكفيل والشهيد فهو الضامن الذي لا ريب في وفائه . . الله الملك الحق . والمقدمة هي العقدة بدأت بها القصة ، ولذلك تبعها العرض يصعد العقدة تصعيداً رقيقاً ، حتى بدا الحل وتحولت العقدة به من جهة المقترض الى جهة المقرض . . قرض بلا عقد . . بلا شهيد ولا كفيل حسي مشاهد . . ألا يدخل من هذه الفرجة عدو البشر ليزلزل العقيدة ؟

وتدرج الزمن في المضي ، وبدأت تلوح العقدة في جانب المقترض . . يريد الوفاء بالعهد في زمن الوعد . . لا سفينة . . ولا وسيلة . . قلق وحيرة . ولكن لا بأس من الحل . . ألم يكن أشهد الله وكفله فرضي صاحبه شهادة الله وكفالاته ؟ لم لا يودع المال بأعين الشهيد والكفيل . .

كان هذا هو الحل . صنعه واثقا وإن بدا في ظاهره ضرباً من المجازفة .

ماذا صنع الشاهد والكفيل ؟ .

جمع بين المال والمقرض بسر من الإرادة محكم . . وإذا كان في طاقة البشر أن يبلغوا الرسائل ، ألا يجب الإيمان بإبلاغها من الخالق الذي لا تدركه سنة ولا نوم ؟ .

أخذ المرض الخشبة حطبا ، لا مالاً ولا وفاءً ، كان من الجائز أن تترك الى حين ، أو تعار أو تحرق ، ولكن الشاهد والكفيل ألهمه أن تُنشر ، ليصل إلى

الوديعة ، ولتأكد بقراءة الصحيفة ، فيؤمن بقلبه كما آمن بيده وعينه أن الشاهد والكفيل الذي ارتضاه ما غشه ولا أضاعه ، وأن صاحبه ما كذبه وما خدعه .

نيسرت سبيل الغائب فعاد ، لم يشهد نهاية الفصل الذي بدأه ، ولم يجرو أن يكشف به الدائن ، لثلا يظن به الظنون ، أو ينسبه إلى الجنون ، فأخذ قَدَرَ الدين وذهب إليه يخفي سره ، وألح في إخفائه ، مع تعريض المقترض بما يطمئنه . . إباء على النفس ، وضنا بالكرامة واحتراما للعهود . .

ويقابل الإيمان الواثق إيماناً مثله ، لا يستغل الفرصة لكسب يبقى إثمه ويعظم عقابه ، فيتسع في البيان ويتلقى الجواب ، ويصرح بالوفاء : « إن الله تعالى قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة » .

ويظل عقلي وعقلك مشغولا بهذه العبارة المؤمنة الكريمة « إن الله تعالى قد أدى عنك » الله الذي كان ثالث ثلاثة في هذا القرض . . لم يقل : وصل المال والصحيفة وخلوت من الدين ، أو : برئت من الدين فقد أخذت الخشبة .

عَرَضُ سريع عن طريق الحوار البالغ الأثر ، حَيَّ كَلَّ الحياة بنواض الروح العالية ، يحفها الرضا بالله والثقة في كفايته ، ويضيء جوانبها نظراً الحق جل جلاله إلى مَنْ رَضِيَهُ . . عبدي كفيئتُك . . وأيدتك . . وحفظت ما استرعيتني !

خلاصة عاجلة في القصص النبوي ومميزاته

القصص النبوي قصص قصير هادف ، ينبع من الواقع التاريخي ، ويمثل الصراع بين قوى الخير والشر في النفوس ، يزكي جانب الخير ويحث عليه عن طريق غير مباشر ، وهو بيان جزاء البطل .

يعتمد على المقدمات القصيرة الخاطفة أحيانا ، وقد تبدو العقدة في المقدمة ويتخذ من تصعيد العقد وتتابع المفاجآت وظهور الخوارق إلهاباً وتهيبجا للسامع والقارىء ، يجعله متدفق النشاط والانفعال إلى النهاية .

الخاتمة

أما بعد ، فلعلك أيها الدارس قد شهدت في هذه التأملات ما يشوقك إلى استكمالها ، وكم ترك لك المؤلف من فجوات ، وكم أوجز من عبارات ، في تناولك لها من جديد خير تسديه إلى نفسك وإلى إخوانك المؤمنين ، فأخلص لهذا العمل المبارك نيتك ، وسدد عزيمتك ، يفتح لك وبك الله فتحا جديدا ، ويهدك إلى الحق صراطا مستقيما ، وليس أعود على المؤمن وإخوانه بالخير من جهاد علمي في تكشف حقيقة دينية ، يجليها نص قرآني أو حديث نبوي ، وقد ترك الأسلاف - جزاهم الله عنا وعن الإسلام أحسن الجزاء - ذخائر ورثناها ، ما أجدرها بالنظر ، وأحقها بالانتفاع ، وإن أفكارنا حين تتصل بأفكارهم تشرق فيها أنوارٌ تكشف لنا إمكان الزيادة على ما تركوا ، بشرح أو تعليق أو اقتناص شاردة ، أو إبداء رأي ، في ضياعه دون قيد إثم كبير .

أسأل الله لي ولك السداد والمعونة ، وأن يتقبل عملي وعملك بالرضا عن صواب ما أصبنا ، وبالفصح عن خطأ ما أخطأنا ، وهو - سبحانه معترزا بكماله في جلاله - الولي الحميد ...

عز الدين علي السيد

كما نرى الحوار والحكاية يشتركان في تكوين المشاهد تكوينا رائعا وإن كل قصة على قصرها يمكن أن تحول إلى فصل تمثيلي طريف ، له خطره في خلق الوعي الديني ، وتقويم القيم السلوكية في المجتمع

يلاحظ أن القصص عن بني إسرائيل خال من الشطحات المستنكرة أو جموح الخيال ، شأنه شأن قصص القرآن في إحكام المشاهد التي يتحقق بها الهدف ، فالقصة النبوية امتداد لمضمون قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ ما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴿ إلهام من الحق سبحانه بما يقرر به العقيدة ويقوم به السلوك .

وبعض القصص يتناول المستقبل - وإن لم تمثل له - كما في قصص الفتن وآخر منها يتناول تجربة ذاتية كجزء قصة حياة ، مثل حديثه عليه السلام عن نفسه ، أو يتناول ألوانا غيبية شوهدت مشاهدة ذاتية كحديث الإسراء .

والقصص المحمدي مسرح لأنواع النفوس وألوان التجارب التي تمر بالرجال والتي تمر بالنساء ، كتصوير المجتمع النسوي في قصة النسوة اللاتي جالسن أم زرع ، وعبرة كل منهن تصور ضربا من ضروب المعاشرة ، ولونا من ألوان الحياة النفسية بين الأزواج .

والأحكام التي نستخلصها من قصصه عليه السلام ، والأهداف التي تدور حولها ، هي ككل بيانه شريعة يجب الانتفاع بها ، ونماذج ينبغي أن يكون خيرها في جانب القدوة والإمامة وأن يكون شرها في جانب الحذر والإشفاق .

والأسلوب فيها جميعا هو أسلوب القصة الذي يجلو فيه الإطناب بتكرار بعض العبارات ، ولكنه مع ذلك كما شاهدنا موجز محبوك ، جيد الفصل والوصل ، متماسك النظم دقيق الإشارة ، ولا يغنيك وصفه مهما دق عن التمرس به ، والاستنباط منه ، والاستمتاع الطويل بالجلوس إليه ، والخلوة معه ، والله سبحانه ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ .

الفهرس

١ - فهرس الموضوعات

٢ - فهرس النصوص النبوية الواردة في الكتاب

بحسب ترتيب الموضوعات .

٣ - الكتب التي اشتركت في البحث .

هذا والله الموفق وهو العفو عن التقصير

٦٣	منهجنا على الإجمال
٦٥	الرسول المعلم والطريقة التقريرية
٦٥	المظاهر العامة للتقرير : الجانب اللفظي - جانب المعنى والغرض - وسائل التشويق والايقاظ - أمثلة من الحديث الشريف .
٧١	مقياس الغرابة (استدرارك لازم) أمثلة من أسئلة الصحابة -
٧٥	الغرابة عند البلاغيين
٧٧	وسائل التقرير الفعلية خصائص التقرير اللفظية التأكيد : التأكيد اللفظي بالتكرير في مقام التهيب للإنذار والتهديد مع أمثله من الحديث الشريف
٧٩	التكرار في مقام الترغيب للإغراء والإكرام وأمثله
٨٩	تكرار التبرئة وأمثله
٩٧	التأكيد اللفظي بالأداة :
٩٨	أن مفتوحة الهمزة ومكسورتها مضعفة النون - وورودها في الحديث -
٩٩	التأكيد بالقسم وأضربه - أمثله من البيان الكريم
١٠٤	التأكيد بالنون - أمثله .
١٠٨	لام التأكيد . أمثلتها .
١٠٩	اجتماع المؤكدات - أن واللام وأن والقسم
١١٣	القسم والنون
١١٥	التوكيد بالحرف الزائد
١١٧	(ألا) مفتوحة الهمزة مخففة اللام
١١٩	(أما) مفتوحة الهمزة مخففة الميم - أمثلة لنوعها
١٢٤	التأكيد بالقصر - النفي والاستثناء - إنما - القصر بحرف العطف -
١٢٩	التقديم

٥	المقدمة
٥	مقدمات لا بد منها :
	البيان النبوي الشريف - السنة - السنة والكتاب - ما تضمنه القرآن - تعبيره عن ذلك - الحاجة إلى السنة - السنة والبيان - أي الدليلين يقدم : الكتاب أم السنة ؟ - اتحاد السنة بالقرآن إجمالاً - مرادفات السنة وأنواعها - مصادر تلقي السنة - بعض فروق بين الكتاب والحديث - بين القرآن والحديث القدسي - بين القرآن والحديث النبوي - بين الحديث القدسي والحديث النبوي - وسائل حفظ الحديث في حياة النبي صلى الله عليه وسلم . وبعد وفاته - درجة الطمأنينة على النصوص النبوية - الجرح والتعديل .
٤٢-٩	خطوات كبيرة سبقت :
٤٥	المجازات النبوية للشريف الرضي - منهج الرضي - مثال من كلامه - من هو الرضي ؟ الفائق في غريب الحديث للزمخشري - قيمة الكتاب ومنهجه - أمثلة من حديثه البياني : التعبير الرمزي - التشبيه والتخصيص بالاستعارة - من هو الزمخشري ؟
٥١	كتب الشروح للحديث : عمدة القاري للإمام العيني - قيمة الكتاب ومنهجه - من هو البدر العيني ؟
٥٧	إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي - نسق البلاغة النبوية - من هو الرافعي ؟
٦٠	

التأكيد المعنوي : بالتشبيه والتمثيل - تشبيه الحسي بالحسي في

١٤٣

التشبيه البسيط - تشبيه العقلي بالحسي فيه

١٥٥

تشبيه الهيئات في الترغيب ثم في الترهيب

١٧١

التقرير بالمجاز - نقل القيم النفسية

١٨٥

المثل في البيان النبوي - أمثلة لنوعيه

١٩٥

أسلوب المجاز المرسل وأمثله باختلاف علاقاته

٢١١

الكناية

٢٢٤

المجاز العقلي

٢٢٧

التقرير بالفصل والوصل

٢٣٩

المطابقة والمقابلة من أساليب التقرير

٢٤٣

تقرير الحجة بالمنطق الفطري

٢٥٣

تصعيد المعاني

٢٦١

الثروة النفسية في البيان الكريم : صورة النبي في الخطابة -

٢٦٩

صورته عند الوحي - في مواقف أخرى من غضبه ورضاه .

٢٧٥

علاج النفس

الوزن النفسي والوزن الصوتي : الاقتباس من الحديث

٢٧٨

صورة من الوزن البديعي : السجع وتوافق الفواصل واندماج

٢٩١

ألوان أخرى معه

٢٩٥

تصوير المعنى بجرس اللفظ

ضرب آخر للتوازن الصوتي

٣٠١

ألوان من البديع : أولا عند ابن أبي الإصبع - أمثله من البيان

٣١٣

الكريم لهذه الألوان

٣١٤

ثانيا - عند ابن حجة الحموي (إحالة على ما سبق) -

ثالثا - عند العلوي على وجه الإجمال

الحديث وكتب مجاز القرآن وإعجازه : الإشارة إلى المجاز

في بعض أنواع الإعجاز لسلطان العلماء العز بن عبد السلام

٣١٧

أمثله من الحديث النبوي للأنواع المجازية المختلفة والكنيات .

٣٣٢

ابن عبد السلام (تعريف قصير به)

أمثلة أخرى : تأويل مشكل القرآن وتأويل مشكل الحديث

٣٣٣

لابن قتيبة - إعجاز القرآن للباقلاني .

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر : وضع المضمهر موضع

٣٣٧

المظهر - وضع المظهر موضع المضمهر - الالتفات - أسلوب الحكيم .

استعارة الأفعال باعتبار الزمن : إطلاق زمن الماضي ليشمل

الحاضر والمستقبل - التعبير عن المستقبل بالمشتق - الطلب

٣٥١

بصيغة الماضي - استعارة المضارع خيرا وطلبا .

٣٦١

الاستفهام في البيان الكريم : التشويق إلى الخبر - موضع

٣٧١

الحكم من الاستفهام - اللطف في الإنكار - التقرير ترغيباً أو ترهيباً أو ما

سواهما - الإستبعاد - التلطف والايناس .

المقدم في الحديث : بدء الحديث باللفظ الدال على العجب - تقديم

الخبر العجيب عند السامع - تقديم الوعيد الشديد بالعقاب أو الوعد

الأكيد بالثواب - تقديم لافتة قصيرة تعجل بالحكم مثل (لا يحل

- رفع القلم - رحمه الله .) تقديم لفظ غريب المفهوم عند المخاطب -

قد يكون المقدم لفظ الذم أو المدح المفاجيء - تقديم الألفاظ الدالة على

العدد على وجه التشبيه أو دونه - كلمة في مفهوم العدد - تقديم صيغة

التفضيل - تقديم صيغة التحذير أو صيغة الإغراء - البدء بتقسيم الجنس

تقسيماً مبهما يدفع إلى طلب البيان - البدء بجمل موجزة يشرحها أو

يلزمها ما وراءها

٣٨٥ - ٤١١

فهرس النصوص النبوية

وترتيبه بحسب الموضوعات السابقة

صفحة	مسلسل
٩	مقدمات لا بد منها :
	١ عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي
	٢ من رغب عن سنتي فليس مني
	٣ من أحيا أرضا ميتة فهي له
١٢	الحاجة الى السنة
١٢	٤ أوتيت القرآن ومثله معه
١٣	٥ إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا اخذه لم يفلته
	٦ ليس المسكين الذي ترده الأكلة والأكلتان
	٧ العجماء جبار ، والبثر جبار
	٨ فيها سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر
١٤	٩ لا تبيعوا الثمرة حتى يبدو صلاحها
	١٠ لا تشتري ولا تعد في صدقتك
	١١ لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم
	١٢ الثلث والثلث كثير . وأصله عن عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال : مرضت فعادني النبي . . .
١٥	١٣ ما أصاب بفيه من ذي حاجة غير متخذ خبئة فلا شيء عليه
١٦	١٤ لا وصية لوارث
	١٥ هو الطهور ماؤه الحل ميتته
	١٦ أحلت لنا ميتتان : الحيتان والجراد

الصفحة

الموضوع

٤٣٨ - ٤١٣	استعمال الصفات : الوصف بالجملة - الوصف بشبه الجملة - إعطاء الصورة بالصفة - الوصف باللون - وصف المعرفة - المعرف باللام - الوصف بالموصول - الوصف باسم الإشارة - من النعت بمصحوب (أل) وبالموصول - من نعت العلم بمضاف لمصحوب (أل) - من نعت العلم بالكنية - من نعت المضاف إلى العلم . وجازة المنطق النبوي وكلمات للعلماء فيها . رأي الرافي وأمثله المختارة - كلمة للعقاد - موضوع الإيجاز عند المحدثين (بتضعيف الدال) - الشارحون للسنة : عمدة القاري - فتح الباري - نظرة تطبيقية - إيجاز القصر ٤٥٧ - ٤٣٩ ٤٥٩ ٤٦١ ٤٦٧ ٤٧٣ ٤٧٥ ٤٧٩ ٤٨١ ٤٨٣
	القصة في البيان النبوي : قصة أصحاب الأخدود : فكرتها - عرضها - أبطالها - سير القصة والتعليق عليها . قصة المتكلمين في المهد : هدف القصة ومعالمها والحديث عنها . قصة الكفل : التعليق على القصة . قصة الأقرع والأبرص والأعمى : التعليق عليها . قصة المقترض ألف دينار : التعليق عليها . خلاصة عاجلة في القصص النبوي ومميزاته . خاتمة .

٢٦	٣٧	اتق الله فيما تعلم
٢٧		درجة الطمأنينة على النصوص
٣٣	٣٨	إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة
	٣٩	ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيت في مقامي حتى الجنة والنار
٣٤	٤٠	من الوافد أو من القوم ؟ (وفد عبد القيس)
	٤١	يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم
٣٥	٤٢	إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس
	٤٣	فإن دماءكم وأموالكم - قال محمد : وأحسبه قال : وأعراضكم
	٤٤	بني الإسلام على خمس
٣٦	٤٥	لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك
	٤٦	قولوا بقولكم ولا يستجرينكم الشيطان
٣٨	٤٧	من ستر مؤمنا في الدنيا على خزية ستره الله يوم القيامة
	٤٨	يحشر الله العباد - أو الناس - عراة غرلا
	٤٩	من خرج من طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع
٤٠	٥٠	إنما الأعمال بالنيات
٤٥		المجازات النبوية للشريف الرضي
٤٦	٥١	هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها
٤٨	٥٢	هذا جبل يحبنا ونحبه (يعني أحدا)
٥١		الفائق في غريب الحديث للزمخشري
	٥٣	أوتيت جوامع الكلم
	٥٤	أنا أفصح العرب
٥٣	٥٥	لا تسموا العنب الكرم
٥٤	٥٦	المتشيع بما لا يملك كلابس ثوبي زور

١٧	١٧	ألقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر
	١٧	أي الدليلين يسبق : الكتاب أم السنة ؟
	١٨	كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟
	١٩	لعن الله الواشمات
	٢٠	مصادر تلقي السنة
	٢٠	بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل . . .
	٢١	أمرت أن أسجد على سبعة أعظم
	٢٢	إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس
	٢٣	تنام عيني ولا ينام قلبي
	٢٤	أريت ليلة القدر ثم أيقظني أهلي فنسيتها
	٢٥	يا فلان ألا تحسن صلاتك
	٢٦	أريت الآن منذ صليت لكم الصلاة الجنة والنار
	٢٧	إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها
	٢٨	من حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى فقد ضاد الله
	٢٩	أنا أفصح العرب
	٣٠	أوتيت جوامع الكلم
	٣١	الكبرياء ردائي (قدسي)
	٣٢	من أذهبت حبيتيه (قدسي)
	٢٤	وسائل حفظ الحديث
	٣٣	أكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حقا
	٣٤	اكتبوا لأبي شاة
	٣٥	لا تكتبوا عني شيئا غير القرآن
	٣٦	نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه

- ٧٣ هذا الإنسان وهذا أجله محيط به . مشيراً إلى رسم رسمه
٧٤ هذا الإنسان وهذا أجله وهذا الأمل
٧٥ هل تدرون ما مثل هذه وهذه؟
٧٦ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً
٧٧ أي يوم هذا .؟ (حديث حجة الوداع)
٧٩ خصائص التقرير اللفظية
٨١ في مقام الترهيب : للإلذار والتهديد
٧٧ رغم أنفه ! رغم أنفه ! رغم أنفه
٧٩ رغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ ولم يغفر له .
٨٠ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً
٨١ ويحك قطعت عنق صاحبك . قال له ثلاثاً
٨٢ ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة
٨٩ التكرار في مقام الترغيب للإغراء والإكرام
٨٣ جاء رجل فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟
٨٤ الله الله في أصحابي
٨٥ ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات ؟
٨٦ غفر الله لرجل كان قبلكم : سهلاً إذا باع ، سهلاً ...
٨٧ يا أيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً
٩٧ تكرر التبرئة
٨٨ ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع
٩٨ التأكيد اللفظي بالأداة
٩٩ (إن) مفتوحة الهمزة ومكسورتها
٨٩ دعه فإن الحياء من الإيمان

- ٥٧ كتب الشروح للحديث : عمدة القاري للإمام العيني
٥٨ إنما الأعمال بالنيات
٦٠ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي
٦١ أنا أفصح العرب
٥٩ مات حتف أنفه
٦٠ الآن حمي الوطيس
٦١ هدنة على دخن
٦٥ الرسول المعلم والطريقة التقريرية
٦٢ لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار
٦٣ إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث
٦٤ أد الأمانة لمن ائتمنك
٦٥ اشترى رجل ممن كان قبلكم عقاراً من رجل
مقياس الغرابه
٦٦ لا تقولوا : دع دع ، ولا لع لع ولكن قولوا اللهم ارفع وانفع
٧٢ أمثلة من أسئلة الصحابة
٦٧ لا يكن أحدكم إمعة . قيل : وما الإمعة
٦٨ حديث صلح الحديبية ولفظ (جلبان السلاح)
٦٩ تراصوا في الصلاة لا يتخللكم الشيطان كأنها بنات حذف
٧٠ من محمد رسول الله إلى بني نهد بن زيد
السلام على من آمن بالله ورسوله . لكم يا بني نهد
٧٧ وسائل التقرير الفعلية
٧٨ أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا
٧٢ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً

- ١٠٨ والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه
في اليم فلينظر بم يرجع
- ١٠٩ والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة
يهودي ولا نصراني
- ١١٠ والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا
- ١١١ والذي نفسي بيده لو تدمون على ما تكونون عندي وفي
الذكر لصافحتكم الملائكة
- ١١٢ ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه
- ١٠٨ التأكيد بالنون
- ١١٣ لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه
- ١١٤ يا أبا ذر ، إني أراك ضعيفا ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي
- ١٠٩ لام التأكيد
- ١١٥ لصورة أبي طلحة في الجيش خير من فئة
- ١١٦ لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن
- ١١٧ لقلب ابن آدم أشد انقلابا من القدر إذا استجمعت غليانا
- ١١٨ لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض
- ١١٣ اجتماع المؤكدات - إن واللام وإن والقسم
- ١١٩ إن بين يدي الساعة لأياما ينزل الجهل ويرفع العلم ويكثر الهرج
- ١٢٠ هل ترون ما أرى ؟
- ١٢١ إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها
- ١٢٢ إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم
- ١١٥ القسم والنون
- ١٢٣ والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر

- ٩٠ على رسلكما إنها صافية بنت حي
- ٩١ إن أولادكم من أطيب كسبكم
- ٩٢ إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي
- ٩٣ بثس أخو العشييرة
- ٩٤ ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته
- ٩٥ ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي
- ٩٦ إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان عليه أن يدل أمته
- ٩٧ إن أناسا من أمتي يأتون بعدي يود أحدهم
- ٩٨ إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل
- ٩٩ إن رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق . . .
- ١٠٠ من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . .
- ١٠١ أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك . . .
- ١٠٤ التأكيد بالقسم (ألفاظه)
- ١٠٢ والله - وأيم الله - والذي نفسي بيده - ومقلب القلوب - والذي
نفس محمد بيده - والذي نفس أبي القاسم بيده - أقسم - لا
وأستغفر الله - ورب الكعبة - إحلف بالله الذي لا إله إلا
هو ما له عندك شيء - لا والذي نفس أبي القاسم بيده -
لا ومقلب القلوب
- ١٠٣ فوالله لا يمل الله حتى ثملوا
- ١٠٤ فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من
والده وولده
- ١٠٥ وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها
- ١٠٦ والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا
- ١٠٧ والله لا يلقي الله حبيبه في النار

- ١٢٤ ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتل
- ١٢٥ ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحر والحرير
- ١٢٦ والذي نفس محمد بيده إنه لفتح
- التوكيد بالحرف الزائد
- ١٢٧ فجاءه الملك فقال : اقرأ . . .
- ١٢٨ ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته
- ١٢٩ ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر
- ١٣٠ ما من أحد يدعو إلا آتاه الله ما سأل وكف عنه من السوء مثله
- ١٣١ ما من أحد يموت إلا ندم
- ألا
- ١٣٢ ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمي الله محارمه
- ١٣٣ ألا أخبركم بخير الشهداء ؟
- ١٣٤ ألا أخبركم بخيركم من شركم ؟
- ١٣٥ إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر
- ١٣٦ ألا لا يجني جان إلا على نفسه
- ١٣٧ ألا أخبركم بمن يحرم على النار ومن تحرم عليه النار ؟
- ١٣٨ ألا أنبئكم بشراركم ؟ الذي يأكل وحده
- ١٣٩ والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا
- ١٤٠ ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم
- ١٤١ ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟
- أما - بنوعها
- ١٤٢ أما إنك لو قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامات

- ١٤٣ دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء
- ١٤٤ يا معشر النساء : أما لكن في الفضة ما تحلين به
- ١٤٥ أما إنه ليس في النوم تفريط . إنما التفريط على من لم يصل
- ١٤٦ أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام
- ١٤٧ أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه في الصلاة
- ١٤٨ أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله
- ١٤٩ كخ كخ إرم بها . أما علمت أنا لا نأكل الصدقة
- ١٥٠ أما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه
- التأكيد بالقصر
- ١٥١ من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل
- ١٥٢ ما أعطيك من شيء ولا أمنعكموه . إن أنا إلا مأمور
- ١٥٣ لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد
- ١٥٤ لا يجزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه
- ١٥٥ ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله
- ١٥٦ إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق لهم في الآخرة
- ١٥٧ إنما هذه لباس من لا خلاق له
- ١٥٨ إنما أنا بشر . وإنه يأتيني الخصم ولعل بعضهم أن يكون
- ١٥٩ إنما أنا بشر . إذا أمرتكم بشيء من أمور دينكم فخذوا به
- ١٦٠ إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى
- ١٦١ ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس
- ١٦٢ ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان
- ١٦٣ ليس الواصل بالمكافيء ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها
- ١٦٤ استحياوا من الله حق الحياء

١٦٥ إذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر لي إن شئت ولكن

١٦٦ اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السموات والأرض

١٤٣ التأكيد المعنوي

التأكيد بالتشبيه والتمثيل

١٦٧ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل

١٤٤ من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن ، كنَّ له ستراً من

١٤٥ النار

١٦٩ اجعلوا في بيوتكم من صلواتكم ولا تتخذوها قبورا

١٧٩ لا تجعلوا بيوتكم مقابر . إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ

١٤٨ اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة

١٤٩ إن أحدكم مرآة أخيه فإن رأى به أذى فليمطه عنه

١٧٣ المؤمن مرآة أخيه المؤمن يرى فيه حسنة وقبحه

١٧٤ ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم

١٥١ العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله

١٥٣ الإيمان قيد الفتك

١٥٤ الحياء نظام الإيمان

١٥٥ تشبيه الهيئات

١٧٨ أرايتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم

١٥٧ إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيم الماء

١٥٨ أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا - وأشار بالسبابة والوسطى

١٥٩ مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم

١٦١ إنما مثلي ومثلكم كمثلي رجل استوقد ناراً فلما أضاءت

١٦٤ إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الخطب

١٦٨ يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه

التقرير بالمجاز - نقل القيم النفسية

١٨٥ إن أحدا جبل يحبنا ونحبه

١٨٦ هذا جبل يحبنا ونحبه

١٨٧ ما أطيبك من بلد وأحبك إلي ، ولولا أن قومي . . .

١٨٨ تقيء الأرض أفلاذ كبدها مثل الأسطوان من الذهب والفضة

١٨٩ من أحيا أرضاً ميتة فهي له ، وليس لعرق ظالم حق

١٨١ يا كعب بن عجرة ، الصلاة برهان والصوم جنة حصينة

١٨٥ المثل في البيان النبوي

١٩١ إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثلي رجل أتى قومه فقال :

إني رأيت الجيش بعيني

١٩٢ إياكم وخضراء الدمن

١٩٣ إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت

١٩٤ الآن حمي الوطيس

١٩٥ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

١٩٦ كل الصيد في جوف الفرا

١٩٧ لله بالقوارير

١٩٨ المؤمن مرآة المؤمن

١٩٩ اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع

٢٠٠ خير المال عين ساهرة لعين نائمة

٢٠١ ذاك رجل بال في أذنه الشيطان

٢٠٢ الحياء نظام الإيمان

٢٠٣ الناس معادن

٢٠٤ الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة .

٢٠٥ يا خيل الله اركبي

- ٢٠٦ اشتدى أزمة تنفجى
٢٠٧ من كسب مالا من نهاوش أنفقه في نهاير
٢٠٨ المؤمن موه راقع
٢٠٩ حبك الشيء يعمي ويصم ١٩٤
٢١٠ الناس كأسنان المشط وإنما يتفاضلون بالعافية
٢١١ عمالكم كأعمالكم وكما تكونوا يول عليكم
٢١٢ الدال على الخير كفاعله
٢١٣ المتشعب بما لم يعط كلابس ثوبي زور
٢١٤ مثل المؤمن مثل النحلة لا تأكل إلا طيباً ولا تطعم إلا طيباً
٢١٥ نية المرء خير من عمله
٢١٦ الأعمال بخواتمها
٢١٧ خير المال سكة مأبورة ، أو مهرة مأمورة
٢١٨ سبقك بها عكاشة
٢١٩ قولوا بقولكم ولا يستجربنكم الشيطان
٢٢٠ هدنة على دخن وجماعة على اقداء
٢٢١ وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم
٢٢٢ الحرب خدعة
١٩٥ أسلوب المجاز المرسل باختلاف علاقاته
٢٢٣ اليد العليا خير من اليد السفلى
٢٢٤ إن مكة حرمها الله تعالى ولم يحرمها الناس
٢٢٥ ليس من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها
٢٢٦ من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه
٢٢٧ إن من الكبائر أن يشتم الرجل والديه
٢٢٨ ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار

- ٢٢٩ من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له
٢٣٠ من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله تعالى حاجة
٢٣١ لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد
٢٣٢ عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل
٢٣٣ من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه
٢٣٤ إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمن وإذا خلع فليبدأ بالشمال
٢٣٥ ألبسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم
٢٣٦ لا أركب الأرجوان ولا ألبس المعصفر
٢٣٧ الولد للفراش وللعاهر الحجر
٢٣٨ المستبان ما قالوا فعلى الباديء منها حتى يعتدي المظلوم
٢٣٩ لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا
٢٤٠ من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض
فلينظر إلى طلحة
٢٤١ سألت الله تعالى البلاء فسله العافية
٢٤٢ من عاد مريضاً لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع
٢٤٣ لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه
٢٤٤ اللهم لا تقتلنا بغضبك
٢٤٥ لا تركب البحر إلا حاجاً أو معتمراً أو غازياً في سبيل الله
الكناية
٢٤٦ المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة
٢٤٧ يكون في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين
٢٤٨ خياركم أليّنكم مناكب في الصلاة
٢٤٩ ليسأل أحدكم ربه حاجته حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع
٢٥٠ من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة

- ٢٥١ إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه
- ٢٥٢ كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحتى جبهته
- ٢٥٣ إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل
- ٢٥٤ لعلنا أعجلناك !
- ٢٥٥ باسم الله . اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل
- ٢٥٦ إذا مشيت أمتي المطيطاء ، وخدمتها أبناء الملوك
- ٢٥٧ من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه
- ٢٥٨ لقد أخفت في الله ما لم يخف أحد ! وأوذيت في الله
- ٢٥٩ بعثت في نسمة الساعة . إن كادت لتسبقني
- ٢٦٠ إنكم لتبخلون ، وتجنون ، وتجهلون ، وإنكم لمن ريحان الجنة
- ٢٦١ خصاء أمتي الصيام
- المجاز العقلي
- ٢٦٢ خير المال عين ساهرة لعين نائمة
- ٢٦٣ كل هوى شاطن في النار
- ٢٦٤ كيف بكم وبزمان يغربل الناس فيه ويبقى حثالة من الناس
- ٢٦٥ أخاف أن تصف حجم عظامها
- عليكم هديا قاصدا ، فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه
- التقرير بالفصل والوصل
- ٢٦٦ أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك
- ٢٦٧ من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته
- ٢٦٨ ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا وآثر الآخرة
- ٢٦٩ إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون . أظت السماء

- ٢٧٠ إن من أحبكم إلي وأقربكم مني منازل يوم القيامة أحاسنكم
- ٢٧١ لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال
- ٢٧٢ اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله
- المطابقة والمقابلة من أساليب التقرير
- ٢٧٣ اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت
- ٢٧٤ سمع الله لمن حمده . ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض
- ٢٧٥ الحال المرتحل
- ٢٧٦ رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى
- ٢٧٧ إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام
- ٢٧٨ ألا أخبركم بخيركم من شركم ؟
- ٢٧٩ خصلتان من كانتا فيه كتبه الله تعالى شاكراً صابراً
- ٢٨٠ إذا أراد الله بالأمر خيراً جعل له وزير صدق إن نسي ذكره
- تقرير الحججة بالمنطق الفطري
- ٢٨١ إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان
- ٢٨٢ من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله تعالى وهو عليه غضبان
- ٢٨٣ ما من مولود إلا يولد على الفطرة
- ٢٨٤ ألا وإن الغضب جمة في قلب ابن آدم
- ٢٨٥ أما مررت بوادي قومك جذباً ثم مررت به يهتز خضراً ؟
- ٢٨٦ وفي بضع أحدكم صدقة
- ٢٨٧ لا يعدي شيء شيئاً
- ٢٨٨ أتحب لأملك ؟
- تصعيد المعاني

- ٢٨٩ من أحيا سنة من سنتي قد أميتت فقد أحبني
 ٢٩٠ والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا
 ٢٩١ عمران بيت المقدس خراب يثرب
 ٢٩٢ لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتتكفأ
 ٢٩٣ إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما ندعوهم
 ٢٩٤ تعوذوا بالله من جب الحزن
 ٢٩٥ يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أفتاب
 ٢٩٦ إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه
 ٢٩٧ إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار
 ٢٩٨ ما زلت ما هنا ؟
 ٢٩٩ من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل
 الثروة النفسية في البيان الكريم
 ٣٠٠ فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد
 ٣٠١ بعثت أنا والساعة كهاتين
 ٣٠٢ أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك
 ٣٠٣ يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟
 ٣٠٤ إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون
 ٣٠٥ اللهم آتني ما وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة
 ٣٠٦ اللهم إنهم جياع فأشبعهم ! اللهم إنهم حفاة فاحملهم
 ٣٠٧ أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب
 ٣٠٨ دعهن يا عمر ، فإن العين دامعة والقلب مصاب
 ٣٠٩ يا ابن عوف إنها رحمة . . . إن العين تدمع
 ٣١٠ إسمعوا إلى ما يقول سيدكم . إنه لغيور وأنا أغير منه
 ٣١١ لا تتخذوا ظهور دوابكم مناير

٢٥٤

٢٥٥

٢٥٦

٢٥٦

٢٥٧

٢٥٨

٢٦١

٢٦٢

٢٦٣

٢٦٤

٢٦٥

٢٦٦

٢٦٧

٢٦٨

٢٦٩

٢٧٠

٢٧١

٢٧٥ - ٢٧٦

٢٧٦

٢٧٧

- ٣١٢ من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها
 ٣١٣ في كل كبد رطبة أجر
 علاج النفس
 ٣١٤ إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم رب السموات السبع
 ٣١٥ يا أبا أمامة مالي أراك جالسا في المسجد في غير وقت صلاة ؟
 ٣١٦ قولي : اللهم رب السموات السبع
 ٣١٧ إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم مائة مرة
 ٣١٨ من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل
 ٣١٩ سلمي . . فأعني على ذلك بكثرة السجود
 ٣٢٠ المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف
 ٣٢١ لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر
 ٣٢٢ لا يكن أحدكم إمعة
 ٣٢٣ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين
 الوزن النفسي والوزن الصوتي - الاقتباس
 ٣٢٤ إياكم وخضراء الدين
 ٣٢٥ فاظفر بذات الدين تربت يداك
 ٣٢٦ فإن فساد ذات البين هو الحالقة
 ٣٢٧ ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء
 ٣٢٨ من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله تعالى مؤونة الناس
 ٣٢٩ أمسك عليك لسانك
 ٣٣٠ كفى بك إثما أن لا تزال مخاصما
 ٣٣١ ألا أنبئكم بشراركم ؟ الذي يأكل وحده ، ويجلد عبده ،
 ويمنع رفته
 ٣٣٢ لا ننزع الرحمة إلا من شقى - لا يدخل الجنة سيء الملكة

٣٣٣ لا يدخل الجنة خب

٣٣٤ اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة

٣٣٥ لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه

٣٣٦ لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة

٣٣٧ أي الإسلام خير؟ .. تطعم الطعام وتقرأ السلام على من

عرفت ومن لم تعرف

٣٣٨ أنزلوا الناس منازلهم

٣٣٩ أنصراًخاك ظلماً أو مظلوماً

٣٤٠ والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا

٣٤١ مثل الجلوس الصالح وجليس السوء كحامل المسك

٣٤٢ أعطوا الطريق حقها

٣٤٣ حفت الجنة بالمكاره

السجع وتوازن الفواصل

٣٤٤ استحيوا من الله حق الحياء

٣٤٥ أيها الناس افشوا السلام

٣٤٦ أعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة

٣٤٧ أعيذ كما بكلمات الله التامة

٣٤٨ ارجعن مأزورات غير مأجورات

٣٤٩ خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة

٣٥٠ ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم

٣٥١ نحن الناعمات فلا نياس

٣٥٢ المؤمن غر كريم والفاجر خب لثيم

٣٥٣ شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع

٣٥٤ إن الله تعالى كره لكم ثلاثاً : قيل وقال

٣٥٥ ألا أنبئكم بشراركم؟ الذي يأكل وحده

٣٥٦ وما يدريك؟ لعله تكلم بما لا يعنيه

٣٥٧ أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركونهن

٣٥٨ ويل للعرب ، من شر قد اقترب

٣٥٩ بادروا بالأعمال سبعا ، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً

٣٦٠ أحب حبيبك هونا ما

٣٦١ الأرواح جنود مجندة

٣٦٢ إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم

٣٦٣ ما تصدق أحد بصدقة طيب

٣٦٤ ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان

٣٦٥ يقول ابن آدم مالي مالي

٣٦٦ ما كان الرفق في شيء إلا زانه

٣٦٧ اللهم اغفر لي ذنبي كله ، دقه وجله

٣٦٨ يسروا ولا تعسروا

٣٦٩ اللهم أنت عضدي ونصيري

٣٧٠ اللهم إني أسألك خير المولج

٣٧١ اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع

٣٧٢ تعوذوا بالله من جهد البلاء

٣٧٣ اللهم لا تقتلنا بغضبك

٣٧٤ كلمتان خفيفتان على اللسان

٣٧٥ أربع في أمي من أمر الجاهلية

٣٧٦ آيئون تائبون عابدون ساجدون

٣٧٧ العج والثج (أفضل الحج)

٣٧٨ أهل الجنة جرد مرد

- ٣٠١ ألوان من البديع (عند ابن أبي الإصبع)
 ٣٠٢ الاستعارة
 ٤٠٠ ضموا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء
 التجنيس
 ٤٠١ عصية عصت الله ورسوله
 ٤٠٢ الظلم ظلمات
 ٤٠٣ أسلم تسلم
 ٤٠٤ لعله كان يتكلم بما لا يعنيه
 ٤٠٥ الخيل معقود بنواصيها الخير
 الطباق
 ٤٠٦ إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع
 التصدير
 ٤٠٧ أبا مسعود ، الله عليك أقدر منك عليه
 التمام
 ٤١٨ ما من مسلم يصلي لله كل يوم اثنتي عشرة ركعة
 الكناية
 ٤٠٩ لا يضع العصا عن كتفه
 المبالغة
 ٤١٠ كل عمل ابن آدم له إلا الصيام
 صحة التقسيم
 ٤١١ ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت
 الإشارة

- ٣٧٩ إذا ولج الرجل إلى بيته فليقل : اللهم إني أسألك
 ٢٨٩ إذا بعث فكل ، وإذا ابتعت فاكتل
 ٣٨١ أفضل الأعمال الحب في الله
 ٣٨٢ الرحم معلقة بالعرض تقول من وصلني
 ٣٨٣ ما أكرم شاب شيخا لسنه
 ٣٨٤ ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل
 ٣٨٥ من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله تعالى
 تصوير المعنى بجرس اللفظ
 ٢٩١ مالك تزفزين ؟
 ٢٩٢ الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة
 ٣٨٨ لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري
 ٣٨٩ ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ متكبر
 ٢٩٣ هلك المنتظون
 ٣٩٠ إن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني أساؤكم أخلاقا
 ٢٩٤ إن شر الرعاء الحطمة
 ٣٩٣ ولا تحسسوا ولا تجسسوا
 ٣٩٤ كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن
 ٣٩٥ إن رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق
 ٣٩٦ بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه
 ضرب آخر للتوازن الصوتي
 ٢٩٥ جار الدار أحق بدار الجار
 ٢٩٦ ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة
 ٢٩٧ لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر

٤١٢ يا علي اقطع لسانه عني

الإرداف والتتبع

٤١٣ زوجي رفيع العماد

التمثيل

٤١٥ زوجي ليل تهامة

٤١٦ الحلال بين والحرام بين

الاحتراس

٤١٧ المس مس أرنب

المواربة

٤١٨ يا علي اقطع لسانه عني

المغايرة

٤١٩ المسلمون تتكافأ دماؤهم

٤٢٠ لا هامة ولا طيرة ولا صفر

التعليل

٤٢١ لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك

التوشيح

٤٢٢ يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان

التلفيف

٤٢٣ هو الطهور ماؤه الحل ميتته

والمناسبة الناقصة

٤٢٤ أعيدكما بكلمات الله التامة

٤٢٥ أرجعن مأزورات

٤٢٦ إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس

٤٢٧ اللهم إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي

التذليل

٤٢٨ من هم بحسنة ولم يعملها

الانسجام

٤٢٩ إن الله أنزل هذا القرآن آمراً ومذموراً

سلامة الاختراع من الإتياع

٤٣٠ - ٤٣٣ حمي الوطيس - مات حتف أنفه - لا يلدغ المؤمن

السعيد من وعظ بغيره

حسن الإتياع

٤٣٤ نصرت بالرعب وجعل رزقي تحت ظل رمحي

الالتزام

٤٣٥ لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتفى

البسط

٤٣٦ إن الدين النصيحة

التهكم

٤٣٧ بشر مال البخيل بحادث أو وارث

الفرائد

٤٣٨ استذكروا القرآن فإنه أشد تفصيا

السلب والإيجاب

٤٣٩ أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون

٣٠٥

٣٠٦

٣٠٧

٣٠٨

٣١٠

٣١١

٣١٢

٣١٣

- الحديث وكتب مجاز القرآن وإعجازه ٣١٧
الإشارة إلى المجاز في بعض أنواع المجاز
الإيجاز بحذف المضاف
- ٤٤٠ لا تحل الصدقة لمحمد ولا لآل محمد
٤٤١ لا تحل الصدقة لغني
٤٤٢ إن هذين حرام على ذكور أمتي حل لإنائهما
٤٤٣ اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة ٣١٨
٤٤٤ أمرت بقرية تأكل القرى
٤٤٥ الماء من الماء
٤٤٦ وأنهاكم عن الدباء والحتم والمزفت والنقير
٤٤٧ شاهداك أو يمينه ليس لك إلا ذلك
٤٤٨ فإن دماءكم وأموالكم حرام
٤٤٩ من ابتليته بحبيبتيه فصبر فله الجنة
٤٥٠ أين المتحابون بجلالي؟
٤٥١ لأن يلح أحدكم بيمينه في أهله أثم له عند الله
٤٥٢ إياك والحلوب
٤٥٣ لا حسد إلا في اثنتين
٤٥٤ من منع فضل الماء ليمنع به الكلاء
٤٥٥ مرضت فلم تعدني واستطعمتك فلم تطعمني
- التجوز بالمصدر عن المفعول
٤٥٦ إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم
التجوز بحرف الاستفهام عن النفي
٤٥٧ هل أنت إلا إصبع دميت؟

- التجوز بحرف الجر (عن) عن الترك المعنوي
٤٥٨ وتجاوز عما تعلم
التجوز بلفظ الخبر عن الدعاء
٤٥٩ رحم الله أخي لوطا
٤٦٠ يرحمك الله
٤٦١ يهديكم الله ويصلح بالكم ٣٢١
التجوز بلفظ النهي عن أشياء ليست مرادة بالنهي
٤٦٢ لا يبيع الرجل على بيع أخيه
٤٦٣ لا تلقوا الركبان ولا يبيع حاضر لباد
٤٦٤ نهي رسول الله ﷺ أن يخطب الرجل
التجوز بالمراد عن الإرادة
٤٦٥ صلى بي جبريل الظهر حين زالت الشمس
٤٦٦ من أتى منكم الجمعة فليغتسل
٤٦٧ من أسلف فليسلف في كيل معلوم
٤٦٨ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة
٤٦٩ إذا سألت فأسأل الله
- التجوز بلفظ الأسم عن المسمى
٤٧٠ بإسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء
٤٧١ اللهم باسمك أحيا وباسمك أموت
التجوز بلفظ اليمين عن المحلوف عليه
٤٧٢ من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها
التجوز بلفظ القضاء عن المقضى به
٤٧٣ أعوذ بك من سوء القضاء
التجوز بلفظ السبب عن المسبب

٤٧٤ خذوا من العمل ما تطيقون فوالله لا يسأم الله

٤٧٥ الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول : لا إله إلا الله

٤٧٦ هل تدرّون ما الإيمان بالله ؟

التجوز بلفظ المسبب عن السبب

٤٧٧ إن من أكبر الكبائر شتم الرجل والديه

من نسبة الفعل إلى سببه

٤٧٨ كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها

٤٧٩ أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار

٤٨٠ اجتنبوا السبع الموبقات

من نسبة الفعل إلى الأمر به

٤٨١ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها

من مجاز نسبة فعل البعض إلى الجماعة

٤٨٢ بم أنتم يا خزاعة قتلتم هذا القليل من هذيل ؟

من تسمية الشيء بما يؤول إليه

٤٨٣ من قتل قتيلا له عليه بيّنة فله سلبه

ومن الكنايات

٤٨٤ زوجي رفيع العماد طويل النجاد

ومن مجاز التشبيه . . .

٤٨٥ يا بني ما ينصبك منه (أي الدجال)

٤٨٦ أنت ومالك لأبيك

٤٨٧ أليس في الخمس ما يغنيكم عن أوساخ الناس ؟

٤٨٨ دعوها فإنها منتنة

٤٨٩ الولد للفراش

٤٩٠ خلفت فيكم الثقلين : كتاب الله وأهل بيتي

٣٢٧

٤٩١ اللهم اغفر لي ذنبي كله : دقه وجله

٤٩٢ أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟

٤٩٣ جاءكم أهل اليمن . هم ألين قلوبا

٤٩٤ المؤمنون هينون لينون

٤٩٥ المؤمن كالجمل الأنف إن قيد انقاد

٤٩٦ اللهم إني أول من أحيا أمرك بعد إذ أماتوه

٤٩٧ إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعا

٤٩٨ قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن

٤٩٩ إن الله يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع

٥٠٠ حتى يضع رب العزة - أو الجبار أو رب العالمين - قدمه

٥٠١ رأيت ربي في أحسن صورة

٥٠٢ اللهم اغسل خطاياي

٥٠٣ إن الله خلق آدم على صورته

٥٠٤ وأما الثالث فأعرض الله عنه

٥٠٥ فإن الله لا يمل حتى تمّلوا

٥٠٦ تعس وانتكس

٥٠٧ تعس عبد الدينار والدرهم

٥٠٨ من لم تنه صلواته عن الفحشاء والمنكر

٥٠٩ زوجي لحم جمل غث على رأس جبل وعر

٥١٠ إن أذكركه عجره وبجره

٥١١ جاء الموت بما فيه

٥١٢ لا يتصدق أحد بثمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن

٥١٣ يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار

٥١٤ ترفع الأعمال كل ليلة اثنين وخميس

٣٢٨

٣٢٩

٣٣٠

- ٥١٥ دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة
- ٥١٦ يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية
- ٥١٧ لن يتقرب إلى الله بأفضل مما خرج منه وهو القرآن
- ٥١٨ من أدخل في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد
- ٥١٩ ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض
- ٣٣٣ إعجاز القرآن للباقلاني :
- ٥٢٠ أسجاعه كسجاعة الكهان ؟
- ٥٢١ خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه
- ٥٢٢ ربنا تقبل توبتي
- ٥٢٣ غلب عليكم داء الأمم قبلكم
- ٥٢٤ الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة
- ٥٢٥ وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم ؟
- ٥٢٦ إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم
- ٥٢٧ غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود
- ٥٢٨ نصرت بالرعب ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي
- ٥٢٩ إنكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع
- ٥٣٠ أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها
- ٥٣١ الظلم ظلمات يوم القيامة
- ٥٣٢ لا يكون ذو الوجهين وجيها عند الله
- ٥٣٣ (المخرج) بكتاب الله العزيز لا يأتيه الباطل
- ٥٣٤ فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه
- ٥٣٥ أنا أفصح العرب
- ٣٣٧ خروج الكلام عن مقتضى الظاهر
- وضع المضمهر موضع المظهر

- ٥٣٦ ما من نبي بعثه الله تعالى في أمته قبلي إلا كان له من أمته
- ٣٣٩ يا كعب بن عجرة ، إنه لا يربو لحم نبت من سحت
- ٥٣٨ إنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم مائة مرة
- ٣٤٠ وضع المظهر موضع المضمهر
- ٥٣٩ إن الله تعالى خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده
- ٥٤٠ سلوا الله تعالى من فضله فإن الله يحب أن يسأل
- ٣٤١ من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله
- ٥٤٢ نعم والذي نفس محمد بيده إنه لفتح
- ٣٤٣ اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس
- ٥٤٤ من ترون أضل ، هذا أو بعيره ؟
- ٣٤٥
- ٣٤٦ الالتفات
- ٥٤٥ اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت
- ٥٤٦ أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله ، لا إله إلا الله
- ٣٤٧ باسم الله توكلت على الله ، اللهم إنا نعوذ بك من أن نزل
- ٥٤٨ إذا ولج الرجل إلى بيته فليقل : اللهم إني أسألك
- ٥٤٩ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله
- ٣٤٩ أسلوب الحكيم
- ٥٥٠ استأذن أبي النبي ﷺ
- ٥٥١ سئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم عند الله تعالى
- ٣٥١ استعارة الأفعال باعتبار الزمن
- إطلاق زمن الماضي ليشمل الحاضر والمستقبل
- ٥٥٢ من عمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها
- ٥٥٣ من أحيا أرضاً ميتة فهي له وليس لعرق ظالم حق

- ٥٥٤ من أحاط حائطا في موات فهو له
- ٥٥٥ من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن
- ٥٥٦ من أقال مسلما عشرته أقال الله عشرته
- ٥٥٧ أما وامرأة سعاء الخدين كهاتين يوم القيامة
- ٥٥٨ من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين
- ٥٥٩ إن الله لا يقبض العلم انتزاعا
- ٥٦٠ من بايعت فقل : لا خلافة
- ٥٦١ ويل للعرب من شر قد اقترب أفلح من كف يده
- التعبير عن المستقبل بالمشتق
- ٥٦٢ أبشر فأنت عتيق الله من النار
- ٥٦٣ إنكم منصورون ومصيبون ومفتوح عليكم
- ٥٦٤ الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن
- ٥٦٥ سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله
- الطلب بصيغة الماضي
- ٥٦٦ رغم أنفه ! رغم أنفه ! رغم أنفه !
- ٥٦٧ لعن عبد الدينار ! لعن عبد الدرهم
- ٥٦٨ رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى
- ٥٦٩ نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه
- استعارة المضارع خبراً وطلباً
- ٥٧٠ بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك
- ٥٧١ بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً
- ٥٧٢ يقال لصاحب القرآن : اقرأ ، وارق ، ورتل
- ٥٧٣ تجدون شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة ذا الوجهين
- ٥٧٤ يؤق بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق

- ٥٧٥ لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه
- ٥٧٦ يركب الرهن بنفقته
- الاستفهام في البيان الكريم
- التشويق إلى الخبر
- ٥٧٧ ألا تبايعون رسول الله ﷺ ؟
- ٥٧٨ ألا أي شهر تعلمونه أعظم حرمة ؟
- ٥٧٩ إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات
- ٥٨٠ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر
- ٥٨١ أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟
- ٥٨٢ أترى أحداً ؟
- ٥٨٣ يقول ابن آدم : مالي مالي
- ٥٨٤ يجب أحذكم إذا رجع إلى أهله أن يجد ثلاث خلفات
- ٥٨٥ أيكم يجب أن يغدو كل يوم إلى بطحان
- ٥٨٦ هل تدرون ما مثل هذه وهذه ؟ ورمي بحصاتين
- ٥٨٧ هل تدرون مم أضحك
- موضع الحكم من الاستفهام
- ٥٨٨ إن بعث من أخيك تمراً فأصابته جائحة
- ٥٨٩ يقول ابن آدم : مالي مالي
- ٥٩٠ أولا تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار
- ٥٩١ وما يدريك ؟ لعله تكلم بما لا يعنيه
- ٥٩٢ أيكم المتألي على الله أن لا يفعل المعروف ؟
- ٥٩٣ كخ كخ إرم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة ؟
- ٥٩٤ ألا تسمعون ؟ ألا تسمعون ؟ إن البذاذة من الإيمان
- ٥٩٥ أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل

- ٥٩٦ أهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم
اللطيف في الإنكار ٣٧٥
- ٥٩٧ ما بال أقوام يقولون كذا وكذا
٣٧٦
- ٥٩٨ مالي أرى على أحدكم حلية أهل النار؟
- ٥٩٩ يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده
التقرير ترغيباً أو ترهيباً أو سواهما
- ٦٠٠ أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم
٢٧٥
- ٦٠١ أتعطين زكاة هذا؟ ٣٧٧
- ٦٠٢ إجمعوا لي من ههنا من اليهود
٢٨٥
- ٦٠٣ يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله تعالى له: ألم أجعل لك سمعاً
٢٨٥
- ٦٠٤ يدنو المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه ٣٧٨
- ٦٠٥ أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم نائر الرأس كأنه شيطان؟ ٢٨٥
- ٦٠٦ هل لكم من أنماط
٢٨٥
- ٦٠٧ كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى
٣٧٩
- ٦٠٨ يا أبا ذر... كيف أنت إذا أصاب الناس موت
٢٨٥
- تحديد المفاهيم ٣٨٠
- ٦٠٩ أتدرون ما الغيبة؟
- ٦١٠ ما تعدون الشهيد فيكم؟
- ٦١١ ما تعدون الصرعة فيكم؟
- ٦١٢ ما رأيك في هذا؟
- التلطف والإيناس ٣٨١
- ٦١٣ كيف تجردك؟
- ٦١٤ مالك تزفرين؟ ٣٨٢
- ٦١٥ كيف أصبحت يا زيد؟ ٢٨٥

الاستبعاد

- ٦١٦ كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن
٣٨٣
- ٦١٧ نور أني أراه؟
- ٦١٨ يا أيها الناس إن الله تعالى طيب يقبل إلا طيباً
٣٨٥
- المقدم في الحديث ٦١٩
- ٦١٩ أنا محمد النبي الأمي
- بدء الحديث باللفظ الدال على العجب
- ٦٢٠ عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير
- ٦٢١ عجب وبننا لقوم يقادون إلى الجنة في السلاسل
- ٦٢٢ لقد عجب الله من صنعكم البارحة ٣٨٦
- ٦٢٣ يعجب ربك من راعي غنم في رأس شظية
- ٦٢٤ سبحان الله! ماذا أنزل الليلة
- ٦٢٥ سبحان الله! أين الليل إذا جاء النهار؟ ٣٨٧
- تقديم الخبر العجيب
- ٦٢٦ تكون إبلى للشياطين وبيوت للشياطين
- ٦٢٧ إن من أكبر الكبائر أن يشتم الرجل والديه ٣٨٨
- ٦٢٨ إن الله تعالى يغار
- ٦٢٩ لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه
- تقديم الوعيد الشديد بالعقاب
- ٦٣٠ ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك منه القوم (٣٨٩)
- ٦٣١ لا يدخل الجنة سيء الملكة ٢٥٢
- ٦٣٢ هم الأخسرون ورب الكعبة ٢٥٢
- ٦٣٣ لا يدخل الجنة من لا يأمن من جاره بوائقه ٣٥٦
- ٦٣٤ تجردون من شر الناس عند الله تعالى ٥٥٢

من الترغيب بالوعد

٦٣٥ طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا ووقع

٦٣٦ نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه

٦٣٧ ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة

٦٣٨ إن من أحبكم إلي وأقربكم مني منازل

تقديم لافتة قصيرة تعجل بالحكم

٦٣٩ لا يحل لمسلم أن يروع مسلما

٦٤٠ ليس منا من لم يرحم صغيرنا

٦٤١ لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين

٦٤٢ رفع القلم عن ثلاثة

٦٤٣ رحم الله ابن أبي رواحة

٦٤٤ رفع عن أمي الخطأ

٦٤٥ رحم الله امرأ صلى قبل العصر أربعاً

٦٤٦ رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى

٦٤٧ رحم الله عبداً سمحا

٣٩١ تقديم لفظ غريب المفهوم

٦٤٨ تعوذوا بالله من جب الحزن

٦٤٩ الحال المرتحل

٦٥٠ لا يكن أحدكم إمعة

٣٩٢ التجديف (شر العمل)

٦٥٢ سبق المفردون

٦٥٣ إذا أراد الله بعبد خيراً عسله

٣٥٤ إياكم وخضراء الدمن

٦٥٥ لا تجعلوا بيوتكم مقابر

٦٥٦ دب إليكم داء الأمم قبلكم

تقديم لفظ الذم أو المدح المفاجيء

٦٥٧ بئس الخطيب أنت

٦٥٨ بئسما لأحدكم أن يقول : نسيت آية كذا

٦٥٩ نعم الإدام الخل

تقديم ألفاظ العدد (في التثنية)

على التشبيه

٦٦٠ ماذئبان جائعان أرسلنا في غنم

دون تشبيه

٦٦١ خصلتان أو خلتان لا يحصيها رجل إلا دخل الجنة

٦٦٢ كلمتان خفيفتان على اللسان

٦٦٣ منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال

٦٦٤ ساعتان تفتح فيهما أبواب السماء

٦٦٥ تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما

٦٦٦ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ

٦٦٧ إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله

٦٦٨ ثنتان لا تردان : الدعاء عند النداء

٦٦٩ اثنتان يكرههما ابن آدم

٦٧٠ اثنان يعجلهما الله في الدنيا

٦٧١ ثنتان موجبتان

لفظ الثلاث

٦٧٢ ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان

٦٧٣ ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان

٦٧٤ ثلاثة من أصل الإيمان

٦٧٥ ثلاثة لا يكلمهم الله

الأربع

٦٧٦ أربع من سنن المرسلين

٦٧٧ أربع في أمي من أمر الجاهلية

٦٧٨ أربع من كن فيه كان منافقا

٦٧٩ لا يؤمن عبد حي يؤمن بأربع

ومن الأمثلة إجمالاً للتشويق بالعدد

٦٨٠ من يأخذ هذه الكلمات فيعمل بهن

٦٨١ وأهل النار خمسة

٦٨٢ ستة لعنتهم - لعنهم الله وكل نبي مجاب - الزائد في كتاب الله

٦٨٣ سبعة يظلمهم الله

٦٨٤ هن (أي الكبائر) تسع : الشرك والسحر

٦٨٥ من ثابر على ثنتي عشرة ركعة

٦٨٦ أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز

مفهوم العدد

٦٨٧ خمس يقتلهن المحرم في الحل والحرم

٦٨٨ أحلت لي ميتتان ودمان

٦٨٩ إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا

التوشيع

٦٩٠ يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان

٦٩١ لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع

٦٩٢ ثلاثة من أصل الإيمان

٦٩٣ كلمتان خفيفتان

تقديم صيغة التفضيل

٦٩٤ أحب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة

٦٩٥ أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم

٦٩٦ أحب الصيام إلى الله صيام داود

٦٩٧ أدنى أهل النار عذابا يتتعل بنعلين

٦٩٨ أشد الناس بلاء الأنبياء

٧٩٩ أشكر الناس لله أشكرهم للناس

٧٠٠ أطول الناس أعناقاً يوم القيامة المؤذنون

٧٠١ أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم إليها مشى

٧٠٢ خير البقاع المساجد

٧٠٣ خير الشهادة ما شهد به صاحبها قبل أن يسألها

٧٠٤ خير الناس من طال عمره وحسن عمله

٧٠٥ خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه

٧٠٦ رأس هذا الأمر الإسلام

تقديم صيغة التحذير أو الإغراء

٧٠٧ إياكم والجلوس في الطرقات

٧٠٨ إياكم والظن

٧٠٩ إياكم والقسامة

٧١٠ إياكم ومحقرات الذنوب

٧١١ عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر

٧١٢ عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل

٧١٣ عليك بكثرة السجود

٧١٤ عليكم من الأعمال بما تطيقون

٣٩٩

٤٠٠

٤٠١

٤٠٤

٤٠٥

٤٠٦

٤٠٧

٤٠٨

- البدء بتقسيم الجنس ٧١٥
 ذنب يغفر وذنب لا يغفر ٧١٥
 دينار أنفقه في سبيل الله ودينار أنفقه في رقة ٧١٦
 البدء بجمل موجزة يشرحها ٧١٧
 الأرواح جنود مجندة ٧١٧
 المسلم أخو المسلم ٧١٨
 البدء بالشرط ٧١٩
 من نفس عن مؤمن كربة ٧٢٠
 من ذب عن عرض أخيه ٧٢٠
 ما أكرم شاب شيخا ٧٢١
 ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان ٧٢٢
 ما من رجل يعود مريضا ٧٢٣
 استعمال الصفات ٧٢٤
 بادورا بالأعمال سبعا ٧٢٤
 الوصف بالجملة ٧٢٥
 لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا ٧٢٥
 نضر الله امرأ سمع منا شيئا ٧٢٦
 الوصف بشبه الجملة ٧٢٧
 بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ٧٢٧
 الوصف بالمضارعة ٧٢٨
 المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه ٧٢٨
 لا يحل لامرأة تؤمن بالله ٧٢٩
 دخلت امرأة النار في هرة ربطتها ٧٣٠
 ان امرأة بغيا رأت كلبا ٧٣١

- ٧٣٢ تعرض الفتن على القلوب ٤٢٠
 ٧٣٣ أنا وامرأة سعفاء الخدين ٤٢١
 ٧٣٤ ما من صاحب إبل ولا غنم ٤٢٢
 وصف المعرفة ٤٢٣
 المعرف باللام ٤٢٤
 ٧٣٥ التاجر الأمين الصدوق
 ٧٣٦ إن الخازن المسلم الأمين
 ٧٣٧ على المرء المسلم السمع والطاعة
 ٧٣٨ من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة
 الوصف بالموصول ٤٢٥
 ٧٣٩ مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن
 ٧٤٠ إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً
 ٧٤١ مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي
 ٧٤٢ من قرأ بالآيتين اللتين من آخر سورة البقرة
 ٧٤٣ لا تجعلوا بيوتكم مقابر
 الوصف باسم الإشارة ٤٢٨
 ٧٤٤ من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه
 ٧٤٥ صلاة في مسجدي هذا
 ٧٤٦ تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى
 ٧٤٧ أعوذ بوجه الله الكريم
 ٧٤٨ اللهم لك ركعت
 ٧٤٩ اللهم لك سجدت
 ٧٥٠ أعينك يا كعب بن عجرة
 ٧٥١ أسلم الناس وأمن عمرو بن العاص ٤٢٦

٧٥٢ خير نسائها مريم بنت عمران

٧٥٣ كم من أشعث أغبر ذي طمرين

٧٥٤ اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ رضي الله عنه

٧٥٥ لكل أمة أمين وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة

٧٥٦ من ملك زاداً وراحلة تبليغه

٧٥٧ قل : أعوذ بكلمات الله التامة

٧٥٨ من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات

وجازة المنطق النبوي

٧٥٩ هذه البلاغة

٧٦٠ أوتيت جوامع الكلم

رأي الرافعي

٧٦١ إنما الأعمال بالنيات (إعجاز القرآن للرافعي)

٧٦٢ الدين النصيحة

٧٦٣ الحلال بين والحرام بين

٧٦٤ المضعف أمير الركب

٧٦٥ أن تعبد الله كأنك تراه

٧٦٦ لا تحزن يمينك على شمالك

٧٦٧ خير المال عين ساهرة لعين نائمة

٧٦٨ آفة العلم النسيان

٧٦٩ المرء مع من أحب

٧٧٠ الصبر عند الصدمة الأولى

٧٧١ أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك

٧٧٢ إياكم وخضراء الدمن (من الصناعتين لأبي هلال)

٧٧٣ حبك الشيء يعمي ويصم

٧٧٤ إن من البيان لسحرا

٧٧٥ إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم

٧٧٦ الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس

٧٧٧ نية المرء خير من عمله

٧٧٨ ترك الشر صدقة

٧٧٩ إذا أعطاك الله خيراً فليبن عليك

٧٨٠ كما تكونوا يولّ عليكم (عبقرية محمد للعقاد)

عمدة القاري

٧٨١ فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه

٧٨٢ ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان

٧٨٣ الحلال بين

٧٨٤ من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه

٧٨٥ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه

٧٨٦ نية المؤمن خير من عمله (فتح الباري)

٧٨٧ من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد

٧٨٨ الحلال بين

نظرة تطبيقية إيجاز القصر

٧٨٩ اللهم إني أحمدك على العرق الساكن والليل النائم

٧٩٠ أعوذ بالله من شر عرق نعار

٧٩١ إني لأرجو أن تموت جميعاً

٧٩٢ ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل

٧٩٣ حجوا قبل ألا تحجوا

٧٩٤ اغتربوا لا تضوا

القصة في البيان النبوي

كتب أعانت على البحث
عدا ما اكتفي بإشارة الهامش إليه

الإتقان	للسيوطي	الحلبي ١٣٧٠ هـ
أساس التقديس	الفخر الرازي	الحلبي ١٣٥٤ هـ
أساس البلاغة	الزمخشري	دار الشعب ١٩٦٠ م
الإسلام عقيدة وشريعة	محمود شلتوت	الأزهر ١٩٥٩ م
الإشارة	العز بن عبد السلام	العامرة ١٣١٣ هـ
إصلاح أخطاء المحدثين	أبو سليمان البستي	نشر عزت العطار ١٣٥٥ هـ
إعجاز القرآن	الباقلاني	المعارف الطبعة الأولى
إعجاز القرآن	الرافعي	الطبعة الثالثة
الأعلام	الزركلي	العربية ١٣٤٥ هـ
أمالي المرتضى	الشريف المرتضى	الحلبي ١٣٧٣ هـ
بديع القرآن	ابن أبي الإصبع	نهضة مصر ١٣٧٧ هـ
البلاغة العالية	عبد المتعال الصعيدي	السلفية ١٣٥٥ هـ
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي	مصر ١٩٣١ م
تذكرة الحفاظ	شمس الدين الذهبي	الهند ١٣٣٣ هـ
تحرير التحبير	ابن أبي الإصبع	المجلس الأعلى ١٣٨٣ هـ
تفسير أبي السعود	أبو السعود العمادي	صبيح ١٣٧٢ هـ
تفسير النسفي	أبو البركات أحمد بن محمود	الحسينية ١٣٤٤ هـ
التقريب	الخطيب البغدادي	محمود توفيق
تقييد العلم	الخطيب البغدادي	دمشق ١٩٤٩ م
تلخيص المفتاح	الخطيب القزويني	مقدمة البرقوقي الطبعة الأولى

٧٩٥ كان فيمن قبلكم ملك وكان له ساحر

٧٩٦ لم يتكلم في المهدي إلا ثلاثة : عيسى بن مريم

٧٩٧ كان فيمن كان قبلكم رجل يسمى الكفل

٧٩٨ أن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى

٧٩٩ ذكر رسول الله ﷺ رجلا من بني إسرائيل

هذا دليل الأحاديث مع تكرار بعضها بحسب

حاجة الموضوع والله الموفق والهادي لخير السبيل

القاموس المحيط	الفيروزابادي	الحسينية ١٣٣٢ هـ
الكفاية في علم الرواية	الخطيب البغدادي	الهند ١٣٥٧ هـ
الكشاف	الزنجشري	التجارية ١٣٥٤ هـ
لسان العرب	ابن منظور	سلسلة تراثنا
المثل السائر	ابن الأثير	حجازي ١٣٥٤ هـ
المجازات النبوية	الشريف الرضي	الخليبي ١٣٥٦ هـ
المجموعة النجدية	(لم يذكر)	المنار ١٣٤٢ هـ
المزهر	السيوطي	الخليبي - الطبعة الثانية
المسامرة شرح المسامرة	الكمال بن أبي شريف	السعادة ١٣٤٧ هـ
المستقصى	الزنجشري	الهند
مشكل الحديث	ابن فورك	الهند
الموافقات	الشاطبي	السلفية ١٣٤١ هـ
نزهة الألبا	ابن الأنباري	طبعة ١٢٩٤ هـ
نهاية الأرب	النويري	دار الكتب ١٣٤٤ هـ
الورقات بحاشية الدمياطي	الجلال المحلى	الخليبي ١٣٣٢ هـ

تيسير الوصول	ابن الربيع الزبيدي	الخليبي ١٣٥٣ هـ
الجامع الصغير	السيوطي	الخيرية ١٣٢١ هـ
الجامع لأخلاق الرواي وآداب السامع - الخطيب البغدادي خاصة مخطوطة		
جامع العلوم والحكم	ابن رجب الحنبلي	الأهرام التجارية ١٩٧٠ م
جامع المعقول والمنقول	عبد ربه سليمان	المعاهد ١٣٤٨ هـ
جواهر الأدب	الإربلي	طبعة ١٢٩٤ هـ
الجواهر اللؤلؤية	محمد الجرداني الدمياطي	المليجية ١٣٢٧ هـ
خزانة الأدب	ابن حجة الحموي	العامرة ١٢٩١ هـ
دلائل الإعجاز	عبد القاهر الجرجاني	المنار ١٣٣١ هـ
الذخيرة	القرافي	كلية الشريعة ١٣٨١ هـ
سر الفصاحة	ابن سنان	الخانجي ١٣٥٠ هـ
شرح الأسنوي على المنهاج	جمال الدين الأسنوي	بولاق ١٣٠٦ هـ
شرح المفصل	ابن يعيش	المنيرية
شروح التلخيص	ابن يعقوب والسبكي وغيرهما	السعادة ١٣٤٣ هـ
صحيح البخاري	الإمام البخاري	صحيح
الصناعتين	أبو هلال العسكري	صحيح - الطبعة الثانية
ضوء القمر على نخبة الفكر	محمد علي أحمدين	دار المعارف ١٣١٨ هـ
الطراز	العلوي	المقتطف ١٣٣٢ هـ
عبقرية محمد	العقاد	دار الكتاب العربي ١٩٦٩ م
العضد على منتهى ابن الحاجب عضد الملة والدين	حسن حلمي	١٣١٧ هـ
العطار على الجلال المحلى على جمع الجوامع	حسن العطار	العلمية ١٣١٨ هـ
عمدة القاري	البدر العيني	
الفائق	الزنجشري	النظامية بالهند
فتح الباري	ابن حجر	الخليبي ١٣٧٨ هـ
فجر الإسلام	أحمد أمين	النهضة ١٩٥٩ م